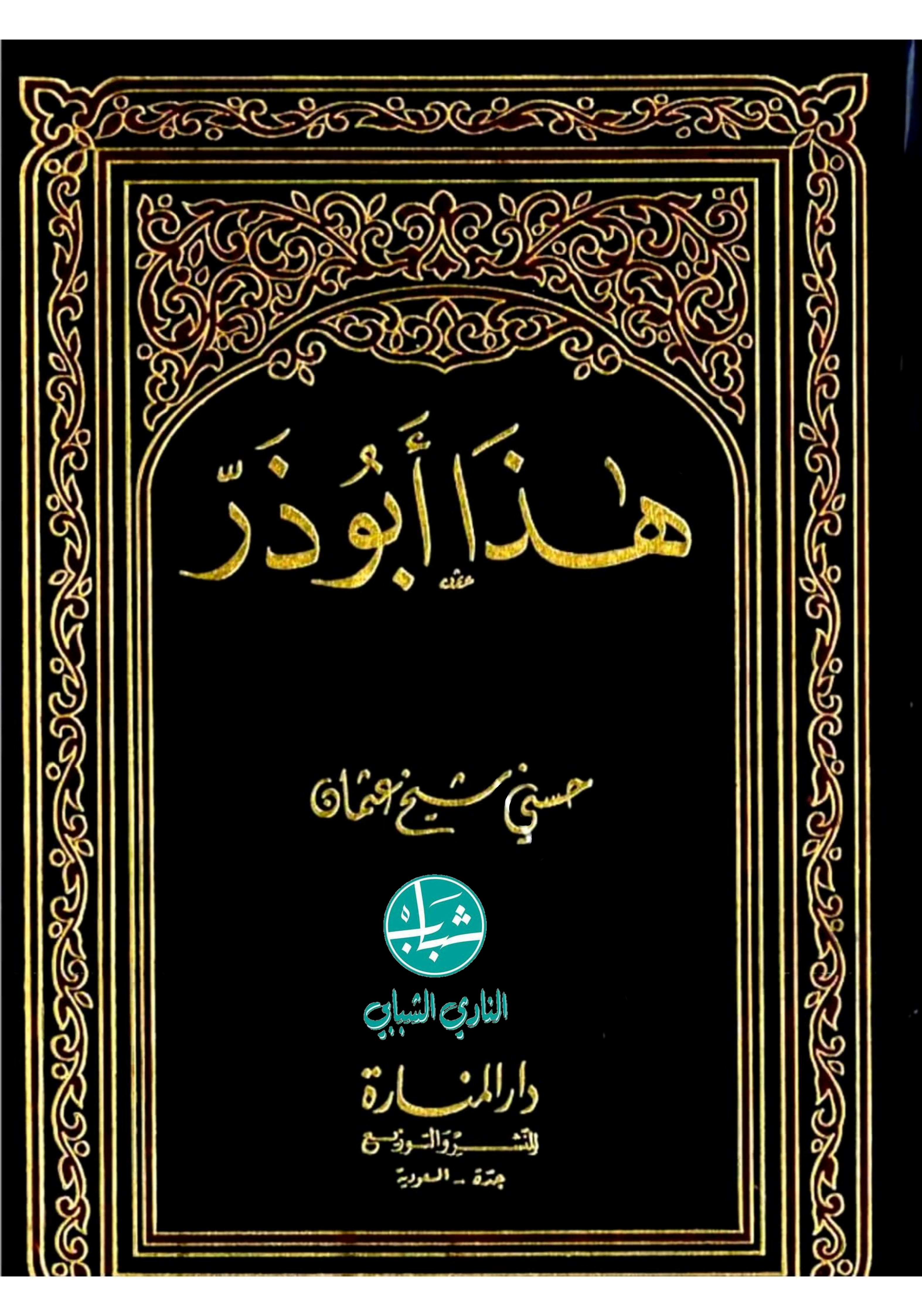

هذا أبو ذر
حسني شيخ عثمان
النادي الشبابي
دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

هَـذَا أَبُوذَرّ


شباب
النادي الشبابي

حسني شيخ عثمان

هذا أبو ذر

تاريخ الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمع الإسلامي
منذ عهد الرسول ﷺ إلى عهد عثمان
من خلال حياة أبي ذر
رضي الله عنه

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م



دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

هاتف: ٦٦٠٣٢٣٨ - ٦٦٠٣٦٥٢ - تلكس: ٦٠٣٠٦٧ -
ص.ب: ٢١٤٣١/١٢٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله عز وجل:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (سورة الفتح: ٢٩).



رسالة مفتوحة

سيدي أبا ذر،

قال الله عز وجل: ﴿ وقُل الحَقُّ مِن ربِّكُمْ فَمَنْ شاء فَلْيُؤْمِنْ، ومَن شاءَ فَلْيَكفُرْ إنَّا أعْتَدْنا للظَّالمينَ ناراً أحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها... ﴾ (سورة الكهف: ٢٩).

يا سيدي،

أتقدم بهذا العمل لله مخلصاً له الدين، آملاً أن تُزال به غشاوات عن أعين مسلمين، ومجاهداً ـ في سبيل الله عز وجل ـ إشاعات المزوِّرين المفترين، راجياً المثوبة من الله لي ولمن ساهم أو نظر فيه بإحسانٍ من القارئين.

شهودنا

(إذا رأيتَ الرجلَ ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فاعلم أنه زنديق، ذلك أن رسولَ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حق، والقرآنَ حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كلَّه الصحابة. وهؤلاء يريدون أن يَجْرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنّة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة)[1].

(١) قال هذا الكلام الإمام العَلَم أبو زرعة الرازي. وعدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن. فمن ذلك قوله تعالى مخاطباً إياهم: ﴿ كنتم خيرَ أمة أخرجتْ للناس تأمرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (سورة آل عمران: ١١٠)، وقوله سبحانه: ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾ (سورة البقرة: ١٤٣)، وقوله تعالى: ﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ رضيٍ الله عنهم ورضوا عنه ﴾ (سورة التوبة: ١٠٠)، وقوله تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسولَه أولئك هم الصادقون. والذين تبوءوا الدارَ والإيمانَ من قبلهم يُحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا ويُؤْثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (سورة الحشر: ٨ ـ ٩)، وقال عزّ مِنْ قائل: ﴿ لقد رضيَ الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ (سورة الفتح: ١٨). وكذلك قال تبارك وتعالى: ﴿ محمد رسولُ الله والذين معه أشدّاءُ على الكفار رحماءُ بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلُهم في التوراة ومثلُهم في الإنجيل كزرعٍ أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه يُعجب الزرّاع ليغيظَ بهم الكفّار ﴾ (سورة الفتح: ٢٩).
=

الطاعنون

(إننا نريد الطعن على الناقلة، فإذا بطلت الناقلة أوشك أن نبطل المنقول)[1].

= وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع على تعديلهم ونزاهتهم فلا يحتاج أحد منهم ـ مع تعديل الله لهم المطّلع على بواطنهم ـ إلى تعديل أحد من الخلق لهم. وقد صدّق حالهم ـ رضي الله عنهم ـ قول الله عز وجل فيهم لما قاموا به من هجرة في سبيل الله وجهاد ونصرة وبذلِ مهجٍ وأموال وقتل آباء وأولاد ومناصحةٍ في الدين وقوةٍ في إيمان ويقين. وكل هذه الأدلة أدت بذوي الإيمان من أهل السنة والجماعة إلى القطع بعدالتهم والاعتقاد بنزاهتهم وأنهم أفضل من جميع المعدّلين والمزكّين الذين يجيئون بعدهم. ولا يؤدي هذا القطع وهذا الاعتقاد إلى ثبوت العصمة واستحالة المعصية عليهم، فقد يقع من بعضهم من الذنوب ما لا يقدح بتعديل الله سبحانه لهم.

(١) لم يَنِ زعماء الأمة الإسلامية وقادتها وعلماؤها من الغيورين على دينهم يلاحقون أعداء الدين من هؤلاء الباطنيين. فعندما قبض أميرُ المؤمنين هرون الرشيد على الباطني الخبيث رأس الزنادقة شاكر وجيء به لتُضرب عنقه بين يديه قال: أخبِرْني لم تعلّمون المتعلّمَ معكم أوّلَ ما تعلمونه الرفض والقدر؟ : (أما قولنا بالرفض فإننا نريد الطعن على الناقلة، فإذا بطلت الناقلة أوشك أن نبطل المنقول...) عن تاريخ بغداد لأبي بكر بن علي الخطيب البغدادي، ج ٤، ص ٣٠٨، (دار الكتاب العربي، بيروت).

مُقَدِّمَةُ الكِتَاب

الحمد لله رب العالمين الذي تفضل على البشرية بإرسال خاتم النبيين، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحابته الذين نهجوا نهجه وسلكوا طريقه واستقاموا على مَحَجَّته البيضاء فكانوا نُسَخاً قرآنية تمشي على الأرض، أناروا للبشرية الصراط ونقلوا للشعوب هذا الدين القويم وشرحوه بأعمالهم وأخلاقهم مهديّين إلى الصراط المستقيم، فكانوا كما وصفهم ربهم ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

لقد أقام الله سبحانه بهؤلاء الصحابة الكرام حجّةً على البشرية وبرهاناً أمام ناظِرَيْها أنّ بمقدور البشر أن يَسْمُوا بذواتهم ليكونوا ربّانيين ويُقيموا دولة يحكم الإسلام أفرادها وجماعتها عقيدةً وشريعةً ونظاماً. فها هم الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ قد قاموا بهذا الدين وكانوا أهلَه وحماتَه وحملَتَه وناقليه وجندَه فأنزل الله عليهم نصره، وغيّر بهم ـ سبحانه ـ خريطة الأرض ووجه العالم خلال ربع قرن من الزمان، فبمجموعةٍ من أمةٍ لا تكاد تُذكر بين أمم الأرض، وفي بقعةٍ لا تكاد تُعرف، انطلق هؤلاء الكرام من الصحابة يدعون شعوب الأرض للإسلام، ويقاتلون أعداء الله ـ في سبيل إعلاء كلمة الله وحماية نشر الدعوة ـ صفاً كأنهم بنيان مرصوص ففتح الله بهم قلوباً وشعوباً وبلاداً لا تدانيها قلوب أو شعوب أو بلاد.

لقد كلف الله هؤلاء الصحابة - كما قد كلف مَن بعدهم من الأجيال - بحمل هذه الأمانة وتسلّم هذه الرسالة والانطلاق بها في الأرض على بركة الله، و ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٦) فتكفّلت أنفس الصحابة الكرام بحمل الرسالة وجميع تبعاتها بملء وسعها فكانت شهادة التاريخ لها بما فعل الله بها ولها.

قشعت جحافل الرومان عن أرض العرب وبلاد الشام بعد معارك قادها حِبُّ رسول الله أسامة وسيف الله خالد وأمين الأمة أبو عبيدة، ووقف هرقل على مشارف سورية يودعها وداعاً لا لقاء بعده.

ومُزِّق ملك كسرى كل مُمَزَّق ليصلّي سعد في المدائن مرتِّلاً كلام الله ترتيلاً: ﴿ كَمْ تَركوا من جنّاتٍ وعُيون. وزُروع ومَقام كريم. ونَعْمةٍ كانوا فيها فاكهين. كذلك وأوْرَثْناها قَوماً آخرين ﴾ (الدخان: ٢٥ - ٢٨).

وأجليت يهود عن الجزيرة العربية بعد أن نقضت يهود مواثيقها وعهودها، وبعد قيامها ببثّ أسلوب النفاق وتدريسها مادته، وتدريب منافقي المدينة عليه، فأجلاهم جند الله من الصحابة بعد معارك ﴿ يُخْرِبونَ بُيوتَهم بأَيْديهمْ وأَيْدي المؤمنين فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأبصار ﴾ (سورة الحشر: ٢).

جرى كل هذا في قليل من السنين جعل أولي الأبصار يعتبرون، وأدهش البشرية ومحلِّلي حوادث التاريخ، ووقف أعداء هذه الأمة الربانية من الموتورين والحاقدين يتساءلون عن هذا النبأ العظيم، وانثنى عُلوج الوثنية وأحبار يهود ودهاقنة النصارى ومجوس الفرس يأتمرون في أمر هذا الدين وأمر هذه الأمة التي بيّن لها ربُّها عزّ وجلّ سنته التي لا تتخلف ﴿وإنَّ جُنْدَنا لهمُ الغالبون ﴾ (سورة الصافات: ١٧٣)، والتي خاطب ربها سبحانه وتعالى جنده فيها قائلاً لهم: ﴿ وأنْتُمْ الأعلَوْنَ إن كُنتم مؤمنين ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٩).

هذه الأمة التي أقامت دولة الإسلام معلنة معركة «تحرير الإنسان» في «الأرض»، ونشط جندها الذين ابتعثهم ربّهم جلّ وعلا رحمةً للبشرية، نشطوا

لإخراج الناس من عبادة العبيد إلى عبادة الله رب العالمين. ووصل المؤتمرون من علوج الوثنية وأحبار يهود ودهاقنة النصارى ومجوس الفرس إلى أصلين ونتيجة:

□ **الأصل الأول: أن هذه الأمة لا تُغلب في حرب مهما تفاوتت ـ في التكافؤ ـ الأعداد والعُدَد بينها وبين أعدائها، فلا مجال لعدو ـ مهما اغترّ بقوته ـ أن يصادمها في حرب مباشرة في رابعة النهار.**

□ **والأصل الثاني: أن هذه الأمة قد استمدت قوتها من هذا الدين الذي آمنت به وائتمرت بأمره، فنصرها الله به في كل المواطن، مع أنها قبله لم تكن شيئاً مذكوراً.**

□ **والنتيجة التي استقروا عليها هي ضرورة القيام بالحرب السوداء والخطة النكراء التي تتلخص في توهين هذا الدين في نفوس حاملي لوائه، وتشويهه وتغييره ـ إن استطاعوا ـ في قلوب الأمة ليتمكنوا ـ من ثَمّ ـ من الانتقام لدُوَلهم وممالكهم الممزّقة والمهزومة وإرواء غليل حقدهم وغيظ قلوبهم.** فتتابعت الحرب الباطنية في فصول متدرِّجة في الكيد والتأثير: من سطحيةٍ، ضحلةِ التفكير، قريبةِ الغَوْر، إلى عميقةِ سراديبِ الظلام، منها ما ابتدعها الباطنيُّون ابتداعاً، ومنها ما استغل الباطنيون قيامها وصبغوها ـ من ثم ـ بصبغتهم.

اشتعلت الحرب السوداء بين هؤلاء الباطنيين وأتباع هذا الدين بادئة بتمهيد، ومتلاحقة بعده في فصول.

ابتدأ التمهيد لهذه الحرب أيام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بفشو النفاق بين عدد من تلاميذ يهود في المدينة، يرسمون لهم الخطط ويعلمونهم كيف تهاجَم الدولة بالإشاعات.

١ ـ وإثر وفاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أعلن عديد من العرب الردة متمرِّدين على النظام الإسلامي وعقيدته بادئين الفصل من فصول المؤامرة لاجتثاث هذا الدين من الأرض. فأعلنها الصدّيق عليهم حرباً شجاعة

طاحنة سحقت المرتدين وأعادت من اختلت موازينه الفكرية إلى رجاحة العقل وحظيرة الإسلام، وجاءت حروب الردة دليلاً واقعياً جديداً لأعداء الإسلام أن هذا الدين لا يجابه بحرب مباشرة.

٢ - وابتدأ الباطنيون نشاطهم - من ثم - باغتيال أمير المؤمنين عمر - وهي مرحلة وسط بين الحرب المباشرة والحرب الماكرة الباطنية - قتلته بخنجر صنعته فارس وسمّمته يهود وصقلت نصله النصارى ونفذت العملية يد أبي لؤلؤة الصَّنَع المجوسي الذي صنع لعمر رحى هواء تحدثت بها الركبان كما توعّده قبل الاغتيال بأيام[١].

ولقد تبين للسبئية[٢] بوضوح وجلاء إثر مضيّ عمر أن الإسلام باقٍ مستمر بوجود عمر وبفقدان المسلمين لعمر رضي الله عن عمر، فما عمر إلا خليفة لخليفة رسول الله ﷺ، الذي خاطب الله عز وجل الأمة بشأنه قائلاً سبحانه: ﴿ وما محمد إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلبْ على عَقِبَيْه فلن يضرَّ اللهَ شيئاً وسيجزي اللهُ الشاكرين ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٤).

تبين بجلاء أن هؤلاء الرِّبّيّون من رجال الأمة الذين قاتلوا مع النبي مضوا بهذا الإسلام بعد وفاته وما ضعفوا وما استكانوا فكيف إذا اغتيل خليفة خليفة رسول الله!.

٣ - وتطورت المؤامرة السوداء في فصلها الثالث من الفتنة إلى ظهور الزعيم القائد المدبر الذي فكّر وقدّر فقُتل كيف قدّر! عبد الله بن سبأ الذي ظهر على خشبة مسرح التاريخ مدّعياً الإسلام في عهد عثمان رضي الله عنه،

---

(١) يروي شاه عبد العزيز الدهلوي أن الإمامية يجعلون اليوم الذي قُتل فيه أبو لؤلؤة المجوسي (ويسمّونه بابا شجاع الدين) عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أيام أعيادهم، ويسمونه العيد الأكبر، ويوم المفاخرة، ويوم التبجيل. عن هامش كتاب تقي الدين بن تيمية الحراني، منهاج السنة (مكتبة خياط، شارع بلس، بيروت، لبنان) ص ٥٨.

(٢) السبئية أو الباطنية مصطلح لفئة مجرمة حاولت اجتثاث الإسلام من أصوله.. ولا تزال.. انظر تفصيلاً في الباب السادس من هذا الكتاب.

وأسس حزباً سرياً باطنياً من مواطني الدولة الإسلامية - التي ترامت أطرافها شرقاً وغرباً - يضم أنواعاً من الأعضاء على درجات تختلف في شدة عدائها للإسلام أو تعاليمه أو قِيَمه أو أشخاص حَمَلَته وقادته، ويضم أيضاً طائفة من الغوغاء والسفهاء الذين لا همّ لهم في حياتهم الدنيا إلا تنفيذ ما يشير عليهم به زعماء الفتنة، ولقد استخدم الحزب السبئي مختلف الأساليب في محاولة خلخلة الفكرة الإسلامية في قلوب العامة، وتوهين عرى وحدة الأمة وقوة الحكم الصالح الذي امتد نفوذه إلى ما وراء السند والهند والنيل والصحراء، وأنشأ مجتمعاً إسلامياً دخلته - وبسرعة خاطفة - شعوب جديدة عظيمة العدد تحتاج إلى عدد هائل من العلماء الربّانيين الذين يقع على عاتقهم تأكيد مفاهيم هذا الدين في نفوس أفراد هذه الأمة وتربيتها عليها.

ومع أن الصحابة الكرام - رضي الله عنهم أجمعين - حملوا رسالةَ نبيهم وبلّغوا الأمانة وما قصّروا في التبليغ، إلا أن السبئية في المقابل لم يتوانَوْا في الدس والخداع والفتنة وانقسمت الرعية في الدولة الإسلامية إلى فريقين:

□ الصحابة وتلاميذهم الذين اتبعوهم بإحسان يسودون في الحواضر الإسلامية وفي الأوساط العلمية الثقافية لهذه الأمة يتفقهون، ويفقهون الناس، يعلّمونهم أمور دينهم ويجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

□ والسبئية ومن تبعهم بسوء في أطراف الدولة الإسلامية يتسللون إلى الأمكنة التي يقل فيها أثر الصحابة وتلاميذهم من العلماء الأعلام المخلصين فيخبت النور وتخيّم الظلمات.

وتتطاول معركة كرّ وفرّ بين الحق والباطل أجاد السبئية فيها دورهم في التستّر والسرية والباطنية، وبرعوا في هذا الأسلوب، واستطاعوا تهويش عقول السفهاء وكثير من العامة، وأثاروهم بطرق شتى من الكذب والتشهير بسمعة الأبطال والتزوير لشخصياتهم التاريخية، فكانت الفتنة التي انتهت في الفصل الثالث بقتل أمير المؤمنين الخليفة الراشد عثمان ذي النورَيْن رضي الله عنه وأرضاه.

٤ ـ واستمرت السبئية في متابعة فصول المؤامرة وشجَّعها ما لاقت من نجاح ومن سَيْر عدد لا يُستهان به من الدهماء معها في أطراف البلاد وفي طولها وعرضها ممن خبا نور العلم في أوساطهم، ومن الموتورين والحاقدين على الإسلام أو بعض قادة المسلمين فاتخذت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ـ وفي عهده ـ أسلوب الكذب، واتخذت أسلوب التزوير، حتى جاءت الفتنة على عهد علي رضي الله عنه، ثم استقرت بعد استلام الأمويين ثم العباسيين على سياسة لم تزل تتبعها حتى اليوم تتلخص في محاولة التسلط على وسائل الإعلام الشعبية في كل عصر، فتشيع عن طريقها ما تشاء من قصص وروايات وأفكار وعقائد تؤدي إلى الغرض الذي تسعى إليه السبئية في توهين الدين في نفوس الأمة وتشويهه وتغييره، ليظهر في الأمة جيل من المواطنين لا يدين بالولاء للدولة الإسلامية بل يقاوم سلطتها، متبعة سياسة الإساءة لصور الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ومن تبعهم بإحسان في أذهان عامة المسلمين، مستخدمة أسلوب القصاصين والمؤلفين والأدباء الدسّاسين، فنشرت مؤلفات هؤلاء تحت أسماء شتى: فيما يسمى **الفلسفة** كرسائل إخوان الصفا وخِلّان الوفا لمؤلِّفين أخفَوْا أسماءهم تسترًا وباطنية، وفيما يسمى **الأدب** كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وكألف ليلة وليلة لمن لم تعرف أسماؤهم من المؤلفين، وفيما يسمى **التاريخ** كروايات التاريخ الإسلامي لجورجي زيدان، وما تحشى به صفحات الكتب في المدارس والجامعات من سواد ما كَتب أعداء أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم من مستشرقين وسبئيين، وقوي حزب السبئية واستفحل أمرها في كل مكان أو عهد ضعفت فيه تقوى المسلمين. وكان لهذا الحزب السبئي الباطني أمام السلطة الإسلامية موقفان:

الموقف الأول: يظهر عندما يكثر عددهم ويَقْوَون على السيطرة واستلام السلطة فيعلنونها كافرةً ملحدة متوحّشة همجية، فيستبيحون المحرّمات ويأتون المنهيّات ولا يرعَوْن في المسلمين والإسلام إلًّا ولا ذمة، كما فعلوا بما عُرف

بالتاريخ بثورة الزنج وإقامة دولة القرامطة والإسماعيلية والعبيدية على مر التاريخ.

والموقف الثاني: يتبين عندما يُكتشف أمرهم قبل أن يتمكنوا، فيتظاهرون أمام الملأ بأنهم دعوة «دينية» وفرقة «إسلامية» همّها إزالة الظلم ودفع الحيف عن «أهل البيت» من أبناء علي رضي الله عنه، وإيصال هذه الذرية الصالحة والعترة الشريفة إلى الحكم لأنها أحق به من الحكام الحاليين الذين سَلبوا الملك من أهله، واستبدوا بالعباد والبلاد!.

ويحاول السبئيون في هذه الحالة ـ وفي بدايات الدعاية عند المدعوّين الجدد ـ أن يلحقوا أنفسهم بالشيعة ويزعموا أنهم فرقة من فرقهم ولو أنهم أشد تطرّفاً من باقي الفرق وادعاءً في حبّ علي وتقديره وتقديسه بل تأليهه!.

ولقد ظهر لهم في الآونة الأخيرة مظهر جديد ـ بعد فتور العصبية الدينية في أوساط العامة ـ إذا اتجه السبئيون إلى الادعاء بمناصرة الضعفاء والمسحوقين من العمال والفلاحين، ثم ترى فضيحتهم سافرة حين يستطيعون الوثوب لتسلم مقاليد الحكم وزمام الأمر والنهي في بلد إسلامي فترى أن كل ما يحدّدون من مناهج إنما تسير في مخطط مجرم يقصدون من ورائه إلى إزالة وجود الإسلام من أنفس المسلمين.

وكتابنا «هذا أبو ذر» يقف في موقع التصدي للعصابة السبئية التي تشن الهجوم تلو الهجوم على وسائل الإعلام الشعبية بين المسلمين، هذه العصابة التي قامت بحملة قديمة جديدة تشكك فيها المسلمين بسمعة حمَلَة هذا الدين وأُمَنائه من الصحابة ـ رضوان الله عنهم أجمعين ـ فأخرجت خلال حقبة من هذا القرن عدداً من الكتب عن أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ تتهمه فيها باتهامات عدة كما تتهم باقي إخوانه من الصحابة الكرام باتهامات عديدة في محاولة خبيثة تدعي فيها المدح وهي تريد الذم والقدح، وتتظاهر بالغيرة والشفقة على هذا الصحابي الجليل.

وسنذكر في الجزء الثالث من الكتاب «الكتب» لأنها أبقى وجوداً وأعمق

أثراً، ونذكّر بالتمثيليات المذاعة أو المرئية والمسرحيات تذكيراً، ونعرض عن ذكر المقالات والتصريحات لتفاهة مضمونها مع ما فيها من سُمٍّ يضاف إلى السموم من حيث الكثرة الظالمة التي تغلب على الحق قليل الأعوان والدعايات.

خرجتْ على الناس في هذه الحقبة الأخيرة من السنين عدد من الكتب عن أبي ذر رضي الله عنه وجدناها كلها ـ باستثناء ثلاثة ـ تصدر عن أصل واحد هو ما حشاه كتاب «أعيان الشيعة»[1] الذي لم يلتزم مؤلفه فيما حشاه تحري صدق السند بل ترك العهدة على الراوي، فروى ما سمع من أخبار، ولكنه زاد وأنقص وقدّم وأخرّ وفصّل ولفّق؛ وجاء من بعده «كُتّاب» و «قُصّاص» أخذوا عنه ما حشاه وكأنه أمر مسلّم ورواية صادقين فَضَلّ الكاتبون وأضلوا مَن صدّقهم واتبعهم من الغاوين، ونعوذ بالله العلي العظيم من أن نَضِلّ أو نُضِلّ أو نَظلِم أو نُظْلَم أو نَكذب أو يُكذَب علينا ونعوذ به من السلب بعد العطاء ومن الشك بعد اليقين ومن الضلال بعد الهدى.

ولقد ألفت كتاب «هذا أبو ذر» في محاولة لجلاء شخصية هذا الصحابي الجليل وإظهارها على ما كانت عليه في واقع الأمر، وإحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل ودحراً للكذب والكذبة من أتباع المدرسة السبئية أو تلاميذها، معتمداً على الله، طالباً منه أن يجزيني ـ من عنده ـ خير الجزاء، آملاً أن يزيل غشاوات عن أعين، وأن يكون حجة لمن تعوزه الحجة من المسلمين الصالحين.

أما عصابة ابن سبأ فالأمل فيها ضعيف في أن ترتدع عن الدس والفتنة، وترجع إلى الله تؤمن به وتسلّم له بتأثير هذا الكتاب، ولو أن هذا الأمل ليس بعزيز عند تذكر عظمة الله وقدرته سبحانه على هداية من يشاء.

---

(١) واستعان بعضهم بكتاب «مروج الذهب» أيضاً.

ترتيب البحث:

يتألف كتاب «هذا أبو ذر» من مقدمة وثلاثة أجزاء وخاتمة.

أما المقدمة فتتحدث عن موضوع البحث وأهميته وترتيبه.

وفي الجزء الأول (**الجاهلية والإسلام**) نرى جندب بن جنادة في الجاهلية رجلاً ذا معدن، وترى الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.

ونمضي معه حيث نستعرض الإسلام في مكة وما دعا إليه رسول الله صلى عليه وسلم وآله وسلم قبل الهجرة، واستجابة جندب بن جنادة لهذه العقيدة وإسلامه.

ثم نشهد الإسلام في المدينة حيث أقيمت دولة الإسلام، وأعلنت مسؤولياتها عن تحرير الإنسان في الأرض وأخذت في تطبيق التشريع الإلهي المنزل على البشر، رحمة للعالمين وحيث استقر أبو ذر رضي الله عنه في الصفة مع أهل الصُّفَّة منقطعاً للعلم والجهاد في مدرسة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وفي الجزء الثاني من الكتاب (**ما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم**) حيث تستمر مسيرة الدولة الإسلامية قائمة بأعباء الدعوة متمثلة في أشخاص الصحابة الكرام حملة الرسالة ومبلّغيها للأجيال الإسلامية من بعدهم تحت قيادة الخلفاء الراشدين المهديين، تظهر فصول المؤامرة المعادية للوجود الإسلامي عقيدة وشريعة بصورة الردة في عهد أبي بكر، والاغتيال في عهد عمر، والفتنة في عهد عثمان.

ويستعرض الفصل الذي عنوانه (**قرن السبئية**) كيف استفحل أمر هذه الفئة، محاولةً الفتك بالوجود الإسلامي فنتعرف على الأصل والغاية والاسم، ومن هو ابن سبأ، وسياسات الحزب الباطني من حيث السبئية والسلطة، والسبئية العامة.

ويثور سؤال بعد هذا الاستطراد الذي لا بد منه أين أبو ذر؟ ونبحث عنه في مصر والشام، ثم نتابع مقابلة أبي ذر وعثمان ثم نسير معه لنشهد مقامه في الربذة.

وهنا نتوقف بعد هذا المسير الطويل للبحث عن شخصية الصحابي وصفاته المميَّزة؛ انعزالية البدوي، وتحدّي المدنيّة، وصدق اللهجة، والحدّة، والضعف.

أما الزهد في المصطلح الإسلامي فيتحدث **(أبو ذر والزهد)** عن مفهوم الزهد، ونماذج من زهد سيد الزهاد، ومن زهد الراشدين الأربعة، ومن زهد بقية العشرة، وزهد أبي ذر.

ثم تحليل لمواقف **أبي ذر والنظام الإسلامي** فهو المسلم الصادع بأمر الله في النظام الإسلامي الممتثل لآيات الحكم، وموقفه من الإمرة والأمراء واقتصاد الدولة وأموال المسلمين.

ويأتي ـ من ثم ـ تلخيص **(لمذهب أبي ذر)** فنجد أن العقيدة الأصل عند أبي ذر، والانصياع الكامل لأحكام الإسلام وأهم قواعد المذهب.

وفي **(النهاية)** نستعرض بعض ذكريات الشيخ وقد أحس الصحابي الشيخ بدنو أجله، ثم نطلع على وفاة أبي ذر: مشهد كريم لوفاة رجل كريم وتحقّق نبوءتين ـ يموت وحده ويلي دفنه قوم صالحون ـ كما نطلع على تركة أبي ذر والذي بقي منه على ألسنة الثقات كان أبو ذر.

الكريم فتبارك الله أحسن الخالقين لكل من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وأبو ذر الغفاري، وتصوير المزوّرين لكل واحد من هؤلاء الرهط الكرام.

ونبحث من ثَمّ في أصل البلاء عن أنواع التآليف التزويرية فترى كيف

أما الجزء الثالث من الكتاب (أبو ذر والمزوِّرون الجدد) فيبين الفارق الكبير بين صورة وتصاوير إذ أبدع الله الصورة الصحابية كما وردت في القرآن

كان المسعودي وأبو ذرٍّه وكيف كان العاملي وأبو ذرٍّه مائلَيْن عن الحق.

أما الباب (**المزوّرون الجدد**) فيتقدم بقائمة المزوِّرين الجدد حيث يظهر المزورون وعميدهم وجريمتهم الواضحة المدبرة. وتتوالى فصول مقدم القافلة والسبئي الصريح، وصاحب قضية العرب، وصاحب الشباب المضنى، وتشكيلة دار العودة، والرفيق الستاليني.

وأخيراً تأتي خاتمة البحث وفيها خلاصة ونتيجة ووصية.

فنضَّر الله وجه امرىء سمع نصيحة مشفق فوعاها.



الجزء الأول

الجاهلية والإسلام

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ (سورة المائدة: ٥٠).

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (سورة آل عمران: ٨٥).

البَابُ الأوّل

في الجاهِليّة

الجاهلية: مصطلح استحدثه دين الإسلام وجعله مقابلاً ومناقضاً لمصطلح «الإسلام» مقابلة الضِّدِّ للضِّدِّ.

الفَصْل الأول

مفهوم الجاهلية

الجاهلية: هي الدينُ، أو منهاجُ الحياةِ، الذي يَضَعُهُ مَخلوقٌ، كي يسيرَ الفردُ أو الجماعةُ عليه ويتحاكموا إليه.

الجاهلية مصطلح استحدثه الإسلام وجعله مقابلاً ومناقضاً لمصطلح الإسلام مقابلة الضد للضد.

ولما كان تعريف «دين الإسلام» هو الانقياد والامتثال لأمر الله ونهيه طواعية بلا اعتراض، أو بعبارة أخرى «هو الدين أو منهاج الحياة الذي خطّه الله عز وجل كي يسير الفرد، أو الجماعة عليه ويتحاكموا إليه»، يصبح تعريف الجاهلية هو «الدين أو منهاج الحياة الذي يضعه مخلوق ـ هوى بشر أو شيطان ـ مُغْفِلاً منهج الله كي يسير الفرد أو الجماعة عليه ويتحاكموا إليه». فكل فرد لا يدين بدين الإسلام، أو ينطبق عليه تعريف الجاهلية فهو فرد جاهلي، وكل أمة لا تدين بدين الإسلام، أو ينطبق عليها تعريف الجاهلية فهي ـ في المصطلح الإسلامي ـ أمة جاهلية. فالجاهلية لا تختص بزمن محدود، أو قوم معيَّنين، بل هي الدين أو المنهج الذي يَسِمُ صاحبه بهذا الاسم إن كان واضع هذا الدين أو المنهج هوى بشر أو شيطان ـ في غفلة عن دين الله ومنهجه ـ فمن ارتضى المنهج الجاهلي، أو اتبع دين الجاهلية في أي زمان سواء كان فرداً أو مجتمعاً في مشرق الأرض أو مغربها يسمى المتبع لغير دين الله ومنهجه «جاهلياً»[1].

---

(١) يذكر سيد قطب أن المجتمع المسلم هو «المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم، كما تتمثل في شعائرهم وعباداتهم، كما تتمثل في نظامهم الجماعي =

الفَصْل الثاني

خصيصة الجاهلية وسماتها

الكفر الذي يعني بالمصطلح الإسلامي عدم الإيمان بالله الإيمان الحق هو الخصيصة الأساسية في كل الجاهليات.

للجاهلية ـ أية جاهلية ـ خصيصة أساسية مشتركة بين كل جاهليات التاريخ، بل هي الأصل الذي تنشأ منه الجاهلية، والأساس الذي تبنى عليه كل الانحرافات الجاهلية، في التصور والعقيدة والسلوك، هذه الخصيصة والأصل والأساس هي الكفر بالله بأي صورة من صور الكفر سواء كان في صورة التصور الاعتقادي الوثني الساذج، أو كانت في صورة التثليث والتعديد والتشبيه المشترك، أو كانت في صورة الإلحاد والجحود، أو كانت في صورة تحديد قدرة الله وملكه وحصر ميادين ملكيته. فالكفر الذي يعني بالمصطلح الإسلامي عدم الإيمان بالله الإيمان الحق هو الخصيصة الأساسية في كل الجاهليات.

إن الإيمان الحق بالله رب العالمين حسب التصور الإسلامي الذي جبلت عليه الفطرة البشرية وأمر به وبيّنه رسلُ الله، هذا الإيمان الحق يحدد معالم العقيدة الصحيحة التي تحدد بدورها للإنسان مكانه الصحيح ضمن المنظومة الكونية، وتسدد خطاه في الزمان والمكان، حيث تعين له وجهته الصائبة، وترسم له طريقه المستقيم، فيستقيم وجدانه وسلوكه ومشاعره وأعماله ومبادئه وواقعه،

= وتشريعاتهم.. إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله ـ معه أو من دونه ـ إلى العبودية لله وحده بلا شريك... إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده...» معالم في الطريق: ص ٨٥ ـ ٨٨.

ويصبح كله - كما يريد الله أن يكون - وحدة متماسكة متجهة الاتجاه الصحيح في تيار مسيرة المنظومة الكونية المسلمة المتجهة إلى ربها الحق رب العالمين.

إن الإنسان المسلم يؤمن إيماناً يقينياً أن وراء هذا الوجود رباً خلقه، وقدّر حركته، ونسّق نواميسه. هذا الرب ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها، وينظم حركتها جميعاً، فلا تصطدم، ولا تختل، ولا تتعارض، ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة - إلى ما شاء الله - كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم لهذا الرب العظيم، وقدره الذي يحركه، والناموس الذي ينسقه، بحيث لا يخطر في لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة، أو يتنكر للقدر، أو أن يخالف الناموس، وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب والفساد: ﴿ إنَّ ربَّكم اللهُ الذي خَلَقَ السموات والأرضَ في ستَّة أيام ثم استوى على العرش يُغشي الليلَ النهارَ يطْلُبُهُ حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّراتٌ بأمره ألا له الخلق والأمر فتبارك الله رب العالمين ﴾ (سورة الأعراف: ٥٤).

والإنسان من هذا الوجود الكوني، والقوانين التي تحكم فطرته ليس بمعزل عن تلك القوانين التي تحكم الوجود كله... لقد خلقه الله - كما خلق هذا الوجود - وهو في تكوينه المادي من طين هذه الأرض، وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه إنساناً، إنما رزقه الله إياه مقدراً تقديراً، وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للقانون الكوني العام الذي سنّه الله له رضي أم أبى. ويُعطى وجوده وخلقه ابتداءً بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه - فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنيناً وجوده - وهو يولد وفق القانون الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة، وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه، ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له، وهو يحس ويتألم، ويجوع ويعطش، ويأكل ويشرب، ويمثل الطعام والشراب... وبالجملة يعيش وفق قانون الله، عن غير إرادة منه ولا اختيار، شأنه في هذا الوجود الكوني وكل ما فيه وكل من فيه، في الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وقانونه.

والله الذي خلق هذا الوجود الكوني وخلق الإنسان، والذي أخضع الإنسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني هو ـ سبحانه ـ الذي سن للإنسان «شريعة» لتنظيم حياته الإرادية تنظيماً متناسقاً مع حياته الطبيعية. فالشريعة ـ على هذا الأساس ـ إن هي إلا قطاع من القانون الكوني الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان، وفطرة الوجود العام، وينسقها كلها جملة واحدة.

وما من كلمة من كلمات الله، ولا أمر ولا نهي، ولا وعد ولا وعيد، ولا تشريع ولا توجيه.. إلا وهي شطر من هذا القانون الكوني العام، وصادقة في ذاتها صدق القوانين التي تسمى القوانين الطبيعية ـ أي القوانين الإلهية الكونية ـ التي نراها تتحقق في كل لحظة، بحكم ما في طبيعتها من حق أودعه الله فيها، وهي تتحقق بقدر الله.

و «الشريعة» التي سنها الله لتنظيم حياة البشر هي ـ من ثم ـ شريعة كونية. بمعنى أنها متصلة بقانون الكون العام، ومتناسقة معه... ومن ثم فإن الالتزام بها ناشىء من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه.

ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية، ولا أن يحيطوا بأطراف القانون الكوني العام، ولا حتى بهذا الذي يحكم فطرتهم ذاتها ويخضعهم له ـ رضوا أم أبوا ـ فإنهم من ثَمَّ لا يملكون أن يشرعوا لحياة البشر نظاماً يتحقق به التناسق المطلق بين حياة الناس وحركة الكون، ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة. إنما يملك هذا خالق الكون وخالق البشر، ومدبِّر أمره وأمرهم، وفق القانون الكوني الواحد الذي اختاره وارتضاه.

وكذلك يصبح العمل بشريعة الله واجباً لتحقيق ذلك التناسق. وفي تحقيق التناسق المطلق بين حياة البشر والقانون الكوني العام، يكمن كل الخير للبشر، كما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد. إنهم ـ في هذه الحالة وحدها ـ يعيشون في سلام مع أنفسهم؛ فأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق

حركتهم مع حركة الكون، وتطابق اتجاههم مع اتجاهه... وأما السلام مع أنفسهم فينشأ من توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة، فلا تقوم المعركة بين المرء وفطرته، لأن شريعة الله تنسق في يسر وهدوء. وينشأ عن هذا التنسيق تنسيق آخر في ارتباط الناس ونشاطهم العام، لأنهم جميعاً يسلكون حينئذٍ وفق منهج موحَّد، هو طرف من القانون الكوني العام.

كذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق اهتدائها وتعرّفها في يُسر إلى أسرار هذا الكون، والطاقات المكنونة فيه، والكنوز المذخورة في أطوائه، واستخدام هذا كله وفق شريعة الله، لتحقيق الخير البشري العام، بلا تعارض ولا اصطدام.

ومقابل شريعة الله تقف أهواء البشر: ﴿ ولَو اتَّبَعَ الحَقُّ أهواءَهَم لفَسَدَتِ السمواتُ والأرضُ ومن فيهِنّ ﴾ (سورة المؤمنون: ٧١).

ومن ثم توحد النظرة الإسلامية بين الحق الذي يقوم عليه هذا الدين، والحق الذي تقوم عليه السموات والأرض، ويصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، ويحاسب الله به ويجازي من يتعدَّوْنه... فهو حق واحد لا يتعدد، وهو القانون الكوني العام الذي أراده الله لهذا الوجود في جميع الأحوال، والذي يخضع له ويؤخذ به كل ما في الوجود من عوالم وأشياء وأحياء.

﴿ لَقَدْ أنزلْنا إليكُم كِتاباً فيهِ ذكْرُكُم، أفلا تعقلون. وكَمْ قصمْنا من قريةٍ كانتْ ظالمةً وأنشأنا بعدها قوماً آخرين. فلمّا أحسُّوا بأسنا إذا هُمْ منها يركُضُون. لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترِفْتم فيه ومساكِنِكُم لعلَّكُم تُسْألون. قالوا: يا وَيلنا إنّا كنّا ظالمين! فما زالتْ تلكَ دَعواهم حتى جَعلناهُم حصيداً خامدين. وما خلقْنا السماءَ والأرضَ وما بينها لاعبين. لو أردْنا أن نتَّخِذَ لَهْواً لاتخذْناهُ مِنْ لدُنّا إنْ كنّا فاعلين. بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيدْمَغُهُ فإذا هو زاهقٌ، ولكُمُ الويلُ مما تصفون. ولهُ مَنْ في السمواتِ والأرضِ، ومَنْ عندهُ لا يستكبرونَ عنْ عبادتِهِ ولا يستحسرون. يُسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرون﴾ (سورة الأنبياء: ١٠ ـ ٢٠).

وفطرة الإنسان تدرك هذا الحق في أعماقها، فطبيعة تكوينه وطبيعة هذا الكون كله من حوله، توحي إلى فطرته بأن هذا الوجود قائم على الحق، وأن الحق أصيل فيه، وأنه ثابت على الناموس لا يضطرب، ولا تتفرق به السبل، ولا تختلف دورته، ولا يصطدم بعضه ببعض، ولا يسير وفق المصادفة العابرة والفلتة الشاردة، ولا وفق الهوى المتقلب والرغبة الجامحة! إنما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدَّر تقديراً... ومن ثَمّ يقع الشقاق - أول ما يقع - بين الإنسان وفطرته عندما يحيد عن الحق الكامن في أعماقها، تحت تأثير هواه وذلك عندما يتخذ شريعة لحياته مستمدة من هذا الهوى لا من شريعة الله، وعندما لا يستسلم لله استسلام هذا الوجود الكوني الخاضع لمولاه!.

ومثل هذا الشقاق يقع بين الأفراد والجماعات والأمم والأجيال، كما يقع بين البشر والكون من حولهم، فتنقلب قواه وذخائره وسائلَ تدمير وأسبابَ شقاء، بدلاً من أن تكون وسائل عمران وأسباب سعادة لبني الإنسان.

وإذن فإن الهدف الظاهر من قيام شريعة الله في الأرض ليس مجرد العمل للآخرة. فالدنيا والآخرة معاً مرحلتان متكاملتان، وشريعة الله هي التي تنسق بين المرحلتين في حياة هذا الإنسان، وتنسق الحياة كلها مع القانون الإلهي العام.

والتناسق مع القانون الكوني العام لا يؤجل سعادة الناس إلى الآخرة، بل يجعلها واقعة ومتحققة في المرحلة الأولى كذلك، ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها في الدار الآخرة.

هذا هو أساس التصور الإسلامي للوجود كله، وللوجود الإنساني في ظل ذلك الوجود العام، وهو تصور يختلف في طبيعته اختلافاً جوهرياً عن كل تصور آخر عرفته البشرية، ومن ثم تقوم عليه التزامات لا تقوم على أي تصور آخر في جميع الأنظمة والنظريات.

إن الالتزام بشريعة الله - في هذا التصور - هو مقتضى الارتباط التام بين

حياة البشر وحياة الكون، وبين الناموس الذي يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون، ثم ضرورة المطابقة بين هذا القانون الكوني العام والشريعة التي تنظم حياة بني الإنسان، وتتحقق بالتزامها عبودية البشر لله وحده. كما أن عبودية هذا الكون لله وحده لا يدعيها لنفسه إنسان[1].

---

(١) راجع معالم في الطريق، ص ٩٧ ـ ١٠٣.

الفَصْل الثالث

الجاهِليَّةُ العربيَّةُ الأولى

كان فيهم من كل مِلَّةٍ ودين، وكانت الزندقة والتعطيل في قريش، والمزدقية والمجوسية في تميم، واليهودية والنصرانية في غسان، والشرك وعبادة الأوثان في سائرهم.

مر على البشرية حين من الدهر عمّت فيه «الجاهلية» شعوب الأرض، وخيّم ظلامها على كل مناطقها، وبخاصة على أرض العرب، وذلك قبيل البعثة المحمدية ـ على صاحبها أزكى الصلاة والسلام ـ . وحكى القرآن عن عقائدها ودينها ما حكى، ضارباً الأمثلة القريبة المحسوسة من جاهلية العرب في الأرض التي نزل فيها القرآن، فاقترنت في ذهن سامع اللفظة صورة جاهلية العرب وزمنها عند مبادهة السماع بادىء ذي بَدْء، رغم أن هذه الجاهلية قد تعدد ظهورها بعد البعثة المحمدية سواء في شعوب أسلمت أو شعوب بقيت على جاهليتها، ويسبق إلى الذهن عند سماع لفظة «الجاهلية» تصور الفترة الزمنية التي سبقت بعثة خاتم النبيين ـ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ـ في أمة العرب، ذلك لعموم سيادة الظلام الجاهلي العالَمَ كلَّه وظهور طقوس الجاهلية وشعاراتها أشد صراحة ووضوحاً في أمة العرب آنذاك رغم وجود أشعةِ نورٍ ظهرت، حتى في أمة العرب وفي تلك الفترة من الزمان.

ففي خضم ظلمات «الجاهلية» الضاربة الأطناب في الأرض جميعاً كان العرب يوغلون في «جاهليتهم» قبل البعثة المحمدية ـ على صاحبها أزكى الصلاة والسلام ـ وكان العرب في جاهليتهم ـ من حيث العقيدة ـ على درجات وأقسام، وهم معطلة ومحصلة نوع تحصيل، على تقسيم الإمام أبي الفتح الشهرستاني في

كتابه «الملل والنحل» إذ يقول: (واعلم أن العرب أصناف فمنهم معطلة ومنهم محصلة نوع تحصيـل.

معطلة العرب وهم أصناف: فصنف أنكروا الخالق والبعث والإعادة، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني، وهم الذي أخبر عنهم القرآن المجيد: ﴿ وقالوا ما هِيَ إلاّ حياتُنا الدُّنيا نموتُ ونَحيا وما يُهلِكُنا إلاّ الدَّهرُ ﴾ (سورة الجاثية: ٢٤) إشارة إلى الطبائع المحسوسة، وقصْر الحياة والموت على تركّبها وتحلّلها، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر ﴿ وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهرُ، وما لهم بذلكَ مِنْ علمٍ إن هُمْ إلا يظُنّون ﴾ (سورة الجاثية: ٢٤) فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات قرآنية فطرية في كم آية وكم سورة، فقال تعالى: ﴿ أوَلَمْ يَتفكّروا ما بصاحِبِهم مِنْ جِنَّةٍ إنْ هوَ إلا نذيرٌ مبين، أوَلَمْ ينظروا في ملكوتِ السّموات والأرضِ ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٥)، وقال: ﴿ أوَلَمْ يَرَوْا إلى ما خلَقَ الله ﴾ (سورة النحل: ٤٨)، وقال: ﴿ يا أيُّها الناسُ اعبُـدوا ربَّكُمُ الذي خلقَكُم ﴾ (سورة البقرة: ٢١)، فثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق، فإنه قادر على الكمال إبداءً وإعادةً.

وصنف منهم أقروا بالخـالق وابتداء الخَلقْ والإبـداع وأنكروا البعث والإعادة، وهم الذين أخبر عنهم القرآن: ﴿ وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خَلْقَهُ قال من يُحيي العظامَ وهِيَ رميم ﴾ (سورة يس: ٧٨)، فاستدل عليهم بالنشأة الأولى إذ اعترفوا بالخلق الأول فقال: ﴿ قُلْ يُحْيِيها الذي أنشأها أوّل مرةٍ ﴾ (سورة يس: ٧٩)، وقال: ﴿ أفَعَيينا بالخلق الأوّلِ بلْ هُم في لَبْسٍ مِنْ خلقٍ جديدٍ ﴾ (سورة ق: ١٥).

وصنف منهم أقرّوا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله في الآخرة، وحجّوا إليها، ونحروا لها الهدايا، وقرّبوا القرابين، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر، وحلّلوا وحرّموا، وهم الدهماء من العرب إلا شرذمة منهم نذكرهم، وهم الذين أخبر عنهم التنزيل: ﴿ وقالوا ما لِهذا الرّسولِ يأكُلُ الطّعامَ ويمشي في الأسواقِ لولا

أنزل إليهِ مَلَكٌ فيكونَ مَعَهُ نذيراً ﴾ (سورة الفرقان: ٧)، وكذلك قولهم: ﴿ إذ يقول الظالمونَ إنّ تتبعونَ إلاّ رجلًا مسحوراً ﴾ (سورة الإسراء: ٤٧)، فاستدل عليهم بأن المرسلين كانوا كذلك، قال الله تعالى: ﴿ وما أرسلنا قَبْلَكَ من المرسَلين إلا إنهم لَيأْكُلونَ الطعامَ ويمشونَ في الأسواقِ ﴾ (سورة الفرقان: ٢٠). وشبهات العرب كانت مقصورة على هاتين الشبهتين، إحداهما إنكار البعث بعث الأجساد، والثانية جحد البعث بعث الرسل، فعلى الأولى قالوا: ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون، أوَ آباؤنا الأولون ﴾ (سورة الصافات: ١٦) إلى أمثالها من الآيات، وعبروا عن ذلك في أشعارهم فقال بعضهم:

حياة ثم موت ثم نشر ... حديث خرافة يا أمَّ عمرو

ولبعضهم في مرثية أهل بدر المشركين:

فماذا بالقليب قليب بدر ... من الشيرى تكلم بالسنام

يخبرنا الرسول بأن سنحيى ... وكيف حياء أصداء وهام

ومن العرب من يعتقد التناسخ، فيقول إذا مات الإنسان أو قُتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصبت طيراً هامة فيرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة، ولهذا غلبهم الرسول فقال: «لا هامة ولا عدوى ولا صَفَر».

وأما على الشبهة الثانية كان إنكارهم لبعث الرسول في الصورة البشرية أشدَّ وإصرارهم على ذلك أبلغ، وأبلغ عنهم التنزيل: ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبَعَثَ اللهُ بشراً رسولاً ﴾ (سورة الإسراء: ٩٤)، ﴿ أبَشرٌ يهدوننا ﴾ (سورة التغابن: ٦). فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتي مَلَك من السماء ﴿ وقالوا لولا أُنزلَ عليهِ مَلَك ﴾ (سورة الأنعام: ٨)، ومن كان لا يعترف بهم كان يقول: الشفيع والوسيلة منا إلى الله تعالى هم الأصنام المنصوبة، أما الأمر والشريعة من الله إلينا فهو المنكر، فيعبدون الأصنام التي هي الوسائل وَدّاً وسُواعاً ويَغوث ويعوق ونَسْراً، وكان وَدّ لكلب وهو بِدَوْمَةِ الجَندل، وسُواع لهُذيل وكانوا يحجّون إليه وينحرون له،

ويَغوث: لمذحج ولقبائل من اليمن، ويعوق لهمدان، ونَسْرٌ لذي الكلاع بأرض حمير، وأما اللات[1] فكانت لثقيف بالطائف، والعزّى لقريش وجميع بني كنانة وقوم من بني سليم، ومناة للأوس والخزرج وغسان، وهُبَل أعظم أصنامها عندهم وكان على ظهر الكعبة)[2].

(وكان عند هُبَل قداح سبعة: قدح كتب فيه [العَقْلُ][3] إذا اختلفوا في العقل مَنْ يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة، فإن خرج العقل فعلى من خرج حَمْلُه، وقدح فيه [نعم] للأمر إذا أرادوه يضرب به القداح، فإن خرج قدح [نعم] عملوا به، وقدح فيه [لا] إذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح، فإن خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر، وقدح فيه [مِنْكُم]، وقدح فيه [مُلْصَق]، وقدح فيه [من غيركم]، وقدح فيه [المياه] إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به.

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً، أو يُنكحوا منكحاً، أو يدفنوا ميتاً، أو شكّوا في نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هبل ومئة درهم وجَزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا، هذا فلان ابن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه. ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب، فإن خرج عليه [منكم] كان منهم وسيطاً، وإن خرج عليه [من غيركم] كان حليفاً، وإن خرج عليه [ملْصق] كان على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف، وإن خرج فيه شيء مما سوى هذا مما يعملون به [نعم] عملوا به، وإن خرج [لا] أخروه عامه ذلك

---

(١) اللات والعزى ومناة: بيوت اتخذتها العرب طواغيت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجّاب، وتهدي لها وتطوف بها وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها قد عرفت أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده. عن عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٨٣ (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، طبعة ١٩٥٥ م).

(٢) أبو الفتح عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل: ج ٣ ص ٢٢٢. (مكتبة المثنى، بغداد).

(٣) العَقْلُ: الدِّيَة.

حتى يأتوه به مرة أخرى، ينتهون في أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القِداح)[1].

قال ابن إسحاق: (وكان لبني مِلْكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر صنم يقال له سعد، صخرة بفلاة من أرضهم طويلة، فأقبل رجل من ملكان بإبل له مؤبلة ليقفها عليه التماس بركته فيما يزعم، فلما رأته الإبل - وكانت مرعية لا تُركب وكان يهراق عليه الدماء - نفرت منه فذهبت في كل وجه، وغضب المِلْكاني فأخذ حجراً فرماه به، ثم قال: لا بارك الله فيك، نفّرت عليّ إبلي، ثم خرج في طلبها حتى جمعها، فلما اجتمعت له قال:

أتينا لسَعدٍ كي يُجمِّعَ شَمْلَنا فشتَّتَنا سَعْدٌ فلا نحنُ من سعدِ
وهل سعدُ إلا صخرةٌ بتَنوفَةٍ مِنَ الأرضِ لا تدعو لغيٍّ ولا رُشدِ[2]

قال ابن إسحق: وكان ذو الخَلَصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، قال ابن هشام: ويقال ذو الخُلُصة. قال رجل من العرب:

لو كنت ياذا الخُلُص الموتورا
مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

قال: وكان أبوه قُتل فأراد الطلب بثأره فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالأزلام فخرج السهم بنهيه عن ذلك فقال هذه الأبيات)[3].

وكانت فِلْس لطيء ومن يليها بجبليْ طيء ومنى سَلْمى وأجا[4].

قال ابن إسحق: (واتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما، وكان إساف ونائلة رجلاً وامرأةً من جرهم، هو إساف بن بغيْ، ونائلة بنت

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ١٥٢.
(٢) المصدر السابق: ج ١ ص ٨١.
(٣) المصدر السابق: ج ١ ص ٨٦.
(٤) المصدر السابق: ج ١ ص ٨٧.

ديك، فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين. . . والله أعلم)[1].

قال ابن إسحق: (واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله، فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالتوحيد قالت قريش: ﴿ أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عجاب ﴾)[2].

واستُهترت العرب بعبادة الأصنام فكان أحدهم إذا نزل في السفر بحث عن أربعة أحجار فاتخذ أحسنها رباً والثلاث الباقيات يجعلها أثافي لقدره.

ومن العرب من كان يميل إلى اليهودية، ومنهم من كان يميل إلى النصرانية، ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد في الأنواء[3] اعتقاد المنجِّمين في السيارات، حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء، ويقول: مُطرنا بنوء كذا.

ومنهم من يصبو إلى الملائكة فيعبدهم، بل كانوا يعبدون الجن، ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله)[4].

(فكانت كنانة وقريش إذا أهلّوا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، فيوحِّدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده)[5].

---

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٨٢.
(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٨٣.
(٣) النوء: الكوكب.
(٤) الملل والنحل (للشهرستاني) ج ٣ ص ٢٢٣.
(٥) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٧٨.

الفَصْل الرابع

أشعة نور

وكان هؤلاء العرب المحصلة نوع تحصيل ـ على قلتهم وندرتهم ـ ضمن خضم الجاهلية يمثلون في ظلامها أشعة نور.

في خضم الجاهلية الحالك، حيث عمت العالم وأعمته حتى غلب اسمها على مجمل العصر كله، ظهر في العرب أفذاذ من المحصلة نوع تحصيل يؤمنون بالله عز وجل ويؤمنون بالبعث يوم القيامة والحساب والعقاب والثواب، سواء منهم من كان على بقايا دين إبراهيم الحنيف، أو من اضطره عقله الحرّ إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته جل في علاه. وكان هؤلاء العرب المحصلة نوع تحصيل على قلتهم وندرتهم ضمن خضم الجاهلية يمثلون في ظلامها أشعة نور. قال الإمام أبو الفتح عبد الكريم الشهرستاني: (ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة، وكانت لهم سنن وشرائع قد ذكرناها لأنها نوع تحصيل. فممن كان يعرف النور الظاهر والنسب الطاهر ويعتقد الدين الحنيف وينتظر المقدم النبوي زيد بن عمرو بن نفيل)[1].

قال ابن إسحق: (واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويُديرون[2] به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخَلَص منهم أربعة نفر نجياً[3]، ثم قال

---

(١) أبو الفتح عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل: ج ٣ ص ٢٢٣.

(٢) يديرون ويدورون بمعنى واحد.

(٣) النجيُّ: الجماعة يتحدثون سراً عن غيرهم، ويقع للاثنين والجماعة بلفظ واحد.

بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل. وهم ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء؛ لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم؛ ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم).

قال ابن إسحق: (وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموؤودة وقال أعبُدُ ربَّ إبراهيم. وبادأ قومه بعيب ما هم عليه).

قال ابن إسحق: (وحدثني هشام عن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه. ثم يسجد على راحته)[1]. وكان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال: لبيك حقاً حقاً، تعبداً وَرِقّاً[2].

وقال زيد:

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدينُ إذا انقسمت أمور
عَزَلتُ اللاتَ والعُزّى جميعاً ... كذلك يفعل الجَلْدُ الصبور
فلا العزّى أدين ولا ابْنَتَيْها ... ولا صنَمَيْ بني عمرو أزور
ولا هُبَلاً أدين وكان رباً ... لنا في الدهر إذا حلمي يسير
ولكن أعبد الرحمن ربي ... ليغفر ذنبي الربُّ الغفور[3]

---

(١) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية: ج ١ ص ٢٢٥.
(٢) المصدر السابق: ج ١ ص ٢٣٠.
(٣) المصدر السابق: ج ١ ص ٢٢٧.

ثم خرج يطلب دين إبراهيم عليه السلام، ويسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كلّه حتى انتهى إلى راهب بميفعة من أرض البلقاء كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم فقال: إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظل زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق بها، فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه، وقد كان شامَّ[1] اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منهما، فخرج سريعاً حين قال له ذلك الراهب ما قال يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد لَخْم عَدَوْا عليه فقتلوه[2].

قال ابن إسحق: (وحدثت أن ابنه سعيد بن زيد وعمر بن الخطاب ـ وهو ابن عمه ـ قالا لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال: «نعم، فإنه يبعث أمة وحده»)[3].

وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك[4].

وممن كان يعتقد بالتوحيد ويؤمن بيوم الحساب قسّ بن ساعدة الإيادي، قال في مواعظه: كلاّ وربِّ الكعبة، ليعودن ما باد، ولئن ذهب ليعودن يوماً. وقال أيضاً:

كـلا بـل هـو إلـه واحـد
لـيس بـمـولـود ولا والـد
أعـاد وأبـدى
وإليـه المآب غـدا

---

(١) شامّ: استخبر.

(٢) المصدر السابق: ج ١ ص ٢٣٢.

(٣) المصدر السابق: ج ١ ص ٢٢٦.

(٤) إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم: ج ١ ص ٣ (دار المعرفة، بيروت، ص ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م).

وأنشد في معنى الإعادة:

يا لاقي الموت والأمواتُ في جدثٍ عليهم من بقايا بزهم خِرَقُ
دَعْهم فإن لهم يوماً يصاح بهم كما ينبه من نوماته الصعِقُ
حتى يجيئوا بحال غير حالهم خَلْقٌ مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا
فهم عراة وموتى في ثيابهم منها الجديد ومنها الأزرق الخلق

ومن هؤلاء زهير بن أبي سلمى، كان يمر بالعضاه[1] وقد أورقت بعد يبْس فيقول: لولا أن تسبني العرب لآمنت بمن أحياك بعد يبس كما سيحيي العظام وهي رميم. ثم آمن بعد ذلك وقال في قصيدته التي أولها:

أمن أم أوفى لم تُظلم بحومة الدراج فالمتلثم
فلا تكتُمُنَّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتم الله يَعلم
يُؤخَّرْ فيوضعْ في كتاب فيُدَّخرْ ليوم حساب أو يُعجَّلْ فيُنْقَمِ

ومنهم علاف بن شهاب التميمي، كان يؤمن بالله ويوم الحساب، وفيه قال:

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة فأخذت منه خطة المقتال
وعلمت أن الله جازٍ عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال

ومنهم عامر بن الظرب العدواني، وكان من حكماء العرب وخطبائهم، وله وصية طويلة يقول في آخرها: (إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلّا مصنوعاً، ولا جائياً إلّا ذاهباً، ولو كان يميت الناسَ الداءُ لأحياهم الدواء)، ثم قال: (إني أرى أموراً شتى وحتى...) قيل له: وما حتى؟ قال: (حتى يرجع الميت حياً، ويعود اللاشيء شيئاً، ولذلك خلقت السموات والأرض) فتولوا عنه ذاهبين. وقال: (ويل أمها نصيحة لو كان من يقبلها) وكان قد حرم الخمر على نفسه فيمن حرّمه[2].

---

(١) العِضَاهَةُ: بالكسر: أعظم الشجر أو الخمط أو كل ذات شوك، جمعها عِضاهٌ.
(٢) الملل والنحل للشهرستاني: ج ٣ ص ٢٣٠.

ومن هؤلاء الأفذاذ المحصلين نوع تحصيل في خضم الجاهلية عبد المطلب بن هاشم، جد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كان موحداً أجاب أبرهة الأشرم الذي جاء ليهدم الكعبة إجابته المشهورة (إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه)[١]، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إنَّ العبدَ يَمنعُ رَحْلَهُ فامنعْ حِلالك[٢]
وانْصُرْ على آل الصليب وعابديه اليومَ آلك[٣]
لا يَغْلبنَّ صليبهم ومِحالُهم غَدْواً مِحالك[٤]
إن كنت تارِكهم وكَعْبَتَنا فأمرٌ ما بدا لك[٥]

وكان يقول في وصاياه: إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة، إلى أن هلك رجل ظلوم حتف أنفه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب في ذلك ففكر فقال: والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه والمسيء يعاقب بإساءته[٦].

---

(١) المصدر السابق: ج ٣ ص ٢٢٨.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٥٠.
(٣) الحِلال (بالكسر) جمع حلة وهي جماعة البيوت. والحلال أيضاً متاع البيوت. المصدر السابق: ص ٥١.
(٤) زاده السهيلي في الروض الأنف. المصدر السابق: ص ٥١.
(٥) المحال (بالكسر): القوة والشدة، غَدواً: غداً. وهو اليوم الذي يلي بعد يومك. المصدر السابق: ص ٥١.
(٦) المصدر السابق: ص ٥١.

الفَصل الخامِس

وكان منهم أبو ذر

قال أبو ذر:
وقد صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين.

عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال: (وقد صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بثلاث سنين.

قلت: لمن؟.

قال: لله.

قلت: فأين توجّه؟.

قال: أتوجه حيث يوجهني ربي، أصلي عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأني خِفاء[1] حتى تعلوني الشمس)[2].

عن أبي معشر السندي: (كان أبو ذر يتأله في الجاهلية، ويوحّد ولا يعبد الأصنام)[3].

فمن هو أبو ذر؟

ومن هي غِفار؟

---

(١) خِفاء: جَمْعُهُ أخفيه، كَكِساء، وأكْسِيَة لفظاً ومعنى.

(٢) مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم: (دار إحياء التراث العربي، بيروت) الحديث ٢٤٧٣ ج ٤ ص ١٩٢٠.

(٣) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج ١ ص ٣٨ (دار المعارف بمصر).

الفَصْل السَّادِسْ

غِفار

واختَصَّت غفارٌ باستحلال الشهر الحرام الذي كان العرب يحرّمون فيه البَغْيَ والقتال، وكان فيهم من يسرق الحاج. وكان العرب يذكرون لغفار هذه الصفة.

في الطريق إلى المدينة إذ ينطلق المرء من مكة كانت غفار «وهي بطن من كنانة العدنانية. . . من مياههم بدر، ومن أوديتهم ودّان»[1]، واشتهرت هذه القبيلة ـ مع عدة من قبائل العرب ـ بقطع الطريق بل وسرقة الحجيج المسافرين إلى بيت الله الحرام، ففي صحيح البخاري: أن الأقرع بن حابس قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (إنما تابعك سرّاق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة. . .)[2]، وعن ابن عباس قال: حدثني رجل من غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر ـ ونحن مشركان ـ ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة فننتهب مع من ينتهب[3].

وكان العرب يعيّرون أبناء هذه القبائل بهذه السمعة، واختصت غفار باستحلال الشهر الحرام الذي كان العرب يحرمون فيه البغي والقتال و (كانوا

---

(١) عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب ج ٢ ص ٨٩١ (دار مكتبة الأندلس، بنغازي ـ ليبيا، ط ١٩٦٨ م).

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح: ج ٤ ص ١٥٨ (دار الفكر ـ بيروت، نسخة مصورة عن طبعة دار الطباعة العامرة).

(٣) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية: ج ٢ ص ٦٣٣. والدُّبرة: أي الهزيمة وتولية الأدبار.

يحلون الشهر الحرام)[1] ـ كما أخبر عنهم أبو ذر ـ (وكان فيهم من يسرق الحاج)[2]. وكان العرب يذكرون لغفار هذه الصفة فلذلك تسمع أبا ذر عندما يُسأل من أنت؟ ـ في قصة إسلامه ـ ويجيب: (جندب، رجل من غفار، يقول: فرأيتها في وجه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وكان فيهم من يسرق الحاج ـ)[3].

---

(١) مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩١٩.

(٢) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج ١ ص ٣٨.

(٣) المصدر السابق: ج ١ ص ٣٨.

الفَصْل السّابع

جُندب بن جُنادة

كان أبو ذر رجلاً يصيب الطريق وكان شجاعاً ينفرد وحده بقطع الطريق ويغير على الصرم في عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه ـ كأنه السبع ـ يطرق الحي ويأخذ ما يأخذ.

شمس الدين الذهبي

اسمه: «جندب بن جنادة الغفاري»[1]، وكان «آدم، ضخماً جسيماً»[2]، كث اللحية»[3] وكان طويلاً بل «كان طوالاً»[4] «معروقاً»[5] مخلوق يشبه بعضه بعضاً[6]. وكان خلقاً من أخلاق العرب[7] وكان من مشاهير قطاع الطرق ذا خفة وسرعة لا يقف في وجهه ـ إذ يقطع الطريق ـ واقف.

---

(۱) وهو أكثر وأصح ما قيل فيه عن كتاب ابن عبد البر النمري القرطبي: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»: ج ٤ ص ٦٢ (مطبعة السعادة مصر، ١٣٢٨ هـ)، كما ذكر ابن حجر: والمشهور أنه جندب بن جنادة بن سكن.. واسم أمه رملة بنت الوقيعة (غفارية أيضاً) ويقال إنه أخو عمرو بن عبسة لأمه.. عن: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة: ج ٤ ص ٦٢ (مطبعة الساعداة، مصر، ١٣٢ هـ). وكذلك رجح شمس الدين الذهبي في: سير أعلام النبلاء: ج ١ ص ٣١، وذكر: وقيل جندب بن سكن، وقيل بريد بن جنادة، وقيل برير بن عبد الله.

(٢) وذكر ابن حجر أنه «كان طويلاً أسمر اللون نحيفاً» الإصابة في معرفة الصحابة ج ٤ ص ٦٣.

(٣) سير أعلام النبلاء (للذهبي): ج ١ ص ٣٢.

(٤) المصدر السابق: ج ١، ص ٣٣.

(٥) المصدر السابق: ج ١ ص ٣٢.

(٦) المصدر السابق: ج ١ ص ٣٥.

(٧) أحمد بن حنبل، المسند: ج ٥ ص ١٥٩ (المطبعة اليمنية بمصر، ط ١٣١٣ هـ). وإخلاق =

«كان أبو ذر رجلاً يصيب الطريق وكان شجاعاً ينفرد وحده بقطع الطريق، ويغير على الصرم[1] في عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه، كأنه السبع، يطرق الحي ويأخذ ما أخذ»[2].

وكان بدوي المحيا والمظهر والطباع لا يتأنق في لباس ولا كلام ويستعمل في الألفاظ ما حضره ولو كانت كلمة تملأ الفم في حضرة النساء، صادق اللهجة يلقي ما في قلبه على لسانه.

= الثوب تقطيعه، وقد خلق الثوب وأخلق. عن كتاب المبارك محمد بن محمد الجزري، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: ج ١ ص ٣١٧. (المطبعة العثمانية بسوق الزلط مصر، ط ١٣١١ هـ).

(١) الصرم: جمع صرمة، وهي القطعة من الإبل، قيل ما بين العشرين إلى الثلاثين، وقيل ما بين الخمسين والأربعين.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ١ ص ٣٨.

الباب الثاني

الإسلام في مكة

جاء هذا الدين ليعلن تحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد - ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد - وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه وربوبيته للعالمين.

الإسلام في مكة

جاء هذا الدين ليعلن تحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد ـ ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد ـ وذلك بإعلان ألوهية الله وحده سبحانه وربوبيته للعالمين.

إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: التمرد الكامل على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور. ذلك أن الحكم الذي مردّ الأمر فيه إلى البشر، ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض، أو بالتعبير القرآني الكريم:

﴿وهو الذي في السماء إلهٌ وفي الأرض إله﴾ (سورة الزخرف: ٨٤).

﴿إن الحكمُ إلا لله أمر ألاّ تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم﴾ (سورة التوبة: ٣٦).[١].

---

(١) سيد قطب، معالم في الطريق: ص ٥٩ (دار الشروق).

الفصل الثامن

كيف كانوا

عندما بُعث رسول الله ﷺ بهذا الدين كانت أخصب بلاد العرب وأغناها بيد غير العرب من الأجناس، والمجتمع العربي أسوأ ما يكون توزيعاً للثروة، وكان الظلم فاشياً، والخمر والميسر من مفاخر المجتمع والدعارة من معالمه.

كان الواقع السائد في جزيرة العرب التي استقبلت الإسلام يوم أن أكرمها الله بنور الإسلام واقع الجاهلية الأولى، وتظهر في هذا الواقع ملامح عميقة الأخاديد بعيدة الغور في وجه تاريخ العرب آنذاك، فبالإضافة إلى القاعدة الأولى وهي الكفر بالله والتي تتفرع عنها سمات نتنة من سيطرة الطاغوت، والحكم بالأهواء، وتحكم الشهوات، كانت تتبين في الجاهلية العربية الأولى ثمرات اختصت بها وخفقت فوق رؤوس العرب أعلامها تستقبل فيها ظهور الإسلام فيها.

منها أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعث بهذا الدين وكانت أخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب، إنما هي في أيدي غيرهم من الأجناس.

بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم، يحكمها أمراء عرب من قبل الروم، وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة للفرس، يحكمها أمراء عرب من قبل الفرس، وليست في أيدي العرب إلا الحجاز وتهامة ونجد، وما إليها من الصحارى القاحلة التي تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا وهناك.

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعث بهذا الدين والمجتمع العربي أسوأ ما يكون المجتمع توزيعاً للثروة والعدالة، قلة قليلة تملك المال والتجارة، وتتعامل بالربا فتضاعف تجارتها ومالها. وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع.. والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة، وجماهير كثيرة ضائعة من المال والمجد جميعاً.

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بُعث والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل في جوانب شتى منه، إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية.

كان الظلم فاشياً في المجتمع، تعبر عنه حكمة الشاعر زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يُهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

ويعبر عنه القول المتعارف عليه في الجاهلية: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.

وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية، ومن مفاخره كذلك! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلي بجملته كالذي يقوله طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى تعل بالماء تزبد
وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبذلي وإنفاقي طريفي وتالدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلها فأُفردت إفراد البعير المعبّد[1]

وكانت الدعارة ـ في صور شتى ـ من معالم هذا المجتمع.

ومع كل هذا شع النور وبعث الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وأصدر البيان وقامت الدعوة.

---

(١) معالم في الطريق: ٢٣ ـ ٢٧.

الفَصْل التَاسع

أساس البناء

لقد اقتضت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الأول للرسالة، وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته في الدعوة بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله.

«لقد اقتضت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الأول للرسالة، وأن يبدأ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أولى خطواته في الدعوة بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن يمضي في دعوته يعرّف الناس بربهم الحق ويعبِّدهم له دون سواه.

ولم تكن هـذه ـ في ظاهـر الأمر وفي نـظرة العقـل البشـري المحجوب ـ هي أيسر السبل إلى قلوب العرب! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى «إله» ومعنى «لا إله إلا الله».

كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا، وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه بها معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمـراء والحكام ورده كله إلى الله.. السلطانِ على الضمـائر، والسلطانِ على الشعائر، والسلطان على واقعيـات الحياة، والسلطانِ في المال، والسلطانِ في القضاء، والسلطانِ في الأرواح والأبدان. كانوا يعلمون أن «لا إله إلا الله» ثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة هذا الاغتصاب، وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله. ولم يكن يغيب

عن العرب، وهم يعرفون لغتهم جيداً ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة «لا إله إلا الله»، ماذا تعني هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة ذلك الاستقبال العنيف، وحاربوها هذه الحرب التي يعرفها الخاص والعام. . . »[1].

ولم يختر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يثيرها عصبية عنصرية تستهدف تجميع قبائل العرب وتوجّهها لاستخلاص أرضها المغتصبة المستعمرة من قبل الرومان والفرس مع توقّع انقياد أمة العرب له وهو في الذؤابة من بني هاشم أعلى قريش نسباً ولا يكاد يختلف على مؤهلاته للقيادة والزعامة اثنان بل لقد عرض أشرافهم عليه الملك والزعامة.

ولم يختر عليه السلام وعلى آله الصلاة والسلام أن يرفعها راية اجتماعية وأن يثيرها حرباً على طبقة الأشراف وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء ولو فعل لانقسم المجتمع العربي صفين: كثرة غالبة معه ضد طغيان المال والشرف والجاه التي هي قلة قليلة في الصف المقابل.

ولم يختر أن يعلنها دعوة إصلاحية تتناول تقويم الأخلاق وتطهير المجتمع وتزكية النفوس، ولو فعل لوجد نفوساً طيبة يؤذيها هذا الدنس وتأخذها الأَرْيَحِيّة والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهر.

لكن الله عز وجل خطّ لرسوله عليه وعلى آله الصلاة والسلام الطريق غير هذه الطريق.

لقد «ظل القرآن المكي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثلاثة عشر عاماً كاملة، يحدثه فيها عن قضية واحدة، قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر. ذلك الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى.

---

(١) معالم في الطريق: ص ٢٣.

ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليه من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان، وأنها استقرت استقراراً مكيناً ثابتاً في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان، التي قدَّر الله أن يقوم هذا الدين عليها، وأن تتولى هي إنشاء هذا النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين»[1].

«ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع، إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء، وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها. . راية لا إله إلا الله. . ولا ترفع معها سواها، وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره، المبارك الميسر في حقيقته.

وما كان لهذا المنهج المبارك ليخلص لله، لو أن الدعوة بدأت خطواتها دعوة قومية، أو دعوة اجتماعية، أو دعوة أخلاقية، . . أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد: لا إله إلا الله. . . »[2].

لقد فرض الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم اتباع هذا الطريق، طريق تقرير «لا إله إلا الله» في القلوب والعقول أولاً ـ على مشقته في الظاهر ـ ورفض السبل الجانبية الأخرى، والإصرار على هذا الطريق؛ وذلك لأن «طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا. . فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة. . كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير. وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة، الوارفة المديدة الظلال، المتشابكة الأغصان، الضاربة في الهواء. . لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة، وفي مساحات واسعة، تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء. . فكذلك هذا الدين. . إن نظامه يتناول الحياة كلها، ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها، وينظم حياة الإنسان ـ لا في الحياة الدنيا وحدها ولكن كذلك في الدار الآخرة، ولا في عالم الشهادة وحده ولكن

---

(١) معالم في الطريق، ص ٢١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣١.

كذلك في عالم الغيب المكنون عنها، ولا في المعاملات المادية الظاهرة وحدها ولكن كذلك في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا ـ فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاملة مترامية، ولا بد إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضاً..

ومتى استقرت عقيدة: «لا إله إلا الله» في أعماق «النفس» الغائرة البعيدة، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي يتمثل فيه «لا إله إلا الله»، وتَعَيَّن أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس ابتداء لهذا النظام، حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته، وقبل أن تعرض عليها تشريعاته. فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان.. وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس ـ فيما بعد ـ تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول، لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها، ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له.. وهكذا أبطلت الخمر، وأبطل الربا، وأبطل الميسر، وأبطلت العادات الجاهلية كلها.. أبطلت بآيات من القرآن، أو كلمات من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم..

.. إن هذا الدين منهج عملي حركي جاد.. جاء ليحكم الحياة في واقعها، ويواجه هذا الواقع ليقضي فيه بأمره.. يقره، أو يعدله، أو يغيره من أساسه... ومن ثم فهو يشرِّع إلا لحالات واقعة فعلاً، في مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده...

إنه ليس «نظرية» تتعامل مع «الفروض»!.. إنه «منهج» يتعامل مع «الواقع»!..

فلا بد أولاً أن يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة: أن لا إله إلا الله، وأن الحاكمية ليست إلا لله، ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله؛ ويرفض شرعية أي وضع لا يقوم على هذه القاعدة..

.. والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم. وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة

الله... ومن ثمّ لم ينزل الله لهم في هذه الفترة تنظيمات وشرائع[1]؛ إنما نزل لهم عقيدة، وخلقاً منبثقاً من هذه العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة... فلما أن صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان، تنزلت عليهم الشرائع، وتقرر لهم النظام الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية؛ والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاد.

ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة ليختزنوها جاهزة حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة! إن هذه ليست طبيعة هذا الدين!... إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية!.. إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلًا. إنما يواجه الواقع حين يكون واقع مجتمع مسلم مستسلم لشريعة الله رافض لشريعة سواه، بحجمه وشكله وملابساته وظروفه، ليشرع له، وفق حجمه وشكله وملابساته وظروفه.

---

(١) اللهم إلا عدد يسير منها لا يكاد يحسب نسبة إلى ما نزل في المدينة من شرائع.

(٢) معالم في الطريق، ص ٣١ ـ ٣٤.

الفَصْل العَاشِر

أبو ذر في مكة

قال أبو ذر:

«فجئت وقريش يتحدثون في المسجد فقلت: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله» فانْتَفَضَتْ الحِلَقُ فضربوني حتى تركوني كأني نُصُبٌ أحْمَر وكانوا يرون أنهم قتلوني فضربت لأموت».

في مكة.. وعندما يتسامع أبو ذر بدعوة جديدة تدعو إلى توحيد.. و.. فكر جديد.. يرى أهل مكة من قريش وهم يتصدون للدعوة الجديدة وإلى داعيها أن هذه الدعوة خطر يجب أن تطوق فلا تنتشر وتخنق فلا تتنفس.

لكن البدء بالنسبة لهذه الدعوة كان أكبر من قريش، فلقد تجاوز جبريلُ الملك السموات كلها وأوصل الأمانة إلى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وصدع النبي بها صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبث رسول الله هذا الأمر، فتلقفه من تلقفه من أصحاب النفوس الكبيرة الظمّاء إلى النور.. فوقفت قريش محتارة متسائلة عن هذه الدعوة وداعيها.

هو في الذؤابة من قريش فلا تستطيع إيذاءه ابتداء، مراعاة لأعراف الجاهلية وخوفاً من العصبية الهاشمية أن تثور له.

وهل لهذه الدعوة من قيمة ـ عجباً لها؟ ـ وهل على قريش منها خطر؟.

وقررت قريش الجاهلية أن تقاوم الدعوة بادىء ذي بدء بعدة سياسات فالمناحرة والتسفيه والتهكم والترغيب والترهيب مع هذا الذي يتصدى للدعوة مدعياً أنه نبي!.

وأتباعه أو هؤلاء الذين يسيرون وراءه.. إن كان يحميهم حام من أعراف الجاهلية وتقاليد القوم فهم في حماية، أو كانوا ممن لا يحميهم من هذه الأعراف حام فليُضربوا بقوة وبطش... فإن أحد شعارات الجاهلية الرنانة «أن يضرب الجبان ضربة يطير لها قلب الشجاع».

وتواصت قريش بهذا فأخذت تنكل بمن لا حماية له، وتثير حرباً تشهيرية على من لا تستطيع الوصول إليه لاتقائه بحماية أعراف الجاهلية من عصبية أسرية وحرمة جوار آنذاك[1].

أما إذا قدم غريب إلى مكة: وقد سمع ذلك البدوي الغفاري شيئاً عن الدعوة الجديدة، أو قُل عن رجل يزعم أنه نبي. ويتشوق إلى أن يعرف عن هذا الجديد شيئاً أوضح..!.

يأتي البدوي الغفاري وحيداً خائفاً متوجساً كالمذعور يدخل مكة حاضرة العرب جميعاً... ويكون قد سمع عن دعايات قريش عن الدعوة والداعية ما جعله يتخذ في نفسه أسلوباً للسؤال تدسساً مترجماً المثل العربي السائر «إذا كنت في قوم فاحلب في إنائهم» ترجمة عملية بكل ما أوتي، فيتقرب إلى مكي ضعيف بوصف قريش المعاندة لصاحب الدعوة «الذي تدعونه الصابيء»! لكن هذا الحلب في إناء الجاهليين لا يشفع لبدوي غريب وحيد أتى بجريمة كبرى عند الجاهلية فهو يتطلع أن يعرف شيئاً عن صاحب الدعوة - بأي وصف وصفه، مهما كان قبيحاً أو منفراً - إنهم لا يريدون أن يسمع أحد من الناس بوجودها، ولا أن يتحدث أحد من الناس عنها، فكيف أن يجيء الأغراب يسألون ويستفسرون، إنهم يريدون كتم أنفاس هذه الدعوة في مهدها فلا يشم أحد من الناس ريحها، يريدون قتلها بالصمت. فحذار حذار أيها البدوي الغريب إنه درس عنيف لك ولأمثالك من الضعفاء إن تجرأتم أن تتطلعوا للسؤال والاستفسار عن هذه الدعوة الخطيرة، إن الجاهلية

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ج ١، ص ٣٢٠.

لا تريد أن يسمع الناس بوجودها ألبتة. فلا تسبوها معها فهي أمامكم لا تريد ذكرها.. فلو فهمت أيها البدوي الغريب الوحيد مضمون إناء جاهلية قريش فإن الحلب في إنائها يكون بقتل الدعوة وداعيها بالصمت. هكذا تتقرب إلى جاهليي مكة. تجاهل أن في الدنيا دعوة إسلامية، تجاهل أن هناك من يدعي النبوة صادقاً أو كاذباً، ضع ستاراً سميكاً على عقلك وفكرك وحبك للمعرفة.

احلب في إناء الجاهليين فطالما أن سياستهم «اقتله بالصمت» فاصمت وألجم زمام تطلعات عقلك وألزمه الصمت.

لكن جندب بن جنادة الغفاري جاء ليسأل، أخطأ الأسلوب الذي تستنكره قريش أو أصاب، عرف سياسة الدعوة في تلك الفترة أولم يعرف. جاء هذا البدوي الحائر الباحث عن الحق يريد أن يعرف.

يريد أن يتعرف إلى الداعية الذي غيّر أهل مكة! لماذا كانت مكة قبل دعوة محمد حرماً آمناً لا يروع داخله، وكان الرجل قبل الإسلام يقتُل، فيضع في عنقه صوفة، ويدخل أرض الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج من حدود الحرم[1]، فإذا بأهل مكة يتجاوزون هذا العرف من أعراف الجاهلية ـ وأعراف الجاهلية مقدسة عند العرب ـ ويتنمرون عداوة لهذا الدين الجديد فصاروا ويبطشون في أرض الحرم بالضعيف يؤمن به والغريب يسأل عنه!.

يجيء أبو ذر في هذه الفترة المكية وخلال المراحل الأولى من الدعوة وتثبيت العقيدة في نفوس الصفوة الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا أوائل في صفوف الحركة العالمية لتحرير الإنسان في الأرض... في هذه المراحل الأولى من تاريخ الحركة الإسلامية يجيء أبو ذر إلى مكة ليتعرف على الداعية الأول الذي يدعو الناس إلى دين يفرد الرب الواحد بالألوهية والربوبية ويكفر بالأصنام المادية وبجميع الطواغيت.

---

(١) محب الدين الخطيب، مع الرعيل الأول (مكتبة أسامة بن زيد، بيروت) ص ١٧.

جاء سبُعُ قطاع الطرق المتخصصين بين العرب في النهب وقطع الطريق، جاء الذي كان يطرق الحيّ وحده على فرسه أو على رجليه ليغير على القرْم في عماية الصبح فيأخذ ما يأخذ ويدع ما يدع، جاء ليسأل عن هذا الدين فهل يبحث قاطع الطريق عن دين؟.

«قال أبو ذر[١]: خرجنا من قومنا غفار ـ وكانوا يحلّون الشهر الحرام ـ فخرجت أنا وأخي أُنيس وأمنا، فنزلنا على خال لنا، فأكرمنا خالنا وأحسن، فحسدنا قومه فقالوا: إنك إذا خرجت عن أهلك خالَفَ إليهم أُنيس[٢]، فجاء فنثا علينا الذي قيل له[٣]، فقلت:

أما ما مضى من معروفك فقد كدّرته ولا جماع لك فيما بعد.

فقرّبنا صرمتنا[٤] فاحتملْنا عليها، وتغطى خالنا بثوبه يبكي، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فنافر[٥] أُنيس عن صرمتنا وعن مثلها، فأتينا الكاهن فخيَّر أُنيساً[٦] فأتانا أُنيس بصرمتنا ومثلها معها» (م) «فبَلَغَنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل كلّمه وائتني بخبره» فانطلق فلقيه ثم رجع.

فقلت: ما عندك؟

---

(١) جمعنا في هذا الفصل روايات ثلاثة في قصة إسلام أبي ذر. فمع ظهور الاختلاف ـ للوهلة الأولى ـ بين الروايات إلا أن القصة واحدة، ولقد استقل كل راوٍ بعرض قسم منها مع أنها بشيء من التأمل تظهر وحدتها واتفاق الروايات.

وما ورد في هذا الفصل جمع بين رواية البخاري عن عبد الله بن عباس، ومسلم عن عبد الله بن الصامت، وأبي نعيم عن ابن عباس.

(٢) يخالف فلانة: أي يأتيها إذا غاب زوجها، وخالف صاحبه: باصره فإذا غاب دخل على زوجته.

(٣) نثا: أفشى.

(٤) الصرمة: القطعة من الإبل: قيل ما بين العشرين إلى الثلاثين وقيل ما بين الخمسين والأربعين.

(٥) تنافرا: تحاكما، كما في الحسب أو المفاخرة.

(٦) خيّر أنيساً: أي أن الكاهن حكم لأنيس بربح الرهان.

(م) رواية مسلم عن عبد الله بن الصامت، صحيح مسلم (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان) ج ٤، ص ١٩١٩.

فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشر. (ب).

قلت: فما يقول الناس؟.

قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، (وكان أنيس أحد الشعراء).

قال (أنيس): «لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر[1] فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون» (م).

«فقلت له: لم تشفني من الخبر.

فأخذت جراباً وعصا ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه، فأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد. فَتَضَعَّفْتُ[2] رجلاً منهم فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابىء؟ فأشار إلي فقال: «الصابىء».

فمال علي أهل الوادي بكل مَدَرَة وعظْمٍ حتى خررتُ مغشياً علي[3].
(قال): فارتفعت حين ارتفعت كأني نصب أحمر (قال): فأتيت زمزم فغسلت عني الدماء، وشربت من مائها.

وقد لبثت يا ابن أخي ثلاثين، بين ليلة ويوم ما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عُكَنُ بطني[4] وما وجدت على كبدي سخفة

(ب) روايــة البخاري عن ابن عباس ، الجامع الصحيح (دار الفكر، بيروت ، ص ب ٧٠٦١) ج ٤، ص ١٥٩.

(ن) رواية أبي نعيم عن ابن عباس، حلية الأولياء ج ١، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(١) أقراء الشعر: أي طرقه وأنواعه.

(٢) أي اخترت رجلاً ضعيفاً لا يخشى بأسه.

(٣) يظهر أن الحالة كانت شديدة صعبة في مكة على ضعفاء البشر، فها هو ذا أبو ذر البدوي الغريب يعيش في أجواء هذا الإرهاب، فلا يجسر على أن يسأل إلا رجلاً يستضعفه! وحتى هذا الضعيف ما أن يسمع غريباً يسأل عن «الصابىء!» حتى يحرش عليه الناس، فيميلوا عليه بكل مَدَرَة وعظم، يدل على هذا رواية مسلم: عن أنيس «قال: نعم، وكن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شنعوا له وتجهموا» عن كتاب الصحيح، مسلم القشيري النيسابوري، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩١٩.

(٤) العُكنة: بالضم ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً.

جوع[١]. فبينا أهل مكة في ليلة قمراء إضحيان[٢] إذ ضرب على أسمختهم[٣] فما يطوف بالبيت أحد وامرأتان منهم تدعوان إسافاً ونائلة.

قال: فأتتا علي في طوافهما،

فقلت: أنكحا أحدهما الأخرى.

(قال) فما تناهتا عن قولهما (قال)، فأتتا علي.

فقلت: هَنٌ مثل الخشبة (غير أني لا أكني)[٤].

فانطلقتا تولولان وتقولان: لو كان ههنا أحدٌ من أنفارنا.

فاستقبلهما رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأبو بكر وهما هابطان.

قال: ما لكما؟.

قالتا: الصابىء بين الكعبة وأستارها.

قال: ما قال لكما؟.

قالتا: إنه قال كلمة تملأ الفم.

وجاء رسول الله حتى استلم الحجر، ثم طاف بالبيت هو وصاحبه، ثم صلى فلما قضى صلاته. (قال أبو ذر): «فأتيته فإني لأول من حيّاه بتحية الإسلام. (قال) قلت: السلام عليك يا رسول الله[٥].

---

(١) سُخفة جوع: بضم السين وفتحها: هي رقة الجوع وضعفه وهزاله.

(٢) ليلة ضحياء، وإضحيانة، وإضحية بكسرها: مضيئة.

(٣) السماخ والصماخ: بمعنى واحد وهو الخرق الذي في الأذن، أي ناموا.

(٤) هن: من الأسماء الستة، كأخ، معناه: شيء. وغالباً ما يكنى بها عن ذكر الرجل... فهو قد قال لهما كلمة بذيئة تعني ذكر رجل مثل الخشبة تحرشاً بهما، واستخفافاً لعقليهما إذ تدعوان إسافاً ونائلة اللذين فجرا في الكعبة فمسخا صنمين كما كان يتناقل العرب.

كما أن الهن: الفرج أصله هَنٌ عند بعضهم

(٥) ونرى البدوي الغريب في مكة - هنا أيضاً - يتسرع للحلب في إناء آخر، فبعد أن حلب في إناء الجاهليين من أهل مكة فسألهم متقرباً متودداً «أين الذي تدعونه الصابىء» يقابل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيحلب في إنائه رغم أنه لم يسلم بعد ولم يشهد أن محمداً رسول الله، يناديه «يا رسول الله».

ولا بأس بمثل هذا الحلب في آنية أي قوم من أهل الحضر عند البدو طالما أن استعمال =

قال: وعليك السلام، ممن أنت؟.

قلت: من غفار.

(قال) فأهوى بيده فوضع أصابعه على جبهته فقلت في نفسي «كره أن انتميت إلى غفار» فذهبت آخذ بيده، فقدعني[1] صاحبه، ـ وكان أعلم به مني ـ ثم رفع رأسه ثم قال: متى كنت ها هنا؟.

(قال): قلت: قد كنت ههنا منذ ثلاثين، بين ليلة ويوم.

قال: فمن كان يطعمك؟.

(قال) قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني، وما أجد على بطني سخفة جوع.

قال: إنها مباركة، إنها طعام طعم. (م).

«يقول أبو ذر في رواية ابن عباس: فمر علي بن أبي طالب فقال: كأن الرجل غريب!.

(قال) قلت: نعم.

(قال) فانطلق إلى المنزل.

(قال) فانطلقت معه، لا يسألني عن شيء ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه وليس أحد يخبرني عنه بشيء، (قال) فمر بي علي فقال: أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد؟.

(قال) قلت: لا.

قال: انطلق معي (قال فقال): ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟.

(قال) قلت: إن كتمت عليّ أخبرتك.

= مصطلحات الحضر لا تعني عند البدو شيئاً فهي لا تعتبر عندهم من «النفاق الاجتماعي» فهم يتقربون إليهم بخطاب لا يتعدى أفواههم. ولا تعني عندهم شيئاً البتة.

(١) أي: كفّني.

(م) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٢٢.

(ن) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج ١، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

قال: فإني أفعل.

(قال) فقلت له: بلغنا أنه خرج ههنا رجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخي ليكلمه فرجع ولم يشفني من الخبر فأردت أن ألقاه.

قال: أما إنك قد رشدت. هذا وجهي إليه فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحداً أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامض أنت. فمضى، ومضيت معه، فدخلنا على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقلت له: اعرض عليّ الإسلام. فعرضه فأسلمت مكاني» (ب).

«فقال أبو بكر: يا رسول الله، ائذن لي في طعامه الليلة» فانطلق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأبو بكر وانطلقت معهما، ففتح أبو بكر باباً، فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف، وكان أول طعام أكلته بها» (م) (قال أبو ذر): «أقمت مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمكة، فعلمني الإسلام، وقرأت من القرآن شيئاً» (ن) فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل.

فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم (ب) يا رسول الله، إني أريد أن أظهر ديني.

فقال: إني أخاف عليك أن تُقتَل.

قلت: لا بد منه وإن قُتلت.

(قال) فسكت عني، فجئت وقريش حلقاً يتحدثون في المسجد فقلت: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» فانتفضت الحلق فقاموا فضربوني حتى تركوني كأني نصب أحمر - وكانوا يرون أنهم قتلوني» (ن) «فضربت لأموت فأدركني العباس فأكب عليّ ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غفار! ومتجركم وممركم على غفار، أتريدون أن تقطع

(ب) صحيح البخاري ج ٤، ص ٢٢٣.

(م) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٢٢.

(ن) حلية الأولياء ج ١، ص ١٥٨ - ١٥٩.

الطريق!» (ن) «فأقلعوا عني. فلما أن أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس فقالوا: قومي إلى هذا الصابىء؛ فصنع بي مثل ما صنع بالأمس، وأدركني العباس فأكب عليّ وقال مثل مقالته بالأمس» (ب) «فأفقت فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فرأى ما بي من الحال فقال لي: ألم أنهك؟.

فقلت: يا رسول الله حاجة في نفسي فقضيتها.

فأقمت مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: الحق بقومك فإذا بلغك ظهوري فائتني. (ب).

«إنه قد وجهت إليّ أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب، فهل أنت مبلغ عني قومك عسى الله ينفعهم بك ويأجرك فيهم؟.

فأتيت أنيساً فقال: ما صنعت؟.

قلت: صنعت أني قد أسلمت وصدقت.

قال: ما بي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت.

فأتينا أمنا فقالت: ما بي رغبة عن دينكما، فإني قد أسلمت وصدقت.

فاحتملنا حتى جئنا قومنا غفاراً فأسلم نصفهم، وكان يؤمهم إيماء بن رحضة الغفاري ـ وكان سيدهم ـ وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله أسلمنا. فقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة فأسلم نصفهم الباقي. وجاءت أسلم، فقالوا: يا رسول الله؛ إخواننا يا رسول الله نسلم على الذي أسلموا عليه. فأسلموا فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»[1].

(ن) حلية الأولياء ج ١، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(ب) صحيح البخاري، ج ٤، ص ١.

(م) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٢٢.

(١) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٢٢.

الفصل الحادي عشر

النقلة البعيدة

كانت نقلة جد بعيدة تلك التي حولت السبع الغفاري جندب إلى الصحابي الجليل أبي ذر رضي الله عنه.

قاطع الطريق جندب بن جنادة الغفاري... السبع الذي كان يغير على الصرم في عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه فيأخذ ما يأخذ ويدع ما يدع... من قبيلة «غفار» التي بلغت شهرتها في تخصصها في قطع الطريق الآفاق فهاب الناس إرهابها... وخاصة التجار من الناس... يقع المؤمن الجديد بين أيدي الناس يضربونه ليموت... ثم يتعرف «العباس» الرجل التاجر على هوية الغفاري فيصيح في قومه قريش: ويلكم أتقتلون رجلاً من غفار؟ وتجارتكم وممركم على غفار! يهددهم ويحذرهم من مغبة مثل هذا العمل الخطير، إذ هم غير ناجين من هذه القبيلة قاطعة الطريق أيام الرخاء والسلام فكيف بقريش وتجارة قريش إن قتلت قريش أحد أبناء قبيلة قطاع الطريق... غفار؟.

انتقل قاطع الطريق جندب نقلة جديدة بعيدة بعد أن سمع كلمة التوحيد وشهد شهادة الحق... تلك الشهادة التي رافقت تأملاته العقلية التي سبقت بيئته الجاهلية المظلمة... فهو ـ ومع أنه ـ كان قاطع طريق يسلب الناس أموالهم في سبيل أن ينعم بها هو؛ إلا أن عقله الحر كان يأبى أن يكون عبداً لصنم أو طاغوت. فلذلك شهد أن لا إله إلا الله، وأقسم ليصرخَنَّ بها بين أظهر أعدائها من عبدة الطاغوت.

وكانت نقلة جد بعيدة تلك التي حولت قاطع الطريق إلى مسلم داعية.. كانت نقلة جد بعيدة تلك التي حولت السبع الغفاري جندب إلى الصحابي الجليل أبي ذر رضي الله عنه.

وحث أبو ذر رضي الله عنه خطاه وأسرع سيره إلى غفار... ليقوم بالوظيفة الجديدة لأبي ذر الجديد.

الفصل الثاني عشر

الداعية

أسلم أنيس أخوه على يده بعد محاورة لم تدم دقائق . . وكـذلك أسلمت أمـه، وارتحل الـداعية وأمـه وأخـوه إلى غفار، وأسلم نصف غفار بدعوة أبي ذر رضي الله عنه.

لم يصحب أبو ذر رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في مكة أكثر من يومين أو ثلاثة. . . ومع هذا فقد أصبح تأثير «الداعية» الجديد في الناس شديداً بعيد الغور.

أسلم أنيس أخوه على يده بعد محاورة لم تدم دقائق. وكذلك أسلمت أمه.

وأسلم نصف غفار بدعوة أبي ذر رضي الله عنه، فكيف كان أبو ذر يدعو؟ وهل قاسى كثيراً حتى استجابت قبيلة قطاع الطرق إلى الإسلام على يديه فأسلم نصفها واستعد النصف الباقي لإعلان الإسلام عند مرور رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في طريقه عند هجرته للمدينة؟ لقد سكت التاريخ عن تفصيلات دعوة أبي ذر رضي الله عنه لقومه إلا أن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال فيه: ما أقلّت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر[1]. فما وعاه التاريخ لنا في هذا الحديث عن أسلوب أبي ذر ينبئنا عن صدق اللهجة عند الداعية التي تجعل ما يخرج من القلب يسرع ليقع في القلب فيقتنع المدعو مطمئناً للداعية. . . وهكذا كان الداعية أبو ذر الغفاري رضي الله عنه يدعو الناس للإسلام.

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (مكتبة صادر، بيروت) ج ٤، ص ٢٢٨.

الباب الثالث

الإسلام في المدينة

وقام «المجتمع الإسلامي» الذي طبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ونظاماً وخلقاً وسلوكاً، وحكمته عقيدة الإسلام وتصوراته وقيمه وموازينه.

الإسلام في المدينة

في مكة تشتد حملة الجاهلية مسعورة لصد المسلمين عن دينهم، ويتفنن الجاهليون في استعمال أساليب القمع والتعذيب:

توضع الصخرة العظيمة على صدر بلال[1] وهو مسجى على رمضاء الصحراء في الهاجرة.

يلف سعد[2] بحصيرة وتحرق من أدناها ليختنق بالدخان...

تؤجج نار عظيمة حتى يتوهج جمرها ويلقى بخباب[3] عارياً على الجمر حتى يطفىء شحمه الذائب جمر النار...

يستمر عذاب آل ياسر[4] صبراً حتى تقتل سمية بحربة يطعنها بها أبو جهل[5] في قبلها...

أنّات ودماء.. وأشلاء وشهداء.. ولا يكفر أوائل المسلمين بربهم ولا هم عن دينهم يُفتنون.

ويستفتون نبيهم في الموقف الذي يقفون، وماذا يفعلون لرد هذا

---

(1) هو الصحابي: بلال بن رباح الحبشي.

(2) هو الصحابي: سعد بن أبي وقاص الزهري.

(3) هو الصحابي: خباب بن الأرتّ التميمي.

(4) عمار بن ياسر، وياسر أبوه، عربيّ قحطاني مذحجي من عنس، وأمه سمية: كلهم صحابيون.

(5) هو فرعون هذه الأمة: أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي.

العدوان الجاهلي الشرس ـ وهم قد أمسكوا أزمَّة أعصابهم بأيديهم. لا يحدثون حدثاً إلا بأمره فهم المسلمون المنقادون المستسلمون لأمر الله ونهيه بلا اعتراض ـ فيجيبهم نبيهم: إني لم أومر بقتال.

ويكشف خباب عن ظهره المحرّق راجياً من نبي الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يدعو على المعتدين قائلاً: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا.. فيتلقى خباب ومن معه من المسلمين درس رسولهم التالي:

«كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه.. ولكنكم تستعجلون»[1].

أقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفياً، ثم أذن الله سبحانه بالهجرة إلى المدينة وإقامة دولة الإسلام.

---

(١) صحيح البخاري ج ٤، ص ٢٤٤.

الفصل الثالث عشر

في الدولة الإسلامية

أصبحت الحاكمية العليا لله وحده متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية، وأصبحت آصرة التجمع الأساسية هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، فأصبحت إنسانية الإنسان هي القيمة العليا المعتبرة في هذا المجتمع المثالي العظيم.

عندما أُهِّلت العصبة المؤمنة الأولى لإقامة «المجتمع الإسلامي» الأول والدولة الإسلامية، أذن الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولأتباعه بالهجرة إلى المدينة.

وبوصوله عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة وبناء المسجد ظهر «المجتمع الإسلامي» إلى الوجود، وتمتع «المسلمون» بنعمة العيش في إطار «المجتمع الإسلامي» وتحت سيادة «الدولة الإسلامية».

لقد تمخضت حرب الاضطهاد والتعذيب والفتنة عن سبيل الله عن صقل خامات ذهبية في كير الاصطلام، وخرَّجت عناصر تأسيس «المجتمع الإسلامي» الجديد في مدينة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم نوّرها الله.

وقام «المجتمع الإسلامي» الذي طبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة، وشريعة ونظاماً، وخلقاً وسلوكاً، وحكمته عقيدة الإسلام وتصوراته وقيمه وموازينه.

لقد أصبحت ـ في المدينة المنورة ـ الحاكمية العليا لله وحده، متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية، وتحرر في «المجتمع الإسلامي» البشر تحرراً كاملاً

وحقيقياً من العبودية لغير الله تلك التي تظهر في كل مجتمع جاهلي بأي صورة من صور ظهورها، وفي أي نظام جاهلي يطبق.

لقد أصبحت آصرة التجمع الأساسية في مجتمع المدينة الإسلامي هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، هذه الأصرة التي تصدر عن الله وحده، أصبحت الجنسية في هذا المجتمع هي العقيدة الإسلامية، وتوحد في هذا المجتمع الأسود والأبيض والأصفر، العربي والفارسي والرومي والحبشي وسائر أقوام البشر في عقيدة واحدة هي الجنسية الإسلامية. ورفض هذا المجتمع كل آصرة من أواصر التجمع الأخرى على اعتبارها أواصر جاهلية؛ سواء كانت قومية أو وطنية أو عرقية أو طبقية إذ نهاهم نبيهم عن تبني أي آصرة جاهلية قائلاً: «دعوها فإنها منتنة».

لقد أصبحت «إنسانية الإنسان» هي القيمة العليا المعتبرة في هذا المجتمع المثالي العظيم وأصبحت خصائصه الإنسانية هي موضع التكريم، وألغيت «القيم المادية» أثناء تقويم البشر، وعبر القرآن الكريم عن أساس التقويم الإسلامي فقال: ﴿ إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (سورة الحجرات: ١٣) والتقوى خلق إنساني اكتسابي إرادي كريم[1].

---

(١) راجع **معالم في الطريق** فصل: الإسلام هو الحضارة.

الفصل الرابع عشر

التربية النبوية

وعندما يُتحدث عن «تربية الإسلام» أو «تربية القرآن» أو «التربية النبوية» إنما يتحدث عن مدلول واحد لمصطلح منهجي واحد. فالقرآن كتاب الإسلام ورسول الله ﷺ هو أعلى مثل لتطبيق حركية القرآن. فإن سئل عن خلقه أجيب: «كان خلقه القرآن».

مع تنزل التشريع منجماً حسب المناسبات والحوادث يوالي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تربية الصحابة الكرام رعية الدولة الإسلامية الفتية على إيقاعات دروس القرآن الكريم تحت رعاية رب العالمين.. ويلاحق كل واحد على أي مستوى انتسب فيه لعضوية هذا المجتمع وتجنس بجنسية هذه الدولة.. فالإسلام يبدأ مع أي شخص ومنذ لحظة نطقه بالشهادتين ليشده من مستواه الذي دخل فيه الإسلام إلى أعلى.. سواء كان المسلم الجديد بدوياً أو مدنياً، شيخاً أو شاباً أو فتى، ضيق المعرفة، أو واسع العلم.. هو دين الله للبشر جميعاً يتسع صدره لكل المكلفين.. ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾. (سورة الأنبياء: ١٠٧).

إن الحصول على الجنسية الإسلامية والانتساب إلى المجتمع المسلم لا يتمّان بتقديم طلب والموافقة عليه من السلطات المختصة كما هو الحال في باقي الدول والمجتمعات؛ إنما يتم الحصول على الجنسية بشهادة المريد «أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» ويتم الانتساب للمجتمع المسلم بقبول المنهج الإسلامي عامة وتعهد المنتسب بالتلقي والتدرب والتطبيق والحركة عملياً حسب المنهاج المرسوم بيد العناية الربانية.

ولا يوجد ـ ولا يمكن أن يوجد ـ في هذه الدولة وهذا المجتمع ما يسمى «عضوية الشرف» إنما يكلف جميع الأعضاء والمنتسبون سواسية بالإيمان والعمل، ويتقدم أحدهم أو يتأخر بمقدار ما يتحقق فيه من إيمان وآثار إيمان، وما يحققه من عمل ونتائج عمل.. والإخلاص لله عز وجل رائد الفرد والمجموعة والحركة... والقرآن هو الدستور، وجماع هذه المعاني كلها يندرج تحت مصطلح «التقوى».

والقادة في هذا المجتمع المسلم وولاة الأمر والمسؤولون في هذه الدولة ينبغي أن يلتزموا بالقسط الأوفى من «التقوى» ويتحملوا أعباء تربية الأمة على أساس هذا المنهج إضافة لأعباء تربيتهم أنفسهم عليه وإلزامهم ذواتهم إياه. ولذلك ترى المربي الأول عليه صلوات الله وسلامه يقول: «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له»[1].

إن القادة في هذا المجتمع وولاة الأمر هم مربون معلمون سابقون أولون، أما الحكم وقضاياه بمعنى القضاء وفض الخصومات بين الناس؛ فيأتي ـ حسب المنهج ـ في درجة ثانوية قد تتضاءل فلا تكاد تظهر ـ بخاصة عند نجاح القادة في إقامة وظيفتهم في التربية العامة على أساس المنهج ـ إذ لا يحتاج رعية الدولة وأعضاء المجتمع إلى فض الخصومة بعد أن يعرف كل واحد حقه فيقف عنده ولا يبقى داع لفض الخصومة عند انعدامها (وقد تعدد هذا الوضع مرات عند تولي قيادة إسلامية راشدة لدولة إسلامية صالحة).

وعندما يُتحدث عن «تربية الإسلام» أو «تربية القرآن» أو «التربية النبوية» إنما يتحدث عن مدلول واحد لمصطلح منهجي واحد فالقرآن كتاب الإسلام ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو أعلى مثل لتطبيق حركية القرآن، فإن سئلت عائشة عن خلقه أجابت «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»[2].

---

(١) صحيح البخاري. ج ٧، ص ٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب جامع صلاة الليل.

وعندما نحاول رصد منهاج التربية النبوية «أو تربية الإسلام، أو تربية القرآن» سنلمس دقة عجيبة في عنايته بكل وتر من أوتار النفس البشرية وكل جانب وكل اتجاه.. إنه يربي بالقدوة، ويربي بالقصة، ويربي بالموعظة، ويربي بالأحداث، ويربي بالتعود، ويربي بالعقوبة والقصاص.. كما يربي بالوعد والوعيد.

وكل لون من هذه الألوان ينفذ إلى النفس البشرية من أحد منافذها ويلعب على أوتارها حتى يغادر الإنسان في النهاية ولم يبق منفذ واحد لم ينفذ إليه، ولا وتر واحد لم يوقع عليه ولا جانب ولا اتجاه.

لقد تحولت العقيدة والفكرة ـ بفضل هذا المنهج ـ إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض وتسيّر أحداث التاريخ.

الفصل الخامس عشر

المنهج

كان النبع الأول والوحيد الذي استقى منه الصحابة الكرام هو نبع «القرآن» صافياً، وكان منهج التلقي للتنفيذ هو أسلوب الجيل الأول في تعاملهم مع القرآن وكانت العزلة الشعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه.

يطول الحديث عن المنهج الإسلامي في التكوين والتربية والحركة، ويهمنا منه هنا لفتة خاطفة إلى النبع، وأسلوب التلقي، وشعور الانتساب للمجتمع المسلم.

فلقد كان النبع الأول والوحيد الذي استقى منه جيل الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين - هو نبع القرآن.. صافياً. «القرآن وحده» فما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهديه إلا أثراً من آثار ذلك النبع.. كان القرآن وحده هو النبع الذي يستقون منه، ويتكيفون به، ويتخرجون عليه، ولم يكن ذلك كذلك لأنه لم يكن للبشرية يومها حضارة، ولا ثقافة، ولا علم، ولا مؤلفات، ولا دراسات، كلا! فقد كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوروبا تعيش عليه، أو على امتداده. وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها، وهو ما لا يزال ينبوع التفكير الغربي حتى اليوم. وكانت حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك. وحضارات أخرى قاصية، ودانية: حضارة الهند وحضارة الصين الخ. وكانت الحضارتان الرومانية

والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة العربية. فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية والثقافات العالمية يُقصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده، في فترة تكوينه، وإنما ذلك عن «تصميم» مرسوم، ونهج مقصود، يدل على هذا القصد غضب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقد رأى في يد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ صحيفة من التوراة. فقال له: ... وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني».

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريد صنع جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، خالص التكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الإلهي، الذي يتضمنه القرآن الكريم.

وكان منهج التلقي للتنفيذ هو أسلوب الجيل الأول في تعاملهم مع القرآن فهم «لم يكونوا يقربون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع، لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان «الأمر اليومي» ليعمل به فور تلقيه! ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وكذلك كان منهاج تنزل القرآن أيضاً فهو لم يتنزل جملة واحدة إنما نزل وفق الحاجات المتجددة، ووفق النمو المطرد في الأفكار والتصورات، والنمو المطرد في المجتمع والحياة، ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية، لقد كان «منهج التلقي للتنفيذ والعمل»

هو الذي صنع الجيل الأول... أما الحالة الشعورية للمواطن الإسلامي المنتسب إلى هذا المجتمع الجديد فلقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية. كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية، وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام! ولهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام الجديد، فإذا غلبته نفسه مرة، وإذا اجتذبته عاداته مرة، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة.. شعر في الحال أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهدي القرآني.

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه..

وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية، وعرفها وتصورها، وعاداتها وروابطها، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود.

وكان هذا مفرق الطريق، وكان بدء السير في الطريق الجديد، السير الطليق مع التخفف من كل ضغط للتقاليد التي يتواضع عليها المجتمع الجاهلي، ومن كل التصورات والقيم السائدة فيه»[1].

ويبنى المجتمع الإسلامي، ولا يفتر نبي الله عليه وعلى آله الصلاة والسلام يوالي البناء والتكوين والتربية... للمؤسسين والوافدين من المهاجرين.. فجد وعمل ودراسة وجهاد وغزوات وتمضي «بدر وأُحد والخندق»[2] ثم يجيء أبو ذر عضواً ـ للتكوين في صرح المجتمع الإسلامي المدني من جديد بعد أن

(١) معالم في الطريق ص ١٢ ـ ١٧.

(٢) علي بن محمد الشيباني، أسد الغابة (المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ) ج ١، ص ٣٠١.

كان أعلن إسلامه في مكة منذ سنين.. يجيء للمدرسة النبوية متعهداً بالتلقي والتدرب والتطبيق والحركة عملياً ليستقيم عوده بالتربية على منهاج التربية في المجتمع الإسلامي العظيم.

فإذا تابعنا رحلة أبي ذر إلى الله بعد هجرته من غفار إلى المدينة المنورة نجده يستقر بين أهل الصفة أول ما يصل إلى المدينة.. فما هي الصفة ومن هم أهل الصفة؟.

الفصل السادس عشر

المسجد والصفة[1]

ولما ظهرت حاجة الدولة لمعسكر عام يقوم بمهمة التعليم والتوجيه والتربية والاجتماع والتدريب استخدم المسجد الكبير الجامع لتأمين كل هذه الحاجات.. وكذلك بنيت في مسجد المدينة صفة للمجاهدين المستنفرين والفقراء والضعفاء من المهاجرين الذين لا عرفاء لهم في عاصمة الإسلام.

لم تكن الحركة الإسلامية - في عهد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - «حركة إصلاحية» تقضي على العهد البائد وتستبدل رجال حكم لاحقين برجال حكم سابقين يسوسون مؤسسات الدولة القديمة بسياسات جديدة حسب منهاج رجال الدولة الجدد؛ بل إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بنى دولة الإسلام على غير مثال سبقه، وأقام مؤسسات الدولة الجديدة حسب الحاجات المستجدة لها في حدود الإمكانيات المادية والاستعدادات الشخصية لجنود هذه الدولة وقيادتها تحت رعاية عين الله عز وجل وعلى هدي الأوامر الربانية المحكمة في كتاب الله سبحانه وتعالى. كل هذا مع وجود دول عريقة سابقة للدولة الإسلامية الفتية ومعاصرة لها تقوم على مؤسسات لها هياكلها ونظمها المشهود لها واقعياً بأداء منتج لما هو مطلوب منها في وظائفها، أو هي متوارثة أصبحت ركناً بديهياً لا بد للدولة من إقامته ولا يفكر أحد بإلغائه أو تعديله أو تحويره «كمؤسسات الجيوش النظامية، والشُرط، والمحاكم، ورجال الدين وباقي مؤسسات الدول».

---

(١) صفة وصفف: كغرفة وغرف.

إن المؤسسات والأجهزة في الدولة الإسلامية ـ مع إمكانية اشتراكها بالأسماء أو الوظائف مع مؤسسات وأجهزة الدول الأخرى ـ إنما تنشأ أو توسع لحاجة الأمة في مرحلة من مراحل سيرها إليها، وتُقلص أو تُلغى لتضاؤل هذه الحاجة أو انعدامها.

ولهذا أُقيم المسجد الكبير الجامع في قلب المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية فكان أول مؤسسة إسلامية أقيمت، وتعددت وظائف هذه المؤسسة الإسلامية الأولى والأساسية.

أُقيم المسجد في المدينة المنورة ـ وفي كل بلدة وحاضرة وضيعة ومحلة ـ بناء لعبادة الله وهذا هو المبرر الأول من وجود المسجد ووجود الدولة ووجود الإنس والجن، وهو مبرر دائم لا ينقضي ولا ينتهي.

ولما ظهرت حاجة الدولة لمعسكر عام يقوم بمهمة التعليم والتوجيه والتربية والاجتماع والتدريب؛ استخدم المسجد الكبير الجامع لتأمين كل هذه الحاجات وتلبيتها، فأصبح المسجد مدرسة تعليمية تربوية إلى جانب كونه مكان صلاة الجماعة وتجميع الجمع والاجتماعات العامة، ثم أصبح ميدان تدريب عسكري استعداداً للغزوات والسرايا، ومخيماً لتمريض الجرحى العائدين من المعارك، ونصب فيه خيام الوفود القادمين لمقابلة رأس الدولة نبي الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وكذلك بنيت في مسجد المدينة صفّة للمجاهدين المستنفَرين والفقراء والضعفاء من المهاجرين الذين لا عرفاء لهم في عاصمة الإسلام.

الفَصل السَابع عَشر

أهل الصفة

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ (سورة الكهف: ٢٨).

من هم؟

يتقاطر المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يتوافدون عليه في المدينة. . وبيوت الأنصار محدودة العدد، محدودة السعة، والوافدون يتزايدون لا يفترون، فكان «الرجل إذا قدم على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة»[١].

لقد كان أهل الصفة قوماً من المسلمين هاجروا إلى دولة الإسلام قد باعوا أنفسهم لله ووقفوها للجهاد والعلم قاطعين كل العلائق التي تربطهم بالدنيا فلا مال لهم ولا مأوى ولا متاع «فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم»[٢].

عددهم ووصفهم:

﴿ للفقراءِ الّذينَ أُحصروا في سبيلِ الله لا يستطيعونَ ضَرباً في الأرضِ

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ٣٧٤.
(٢) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧ م طبعة دار الكتب المصرية) ج ٣، ص ٣٤٠.

يحسَبُهُمُ الجاهلُ أغنيـاءَ من التعففِ تَعرفُهم بِسيمـاهُم لا يَسألون الناسَ إلحافاً ﴾ (البقرة: ٢٧٣) يقول القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن في هذه الآية: «تتناول الآية كل من دخل تحت صِفَةِ الفقراء غابر الدهر» وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم وهم أهل الصفّة وكانوا نحواً من أربعمائة رجل، وذلك أنهم كانوا يقدمون فقراء على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقيل لهم: أهل الصفّة[1]. وكان عدد قاطني الصفّة يختلف على حسب اختلاف الأوقات والأحوال، فربما تفرق عنها وانتقص طارقوها من الغرباء والقادمين فيقل عددهم، وربما يجتمع فيها واردوها من الورّاد والوفود فينضم إليهم فيكثرون، غير أن الظاهر من أحوالهم، والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم وإيثارهم القلّة واختيارهم لها، فلم يجتمع لهم ثوبان، ولا حضرهم من الأطعمة لونان»[2]. يقول أبو هريرة: «وأهل الصفّة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها»[3].

فقرهم ولباسهم:

«كان من أصحاب رسول الله صلى عليه وعلى آله وسلم قوم فقراء لا منازل لهم، وكانوا في صفّة يـأوون إليها في المسجـد.. وعن واثلة بن الأسقع: كنت من أصحاب الصفّة، وما منا إنسان يجد ثوباً تاماً فقد جعل الغبار والعرق في جلودنا طرقاً»[4]. وقال أبو هريرة: رأيت سبعين رجلاً من أصحاب الصفّة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في

---

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٠.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ج ١، ص ٣٤٠.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٠.

(٤) أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٢٧٢.

أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته[1] «وكان أصحاب الصفّة الفقراء»[2].

جوعهم:

كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في صلاتهم لما بهم من الخصاصة ـ وهم أصحاب الصفّة ـ حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين[3]. وعن أبي هريرة قال: «كنت في الصفّة، فبعث إلينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عجوة فكنا نقرن الثنتين من الجوع، ويقول لأصحابه: قرنت فاقرنوا»[4]. وعن محمد بن سيرين «وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا أمسى قسم ناساً من أهل الصفّة بين ناس من أصحابه، كان الرجل يذهب بالرجل، والرجل يذهب بالرجلين والرجل يذهب بالثلاثة (حتى ذكر عشرة) فكان سعد بن عبادة يرجع بثمانين منهم يعشيهم[5].

تعلمهم وعلمهم:

«أقبل أبو طلحة يوماً فإذا بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قائم يقرىء أصحاب الصفة، على بطنه فصيل من حجر يقيم به صلبه من الجوع.

كـان شغلهم تفهم الكتاب وتعلمه ونهمتهم الترنم بالخطاب وتردده»[6].

ويقول أبو هريرة: «تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمثل حديث أبي هريرة! وإن إخوتي

---

(١) البخاري ج ١، ص ٨٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٨٨.
(٣) حلية الأولياء، لأبي نعيم ج ١، ص ٣٣٩.
(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣٩.
(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٤.
(٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٢.

من المهاجرين يشغلهم صَفْق بالأسواق وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم. وكنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا، وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصفة، أعي حين ينسون»[1].

ذكرهم والوصية بهم:

عن سلمان الفارسي قال: «جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا: يا رسول الله؛ إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم [يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين ـ وكان عليهم جباب الصوف لم يكن عندهم غيرها] جلسنا إليك وخالصناك وأخذنا عنك» فأنزل الله عز وجل ﴿ واتلُ ما أوحيَ إليكَ مِنْ كتابِ ربِّكَ لا مبدِّلَ لِكلماتهِ ولَنْ تجدَ مِنْ دونه ملتَحداً واصبرْ نفسكَ مع الذين يَدْعونَ رَبَّهم بالغداةِ والعشيِّ يريدون وَجْهَهُ ولا تَعْدُ عيناكَ عنهُمْ تريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا، ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنا قَلْبَهُ عن ذكرنا واتَّبعَ هَواهُ وكان أمرُهُ فُرُطاً * وقُلِ الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فليؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيكفُرْ إنّا أعْتَدْنا للظالمينَ ناراً أحاطَ بِهِمْ سُرادقها ﴾[2]ـ يتهددهم بالنار، فقام نبي الله يلتمسهم، حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي. معكم المحيا، ومعكم الممات»[3].

البركة عليهم:

عن واثلة بن الأسقع قال: كنت في محرس يقال له الصفّة، ونحن عشرون رجلاً، نابنا جوع ـ وكنت أحدث أصحابي سناً ـ فبعثوني إلى النبي

---

(1) صحيح البخاري، الجامع الصحيح ج ٢، ص ٢٤.

(2) سورة الكهف: ٢٩.

(3) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج ١، ص ١٧٢.

صلى الله عليه وعلى آله وسلم أشكو جوعهم، فالتفت في بيته فقال:

هل من شيء؟.

قالوا: نعم، ها هنا كسرة أو كسرٌ وشيء من لبن.

قال: فائتوني به.

ففت الكسر فتاً دقيقاً، ثم صب عليه اللبن ثم جبله كالثريد ثم قال: يا واثلة، ادع عشرة من أصحابك وخلف عشرة.

ففعلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: اجلسوا بسم الله.

فجلسوا فقال: كلوا بسم الله من حواليها، وأعفوا رأسها فإن البركة تأتي من فوقها.

(قال): فرأيتهم يأكلون حتى تملّوا شِبَعاً. ثم قال لهم: انصرفوا إلى مكانكم وابعثوا أصحابكم. فأمرهم بمثل الذي أمر به الأولين، فأكلوا حتى تملّوا شبعاً، وإن فيها لفضلة، وقمت متعجباً مما رأيت[1].

عريفهم وبعض مشاهيرهم

أبو هريرة

«وهو أشهر من سكن الصفة واستوطنها طول عمر النبى صلى الله عليه وعلى آلـه وسلم ولم ينتقل عنها، وكان عريف من سكن الصفة من القاطنين ومن نزلها من الطارقين، كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذا أراد أن يجمع أهل الصفة لطعام حضره تقدم إلى أبي هريرة ليدعوهم ويجمعهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم[2]».

وكان منهم بلال بن رباح الحبشي، وخباب بن الأرت، وسلمان الفارسي.

وكان منهم واثلة بن الأسقع، وعقبة بن عامر، وخريم بن فاتك.

وكان منهم **أبو ذر الغفاري**.

رضي الله عنهم وأرضاهم.

---

(١) أنساب الأشراف (للبلاذري) ص ٢٧٣.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ج ١، ص ٣٧٧.

الفصل الثامن عشر

من دروس التربية

«والله الذي لا إله إلا الله هو إن كنت لأعتمد على كبدي من الجوع. وأن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع».
أبو هريرة

يا أبا رزين

يأتي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لرجل من أصحاب الصفّة يكنى أبا رزين فيقول له:

«يا أبا رزين، إذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله، فإنك لا تزال في صلاة ما ذكرت ربك، إن كنت في علانية فصل العلانية، وإن كنت خالياً فصل الخلوة. يا أبا رزين، إذا كابد الناس قيام الليل وصيام النهار فكابد أنت النصيحة للمسلمين. يا أبا رزين، إذا أقبل الناس على الجهاد في سبيل الله فأحببت أن تكون لك مثل أجورهم فالزم المسجد تؤذن فيه لا تأخذ على ذلك أجراً[1].

أي رجل أنت لولا..

وفي قضية شخصية يتحدث صحابي عن الأسلوب الذي جيء به.

«فعن خريم بن فاتك ـ وكان من أهل الصفّة ـ قال: نظر إلي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: أي رجل أنت لولا أن فيك خصلتين!.

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ٣٦٦.

قلت: وما هما يا رسول الله - إن واحدة تكفي - فما هما؟.

قال: تسبيل إزارك، وتوفير شعرك.

(قال) فرفع إزاره وأخذ من شعره[1].

أيكم يحب؟

وفي الحث على طلب العلم والترغيب به في المحاضرة على جمع من الصحابة يتحدث عقبة بن عامر فيقول: «خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ونحن في الصفّة فقال: أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي من بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم.

فقلنا: يا رسول الله، كلنا نحب ذلك.

قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله تعالى خير له من ناقتين وثلاث، خير له من ثلاث وأربع، خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل!»[2].

تجديد الطريقة:

جاء رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى أهل الصفّة فقال: كيف أصبحتم؟.

قالوا: بخير.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أنتم اليوم خير[3]، وإذا غُدي على أحدكم بجفنة وريح بأخرى، وستر أحدكم بيته كما تستر الكعبة.

فقالوا: يا رسول الله، نصيب ذلك ونحن على ديننا؟.

قال: نعم.

قالوا: فنحن يومئذٍ خير نتصدق ونعتق.

---

(1) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٦٣.

(2) صحيح مسلم ج ٢، ص ١٩٧.

(3) أحمد بن حنبل، المسند (المطبعة الميمنية بمصر، ط ١٣١٣ هـ) ج ٥، ص ١٧٥.

فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: لا بل أنتم اليوم خير، إنكم إذا أصبتموها تحاسدتم وتقاطعتم وتباغضتم».

إنا قائمون إن شاء الله:

عن أبي ذر أنه قال: لما كان العشر الأواخر اعتكف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المسجد، فلما صلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلاة العصر من يوم اثنين وعشرين قال: «إنا قائمون إن شاء الله، فمن شاء أن يقوم فليقم» وهي ليلة ثلاث وعشرين، فصلاها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم جماعة بعد العتمة حتى ذهب ثلث الليل ثم انصرف، فلما كان ليلة أربع وعشرين قام بعد صلاة العصر يوم أربع وعشرين فقال: «إنا قائمون الليلة إن شاء الله [يعني ليلة خمس وعشرين] فمن شاء فليقم» فصلى الناس حتى ذهب ثلث الليل ثم انصرف، فلما كان ليلة ست وعشرين لم يقل شيئاً ولم يقم، فلما كان عند صلاة العصر من يوم ست وعشرين قام فقال: «إنا قائمون إن شاء الله [يعني ليلة سبع وعشرين] فمن شاء أن يقوم فليقم» (قال أبو ذر): فتجلدنا للقيام فصلى بنا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى ذهب ثلث الليل، ثم انصرف إلى بيته في المسجد. فقلت له: إن كنا قد طمعنا يا رسول الله أن تقوم بنا حتى الصبح.

فقال: يا أبا ذر، إنك إن صليت مع إمامك وانصرفت إذا انصرف كتب لك قنوت ليلتك»[1].

أبا هر، بقيت أنا وأنت:

قال أبو هريرة: آلله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد على كبدي من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر بي أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله - ما سألته إلا ليستتبعني - فمر فلم يفعل، ثم مر بي عمر، فسألته عن آية من كتاب

---

(١) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٢.

الله ـ ما سألته إلا ليستتبعني ـ فمر ولم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتبسم، وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: يا أبا هر.

قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: الحق.

ثم مضى، واتبعته، فدخل واستأذن فأذن لي، فدخلت فوجد لبناً في قدح فقال: من أين هذا اللبن؟.

فقالوا: أهداه لك فلان «أو فلانة».

فقالت: يا أبا هر.

فقلت: لبيك يا رسول الله.

قال: الحق أهل الصفّة فادعهم.

(قال) وأهل الصفّة أضياف الإسلام لا يلون على أحد ولا مال، إذ أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها.

فساءني ذلك فقلت: ما هذا اللبن في أهل الصفّة! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاؤوا أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن! ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بد فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا، واستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت فقال: يا أبا هر.

قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: خذ فأعطهم.

فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل، فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح، حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ وقد روي القوم كلهم ـ فأخذ

القدح فوضعه على يده، فنظر إلي فتبسم، فقال: أبا هر.

قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: بقيت أنا.. وأنت.

قلت: صدقت يا رسول الله.

قال: اقعد فاشرب.

فقعدت فشربت.

فقال: اشرب.

فشربت، فما زال يقول اشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً.

قال: فأرني.

فأعطيته القدح، فحمد الله، وسمّى، وشرب الفضلة»[1].

ثم نعود بعد نماذج متفرقة من بعض أساليب التربية مع أهل الصفة لنركز على دروس التربية لواحد من أهل الصفّة، وربما كان تتبعنا للدروس الملقاة على أبي ذر رضي الله عنه تكشف النور الموضح لأساليب المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم كما تبين معالم شخصية الصحابي الجليل في فترة التكوين والتربية والتلمذة على يد النبوة في مدرسة الإسلام الأولى.

---

(١) صحيح البخاري ج ٨، ص ١٢١.

الباب الرابع

تلميذ الرسول

صلى الله عليه وعلى آله وسلم

كان تلميذ المدرسة النبوية يتحصل منها على العلم والتربية والتطبيق خلال ممارسة الحياة، ويتلقى الدرس حسب الحاجة، وفور ظهور الضرورة.

تلميذ الرسول

صلى الله عليه وعلى آله وسلم

كان أبو ذر قد أعلن إسلامه منذ سنوات في مكة، تلقى فيها درس التوحيد من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليخلص توجهه لله وحده، كما تلقى في مكة درساً في الثبات على الحق على يد أعداء الدعوة كاد أن يودي بحياته، ثم عاد ليعيش سنوات مع قبيلته «غفار» التي كانت مع جارتها «أسلم» متخصصة في قطع الطريق، وأسلم على يديه بدعوته نصف قبيلته، ثم أسلف النصف الثاني في مسيرة الهجرة النبوية المباركة إلى المدينة، ثم مضت بدر وأُحد[1] والخندق، ثم لحق أبو ذر مهاجراً إلى المدينة عاصمة الإسلام ومنطلق الدعوة، ونزل بالمسجد مع أصحاب الصفّة، قد أسلس قياده لمحمد رسول الله نبي الرحمة عليه وعلى آله الصلاة والسلام بعد أن أخضع رأسه ووجّه وجهه لله الذي لا إله إلاّ هو.

ومن تتبعنا لما رواه أبو ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تتوضح لنا متنوعات من أساليب التربية تحف برجل من أهل الصفّة جاء مستسلماً منقاداً معاهداً على التلقي والتدريب والحركة عملياً ليستقيم عوده بالتربية على منهاج رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وفي أثناء مسيرة التربية النبوية ـ تكلؤها عين الله، وتلهمها بالوحي، في اطلاع مهيمن على الماضي والحاضر والمستقبل، والظاهر والمستتر وما تخفي

---

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (طبعة مكتبة المثنى، بغداد، المصورة عن طبعة مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر ١٣٢٨ هـ) ج ٤، ص ٦٣.

الصدور - تشرئب هفوات وهنوات وغلطات تنتسب إلى عناصر قديمة من مكونات الشخصية الصحابية - وشخصية أبي ذر من هذه الشخصيات - بعضها بعيدة عميقة الأثر في الشخصية، وبعضها ضحلة قريبة الغور، تولى المربي - عليه وعلى آله الصلاة والسلام - اجتثاثها جميعاً ليشكل من أبي ذر - وزملائه من تلاميذ المدرسة؛ لبنات إسلامية صافية صالحة من جيل مؤسسي الحركة الإسلامية الأولى التي شكلها رسول الله على مراد الله.

كما تتوضح لنا من تتبعنا لأنوار ما رواه أبو ذر - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عناصر شخصية هذا الصحابي ومكوناتها الأولى. ذلك مما يساعدنا على التعرف عن قرب - على الدوافع والحوافز والمبررات التي أدت به إلى كثير من المواقف التي حفظها لنا التاريخ الصحيح لأبي ذر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإذا اقتربنا من شخصية هذا التلميذ - الذي هو من «نجباء» المدرسة - نجد أنه كان «للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ملازماً وجليساً، وعلى مساءلته والاقتباس منه حريصاً، وللقيام على ما استفاد منه أنيساً، سأله عن الأصول والفروع، وسأله عن الإيمان والإحسان، وسأله عن رؤية ربه تعالى، وسأله عن كل شيء حتى مس الحصا في الصلاة.. عن أبي ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كل شيء حتى سألته عن مس الحصا، فقال: مسه مرة أو دع[1].

وقال «لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومايقلب طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علماً»[2]. وعن أبي الدرداء قال «كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يبتدىء أباذر إذا حضر ويتفقده إذا غاب»[3].

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ١٦٩ والسؤال عن تسوية الأرض عند السجود أثناء الصلاة.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت، لبنان) ج ٣، ص ٣٥٤.

(٣) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ص ٤٠.

وأخبر أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال «لم يلقني قط إلا أخذ بيدي غير مرة واحدة، وكانت تلك آخرهن، أرسل إلي فأتيته في مرضه الذي توفي فيه، فوجدته مضطجعاً، فأكببت عليه، فرفع يده فالتزمني صلى الله عليه وعلى آله وسلم»[1].

لقد عمدنا في هذا الباب إلى تصنيف الدروس التي كان يتلقاها أبو ذر رضي الله عنه في فصول أربعة، كان أولها فصل «دروس عامة» تتبين فيها بعض أساليب التربية التي كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يأخذ أصحابه بها من خلال ما روى أبو ذر رضي الله عنه، وفي الفصل تنويع للمواضيع، وفيه تعدد للأساليب.

ثم جمعت في الفصل الثاني «أذكار ورقائق» بعض روايات أبي ذر مما تلقاه وزملاءه في مدرسة النبوة رضي الله عنهم من الوصايا والحث على المثابرة على بعض الأذكار والنصائح التي ترتفع بالمسلم إلى شفافية في الروح وتحليق بها سام.

أما الفصل الثالث «وصايا خاصة» فلقد حُشد فيه من الوصايا ـ الموجهة إلى أبي ذر رضي الله عنه مباشرة ـ ما يلقي الضوء الساطع على تفرد شخصية الصحابي المسلم وتميزها في جبلتها وخلقتها.

ثم جاء الفصل الرابع «لمسات أخيرة» واستُعرضت فيه مشاهد ومواقف لأبي ذر رضي الله عنه يتلقى فيها دروساً في التربية وهو يعيش الأيام الأخيرة مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ولعله من المفيد أن ننبه قبل المضي في فصول هذا الباب أن أبا ذر رضي الله عنه لم يكن يدرس في المدرسة النبوية على أسلوب المدارس الرسمية هذه الأيام حيث ترى الفصل الكامل بين نوع دروس ونوع دروس أخرى، وبين دروس نظرية وتطبيقات عملية، بل إن تلميذ المدرسة النبوية

---

(١) صحيح مسلم ج ٥، ص ١٦٢.

كان يتحصل منها على العلم والتربية والتطبيق خلال ممارسة الحياة، ويتلقى الدرس حسب الحاجة وفور ظهور الضرورة.

وربما يتوضح عذرنا أمام الكثير من القراء عما قد يعتبر إطالة في رواية النصوص الكثيرة في هذا الباب، ذلك لتقف هذه النصوص ـ بحد ذاتها وحدها ـ سداً أمام مفتريات المفترين، أولئكم القوم الذين باعوا أنفسهم للشيطان واتخذوا الكذب مطية لهم بقصد تشويه تاريخ حملة الرسالة الأولين، فاختلقوا لهم مواقف لم يكن لها أصل في حقيقة الأمر في تاريخ الصحابة، ولم تكن هذه المواقف المختلفة والقصص الملفقة لتتفق أو تنسجم مع نفسية الصحابي المسلم رضي الله عن الصحابة أجمعين.

كما أن الإطالة في رواية النصوص، وبخاصة في فصل «وصايا خاصة» سيكون فيها عون ـ أي عون ـ على جلاء شخصية أبي ذر رضي الله عنه، تلك الشخصية الصحابية المسلمة التي أعلنت الانقياد والامتثال لأمر الله ونهيه ـ بدون اعتراض ـ مع بقية الشخصيات الصحابية المسلمة رضوان الله عليهم أجمعين من مسلمين لله مخبتين.

الفَصْلُ التَاسِع عَشَر

دروس عامة

أما عندما يعيِّر أخاً له في الإسلام بأمه ـ كما هي عادة الجاهليين ـ فيقول متهكماً على سواد لونها: «يا بن الحميراء» يكون الدرس قاسياً . . إنك امرؤ فيك جاهلية.

وتتعدد الدروس عن «القيم الجديدة التي يوزن بها الرجال في المجتمع الإسلامي».

بعد طول شوق ولهفة، يصل المهاجر ليحط عصا ترحاله في صفّة المسجد النبوي في عاصمة الإسلام، ويقابل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم اللقاء الثاني بعد لقاء مكة فيسأله «أنت أبو نملة؟» وتتدافع تساؤلات وأسئلة واستفسارات واستفتاءات في خاطر المهاجر الجديد طالب العلم، فنشهد معه حواراً طويلاً مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يبتدىء بتعليم وتوجيه «إن للمسجد تحية، وإن تحيته ركعتان فقم فاركعهما» ثم يأتي المربي ليرى التلميذ نائماً في وضعية يرتاح إليها تعودها في غفار . . . ولا يغفر مثلها في الإسلام فيعلمه بأنها «ضجعة الشيطان» أما عندما عيّر أخاً له في الإسلام بأمه ـ كما هي عادة الجاهليين ـ فيقول متهكماً على سواد لونها «يابن الحميراء» فيكون الدرس قاسياً . . . «إنك امرؤ فيك جاهلية» وتتعدد الدروس عن «القيم الجديدة التي يوزن بها الرجال في المجتمع الإسلامي» فيسأله «أترى كثرة المال هو الغنى» وتظهر شدة في اللهجة عند إساءة السؤال . . «لا تسألني عن شيء بعدها» وتتلطف الدعابة الحلوة مع تقرير رحابة رحمة الله وغفرانه على «رغم أنف أبي ذر» وقصة من قصص اليوم الآخر تضحكه «حتى بدت نواجذه» وتوجيه لمن يستطيع الباءة فليتزوج «أنت

إذن من إخوان الشياطين» و «أنت مع من أحببت» والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، فيرجم أمامه رجل عقوبة وحداً، و «غفر له وأدخل الجنة» و «رجم امرأة» ثم المال عارية، وهو امتحان من الله لمن ملكه «فالأكثرون هم الأقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» و «من أبواب الصدقة التكبير وسبحان الله والحمد لله» «أما الأئمة المضلون» فهم أخوف على الأمة من الدجال. و «صلِّ الصلاة لوقتها» و «أينما أدركتك الصلاة فصل» و«إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه» و«لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» و «وصية بصلاة الضحى، والوتر قبل النوم، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر».

ولنعد في هذا الفصل إلى تفصيل هذه الدروس كما رواها أبو ذر رضي الله عنه.

أنت أبو نملة

عندما دخل أبو ذر رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم «فقال: أنت أبو نملة؟.

فقال: أنا أبو ذر.

قال: نعم، أبو ذر»[1].

إن للمسجد تحية

في حوار بين رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبين أبي ذر رضي الله عنه يحدثنا أبو ذر عن هذا الدرس فيقول: «دخلت المسجد وإذا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم جالس وحده، فجلست إليه، فقال: يا أبا ذر إن للمسجد تحية، وإن تحيته ركعتان، فقم فأركعهما.

(قال) فقمت فركعتهما، ثم عدت فجلست إليه فقلت: يا رسول الله، إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة؟.

---

(١) ابن عبد البر النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (مكتبة المثنى بغداد، مصورة عن طبعة مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ١٣٢٨ هـ) ج ٤، ص ٦٤.

قال: خير موضوع، استكثر منها أو استقل.

قلت: يا رسول الله فأي الأعمال أفضل؟.

قال: إيمان بالله عز وجل، وجهاد في سبيله.

(قال) قلت: يا رسول الله فأي المؤمنين أكملهم إيماناً؟.

قال: أحسنهم أخلاقاً.

(قال) قلت: يا رسول الله فأي المؤمنين أسلم؟.

قال: من سلم الناس من لسانه ويده.

(قال) قلت: يا رسول الله، أي الصلاة أفضل؟.

قال: طول القنوت.

(قال) قلت: يا رسول الله فما الصيام؟.

قال: فرض مجزىء، وعند الله أضعاف كثيرة.

(قال) قلت: يا رسول الله؛ فأي الرقاب أفضل؟.

قال: أغلاها ثمناً وأنفسها عند ربها.

(قال) قلت: يا رسول الله؛ فأي الصدقة أفضل؟.

قال: جهد من مقلّ يُسَرُّ إلى فقير.

قلت: يا رسول الله فأي آية مما أنزل الله عز وجل عليك أعظم؟.

قال: آية الكرسي.

ثم قال: يا أبا ذر؛ ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة،وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة.

قلت: يا رسول الله؛ كم الأنبياء؟.

قال: مائة ألف، وأربعة وعشرون ألفاً.

قلت: يا رسول الله؛ كم الرسل؟.

قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر. جماً غفيراً.

قلت: كثير طيب (قلت) يا رسول الله من كان أولهم؟.

قال: آدم.

قلت: يا رسول الله؛ أنبي مرسل؟.

قال: نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً.

(ثم قال) يا أبا ذر أربعة سريانيون: آدم وشيث وخنوخ ـ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم ـ ونوح. وأربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر.

(قال) قلت: يا رسول الله، كم كتاب أنزل الله تعالى؟.

قال: مائة صحيفة[1] وأربعة كتب، أنزل على شيث خمسين صحيفة، وأنزل على خنوخ ثلاثون صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان.

(قال) قلت: يا رسول الله؛ فما كانت صحف إبراهيم؟.

قال: كانت أمثالاً كلها، أيها الملك المسلط المبتلى المغرور فإني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر.

وكان فيها أمثال: على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

قلت: يا رسول الله، فما كان صحف موسى عليه السلام؟.

قال: كانت عبراً كلها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار وهو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها، عجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل!.

---

(١) في الأصل: مائة كتاب، وأربعة كتب.

قلت: يا رسول الله، أوصني.

قال: أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله.

قلت: يا رسول الله زدني.

قال: عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض، وذكر لك في السماء.

قلت: يا رسول الله، زدني.

قال: إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب، ويذهب بنور الوجه.

قلت: يا رسول الله، زدني.

قال: عليك بالصمت إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك.

قلت: يا رسول الله، زدني.

قال: عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي.

قلت: يا رسول الله، زدني.

قال: انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك فإنه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عندك.

قلت: زدني يا رسول الله.

قال: صل قرابتك وإن قطعوك.

قلت: يا رسول الله، زدني.

قال: لا تخف في الله لومة لائم.

قلت: يا رسول الله، زدني.

قال: قل الحق ولو كان مراً.

قلت: يا رسول الله، زدني.

قال: يردك عن الناس ما تعرف عن نفسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي، وكفى به عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك، أو تجد عليهم فيما تأتي (ثم ضرب بيده على صدري فقال): يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع

كالكف، ولا حَسَب كحسن الخلق. قلت: يا رسول الله هل في الدنيا مما أنزل عليك مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟.

قال: يا أبا ذر اقرأ ﴿قد أفلح من تزكى﴾ إلى آخر السورة(١).

فإنها ضجعة الشيطان

عن أبي ذر قال: كنت من أهل الصفّة، فكنا إذا أمسينا حضرْنا باب رسول الله فيأمر كلّ رجل فينصرف برجل، فيبقى من بقي من أهل الصفّة عشرة أو أكثر أو أقل فيؤتى النبي بعشائه فنتعشى معه، فإذا فرغنا قال رسول الله:

ناموا في المسجد.

(قال) فمر عليّ رسول الله وأنا نائم على وجهي فغمزني برجله وقال: يا جندب، ما هذه الضجعة؟ فإنها ضجعة الشيطان(٢).

إنك امرؤ فيك جاهلية

قال أبو ذر: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا أبا ذر، إنك امرؤ فيك جاهلية.

قلت: يا رسول الله؛ من سب الرجال سبوا أباه وأمه.

قال: يا أبا ذر؛ إنك امرؤ فيك جاهلية(٣).

ولقد يظهر هذا الدرس بأسلوب عرض آخر كما رواه بلال في مسند

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، ج ١، ص ١٦٩ بطوله هكذا، ولقد وسمه أبو حاتم بن حيان البستي في كتاب «الأنواع والتقاسيم» بالصحة، وخالفه ابن الجوزي فذكره في كتابه «الموضوعات»... ويظهر أن تضعيف الحديث هو لإيراده هكذا بطوله... لكن لكل مقطع صغير منه شواهد في أحاديث صحيحة غيره.. وعلى هذا يمكن القول أن المحاورة قد جرت.. لكنها متقطعة رويت في أحاديث متعددة، وجمعها أحد الرواة في حديث واحد وكأنها محاورة في مجلس واحد وليس الأمر كذلك. انظر تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٥٨٦.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ج ١، ص ٣٥٣.

(٣) صحيح مسلم ج ٣، ص ١٢٨٣، الحديث ١٦٦١.

قلت: لا والله ما أعرفه يا رسول الله.

فما زال يجليه وينعته حتى عرفته فقلت:

قد عرفته يا رسول الله.

قال: فكيف تراه؟.

قلت: هو رجل مسكين من أهل الصفّة.

فقال: هو خير من طلاع الأرض من الآخر.

قلت: يا رسول الله؛ أفلا يعطى من بعض ما يعطى الآخر.

فقال: إذا أعطي خيراً فهو أهله، وإذا صرف عنه فقد أعطي حسنة[1].

لا تسألني عن شيء بعدها

عن أبي مرثد قال: سألت أبا ذر قلت: كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ليلة القدر؟ قال: أنا كنت أسأل الناس عنها (قال) قلت:

يا رسول الله؛ أخبرني عن ليلة القدر، أفي رمضان هي أو في غيره؟.

قال: بل هي في رمضان.

(قال) قلت: في أي رمضان هي؟.

قال: التمسوها في العشر الأول أو العشر الأواخر.

ثم حدّث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحدّث، ثم اهتبلت غفلته قلت: في أي العَشْرَيْن هي؟.

قال: ابتغوها في العشر الأواخر. لا تسألني عن شيء بعدها.

ثم حدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحدّث ثم اهتبلت غفلته فقلت: يا رسول الله؛ أقسمت عليك بحقي عليك لما أخبرتني في أي العشر هي؟.

(قال) فغضب علي غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته وقال:

---

(١) رواه النسائي مختصراً في صحيحه واللفظ له، الترغيب والترهيب ١٨٤/٤.

التمسوها في السبع الأواخر، ولا تسألني عن شيء بعدها[1].

على رغم أنف أبي ذر

عن أبي ذر قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فجلست إليه، فقال:

ما من عبد قال [لا إله إلا الله] ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة.

قلت: وإن زنى وإن سرق؟.

قال: وإن زنى وإن سرق.

قلت: وإن زنى وإن سرق؟.

قال: وإن زنى وإن سرق.

قلت: وإن زنى وإن سرق!!.

قال: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر.

فخرج أبو ذر يقول وإن رغم أنف أبي ذر[2].

ضحك حتى بدت نواجذه

عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إني لأعلم آخر أهل الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال:

عملت يوم كذا وكذا: كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا: كذا وكذا.

فيقول: نعم؛ لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه.

فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة.

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٥، ص ١٧١.

(٢) صحيح مسلم ج ١، ص ٦٦.

فيقول: ربِّ قد عملت أشياء لا أراها ههنا[1].

«فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضحك حتى بدت نواجذه»[2].

أنت إذن من إخوان الشياطين

أما هذا الدرس فلم يكن درساً مباشراً لأبي ذر إلاّ أنه حضره مستفيداً منه.

«فعن أبي ذر قال: دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل يقال له عَكّاف بن بشر التميمي فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

يا عكاف؛ هل لك من زوجة؟.

قال: لا.

قال: ولا جارية؟

قال: ولا جارية.

قال: وأنت موسر بخير؟.

قال: وأنا موسر بخير.

قال: أنت إذن من إخوان الشياطين، لو كنت في النصارى كنت من رهبانهم.

إن سنَّتنا النكاح. شراركم عزابكم، وأراذل موتاكم عزابكم، أبالشيطان تَمَرَّسون، ما للشيطان سلاح أبلغ في الصالحين من النساء إلاّ المتزوجون أولئك المطهرون من الخنا...

ويحك يا عكاف إنهن صواحب أيوب وداود ويوسف وكُرسُف.

قال له بشر بن عطية: ومن كرسف يا رسول الله؟.

قال: رجل كان يعبد الله بساحل من سواحل البحر ثلاثمائة عام يصوم النهار ويقوم الليل، ثم إنه كفر بالله العظيم في سبب امرأة عشقها وترك ما كان عليه من عبادة الله عز وجل، ثم استدرك الله ببعض ما كان منه فتاب عليه.

---

(١) صحيح مسلم ج ١، ص ٩٥.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٧، الحديث ١٩٠.

ويحك يا عكاف تزوج وإلاّ فأنت من المذنبين.

قال: زوجني يا رسول الله.

قال: قد زوجتك كريمة بنت كلثوم الحميري[1].

مع من أحببت:

قال أبو ذر قلت:

يا رسول الله، الرجل يحب القوم لا يستطيع أن يعمل بأعمالهم.

قال: أنت يا أبا ذر مع من أحببت.

(قال) قلت: فإني أحب الله ورسوله.

قال: فأنت يا أبا ذر مع من أحببت[2].

غفر له وأدخل الجنة

عن أبي ذر قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فأتاه رجل فقال إن الآخر قد زنى، فأعرض عنه، ثم ثلّث، ثم ربّع، فنزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال «مرة» فأقر عنده بالزنا، فردده أربعاً، ثم نزل فأمرنا فحفرنا له حفرة ليست بالطويلة فرجم. فارتحل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كئيباً حزيناً، فسرنا حتى نزل منزلاً فسري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لي:

يا أبا ذر؛ ألم تر إلى صاحبكم، غفر له وأدخل الجنة[3].

رجم امرأة

عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: رجم امرأة فأمرني أن أحفر لها فحفرت لها إلى سرتي[4].

---

(1) مسند الإمام أحمد ج ٥، ص ١٦٤. أحمد عبد الرحمن البنا، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (دار الشهاب، القاهرة) ج ١٦، ص ١٤١.

(2) المصدر السابق، ج ١، ص ١١٩.

(3) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٩.

(4) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٨.

هم الأخسرون ورب الكعبة

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال:هم الأخسرون ورب الكعبة.

(قال) فجئت حتى جلست فلم أتقارّ أن قمت فقلت:

يا رسول الله - فداك أبي وأمي - من هم؟.

قال: هم الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا (من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله) وقليل ما هم. والذي نفسي بيده ما على الأرض رجل يموت فيدع إبلاً أو بقراً أو غنماً لم يؤد زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفذت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس[1].

إن الأكثرين هم الأقلون

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أبصر (يعني أحداً) قال: «ما أحب أنه يحول لي ذهباً يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلاّ ديناراً أرصده لدين» ثم قال: «إن الأكثرين هم الأقلون، إلاّ من قال بالمال هكذا وهكذا وقليل ما هم» وقال: «مكانك» وتقدم غير بعيد، فسمعت صوتاً فأردت أن آتيه، ثم ذكرت قوله «مكانك حتى آتيك» فلما جاء قلت: يا رسول الله، الذي سمعت؟ (أو قال: الصوت الذي سمعت).

قال: وهل سمعت؟.

قلت: نعم.

قال: أتاني جبريل (عليه السلام) فقال من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة.

---

(١) صحيح مسلم ج ٢، ص ٦٨٧٨. الحديث رقم ٩٩٠.

قلت: وإن فعل كذا وكذا.

قال: نعم[1].

كل ذلك من أبواب الصدقة

فيما يرويه أبو ذر قال: «على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة منه على نفسه».

قلت: يا رسول الله؛ من أين أتصدق وليس لنا أموال؟.

قال: لأن من أبواب الصدقة التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظم والحجر، وتهدي الأعمى وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة على نفسك ولك في جماعك زوجتك أجر.

قال أبو ذر: كيف يكون لي أجر في شهوتي؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أرأيت لو كان لك ولد فأدرك، ورجوت خيره فمات، أكنت تحتسب به؟.

قلت: نعم.

قال: فأنت خلقته؟.

قال: بل الله خلقه.

قال: فأنت هديته؟.

قال: بل الله هداه.

قال: فأنت ترزقه؟.

قال: بل الله يرزقه.

قال: كذلك فضعه في حلاله وجنبه حرامه، فإن شاء الله أحياه، وإن شاء أماته ولك أجر[2].

---

(١) صحيح البخاري ج ٢، ص ١٥٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٥، ص ١٦٩.

أئمة مضلون

عن أبي ذر قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

لغير الدجال أخوفني على أمتي (قالها ثلاثاً).

(قال) قلت: يا رسول الله؛ ما هذا الذي غير الدجال أخوفك على أمتك؛

قال: أئمة مضلون[1].

صلّ الصلاة لوقتها

عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها؟ (أو يميتون الصلاة عن وقتها؟).

(قال) قلت: فما تأمرني؟.

قال: صلّ الصلاة لوقتها.. فإن أدركتها معهم فصل، فإنّها لك نافلة[2].

فأينما أدركتك الصلاة فصلِّ

عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟.

قال: المسجد الحرام.

قلت: ثم أي؟.

قال: المسجد الأقصى.

قلت: كم بينهما؟.

قال: أربعون سنة، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد[3].

---

(١) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٥.

(٢) صحيح مسلم ج ١، ص ٤٤٨، الحديث رقم ٦٤٠٨.

(٣) مسند الإمام أحمد، ويذكر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن «وقد روي أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام كما تقدم، فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين =

إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن خليلي صلى الله عليه وآله وسلم أوصاني «إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف»[1].

لا تحقرن من المعروف شيئاً

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[2].

أوصاني بصلاة الضحى

عن أبي ذر قال: «أوصاني حبي بثلاث، لا أدعهن إن شاء الله أبداً: أوصاني بصلاة الضحى، وبالوتر قبل النوم، وبصيام ثلاثة أيام من كل شهر»[3].

= عاماً، ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت بإذن الله وكل محتمل والله أعلم».

(١) صحيح مسلم، ج ٨، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٧.

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٥، ص ١٧٣.

الفَصل العُشرُون

أذكار ورقائق

يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا.

يا عبادي: كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم.

يا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم.

حديث قدسي رواه أبو ذر

وتمضي دروس التربية النبوية لتلامس كل أوتار النفس، وتهز كل شعور من مشاعرها، وتوقع على كل خلية من خلاياها، وتستجيب كل خلية وشعور، وتمر لتقدم ـ في سبيل الله ـ كل طاقاتها وإمكانياتها آناً ومستقبلاً، فبمتابعة «أذكار ورقائق» نجد طائفة من دروس تهذب الروح وتحلّق بالنفس إلى سامق عالٍ يمكنها من التلقي والغب من كنوز تحت العرش.

ينادي رب العالمين عباده ـ بحديث قدسي على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيحس المسلم بقرب ربه عز وجل منه ويسمع صوت الدرس الأول: يا عبادي.. إنما هي أعمالكم أحصيها لكم. ثم يسأل نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم تلميذه المترقي ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله؟ ثم يسأله «هل أدلك على كنز من كنوز الجنة؟» ثم يقدم له أذكاراً عالية المقام لترفع منه المقام بأسلوب مباشر شخصي، كما يتعلم الصحابي أذكاراً أخرى بأسلوب آخر عندما يشاهد نبي الله يردد آية يقوم بها طوال الليل ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾.

وتتابع دروس التزكية يتقرب العبد عن طريقها من ربه سواء بكلمات الذكر أو بالأعمال القلبية أو بأعمال الجوارح فيحدثم نبيهم عن مخلوقات الله الساجدة «إني أرى ما لا ترون» وكذلك عن حساب الله لكل المخلوقات يوم القيامة «عجبت لها» وأمر بتصحيح التوجه «أريد الآخرة وتريد الدنيا» والتنبه لإمكانيات العبيد جميعاً في التقرب إلى خالقهم «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون» ثم «أتدرون أي الأعمال أحب إلى الله» ويوجه سبع أوامر بصورة مباشرة إلى أبي ذر، ودرس تزكية، «زر القبور».

إنما هي أعمالكم أحصيها لكم

عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

يا عبادي؛ إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا.

يا عبادي؛ كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم.

يا عبادي؛ كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي؛ كلكم عار إلى من كسوته فاستكسوني أكسُكم.

يا عبادي؛ إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي؛ إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أدخل البحر.

يا عبادي؛ إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه[1].

ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله عز وجل؟.

فقلت: يا رسول الله؛ أخبرني بأحب الكلام إلى الله عز وجل.

فقال: إن أحب الكلام إلى الله عز وجل سبحان الله وبحمده[2].

ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة

عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

يا أبا ذر؛ ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟.

قل: لا حول ولا قوة إلا بالله[3].

إني أرى ما لا ترون

عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد.

لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم على (أو إلى) الصعدات تجأرون إلى الله.

(قال) فقال أبو ذر: لوددت أني شجرة تعضد[4].

إن تعذبهم فإنهم عبادك

عن أبي ذر: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ آية حتى

---

(١) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٩٥، الحديث رقم ٢٥٥٧.

(٢) المصدر السابق، ٨/٨٦.

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٥، ص ١٤٥.

(٤) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٣.

أصبح يركع ويسجد بها ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فلما أصبح قلت:

يا رسول الله؛ ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع وتسجد بها.

قال: إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله عز وجل شيئاً[1].

عجبت لها

عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان جالساً وشاتان تقترنان فنطحت إحداهما الأخرى فأجهضتها، (قال) فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقيل له: ما يضحكك يا رسول الله؟.

قال: عجبت لها.. والذي نفسي بيده ليُقادن لها يوم القيامة[2].

أريد الآخرة وتريد الدنيا:

كان أبو ذر رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخذاً بيده فقال له:

يا أبا ذر ما أحب أن لي أحداً ذهباً وفضة أنفقه في سبيل الله أموت يوم أموت أدع منه قيراطاً.

قلت: يا رسول الله قنطاراً؟.

قال: يا أبا ذر أذهب إلى الأقل وتذهب إلى الأكثر؟.. أريد الآخرة وتريد الدنيا؟ قيراطاً.

فأعادها عليه ثلاث مرات[3].

أوليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون؟.

عن أبي ذر رضي الله عنه أن أناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه

---

(١) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٩.

(٢) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٧٣.

(٣) علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (مؤسسة المعارف، بيروت) ج ١٠، ص ٢٤٢. (قال) رواه البزار والطبراني في الأوسط.

وآله وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم:

يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور.. يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم.

قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن كل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة.

قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجراً!!.

قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟.

قال: فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر[١].

أتدرون أي الأعمال أحب إلى الله

عن أبي ذر قال: خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أتدرون أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟.

قال قائل: الصلاة والزكاة.

وقال قائل: الجهاد.

قال: إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل: الحب في الله والبغض في الله[٢].

أمرني بسبع

عن أبي ذر قال: أمرني خليلي صلى الله عليه وآله وسلم بسبع:

أمرني بحب المساكين والدنو منهم.

وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي.

وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت.

وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً.

وأمرني أن أقول الحق ولو كان مرّاً.

---

(١) صحيح مسلم ج ٢، ص ٦٩٨، الحديث ١٠٠٦.

(٢) مسند الإمام أحمد، ج ٥، ص ١٤٦.

وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم.

وأمرني أن أكثر من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإنهن كنز تحت العرش[1].

زر القبور

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

زر القبور تذكر بها الآخرة، واغسل الموتى فإن معالجة جسدٍ خاوٍ موعظة بليغة، وصلِّ على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك، فإن الحزين في ظل الله يتعرض لكل خير[2].

---

(١) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٥٩.

(٢) رواه الحاكم وقال رواته ثقات، الترغيب والترهيب ج ٣/٣٣٩.

الفَصل الحَادي وَالعُشرُون

وصايا خاصة

وكذلك لاحق صلى الله عليه وآله وسلم التميزات الفردية في كل شخصية صحابية من أصحابه ليعطيها من الدروس الخاصة ما يناسب تميزها وتفردها. ونمّى في كلٍّ ما حباه الله من ميزات.

جاء الإسلام للناس كافة.. يطالب كل فرد من البشرية أن يكون عبداً حقاً.. وجاء نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم يربي صفوة البشرية من الجيل الصحابي الأول.. الجيل الذي أسس دولة الإسلام، وكان جنداً لله يجاهد في سبيل الله ليحرر الإنسان في الأرض من كل عبودية لسوى الله، وليتوحد أفراد البشر جميعاً عباداً لله وحده لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح.

وقدم صلى الله عليه وآله وسلم دروس التربية لجميع الصحابة تقديماً نموذجياً يطالب كل واحد منهم بما يعتبر مستوى أدنى من التكوين الإسلامي كي يصبح عضواً صالحاً من رعية المجتمع الإسلامي الأول.. وسبق وقدمنا في الفصول الثلاثة السابقة نماذج حية من هذه الدروس التكوينية العامة.

وكذلك لاحق صلى الله عليه وآله وسلم التميزات الفردية في كل شخصية صحابية من أصحابه ليعطيها من الدروس الخاصة ما يناسب تميزها وتفردها. ونمّى صلى الله عليه وآله وسلم في كلٍّ ما حباه الله من ميزات، وخفف عن بعضهم من التكليفات الخاصة ما كلف بها سواه.. فهناك الإسلام بمعنى الانقياد والامتثال لأمر الله ونهيه بدون اعتراض وقد طولب به الجميع،

والتبعة فردية، ولا يتنازل عن قضية من قضايا العقيدة قيد شعرة. ولا يتنازل لأحد عن فرض من الله فرضه؛ وهناك أمور أخرى خلق الله الناس في نوع تفاوت بين رجل ورجل وأنثى وأنثى، ولقد ظهر في تاريخ هؤلاء الصحابة ما صدّق وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم في تميزاتهم (والمزية لا تقتضي الأفضلية) فتراه يعدد هذه المزايا في عدد من عليّة الصحابة فيقول: «ارحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين عمر، وأصْدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ بن كعب، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجـراح[1] وأقضاهـم علي[2]».

وكذلك تجد ما بشر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعض أصحابه من جزاء في الجنة يناسب تميزاتهم الشخصية التي يشابهـون بها الأنبياء.

«فعن أبي ذر قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منزل عائشة فقال:

الا ابشرك؟.

قالت: بلى يا رسول الله.

قال: أبوك في الجنة ورفيقه إبراهيم، وعمر في الجنة ورفيقه نوح، وعثمان في الجنة ورفيقه أنا، وعلي في الجنة ورفيقه يحيى بن زكريا، وطلحة في الجنة ورفيقه إسماعيل، وسعد بن أبي وقاص في الجنة ورفيقه سليمان بن داود، وسعد بن زيد في الجنة ورفيقه عيسى بن مريم، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة ورفيقه إدريس عليه السلام (ثم قال): يا عائشة؛ أنا سيد المرسلين، وأبوك أفضل الصديقين وأنت أم المؤمنين»[3].

---

(١) عن الترمذي، جلال الدين السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (دار الكتب الحديثة، ١٣ شارع الجمهورية بعابدين، مصر، ط ١٩٦٦) ج ٢، ص ٢٢٥.

(٢) زيادة أبي يعلى من حديث ابن عمر (جلال الدين السيوطي، المصدر السابق)، ج ٢، ص ٢٢٥.

(٣) أبو جعفر أحمد المحب الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة (محمد أمين الخانجي وشركاه بالأستانة ومصر) ط ١، ج ١، ص ٣١.

ومن أجل كل هذا نجد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أفرد لأبي ذر رضي الله عنه دروساً على شكل وصايا خصّه بها تناسب ما تميز به عن أقرانه من الصحابة الكرام سواء كانت ميزات قوة أو كانت ميزات ضعف.

فبعد أن يجربه إذ يوليه إمرة المدينة في عمرة القضاء في سنة سبع يوصيه لمستقبل الزمان ويعلل «إني أراك ضعيفاً.. لا تأمرنَّ على اثنين ولا تولّينّ مال يتيم» وعندما يسأله الإمرة مرة أخرى يوصيه «إنك ضعيف وإنها أمانة» ثم تأتي وصية «ولا تقبض أمانة، ولا تقض بين اثنين».

ثم يروي لنا أبو ذر رضي الله عنه دروساً ووصايا عامة خاصة، «فعليكم بالجماعة» و «من فارق الجماعة شبراً خلع ربقة الإسلام من عنقه» وأكد عليه نوع تصرفه فيما لو خالف رأيه رأي الإمام أو الوالي «أن أسمع وأطيع» ووصية «اقعد في بيتك» فإن ضعف عن بعض العمل «تكف شرّك عن الناس فإنها صدقة» ومن العمل الخفيف على البدن الثقيل في الميزان «الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك».

ثم يوثقه سبعاً بعد مبايعة ويشهد عليه تسعاً، ويأتيه أمر على شكل وصية أن يخرج من مصر إذا وصلت الحالة المدنية أن يختصم الناس على مواضع اللبنات، وأمر آخر أن يغادر المدينة «إذا بلغ البناء سَلْعاً».

إن التنبيه على التأمل في هذا الفصل بين فصول هذا الكتاب مهم؛ ذلك لأن في هذه الوصايا الخاصة ـ من قبل النبي للشخصية الصحابية ـ ما يلقي الضوء الساطع المحلل لهذه الشخصية الصحابية الكريمة ويبين معالم تميزها وتفردها في جبلتها وما يبرر مواقفها في مستقبل الزمان.

فإلى هذه الوصايا الخاصة ـ على العادة في فصول هذا الباب ـ نصل إلى تَقَصّي دقائقها: إني أراك ضعيفاً.. لا تأمّرنّ على اثنين.

إني أراك ضعيفاً.. لا تأمّرنُ على اثنين

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر ـ مع قوة أبي ذر في بدنه وشجاعته ـ:

يا أبا ذر؛ إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمَّرَنَّ على اثنين. ولا تولَّينَّ مال يتيم[1].

إنك ضعيف وإنها أمانة:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت:

يا رسول الله؛ ألا تستعملني؟.

(قال) فضرب بيده على منكبي ثم قال:

يا أبا ذر؛ إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها[2].

لا تقبض أمانة، ولا تقض بين اثنين

عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال.

«ستة أيام ثم اعقل يا أبا ذر ما أقول لك بعد» فلما كان اليوم السابع قال:

«أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته،
وإذا سألت فأحسن،
ولا تسألن أحداً شيئاً وإن وقع سوطك،
ولا تقبض أمانة،
ولا تقض بين اثنين»[3].

فعليكم بالجماعة

عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«اثنان خير من واحد، وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة، فعليكم بالجماعة فإن الله عز وجل لن يجمع أمتي إلا على الهدى»[4].

---

(١) صحيح مسلم ج ٣، ص ١٤٥٨ الحديث رقم ١٨٢٦.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٥٧، الحديث رقم ١٨٢٥.
(٣) مسند الإمام أحمد ج ٥، ص ١٨١.
(٤) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٥.

خلع ربقة الإسلام من عنقه

عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:
«من فارق الجماعة شبراً خلع ربقة الإسلام من عنقه»[1].

أن أسمع وأطيع

عن أبي ذر قال: إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً مجدع الأطراف، وأن أصلي الصلاة لوقتها «فإن أدركت القوم وقد صلوا كنت قد أحرزت صلاتك وإلا كانت لك نافلة»[2].

اقعد في بيتك

عن أبي ذر قال: ركب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حماراً، وأردفني خلفه، وقال:

يا أبا ذر؛ أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع؟.

قال: الله ورسوله أعلم.

قال: تعفف.

قال: يا أبا ذر؛ أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبد (يعني القبر) كيف تصنع؟.

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: اصبر.

قال: يا أبا ذر؛ أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً (يعني حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء) كيف تصنع؟.

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك؛

قال: فإن لم أترك؟.

---

(١) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٨٠.

(٢) صحيح مسلم، ج ١، ص ٤٤٨، الحديث رقم ٦٤٨.

قال: فأنت منهم فكن فيهم.

قال: فآخذ سلاحي؟.

قال: إذن تشاركهم فيما هم فيه،، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك [١].

تكف شرّك عن الناس.. فإنها صدقة

عن أبي ذر رضي الله عنه (قال) قلت:

يا رسول الله: أي الأعمال أفضل؟.

قال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله.

قلت: أي الرقاب أفضل؟.

قال: أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمناً.

(قال) قلت: فإن لم أفعل [٢].

قال: تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق [٣].

(قال) قلت: يا رسول الله؛ أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟.

قال: تكف شرك عن الناس.. فإنها صدقة منك على نفسك [٤].

وترك ما لا يعنيك

التفت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى أبي ذر وقال:

ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان.

فقال أبو ذر: بلى يا رسول الله.

قال: هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك.

وأوثقني سبعاً وأشهد علي تسعاً

قال أبو ذر: بايعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأوثقني

---

(١) مسند الإمام أحمد، ج ٥، ص ١٤٩.

(٢) وفي رواية فإن لم يجد.

(٣) الأخرق: هو الذي ليس بصانع، يقال رجل أخرق، وامرأة خرقاء: لمن لا صنعة له.

(٤) صحيح مسلم، ج ١، ص ٨٩، الحديث ١٣٦. وكذلك في البخاري.

سبعاً، وأشهد علي تسعاً «أن لا أخاف في الله لومة لائم» (قال أبو ذر) فدعاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال:هل لك في بيعة ولك الجنة؟.

قلت: نعم.

وبسطت يدي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو يشترط علي ـ : أن لا تسأل الناس شيئاً.

قلت: نعم.

قال: ولا سوطك إن يسقط منك حتى تنزل فتأخذه [1].

فاخرج منها

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً (أو قال ذمة وصهراً)، فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها».

(قال): فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة فخرجت منها [2].

ويحك بعدي

قال أبو ذر: إني خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحو حائط [3] بني فلان فقال لي: ويحك بعدي.

فبكيت فقلت:

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٥، ص ١٧٢.
(٢) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٢٢، الحديث رقم ٢٥٤٣.
(٣) حائط: يعني بستان.

يا رسول الله، وإني باق بعدك.

قال: نعم، فإذا رأيت البناء على سَلْع[1] فالحق بالمغرب أرض قضاعة[2].

(١) سَلْع: اسم جبل كان في ظاهر المدينة المنورة، وهو جبل صخري تجده اليوم في مبدأ ويسار «طريق سلطانة» الذي يؤدي - من ثم - إلى الجامعة الإسلامية.

(٢) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٥٠.

الفَصل الثاني وَالعُشرُون

لمسات أخيرة

«أيها الناس؛ اسمعوا قولي واعقلوه تَعلَمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم. وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم قد بلَّغت».

من خطبة حجة الوداع

يمضي أبو ذر رضي الله عنه يتلقى دروسه في المدرسة النبوية... ويقارب نزول الإسلام والقرآن الانتهاء، وتمسي أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معدودة يحس بها أصحاب القلوب... فعندما تنزل ﴿ إذا جاء نَصْرُ الله والفَتحُ ورأيتَ النَّاسَ يَدْخُلون في دينِ الله أفواجاً فسبِّح بحَمْدِ ربِّك واستغفِرْهُ إنَّهُ كانَ توّاباً ﴾ يبكي أبو بكر ويفطن لها ابن عباس ففي السنوات الأخيرة من عمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي الأيام الأخيرة لا يني يقدم لصحابته الكرام دروسه العمَليـة العامة والخاصة والتطبيقية. فإذا لاحقنا أبا ذر رضي الله عنه نجده في تبوك قد حمل أمتعته على ظهره إذ تلَوَّم عليه بعيره.. أما درس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له فبين له أولاً وللناس أنه واحد كباقي الآحاد فعندما يذكر بعض الصحابة تخلف أبي ذر يقول: «دعوه فإن يكن به خيراً فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه» ثم يحدث حديث الرحمة «يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده» وعند فتح مكة يظهر الداعية المسلم الفاتح وقد حنا على صديق له من أيام جاهليته الأولى فيؤمنه مع باقي من أمَّن رسول الله من الطلقاء، ونلمح إلى جانب تأمين كل أهالي مكة في حديث «أوليس قد أمَّنَّا

الناس إلا من أمرنا بقتله» ويذكرنا ذلك بشدة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أعداء للإسلام أربعة قال فيهم «اقتلوهم ولو تَعَلَّقُوا بأستار الكعبة» فقتل أحدهم وهو متعلق بأستارها وعفا عن الثلاثة مِنْ ثَمَّ بعد أن أتوه مسلمين موحدين تائبين.

ويتلقى الصحابي أبو ذر رضي الله عنه وساماً مشرفاً له أبد الدهر حيث يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«من سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبي ذر»[1].

تبوك:

«بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء...».

«... وكانت في زمن عسرة من الناس، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون شخوصهم على تلك الحال.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها، وورّى بغيرها إلاّ ما كان من غزوة تبوك: بعد الشقة، وشدة الزمان...».

«... ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جَدَّ في سفره، وأمر الناس بالجهاز، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله.

فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها» (قال ابن قيم الجوزية): «وكانت ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وعدتها، وألف دينار عيناً...»[2]. ويذكر صاحب السيرة

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ص ٤١.

(٢) محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدى خير العباد (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١٩٧٠) ج ٣، ص ٣ - ٤.

الحلبية: «وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها فإنه جهز عشرة آلاف، أنفق عليها عشرة آلاف دينار، غير الإبل والخيل، وهي تسعمائة بعير ومائة فرس، والزاد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية. وقال صلى الله عليه وآله وسلم «اللهم ارض عن عثمان فإني راض عنه» وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، جاء بجميع ماله: أربعة آلاف درهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل أبقيت لأهلك شيئاً؟.

قال: أبقيت لهم الله ورسوله.

وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل أبقيت لأهلك شيئاً؟.

قال: النصف الثاني.

وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بمائة أوقية. وجاء العباس رضي الله عنه بمال كثير، وكذا طلحة رضي الله عنه، وبعثت النساء رضي الله تعالى عنهن بكل ما يقدرون عليه من حليهن.

وجاءه صلى الله عليه وآله وسلم جمع، سبعة أنفس من فقراء الصحابة يَتَحمَّلونَهُ[1] فقال: لا أجد ما أحملكم عليه.

وعند ذلك تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون، ومن ثم قيل لهم البكاؤون، وحمل العباس منهم اثنين، وحمل منهم عثمان بعد الجيش الذي جهزه ثلاثة، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسار بالناس وهم ثلاثون ألفاً، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس»[2].

«واستخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة محمد بن

---

(١) يتحمّلونه: أي يطلبون منه أن يحملهم على فرس أو دابة لينطلقوا مجاهدين مع إخوانهم.

(٢) علي بن برهان الدين الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر) ج ٣، ص ١٥٢.

مسلمة الأنصاري، فلما سار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تخلف عبد الله بن أبي ومن كان معه، وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وأبو خيثمة السلمي، وأبو ذر، ثم لحقه أبو خيثمة وأبو ذر.

وشهدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ثلاثين ألفاً من الناس والخيل عشرة آلاف فرس، وأقام بها عشرين ليلة يقصر الصلاة، وهرقل يومئذٍ بحمص...»[1].

كن أبا خيثمة:

«.. ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أياماً إلى أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبرّدت له ماء، وهيأت له طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال:

«رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الضحِّ والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ وامرأة حسناء، ما هذا بالنُّصَف. (ثم قال): والله لا أدخلن عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهيئا لي زاداً. ففعلتا، ثم قدّم ناضِحَهُ[2] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك..».

«.. حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو نازل بتبوك ـ قال الناس: هذا ركب على الطريق مقبل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كن أبا خيثمة.

قالوا: يا رسول الله؛ هو والله أبو خيثمة.

---

(١) زاد المعاد ج ٣، ص ٦.

(٢) الناضح: الجمل الذي ينضح الماء من البئر.

فلما أناخ أقبل فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أولى لك يا أبا خيثمة[1].

كن أبا ذر

«ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: تخلف فلان.

فيقول: دعوه؛ فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

وتلوّم[2] على أبي ذرٍّ بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماشياً.

ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله؛ هذا رجل يمشي على الطريق وحده.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كن أبا ذر.

فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله؛ والله هو أبو ذر.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

رحم الله أبا ذر؛ يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[3].

الحمد لله الذي هداك

حدّث حويطب بن عبد العزى قال: «لما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة عام الفتح، خفت خوفاً شديداً، فخرجت من بيتي، وفرّقت

---

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣ ـ ٤.
(٢) تلوّم: أبطأ.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٦.

عيالي في مواضع يأمنون فيها وانتهيت إلى حائط بني عوف فكنت فيه، فإذا أنا بـأبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنـه ـ وكانت بيني وبين خلة ـ والخلة أبـداً مانعة ـ فلما رأيته هربت منه.

فقال: أبا محمد.

فقلت: لبيك.

قال: ما لك؟.

قلت: الخوف.

قال: لا خوف عليك أنت بأمان الله عز وجل.

فرجعت إليه فسلمت عليه فقال: اذهب إلى منزلك.

قلت: هل لي سبيل إلى منزلي وإن عيالي في مواضع شتى؟.

قال: فاجمع عيالك في موضع وأنا أبلغ معك إلى منزلك.

فبلغ معي، وجعل ينادي على أن حويطباً آمن فلا يهج، ثم انصرف أبو ذر رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقال:

أوليس قد أمن الناس كلهم، إلا من أمرت بقتلهم؟[1].

---

(١) وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم؛ إلا أنه قد عهد إلى نفر سماهم، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم: «عبد الله بن سعد» أخو بني عامر بن لؤي. وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لأنه قد كان أسلم وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي، فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش، ففر إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه للرضاعة، فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة، فاستأمن له. فزعموا أن رسول الله ﷺ صمت طويلاً ثم قال: نعم. فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله من أصحابه: لقد صمت ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إلي يا رسول الله؟ قال: إن النبي لا يقتل بالإشارة (قال ابن هشام).. ثم أسلم بعد فولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر... =

(قال): فاطمأننت ورددت عيالي إلى منازلهم، وعاد أبو ذر فقال لي:

يا أبا محمد؛ حتى متى؟ وإلى متى؟ قد سبقت في المواطن كلها، وفاتك خير كثير، وبقي خير كثير، فأت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم تسلم، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبر الناس، وأوصل الناس، وأحلم الناس، شرفه شرفك، وعزه عزك.

قلت: فأنا أخرج معك فآتيه.

فخرجت معه حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالبطحاء، وعنده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فوقفت على رأسه، وسألت أبا ذر: كيف يقال إذا سلم عليه؟.

= و «عبد الله بن خَطَل»، رجل من بني تيم بن غالب. إنما أمر بقتله أنه كان مسلماً، فبعثه رسول الله ﷺ مُصَدِّقاً وبعث معه رجلاً وكان معه مولى له يخدمه، وكان مسلماً، فنزل منزلاً وأمر لمولى أن يذبح له تيساً فيصنع طعاماً فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً. فعدىٰ عليه فقتله ثم ارتد مشركاً.

وكانت له قينتان «فَرْتَنى» وصاحبتُها، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه.

و «الحويرث بن نُقَيذ» وكان ممن يؤذيه بمكة.

و «مِقْيَس بن صُبابة» وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لقتله الأنصاري الذي كان قد قتل أخاه خطأً. ورجوعه إلى قريش مشركاً.

و «سارةُ» مولاة لبعض بني عبد المطلب.

وكانت سارةُ ممن يؤذيه بمكة.

و «عكرمة بن أبي جهل».

فأما «عكرمة» فهرب إلى اليمن، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فاستأمنت له من رسول الله ﷺ فأمنه فخرجت في طلبه إلى اليمن حتى أتت به رسول الله ﷺ، فأسلم.

وأما «عبد الله بن خَطَل» فقتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي اشتركا في دمه.

وأما «مِقْيَس بن صُبابة» فقتله نُميلة بن عبد الله، رجل من قومه.

وأما «قينتا ابن خَطَل» فقتلت إحداهما، وهربت الأخرى حتى استُؤمن رسول الله ﷺ بعد، فأمّنها.

وأما «سارة» فاستؤمن لها فأمّنها. ثم بقيت حتى أوطأها رجل من الناس فرساً في زمن عمر بن الخطاب، بالأبطح فقتلها.

وأما «الحويرث بن نُقَيذ» فقتله علي بن أبي طالب.

مختصر سيرة ابن هشام لمحمد عفيف الزعبي (دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط ٢) ص ٢٣٢.

قال: قل «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته».

فقلتها. فقال: وعليك السلام، حويطب.

فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
الحمد لله الذي هداك.

وسُرَّ رسول الله بإسلامي واستقرضني مالاً فأقرضته أربعين ألف درهم، وشهدت حنيناً والطائف، وأعطاني من غنائم حنين مائة بعير»[1].

فتح ومؤاخاة

قال ابن إسحق: «وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرف العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا عداوته، فدخلوا في دين الله ـ كما قال عز وجل ـ أفواجاً يضربون إليه من كل وجه، يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ «سورة الفتح». أي فاحمد الله على ما أظهر من دينك، واستغفره إنه كان تواباً.. ووفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفود العرب... وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد آخى بين نفر من أصحابه من المهاجرين، بين أبي بكر وعمر، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وبين طلحة بن عبد الله

---

(١) حياة الصحابة ج ١، ص ١٦١: أخرجه الحاكم ج ٣، ص ٤٩٣.

والزبير بن العوام، وبين أبي ذر الغفاري والمقداد بن عمرو البهراني، وبين معاوية بن أبي سفيان والحتات بن يزيد المجاشعي»[١].

اكتمال الدين

وحج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجة الوداع وأنزل الله عز وجل عليه ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ «سورة المائدة: ٣». وخطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطبة الوداع وكان مما قال فيها: «أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم... فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيّناً كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس؛ اسمعوا قولي واعقلوه، تعلَمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه فلا تظلمن أنفسكم، اللهم قد بلغت»[٢].

ويحك بعدي

قال أبو ذر: إني خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحو حائط بني (فلان) فقلت: يا رسول الله؛ وإني باق بعدك.

قال: نعم، فإذا رأيت البناء على سَلْع فالحق بالمغرب أرض قضاعة[٣].

---

(١) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر) ج ٤، ص ٥٦١.
(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٠٤.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١، ص ٥٠.

ثم أخذها أبو بكر

وأخرج الشيخان عن ابن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنه، قالا: قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«بينا أنا نائم، رأيتني على قَليبٍ عليها دَلْوٌ، فنزعت منها إلى ما شاء الله، ثم أخذها أبو بكر فَنَزَع ذَنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم جاء عمر [بن الخطاب] فاستسقى فاستحالت في يده غَرْباً، فلم أر عبقرياً من الناس يفري فَرْيَهُ حتى روى الناس، وضربوا بِعَطَن».

قال النووي في تهذيبه: قال العلماء: هذه إشارة إلى خلافة أبي بكر وعمر [1].

رحم الله أبا بكر

وأخرج ابن عساكر عن علي قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«رحم الله أبا بكر! زوجني، وحملني إلى دار الهجرة، وأعتق بلالاً. رحم الله عمر! يقول الحق وإن كان مرّاً، تركه الحق وما له من صديق. رحم الله عثمان! تستحييه الملائكة. رحم الله علياً! اللهم أدِرِ الحق معه حيث دار» [2].

فاختار العبد ما عند الله

وأخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري قال: خطب رسول الله عليه الصلاة والسلام الناس وقال:

إن الله تبارك وتعالى خَيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله تعالى.

---

(١) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر، ط ١٩٦٩ م) ص ١١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٢.

فبكى أبو بكر وقال: نفديك بآبائنا وأمهاتنا.

فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن من أَمَنِّ الناس عليّ في صحبته وماله أبا بكر، لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوّة الإسلام ومودته، لا يبقينّ باب إلا سُدَّ إلا باب أبي بكر»[1].

(1) المصدر السابق، ص ٤١.

الجزء الثاني

ما بعد وفاة رسول الله ﷺ

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طاشت العقول، فمنهم من خُبل، ومنهم من أقعد، ومنهم من أخرس.. وكان أثبتهم أبو بكر، جاء وعيناه تهملان وزفراته تتردد وغصته تتصاعد وترتفع.

وقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع أبي مويهبة بعد أن استغفر لأهل بقيع الغرقد من موتى المسلمين فقال:

يا أبا مويهبة؛ إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة.

(قال) فقلت: بأبي أنت وأمي؛ فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة.

قال: لا والله أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة.

ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعه الذي قبضه الله فيه»(١).

قال أنس: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - يعني المدينة - أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا»(٢).

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طاشت العقول فمنهم من خبل، ومنهم من أقعد ولم يستطع القيام، ومنهم من أخرس، وكان عمر

---

(١) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط ٢، ١٩٥٥ م) ج ٢، ص ٦٤٢.

(٢) فتح الدين محمد بن محمد بن محمد... ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير (دار الآفاق الجديدة بيروت، ط ١٩٧٧) ج ٢، ص ٤٢٤.

ممن خبل، وكان عثمان ممن أخرس فكان لا يستطيع أن يتحرك، وكان أثبتهم أبو بكر، جاء وعيناه تهملان وزفراته تتردد، وغصته تتصاعد وترتفع»[1].

«وقال حسان بن ثابت يبكي ويصف حال الصحابة يومها:

وراحــوا بحـزن ليس فيهم نبيهم	وقـد وَهَنَتْ منهم ظهـورٌ وأعضـد
يبكـون من تبكي السموات يـومـه	ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهـل عدلت يـوماً رزيـة هـالـك	رزيـة يوم مـات فيـه محمـد»[2]

(١) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٦٦٧.
(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٦٧.

الباب الخامس

المؤامرة وفصولها

ويقرأ المسلم العديد من الآيات الكريمة تعلمه عن أوصاف هؤلاء القوم وتربيه، كي يقف الموقف الإسلامي الأمثل أمام هذه الظاهرة.

تمهـــيد

ظهرت مؤامرة السبئية في التاريخ الإسلامي بتمهيد وعدة فصول، كان التمهيد هو النفاق الذي ظهر بين العرب بتدريس وتربية يهودية خبيثة، فتخلق من العرب أقوام بأخلاق يهود. . . لكن الوحي كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليوجه الأمة إلى أنجع السبل وأفلح الأساليب لمقاومة النفاق والمنافقين، ويقرأ المسلم العديد من الآيات الكريمات تعلمه عن أوصاف هؤلاء القوم وتربيه كيف يقف الموقف الإسلامي الأمثل أمام هذه الظاهرة ولقد عصفت بعض المؤامرات المنافقين بالمجتمع الإسلامي آناء من الزمان قصرت أو امتدت لكن حكمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتوجيهات الوحي كانت كفيلة بالقضاء عليها في مهدها. كما في قصة «ليخرجن الأعز منها الأذل» حيث أنهاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمسير السريع لإلغاء مفعول الإشاعة والفتنة، وكما في حديث الإفك الذي دام شهراً ينخر قلب المجتمع الإسلامي حتى نزلت الآيات الكريمات تعلن براءة الطاهرة أم المؤمنين، وتفضح المنافقين. وكمنت مؤمرات النفاق بعد فتح مكة ودخول قبائل العرب في دين الله أفواجاً تنتظر منافقتها لحظات الضعف لتشرئب وما كان لها هذا إلى أن توفى الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان **الفصل الأول** من فصول المؤامرة إثر المصيبة التي أصابت المسلمين بموت نبيهم عليه الصلاة والسلام فقد عمت الردة وتنبأ الكذبة ومنعوا الزكاة وأبطلوا الجمعة في كل نواحي الجزيرة العربية إلاّ حاضرتي الإسلام مكة والمدينة[1]، وهاج المرتدون وماجوا ليستأصلوا شأفة الإسلام من المدينة، وحاصرتها قبائل الأعراب

---

(١) والطائف، وجواثا (وهي قرية بالبحرين، والبحرين اليوم ما تسمى: الأحساء).

تخطط للهجوم على معقل الإسلام الأخير. إلّا أن أبا بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جيَّش جيشاً ممن بقي في المدينة من رجال ـ بعد بعث أسامة إلى بلاد الشام ـ وباغت المحاصرين من الأعراب بجيش قليل العدد، قليل العدة، قوي الإيمان، جديد التصميم، رباني العقيدة والعمل، فقتل من هؤلاء الأعراب المرتدين من قتل وشرد منهم من شرد ومزقهم كل ممزق ووقف جند الله ـ وقد تمسكوا بدين الله فهماً وتطبيقاً ـ أمام القوة الغاشمة وقفة المعسكر الإسلامي الراشد الذي لا تهزمه قوة في الأرض مهما زاد عدد جنودها أو عدة جيوشها، وتابع الصدّيق إرسال الجيوش تلو الجيوش، وكانت المعارك بين الحق والباطل؛ حتى دانت الجزيرة العربية مرة ثانية بدين التوحيد في ظل خليفة رسول الله ﷺ الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه.

وجاء **الفصل الثاني** بعد أن امتدت الفتوح في عهد عمر رضي الله عن عمر وفتحت العراق والشام ومصر وتكسرت جيوش الكافرين ذات الجماهير العريضة الطويلة العميقة من دول عريقة موغلة في تاريخها، وجلبت كنوز هذه الدول التي اغتصبتها ملوكها وقياصرتها من الشعوب البائسة المستعبدة؛ لتوزع على جند الله ولتخدم قضية «تحرير الإنسان في الأرض» حيث لا عبودية لإنسان على إنسان بل أصبح كل من صدق عليه وصف إنسان عبداً لله في شريعة التوحيد، ولا يستعبد بشرٌ في هذه الدولة الربانية إلّا بأمر من رب العالمين. ويزداد حقد أعداء الإسلام من علوج الدول البائدة ومن يهود، ويفكرون ويقدرون ثم يقتلون عمر رضي الله عنه بخنجر مسموم بيد أبي لؤلؤة المجوسي بعد اجتماع بينه وبين الهرمزان وجفينة وكعب الأحبار، ولا مجال لمحاكة هؤلاء لإثبات التهمة أو تبرئة المتهمين في هذا الكتاب ـ والمهم في الرواية أن اغتيال أمير المؤمنين قد تم بعد اجتماع بين عدة رجال ـ منهم منفذ الجريمة ـ وقد انفض الاجتماع عن سقوط أداة التنفيذ ذلك الخنجر المسموم ذي النصلين والذي اغتيل فيه عمر رضي الله عنه.

أما في **الفصل الثالث** فيتوضح طريق أعداء الإسلام متمثلاً «بالفتنة» في عهد عثمان رضي الله عنه حيث يظهر «عبدالله بن سبأ» على مسرح المعركة ويدعي

الإسلام. ثم يخطط ويدبر ويقود المعركة ضد الإسلام حيث وصل المؤتمرون إلى النتائج التي أسلفنا الكلام عنها في مقدمة هذا الكتاب. وعمدوا إلى خطة بعيدة المدى ذات مراحل متلاحقة، ومشاريع متناسقة وبرامج متساوقة، وقام زعيم الفتنة باختيار أعضاء حزبه التخريبي في المجتمع المسلم من أصناف مختلفة من رعايا الدولة الإسلامية من أذكياء حاقدين وعلماء موتورين وجهلة وأغبياء سافلين، وألف من هذه الأناسي حزباً منظماً سرياً برع وتفنن في التأثير على منتسبيه وجعلهم ملتزمين بعداء الإسلام والتصميم على هدم عقائده، وجمع على أساس هذه الغاية أنواعاً من الناس قد يتفاوتون في كثير من أوصافهم لكنهم يجتمعون على الغاية، تكلؤهم عين السرية تتم باسمها الجرائم الكثيرة مما يخفى على الكثير من أعضاء الحزب الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً، وظهرت نتيجة قوة هذا الحزب السبئي بتلكم الفتنة التي انتهت بذبح الخليفة الراشد الثالث عثمان ذي النورين عليه رضوان الله وهو شيخ فان قد تجاوز الثمانين. واستخدم الحزب السبئي كثيراً من كلمات الحق وأراد بها باطلاً، كما استطاع الالتفاف على مواقف لشخصيات إسلامية مستغلاً هذه المواقف، مؤيداً لمسيرته في تهديم الرابطة الإسلامية بين الإخوة المسلمين، مستغلاً بُعْدَ كثير من الرعايا في الدولة الإسلامية عن تطبيق الإسلام وعن فهم المبادىء الأخلاقية الإسلامية.

أما **الفصل الرابع** من فصول المؤامرة «قَرْنُ السبئية» ففيه تعريف بالحزب الباطني في المجتمع الإسلامي وبعض أساليبه ودعاياته على مر العصور مما أدى إلى تشويه معالم الشخصيات الإسلامية الرائدة في تاريخ الإسلام بل تشويه معالم مسيرة التاريخ الإسلامي كله، ذلك التاريخ الذي وصل إلى أبناء عصر الانحطاط الأخير وقد حشاه هؤلاء الباطنيون بما أرادوا من أكاذيب شوهت وجه الحقيقة وأضاعت معالم صورتها في أذهان العامة من جماهير المسلمين، بل وتعدت فأصبحت ـ بعد اتصال ثقافات أمم العالم ـ الصور الكاذبة هي الطاغية على مسامع طلاب التاريخ وهي السابقة إلى معارف العامة... حيث أصبح باحث الحقيقة أو راويها إنما يحتاج إلى رفع ركامات وركامات من الأكاذيب حتى يصل إلى الحق من قصص التاريخ أو يوصله إلى عقل من يريد الحق.

لذلك كان لا بد من إفراد باب كامل للكلام عن «قرن السبئية» لأهمية التعرف على تلكم الأصابع التي فعلت بالمجتمع الإسلامي ما فعلت، تمهيداً لتلمس آثار هذه البصمات في التاريخ المزور الذي حُشيت به أدمغة الأجيال.

الفَصْل الثالث وَالعُشرُون

عهد أبي بكر والردة

قال عمر: فوجدته في ذلك أمضى مني وأحزم وآدب الناس على أمور هوّنت علي كثيراً من مؤنتهم حين وليتهم.

الأمة

تقول عائشة تصف حال الصحابة الكرام وقد صدموا بالمصيبة الكبرى إذ فقدوا نبيهم: «وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم حتى جمعهم الله على أبي بكر».

«وصار أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم كأنهم معزى في حشّ في ليلة مطيرة بأرض مسبعة»[1].

عندما طاشت عقول المسلمين وقف أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه.. وقرر مضي العقيدة الإسلامية صافية نقية موحدة أول ما قرر فقال:

«ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت (وقال) ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[2] (وقال) ﴿وما محمد إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾[3].

(قال) فنشج الناس يبكون»[4].

---

(١) محمد شديد، منهج القرآن في التربية (مكتبة وهبة، ١٤ شارع الجمهورية بعابدين) ص ٢٠.

(٢) سورة الزمر: ٣٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٤٤.

(٤) أبو جعفر أحمد المحب الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة (محمد أمين الخانجي وشركاه بالأستانة وبمصر) ط ١، ج ١، ص ١٢٥.

قال عمر: ما هو إلا تلاها أبو بكر عُقرت وأنا قائم حتى خررت إلى الأرض، وأثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد مات، فوالله لكأني لم أتلُ هذه الآيات قط[1].

الخليفة الراشد

قالت عائشة: «لما توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام اشرأب النفاق، وارتدت العرب، وانحازت الأنصار، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها، فما اختلفوا في نقطة إلا طار بغنائها وفضلها»[2].

لقد كان موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محنة «ولكن الله سبحانه وتعالى قيّض لهذه المحنة أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقام قيام الأنبياء ـ وليس بنبي ـ وركز فكره وهمه على حراسة هذا التراث العظيم، ورد الأمر إلى نصابه، وأفرغ روحه في ذلك، وملكته هذه الفكرة حتى نسي نفسه وكل ما عدا ذلك، وكان رجلاً غير الرجل.

لقد عرف بالرفق الزائد، وآثر جانب اللين دائماً على جانب الشدة والعنف، فتصلب وخشن في هذه المرة حتى فاق في ذلك عمر بن الخطاب المعروف بالشدة والصلابة، لأن الموقف يتطلب ذلك، رأى أبو بكر أنه القائم على هذه الأمانة العظيمة والمسؤول عنها ففاضت على شفته تلك الكلمة البليغة المؤثرة التي تمثل نفسيته وشعوره خير تمثيل: أينقص الدين وأنا حي!»[3].

وبهذه الغيرة الملتهبة، والقلب الثابت والنفس الأبية، حفظ الله بأبي بكر الدين وورثه الأجيال القادمة كاملاً غير منقوص.

---

(١) صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٩٤.

(٢) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر، ط ١٩٦٩ م) ص ٧٣.

(٣) منهج القرآن في التربية ص ٢٠.

سياسة الحكم

«لما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة، ثم تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد أيها الناس فإني قد وليّت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أردّ عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[1].

وجعل عمر بن الخطاب على القضاء، وأبا عبيدة بن الجراح على بيت المال، وعثمان بن عفان على الكتابة والأخبار.

كانت مدة خلافته قصيرة لم تمتد أكثر من سنتين وثلاثة أشهر، ولكنها كانت خيراً وبركة للإسلام والمسلمين، فقد وحّد الجزيرة، ووطّد سلطان الدولة في المدينة وعصم الله به المسلمين من الفتنة والهلاك. وسارت جيوشه لفتح الشام والعراق لحرب الروم وفارس الذين كانوا يهددون الجزيرة ويؤلبون عليها القبائل[2].

أما سياسة الحرب فلقد كانت وصيتُه لجند الله «لا تقتلوا امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقر شاة ولا

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٦٩.
(٢) منهج القرآن في التربية ص ٢٣ ـ ٣٣.

بعيراً إلا لمالكه، ولا تغرقن نخلاً، ولا تحرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن»[1].

وأما سياسة الحكم الداخلية في إقامة الحدود فكان وقافاً عند حكم الشرع في كل قضية أيضاً، فلقد رفع إلى المهاجربن أبي أمية ـ وكان والياً على اليمامة ـ «امرأتان غنّت إحداهما بشتم النبي عليه الصلاة والسلام فقطع يدها ونزع ثنيتها[2]، وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع يدها ونزع ثنيتها» فكتب إليه أبو بكر: بلغني الذي فعلت في المرأة التي تغنت بشتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلولا ما سبقتني فيها لأمرتك بقتلها، لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد، أو معاهد فهو محارب غادر، وأما التي تغنت بهجاء المسلمين: فإن كانت ممن يدعي الإسلام، فأدب وتعزيز دون المثلة، وإن كانت ذمية فلعمري لما صفحت عنه من الشرك أعظم، ولو كنت تقدمت إليك في مثل هذا لبلغت مكررها، فاقبل الدَّعَة، وإياك والمُثلة في الناس، فإنها مأثم ومَنْفَرَة إلا في قصاص»[3].

الردة (تجربة الفصل الأول)

ما أن سمع العرب بوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نقضوا بيعتهم لله وألحدوا في دين الله واستعد منهم من استعد للهجوم على المدينة لاستئصال الإسلام من جذوره، ومنهم من أعلن النبوة وطمع أن يتسلم زمام العرب، ومنهم من تمرد على الدولة الإسلامية فرفض الزكاة، وقالوا: كنا ندفع لمحمد فلن ندفع لأبي بكر.

فأوشك الإسلام أن ينتهي وجوده وكادت الأمة تهلك، فقام بالأمر أبو بكر رضي الله عن أبي بكر، فأنفذ بعث أسامة مخالفاً مشورة العديد من الصحابة، وصمم على قتال مانعي الزكاة.

يقول أبوهريرة: «والله الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٩٧.

(٢) الثَّنِيَّةُ: سِنّ في مقدمة الفم.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٧.

عُبد الله» ثم قال الثانية، ثم قال الثالثة. فقيل له: مه يا أبا هريرة. فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَجَّهَ أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام فلما نزل بذي خشب قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وارتدت العرب حول المدينة، واجتمع إليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: رد هؤلاء، توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟.

فقال: والذي لا إله إلا هو؛ لو جرّت الكلاب بأرجل أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما رددت جيشاً وَجَّهَهُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا حللت لواء عقده.

فَوَجَّهَ أسامة، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا:

لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوهم فهزموهم وقتلوهم، ورجعوا سالمين، فثبتوا على الإسلام» [1].

وجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشاورهم في أمر المرتدين «فاختلفوا عليه، فقال لعلي: ما تقول يا أبا الحسن؟

قال: أقول لك إن تركت شيئاً مما أخذه رسول الله منهم فأنت على خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: أما لئن قلت ذاك لأقاتلنهم وإن منعوني عقالاً» [2].

يقول عمر رضي الله عنه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ارتد من ارتد من العرب، وقالوا: نصلي ولا نزكي، فأتيت أبا بكر.

فقلت: يا خليفة رسول الله؛ تألَّف الناسَ وارفُقْ بهم فإنهم بمنزلة الوحش.

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٤.

(٢) الرياض النضرة للمحب الطبري ج ١، ص ١٢٩.

فقـال: رجوتُ نُصـرتك وجئتني بخـذلانك، جبـاراً في الجـاهليـة خواراً في الإسلام، بماذا عسيت أن أتألفهم؟ بشعر مفتعل أو بسحر مفترى؟ هيهات هيهات! مضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانقطع الوحي، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي، وإن منعوني عقالاً.

(قال عمر): فوجدته في ذلك أمضى مني وأحزم وأدب الناس على أمور هوّنت على كثيراً من مؤنتهم حين وليتهم»[1].

وفي رواية السهيلي في الرياض النضرة:

«أجَبّار في الجاهلية، وخوار في الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحي، وتَمَّ الدين، أوَ ينقص وأنا حي»[2].

قال النووي في تهذيبه ـ ومن خطه نقلت ـ: استدلّ أصحابنا على عظم علمه بقوله ـ رضي الله عنه ـ في الحديث الثابت في الصحيحين:

والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقاتلهم على منعه. واستدل الشيخ أبو إسحاق بهذا وغيره في طبقاته على أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أعلَمُ الصحابة؛ لأنهم كلُّهم وقفوا عن فهم الحكم في المسألة إلا هو، ثم ظهر لهم بمباحثته لهم أن قوله هو الصواب، فرجعوا إليه»[3].

ولما برز أبو بكر واستوى على راحلته أخذ علي بن أبي طالب بزمامها وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله، أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد «شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك» وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً[4].

---

(١) تاريخ الخلفاء (للسيوطي طـ ١٩٦٩ م) ص ٧٣.
(٢) الرياض النضرة للمحب الطبري ج ١، ص ١٢٩.
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٤١.
(٤) المصدر السابق، ص ٧٥.

خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومشاوروه من طبقة الصحابة الأول: عمر وعثمان وعلي وسعد وسعيد وعبد الرحمن وأبو عبيدة.. ورعية ينطبق عليها قول ربها ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (سورة آل عمران: ١١٠).

تقف هذه الأمة الربانية بقيادة الصدّيق أمام ردة شملت جزيرة العرب كلها ومن ورائها فارس والروم الكافرتين، وتفاوتت الأرقام والأحجام في العدد والأعداد بينها وبين عدوها، لكن هذه الأمة الربانية الصغيرة اكتسحت جموع المرتدين ونصر الله حملة القرآن وأصحاب سورة البقرة وآل عمران نصراً مؤزراً لقن العرب وفارس والروم والبشرية كلها درساً ماضياً على مر التاريخ «إن الأمة الربانية لا تغلب في حرب» فإن جانبها النصر يوماً فلعله في «ربانيتها» ومضت تجربة التاريخ هذه يدوي صداها ليقرع آذان الشعوب والأمم فتهاوت العروش والصروح والممالك والدول أمام جند الله الذين حملوا هذا الدين عقيدة في قلوبهم ودعوة في أفواههم وسيرتهم، فكان رأسمالهم وعدتهم وسلاحهم ووسيلتهم، ولم يبالوا من بعد بعدة بين أيديهم أو أيدي عدوهم أو عدد إنما استيقاناً بأن النصر من عند الله، ولا يخذل الله أمته الربانية.. طالما بقيت ربانية![1].

ومضت الأمة الربانية بقيادة الصدّيق توالي الفتوح بعد الفراغ من قتال

---

(١) تنطق بهذه محاورة جرت بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبشير جاء يبشره بانتصار سرية أرسلها عمر.

قال عمر: متى كان بدء المقاتلة؟.

قال البشير: غدوة.

قال: ومتى كان النصر؟.

قال: عشية.

فبكى عمر رضي الله عنه حتى بلّت دموعه لحيته.

فقال البشير: أبشرك بالنصر يا أمير المؤمنين وتبكي؟.

قال: والله ما الكفر يقف أمام الإيمان من غدوة إلى عشية إلا لأمر أحدثتموه أنتم أو أنا!.

أهل الردة فافتتحت في عهده الأبلّة ومدائن كسرى ووقعت وقعة أجنادين ووقعة مرج الصفر. كان النصر فيها جميعاً لأمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

استخلاف وعهد ووصية

وتمضي أشهر أبي بكر الخمسة والعشرين، خلافة على منهاج النبوة، حفل المجتمع الإسلامي خلالها باستمرار تطبيق الحكم الإسلامي، وكان مما يؤرق ليل أبي بكر ويهم قلبه مسيرة المجتمع الإسلامي على نهج النبوة من بعده، فما ودعهم إلا وقد استخلف عليهم عمر بن الخطاب.

و «لما ثقل أبو بكر أشرف على الناس من كوةٍ فقال:

أيها الناس؛ إني قد عهدت عهداً، أفترضون به؟.

فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله.

فقام علي، فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر.

قال: فإنه عمر»[1].

ودخل عليه بعض الصحابة، فقال له قائل منهم:

ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟.

فقال أبو بكر: بالله تُخوِّفوني؟ أقول: اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك، أبلغْ عني ما قلتُ مَنْ وراءك. ثم دعا عثمان فقال:

أكتب «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم إلا خيراً، فإن عدَل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب، والخيرَ أردتُ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٨٣.

ثم أمر بالكتاب فختمه، ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً فبايع الناس ورضُوا به، ثم دعا أبو بكر عمر خالياً فأوصاه بما أوصاه [1] قال له:

«إني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، فإذا حفظت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله» [2] .

ثم خرج من عنده، فرفع أبو بكر يديه وقال:

«اللهم إني لم أرِدْ بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأياً، فوليت عليهم خيرهم، وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح اللهم ولاتهم، واجعله من خلفائك الراشدين، وأصلح له رعيته» [3] .

قال ابن مسعود: «أفرسُ الناس ثلاثة: أبو بكر حين استخلف عمر، وصاحبة موسى حين قالت: استأجره، والعزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: أكرمي مثواه» [4] .

عن عبادة بن قيس قال: «لما حضرت أبا بكر الوفاة قال لعائشة:

اغسلي ثوبيَّ هذين وكفِّنيني بهما؛ فإنما أبوك أحد رجلين: إما مكسو احسن كسوة، أو مسلوب أسوأ السلب.

وقال أبو بكر ـ لما احتضر ـ لعائشة رضي الله عنها:

---

(١) منهج القرآن في التربية.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٨٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٨٣.

يا بنية؛ إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لنا ديناراً ولا درهماً، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يبق عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجَرْدُ هذه القطيفة، فإذا متُّ فابعثي بهن إلى عمر»[1].

وأخرج الطبراني في مسنده عن الحسن بن علي بن أبي طالب (قال): لما احتضر أبو بكر قال: يا عائشة؛ انظري اللِّقحة التي كنا نشرب من لبنها، والجَفْنة التي كنا نصطبغ فيها، والقطيفة التي كنا نلبسها! فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلي أمر المسلمين، فإذا مُتُّ فارددِيه إلى عمر.

فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر»[2].

«فقال عمر: رحمك الله يا أبا بكر! لقد أتعبت مَنْ جاء بعدك»[3].

وهكذا ينتهي الفصل الأول..! إذ حاول أعداء هذا الدين أن يقفوا أمامه مباشرة وقد تألبوا عليه جميعاً ورموه عن قوس واحدة، إلا أن الله عز وجل قيض لهذا الدين حماة من جنوده الذين آمنوا به وطبقوه منهاجاً لحياتهم فجاهدوا في الله حق جهاده فنصرهم الله عز وجل على عدوهم عظيم العدد هائل العدة وهم على قلة عَددهم وعُددهم.. وتلك هي سنة الله الماضية في هذه الأمة.

وخنست الحرب المباشرة.. ولم يعد أعداء الإسلام يجرؤون على التفكير بمثلها بعد، طالما أن الأمة متمسكة بهذا الحق إيماناً وتطبيقاً.. هذا التمسك الذي يجعل من رفيق إبراهيم في الجنة الحليم الأواه المنيب، يجعل من هذا الحليم الوديع الذي يؤثر اللينة الرفيقة دائماً هِزَبْراً غضنفراً من ليوث الغاب لا يرضى بنقض عروة من عرى هذا الدين بل يصيح بها مدوية في

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٥.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٩. وثوبٌ جَرْدٌ: خَلَقٌ.
(٣) المصدر السابق، ص ٧٨.

محجات التاريخ: أينقص الدين وأنا حي.. وكأنه يتصور أنـه المسؤول الوحيد عن هذا الدين وعن ثبات البشرية عليه أمام ربه سبحانه وتعالى، وإن كان إلى مرد من سبيل فلا بد أن يستشعر كل جندي من جند الله أنه المسؤول الشخصي عن هذا العالم.

الفَصْل الرابع وَالعُشرُون

عهد عمر والاغتيال

ولو أن هؤلاء المخربين الباطنيين كانوا موجودين على قـوة أو ضعف، وعلى سطحيـة أو عمق، إلا أن فعاليتهم لم تؤد بالمجتمع الإسلامي إلى شيء اللهم إلا اغتيال الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر.

ارتفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمجتمع الإسلامي إلى أوج فوق مألوف البشر، ومداومة التحليق قريباً من هذا المستوى في حاجة إلى مداومة التذكير والتربية، وتنشئة الأجيال وفق منهج القرآن، كما هو في حاجة إلى الأسوة الحسنة، وإلى حزم الأمير ويقظته.

ولقد كانت الدولة الإسلامية في عهـدي عمر وعثمـان ـ رضي الله عنهما ـ في حالة حرب، وكانت جيوشها تقاتل في عدة ميادين، واتسعت رقعتها اتساعاً هائلاً، وتم هذا الاتساع في سرعة مذهلة، وبـدأت الأمة الإسلامية تتطور عملياً من مجتمع عربي «يحوي أقلية غير عربية» إلى مجتمع عالمي «يحوي أقلية عربية» ويضم هذا المجتمع الجديد أجناساً شتى ولغات مختلفة، وثقافات متباينة، وجهد عمر رضي الله عنه في تربية هذه الأمة العظيمة حسب المنهج، وأعانه على هذه التربية صحابة صالحون درسوا نفس المنهج وتدربوا عليه مع عمر فكانوا يسابقون في تطبيقه عمر، وكانوا خير من يشاورهم عمر وكانوا خير رعية لعمر وكانوا خير ولاة يوليهم عمر، رضي الله عنهم وعن عمر.

لكن أمة في هذا الاتساع، ومجتمعها الذي يتصف بالإسلام، لا يمكن

أن تتم التربية فيه خلال سنوات قصار، بل لا بد من المداومة فيه والاستمرار والمتابعة، وقد قام عمر ومعاونوه من نواة التربية الإسلامية الصالحة بواجبهم كما هو مرسوم للطليعة؛ هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن هذا الاتساع الرائع، والامتزاج الجديد، والثراء الواسع كان مجالاً مكّن حزب السبئية الباطني من التشكل والعمل في خفية واستتار يتماوج في الظهور والبطون على اختلاف المناطق وسير الزمن.

وكان للدعم الهائل الذي قدمته الرعية المسلمة المؤمنة الصالحة العالمة العاملة لأمير المؤمنين ما كَبَتَ ظهور الفتنة وبروز قرن السبئية في عهد عمر رضي الله عنه، وخنس أعداء الإسلام في عهده، فلا يكاد المجتمع الإسلامي يحس بوجود هؤلاء المخربين الباطنيين، وهذا مما جعل عمر أيضاً قفل الفتنة. ولو أن هؤلاء المخربين الباطنيين كانوا موجودين على قوة أو ضعف، وعلى سطحية أو عمق، إلا أن فاعليتهم لم تؤد بالمجتمع الإسلامي إلى شيء اللهم إلا اغتيال الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فمن هو الخليفة الثاني عمر؟

وما هي سياسة الحكم في عهد عمر؟.

ومن هم ولاة عمر ورعية عمر؟.

وما هي الانتصارات الجديدة في عهد عمر؟.

وكيف كان اغتيال عمر؟.

رضي الله عن عمر.

الخليفة الثاني:

«كان أول كلام تكلم به عمر حين صعد المنبر أن قال:

اللهم إني شديد فَلَيِّنِّي، وإني ضعيف فقوِّني، وإني بخيل فَسَخِّني»[1].

ثم اعتلى عمر بن الخطاب عرش التاريخ فأصبح نبراساً للعدل يستضاء

---

(١) تاريخ الخلفاء (للسيوطي) ص ١٣٩.

بنوره ويضرب به الأمثال. لقد أصبح القوي الأمين أميراً للمؤمنين فأخضع نفسه لله وذللها لأحكام الإسلام فكان في سيرته ـ رضي الله عنه ـ مثالاً شاهداً يتحرك لما يجب أن يكونه المسلم الذي آمن بهذا الدين. لقد انقاد عمر وامتثل لأمر الله ونهيه بدون اعتراض وباع كله لله عز وجل فدخلت سيرة عمر أبواب التاريخ جميعاً هاتفة للبشرية أن انظروا ماذا يفعل الإسلام بالرجال وكيف يسمو المسلم ويسمق إذا ما تحلى بمعنى الإسلام سيرة وخلقاً وشمائل. لقد كان عمر مسلماً حقاً ممتثلاً لأمر الله ونهيه بدون اعتراض مطبقاً أحكام الله على نفسه وأهله وباقي المسلمين ـ من ثم ـ تطبيقاً لا يتوارى ولا يدور غير هياب ولا عابىء بقريب أو بعيد أو قوي أو شديد، فلم تكن تأخذه في دين الله لومة لائم. فكسب حب الرعية والبشرية بعد أن كسب حب ربه سبحانه وتعالى، وساس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ شعبه ومواطنيه ولاة ورعية سياسة إسلامية حازمة دقيقة التطبيق، وكمّل الله له النجاح بوجود كثرة من الرجال الربانيين باعوا حيواتهم ـ كما باع ـ لله خالقهم وصمموا على نيل رضوان الله والجنة، فكانوا خير ولاة لخير أمة أخرجت للناس، وشد أزر النجاح رعية مسلمة عارفة بدينها عالمة بحق ربها عليها ثم حق ولاتها وأميرها، فوصلتنا قصة الدولة الإسلامية في عهد عمر وكأنها قصة محبوكة لمؤلف شاعري الأحلام، مثالية التفاصيل، وعدل من الحاكم ورحمة من القوي وانتصار للضعيف وتربية للناس أجمعين، وقصاص رادع للشاذين المنحرفين.

أمة ربانية وخليفة راشد كلل الله مسعاهم بانتصارات وفتوحات جعلت أعداء هذا الدين يزداد حقدهم عليه فيقومون باغتيال الراشد يوم كان حياً، ومحاولة اغتيال حسن سيرته طعناً فيها وفي سيرة إخوانه من كرام الصحابة.

سياسة الحكم:

أول خطبة خطبها عمر: حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد، فقد ابتليت بكم وابتليتم بي، وخُلِّفْتُ فيكم بعد صاحبي؛

فمن كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، ومن غاب عنّا وليناه أهل القوة والأمانة، ومن يحسن نزِدْه حسناً، ومن يسيء نعاقبه، ويغفر الله لنا ولكم[1].

أما سياسته مع عماله وولاته فلقد «كان عمر إذا استعمل عاملاً كتب له، واشترط عليه أن لا يركب بِرْذَوْناً، ولا يأكل نقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يغلق بابه دون ذوي الحاجات، فإن فعل فقد حلّت عليه العقوبة»[2].

«وكان إذا استعمل عاملاً كتب ماله»[3].

وفي سياسة الحرب كتب إلى القائد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

«أما بعد؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإن لا ننصر عليهم بطاعتنا لم نغلبهم بقوتنا.

واعلموا أن عليكم - في سيركم - حفظة من الله، يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله. ولا تقولوا: إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا؛ فربّ قوم سلِّط عليهم شر منهم كما سلّط الله على بني إسرائيل - لما عملوا بمساخط الله - كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً.

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم»[4].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤١.

(٤) أحمد عز الدين البيانوني، شؤم المعصية وبركة التقوى (مكتبة الهدى، حول القلعة، حلب، سورية) ص ٧٣.

ولقد أمر عماله فكتبوا أموالهم، منهم سعد بن أبي وقاص، فشاطرهم عمر في أموالهم، فأخذ نصفاً وأعطاهم نصفاً[1].

ولاة عمر

ومع هذه الشدة في معاملة الولاة تجده رضي الله عنه يختار أنواعاً من الولاة الدعاة من نماذج بشرية ربانية زهدت في الدنيا وزينتها وتعلقت نفوسها وأرواحها بالله وما عند الله في الآخرة.

من هؤلاء الدعاة الهداة الذين انتخبهم عمر ولاة لأمور المسلمين، نستعرض صفحتين من أيام رجلين: سعيد بن زيد الجمحي وعمير بن سعد الأنصاري، رضي الله عنهما.

فهذا سعد بن زيد الجمحي يوليه عمر الشام خلفاً لمعاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهم ـ فيخرج إلى عمله، فلم يلبث إلا يسيراً حتى أصابته حاجة شديدة فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه بألف دينار، فدخل بها على امرأته فقال: إن عمر بعث إلينا بما ترين.

فقالت: لو اشتريت لنا أدماً وطعاماً وادخرت سائرها.

فقال لها: أولا أدلك على أفضل من ذلك؟ نعطي هذا المال من يتجر لنا فيه فنأكل من ربحه وضمانها عليه.

قالت: فنعم إذن.

فاشترى أدماً وطعاماً، واشترى بعيرين وغلامين يمتاران عليهما حوائجهم، وفرقها في المساكين وأهل الحاجة.

ولم يلبث إلا يسيراً حتى قالت له امرأته:

إنه قد نفد كذا وكذا، فلو أتيت ذلك الرجل فأخذت لنا من الربح فاشتريت لنا مكانه.

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ١٤١.

فسكت عنها، ثم عاودته، فسكت عنها، حتى آذته فقال بعض أهلها: ما تصنعين! إنك قد آذيته، وإنه قد تصدق بذلك المال.

فبكت أسفاً على ذلك المال. ثم إن زوجها سعيداً دخل عليها يوماً فقال لها: على رسلك، إنه كان لي أصحاب فارقوني منذ قريب، ما أحب أني صددت عنهم وأن لي الدنيا وما فيها.

فسمحت ورضيت.

وقد شكا أهل حمص ـ وكانت تدعى الكويفة الصغرى لكثرة شكايتهم عمالهم ـ عاملهم سعيد بن زيد هذا فجمع بينهم وبينه وقال:

اللهم لا تفيل رأيي فيه اليوم[1].

ثم سألهم: ما تشكون منه؟.

قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار.

قال: ما تقول؟.

قال سعيد: والله إن كنت لأكره ذكره، ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم.

فقال: ما تشكون منه؟.

قالوا: لا يجيب أحداً بليل.

قال: ما تقول؟.

قال: إن كنت لأكره ذكره. إني جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل.

قال: وما تشكون منه؟.

قالوا: إن له يوماً في الشهر لا يخرج فيه إلينا.

قال: ما تقول؟.

---

(١) لا تُفيل: اي لا تُخيِّب.

قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجف، ثم أدلكها ثم أخرج إليهم في آخر النهار.

قال: وما تشكون منه؟.

قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام.

قال: ما تقول؟.

قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد بضعت قريش لحمه، ثم حملوه على جذعه فقالوا:

«أتحب أن محمداً مكانك وأنت في أهلك» فقال:

«والله ما أحب أني في أهلي وولدي؛ ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم شيك بشوكة» ثم نادى «يا محمد» فما ذكرت ذلك اليوم، وتركي نصرته في تلك الحال ـ وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم ـ إلا ظننت أن الله عز وجل لا يغفر لي بذلك الذنب أبداً، فتصيبني تلك الغنطة.

فقال عمر: الحمد لله الذي لم يفيل فراستي فيك.

فبعث إليه بألف دينار وقال: استعن بها على أمرك.

فقالت امرأته: الحمد لله الذي أغنانا عن خدمتك.

فقال لها: فهل لك في خير من ذلك؛ فندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون إليها.

قالت: نعم.

فدعى رجلاً من أهل بيته يثق به، فصررها صرراً وقال له: انطلق بهذه أرملة آل فلان، وإلى يتيم آل فلان، وإلى مسكين آل فلان، وإلى مبتلى آل فلان، فبقيت منها ذهيبة فقال لزوجته: «أنفقي هذه» ثم عاد إلى عمله.

أما نموذج عمال عمر الثاني فإليك عمير بن سعيد الأنصاري الذي بعثه عمر إلى حمص. فمكث حولاً لا يأتيه خبره. فقال عمر لكاتبه: اكتب إلى عمير فوالله ما أراه إلا قد خاننا «إذا جاءك كتابي هذا فأقبل وأقبل بما جبيت من فيء المسلمين حين تنظر في كتابي هذا».

فأخذ عمير جرابه، فجعل فيه زاده وقصعته، وعلق إداوته، وأخذ عنزته، ثم أقبل يمشي من حمص حتى دخل المدينة (قال) فقدم وقد شحب لونه، واغبر وجهه، وطالته شعرته.

فدخل على عمر وقال:

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال عمر: ما شأنك؟.

فقال عمير: ما ترى من شأني؟ ألست تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرنها!.

قال: وما معك؟ (فظن عمر أنه قد جاء بمال).

فقال: معي جرابي: أجعل فيه زادي، وقصعتي: آكل فيها، وأغسل فيها رأسي وثيابي، وإداوتي: أحمل فيها وضوئي وشرابي، وعَنَزَتي: أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن عرض. فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي.

فقال عمر: فجئت تمشي؟.

قال: نعم.

قال: أما كان لك أحد يتبرع لك بدابة تركبها؟.

قال: ما فعلوا، وما سألتهم ذلك.

فقال عمر: بئس المسلمون خرجت من عندهم.

فقال له عمير: اتق الله يا عمر، قد نهاك الله عن الغيبة، وقد رأيتُهم يصلون صلاة الغداة.

قال عمر: فأين بعثك؟ وأي شيء صنعت؟.

قال: وما سؤالك يا أمير المؤمنين؟.

فقال عمر: سبحان الله!.

فقال عمير: أما لولا أني أخشى أن أغمك ما أخبرتك؛ بعثتني حتى جئت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم، حتى إذا جمعوه، وضعته مواضعه، ولو نالك منه شيء لأتيتك به.

قال: فما جئتنا بشيء؟.

قال: لا.

قال: جددوا لعمير عهداً.

قال: إن ذلك لشيء. لا عملت لك ولا لأحد بعدك. والله ما سلمت بل لم أسلم، لقد قلت لنصراني[1]، فهذا ما عرضتني له يا عمر، وإن أشقى أيامي يوم خُلفت[2] معك يا عمر[3].

فاستأذنه فأذن له، فرجع إلى منزله (قال) وبينه وبين المدينة أميال. فقال عمر بعد أن انصرف عمير «ما أراه إلا قد خاننا» فبعث رجلاً يقال له الحارث، وأعطاه مائة دينار فقال له: «انطلق إلى عمير حتى تنزل به كأنك ضيف، فإن رأيت أثر شيء فأقبل، وإن رأيت حالة شديدة فادفع إليه هذه المائة دينار» فانطلق الحارث فإذا هو بعمير جالس يفلّي قميصه إلى جانب الحائط فسلّم عليه الرجل، فقال عمير:

انزل رحمك الله.

فنزل، ثم سأله:

من أين جئت؟.

قال: من المدينة.

قال: فكيف تركت أمير المؤمنين؟.

قال: صالحاً.

قال: فكيف تركت المسلمين؟.

---

(١) أي قال له: أخزاك الله.

(٢) يعني مات الصالحون وبقيت أنا وأنت.

(٣) إن مهمة الأمير المسلم أن يتقدم لله بالقيام بأمور الناس خير قيام كما أمر الله سبحانه، وهذا باب من أبواب عبادة الأمير، وليس له أن يقدم عليه اهتمامه بالنوافل أو التزهد الذي يضيع وقته الذي أوقفه على رعاية مصالح الأمة، فإن هو استطاع القيام بواجبه وسارت مصالح الأمة كما يريد الله سبحانه لها أن تسير وبقي عند الأمير فضل وقت فلا يضيع مصالح الأمة إن استغله في تقديم النوافل أو الزهد كان له أن يفعل كما كان يفعل عمر رضي الله عنه.

قال: صالحين.

قال: أليس يقيم الحدود؟.

قال: بلى. ضرب ابناً له أتى فاحشة.

فقال عمير: اللهم أعن عمر، فإني لا أعلمه إلا شديداً حبه لك.

(قال) فنزل به ثلاثة أيام وليس لهم إلا قرصة من شعير كانا يخُصُّونه بها، ويطوون، حتى أتاهم الجهد.

قال: إنك قد أجعتنا فإن رأيت أن تتحول عنا فافعل.

(قال) فأخرج الدنانير فدفعها إليه فقال:

بعث بها إليك أمير المؤمنين فاستعن بها.

(قال) فصاح وقال:

لا حاجة لي فيها ردها.

فقالت له امرأته:

إن احتجت إليها، وإلا فضعها في مواضعها.

فقال عمير: والله ما لي شيء أضعها فيه.

فشقت امرأته أسفل درعها فأعطته خرقة فجعلها فيها، ثم خرج فقسمها بين أبناء الشهداء والفقراء ثم رجع والرسول يظن أنه سيعطيه منها شيئاً.

فقال له عمير:

أقرىء أمير المؤمنين السلام.

فرجع الحارث إلى عمر فقال:

ما رأيت؟.

قال: رأيت يا أمير المؤمنين حالاً شديداً.

قال: فما صنع بالدنانير؟.

قال: لا أدري.

(قال) فكتب إليه عمر «إذا جاءك كتابي هذا فلا تضعه من يدك حتى تقبل» فأقبل إلى عمر فدخل عليه، فقال له عمر:

ما صنعت بالدنانير؟.

قال: صنعت ما صنعت، وما سؤالك عنها؟.

قال: أنشد عليك لتخبرني ما صنعت بها؟.

قال: قدمتها لنفسي.

قال: رحمك الله.

فأمر له بوسق من طعام وثوبين، فقال:

أما الطعام فلا حاجة لي فيه، قد تركت في المنزل صاعين من شعير، إلى أن آكل ذلك قد جاء الله تعالى بالرزق (ولم يأخذ الطعام) وأما الثوبان (فقال) إن أم فلان عارية.

فأخذهما ورجع إلى منزله فلم يلبث أن هلك رحمه الله، فبلغ عمر ذلك فشق عليه وترحم عليه، فخرج يمشي ومعه المشاؤون إلى بقيع الغرقد، وقال لأصحابه: لِيَتَمَنَّ كُلُّ رجل منكم أمنية.

فقال رجل: لو أني لي قوة فأمتح بدلو زمزم لحجاج بيت الله.

فقال عمر: لوددت أن لي رجلاً مثل عمير بن سعد أستعين به في أعمال المسلمين[٤].

رعية عمر

لقد سعد التاريخ بحكم عمر وسعد وعمر برعية إسلامية فهموا الإسلام ديناً قيماً ومنهجاً سلوكياً ربانياً عاشوا له مطبقين ومنفذين مخلصين لله لا يبالون في الله لومة لائم.. ينقادون ويمتثلون لأمر الله ونهيه بدون اعتراض في أي موقع من مواقع الحياة وقع أحدهم.. يستشعر عظمة الامتحان الذي ابتلاه به الله رب العالمين إذ أوجده في هذه الحياة الدنيا ليقيم الحجة عليه.. فترى المسلم من رعية عمر يمارس الحياة الدنيا وقد أدرك قيمة الدنيا وقد عرف قدر نفسه وعظم مسؤوليته كيف لا وهو يعلم أنه أحد جنود الله الذين سيُسألون يوم القيامة عن أستاذية شعوب العالم حيث يعبر جواب ربعي بن عامر، وحذيفة بن

---

(١) محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة (دار القلم، دمشق، بيروت) ج ٢، ص ٢٩٤.

محصن، والمغيرة بن شعبة واحداً بعد واحد، لسؤال رستم قائد جيش الفرس في القادسية: ما الذي جاء بكم؟.

قالوا: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله منا قبلنا منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه. ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر.

إخوة

أخذ عمر أربعمائة دينار فجعلها في صرة ثم قال للغلام:

اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تلَهَّ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع. فذهب بها الغلام إليه فقال:

يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حوائجك.

فقال: وصله الله ورحمه.

(ثم قال): تعالي يا جارية؛ اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان... حتى أنفذها، فرجع الغلام إلى عمر بن الخطاب فأخبره، ووجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال:

اذهب بها إلى معاذ بن جبل ثم تلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر إلى ما يصنع.

فذهب بها إليه فقال:

يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في حاجتك.

فقال: وصله الله ورحمه، تعالي يا جارية، اذهبي إلى فلان بكذا، وإلى بيت فلان بكذا، وإلى بيت فلان بكذا.

فاطلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا.

ولم يبق في الخرقة شيء إلا ديناران فدحا بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر وقال:

إنهم إخوة بعضهم من بعض»[1].

البصري والأمير

يأتي عمرَ بصريٌّ يشكو أمير البصرة أبا موسى الأشعري لأنه ضربه وحلق شعره في غير حد من حدود الله[2] فيبعث معه بكتاب لأميره يعزم عليه أن يمكنه من القود منه.

ويطيع أبو موسى، ويجلس للبصري على ملأ من الناس ليقتص منه، ولكن الرجل يعفو عن الصحابي الجليل.

نعم إيَّاك أعْني

وقف عمر على المنبر وقال:

ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا؟.

فقام إليه رجل وسلّ سيفه وقال:

نقومك بهذا.

قال عمر: إياي تعني بقولك؟.

قال: نعم إياك أعني.

فقال عمر: رحمك الله، الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تعوجت قوّمني[3].

فإن لم تنته ضربناك بالسيف

قال حذيفة: دخلت على عمر فرأيته مهموماً حزيناً فقلت له:

ما يهمك يا أمير المؤمنين؟.

فقال: إني أخاف أن أقع في منكر فلا ينهاني أحد تعظيماً لي.

---

(١) عبد الله بن المبارك المرزوي، كتاب الزهد والرقائق (مؤسسة الرسالة بيروت) ص ١٧٩.

(٢) إنما كان تعزيزاً من الأمير لهذا الرجل البصري الذي أذنب ذنباً ليس من الذنوب التي تستوجب حداً منصوصاً عليه في القرآن الكريم.

(٣) المصدر السابق.

فقال حذيفة: فوالله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك، فإن لم تنته ضربناك بالسيف.

ففرح عمر وقال:

الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقومونني إذا اعوججت[1].

ليس هذا لك يا عمر

يفكر عمر بمغالاة الناس بالمهور، ويخطر له أن يحددها بمهر بنت رسول الله فاطمة، فيقف على المنبر ويتكلم في هذا الأمر. . .

فتصيح امرأة من جانب المسجد:

ماذا يا عمر؟ تُقَتِّرُ علينا وقد أعطانا الله بالقنطار[2].

فيقول: أصابت امرأة وأخطأ عمر. . . كل الناس أفقه منك يا عمر!.

انتصارات جديدة

ولي عمر الخلافة بعهد من أبي بكر في جمادي الأخرة سنة ثلاث عشرة.

قال الزهري: استخلف عمر يوم توفي أبو بكر، وهو يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة (أخرجه الحاكم) فقام بالأمر أتم قيام، وكثرت الفتوح في أيامه.

ففي سنة أربع عشرة فتحت دمشق ما بين صلح وعنوة، وحمص، وبعلبك صلحاً، والبصرة والأبلّة، كلاهما عنوة.

وفيها جمع عمر الناس على صلاة التراويح (قاله العسكري في الأوائل).

وفي سنة خمس عشرة فتحت الأردن كلها عنوة إلا طبرية، فإنها فتحت صلحاً، وفيها كانت وقعة اليرموك والقادسية.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تشير إلى قوله تعالى: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ «سورة النساء: ٢٠».

(قال ابن جرير): وفيها مصَّر سعد الكوفة، وفيها فرض عمر الفروض، ودوَّن الدواوين، وأعطي العطاء على السابقة.

وفي سنة ستة عشرة فتحت الأهواز والمدائن وأقام بها سعد الجمعة في إيوان كسرى، وهي أول جمعة بالعراق، وذلك في صفر، وفيها كانت وقعة جَلولاء، وهزم فيها يزدجرد بن كسرى وتقهقر إلى الري، وفيها فتحت تكريت، وفيها سار عمر ففتح بيت المقدس، وخطب بالجابية خطبته المشهورة، وفيها فتحت قنسرين عنوة، وحلب وإنطاكية ومنبج صلحاً، وسروج عنوة وفيها فتحت قرقيسياء صلحاً وفي ربيع الأول كتب التاريخ من الهجرة بمشورة علي.

وفي سنة ثمان عشرة فتحت جند نيسابور صلحاً، وحلوان عنوة، وفيها كان طاعون عمواس، وفيها فتحت الرُّها، وسميساط عنوة، وحرّان ونصيبين، وطائفة من الجزيرة عنوة ـ وقيل: صلحاً ـ والموصل ونواحيها عنوة.

وفي سنة تسع عشرة فتحت قيسارية عنوة.

وفي سنة عشرين فتحت مصر عنوة، وقيل: مصر كلها صلحاً إلا الاسكندرية فعنوة، (وقال علي بن رباح: المغرب كله عنوة) وفيها فتحت تُستر، وفيها هلك قيصر عظيم الروم، وفيه أجلى عمر اليهود عن خيبر وعن نجران، وقسم خيبر ووادي القرى.

وفي سنة إحدى وعشرين فتحت الإسكندرية عنوة ونهاوند، ولم يكن للأعاجم بعدها جماعة، وبرْقة وغيرها.

وفي سنة اثنتين وعشرين فتحت أذربيجان عنوة، وقيل: صلحاً. والدِّينور عنوة، وماسبذان عنوة، وهمذان عنوة، وطرابلس الغرب، والري، وعسكر، وقومس.

وفي سنة ثلاث وعشرين كان فتح كرمان، وسجستان، ومكران، من بلاد الجبل، وأصبهان ونواحيها[1].

---

(١) تاريخ الخلفاء (للسيوطي، ط ١٩٦٩) ص ١٣٣.

قفل الفتنة

عن الحسن الفردوسي قال: لقي عمر أبا ذر فأخذه بيده فعصرها، فقال أبو ذر:

دع يدي يا قفل الفتنة.

فعرف أن لكلمته أصلاً فقال:

يا أبا ذر؛ ما قفل الفتنة؟.

قال: جئت يوماً ـ ونحن عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ وكرهت أن تتخطى[1] رقاب الناس، فجلست في أدبارهم، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم»[2].

وعن عثمان بن مظعون، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا غلق الفتنة» وأشار بيده إلى عمر «لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغَلَق ما عاش هذا بين أظهركم»[3].

عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب كوّم كومة من بطحاء، ثم ألقى عليها طرف ثوبه، ثم استلقى عليها فرفع يديه إلى السماء، ثم قال: «اللهم كبرت سنّي، وضعفت قوّتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرّط»[4].

الاغتيال

وقال أسلم: قال عمر: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك. (أخرجه البخاري).

قال الزهري: كان عمر ـ رضي الله عنه ـ لا يأذن لسبي قد احتلم في

---

(١) في الأصل: أتخطى. ولا يستقيم المعنى بها.

(٢) الرياض النضرة (للمحب الطبري) ص ٢٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٤) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج١، ص ٥٤.

دخول المدينة حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة ـ وهو على الكوفة ـ يذكر غلاماً عنده جملة صنائع، ويستأذنه أن يدخله المدينة، ويقول: إن عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للناس، إنه حداد نقاش نجار، فأذن له أن يرسله إلى المدينة، وضرب عليه المغيرة مائة درهم في الشهر، فجاء إلى عمر يشتكي شدة الخراج. فقال: ألم أُخبر أنك تقول: لو أشاء لصنعت رحىً تطحن بالريح؟.

فالتفت إلى عمر عابساً وقال: لأصنعنّ لك رحىً يتحدث الناس بها.

فلما ولى قال عمر لأصحابه: أوعدني العبد آنفاً.

ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين، نصابه في وسطه، فكمن بزاوية من زوايا المسجد في الغَلَس، فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة، فلما دنا منه طعنه ثلاث طعنات[1].

قال عمرو بن ميمون ـ شاهد لحادث اغتيال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ كان في الصف الأول وراءه في صلاة الصبح غداة طعنه المجوسي أبو لؤلؤة ـ قال عمرو: «إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مرّ بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف، أو النحل، أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبّر، سمعته يقول: قتلني (أو أكلني) الكلب ـ حين طعنه ـ فطار العلج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه (فمن يلي عمر، فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد، فإنهم لا يدرون، غير أنهم فقدوا صوت

---

(١) تاريخ الخلفاء (للسيوطي) ص ١٣٤.

عمر وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله) فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال:

يا ابن عباس؛ انظر من قتلني؟.

فجال ساعة ثم جاء، فقال: غلام المغيرة.

قال: الصنع؟

قال: نعم.

قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام - قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة - (وكان أكثرهم رقيقاً).

فقال: إن شئت فعلت. (أي إن شئنا قتلنا).

قال: كذبت؛ بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلتكم، وحجوا حجكم!.

فاحتمل إلى بيته، فانطلقنا معه وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذٍ، فقائل يقول: لا بأس. وقائل يقول: أخاف عليه، فأتي بنبيذ[1] فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس يثنون عليه، وجاء رجل شاب فقال:

أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقَدَم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة.

قال: وددت أن ذلك كفاف، لا علي ولا ولي.

فلما أدبر، إذا إزاره يمس الأرض، قال:

ردّوا علي الغلام، (قال): ابن أخي ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك.

---

(١) النبيذ: ماء ينبذ فيه زبيب أو تمر حتى يحلو ثم يشرب. وهو غير ما تعارف عليه جهله هذه الأيام من المترجمين على أنه نوع من أنواع الخمور.

يا عبد الله بن عمر انظر ما علي من الدين؟.

فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً (أو نحوه).

قال: إن وفى له مال آل عمر فأدّه من أموالهم، وإلا فاسأل في بني عدي، فإن لم تف أموالهم فاسأل في قريش، ولا تعدهم إلى غيرهم، فأدّ عني ذا المال. انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: «يقرأ عليك عمر السلام ـ ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ـ وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

فسلم، واستأذن ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي فقال:

يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه.

فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرن به اليوم على نفسي.

فلما أقبل قيل:

هذا عبد الله بن عمر قد جاء.

فأسنده رجل إليه، فقال:

ما لديك؟.

قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت.

قال: الحمد لله ما كان شيء أهمّ إلي من ذلك. فإذا أنا قضيت، فاحملوني، ثم سلّم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة، والنساء تسير معها، فلما رأيناها قمنا، فوَلَجتْ عليه، فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال، فولجتْ داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا:

أوص يا أمير المؤمنين، استخلف.

قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر (أو الرهط) الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو عنهم راض.

فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال:

يشهدكم عبد الله بن عمر - وليس له من الأمر شيء - (كهيئة التعزية له) فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمّر فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة (وقال) أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين: أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم: أن يقبل من محسنهم، وأن يعفو عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً؛ فإنهم ردء الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو؛ وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادّة الإسلام: أن يؤخذ من حواشي أموالهم، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم. فلما قبض خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فسلم عبد الله بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب.

قالت: أدخلوه.

فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم.

فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي.

فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان.

وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف.

فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر، فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه.

فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إليّ، والله علي أن لا آلو عن أفضلكم.

قالا: نعم.

فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقدم في الإسلام ما قد علمت؛ فالله عليك لئن أمّرتك لتعدلن، ولئن أمّرت عثمان لتسمعن ولتطيعن.

ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان.

فبايعه، فبايع عليّ، وولج أهل الدار فبايعوه[1].

وكانت هذه البيعة بعد ثلاثة أيام من وفاة عمر، «فسعى في ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاة ودعاء واستخارة... يستشير الناس فيهما، ويجمع رأي المسلمين برأي رؤوس الناس وأقيادهم، جميعاً وأشتاتاً، مثنى وفرادى ومجتمعين، سراً وجهراً، حتى خلص إلى النساء المخدّرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل مَنْ يَرِدُ من الركبان والأعراب إلى المدينة... فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه»[2].

وهكذا مضى عمر.. وبحادثة الاغتيال انتهى الفصل الثاني من فصل المؤامرة.. في قصة الحرب التي لم تقف بين الإسلام وحماته من جهة، وبين الشيطان وأعوانه من جهة مقابلة.

لقد كانت الصدمة التي أصابت الشيطان وحزبه بظهور خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم وقيام دولته وانتصاراته؛ صدمة شديدة زعزعت مكانته وبددت قوته وشتت شمل أنصاره؛ بعد أن كان المهيمن على قوانين أهل الأرض الوضعية والسائس المتسلم لخطام المجتمعات البشرية الجاهلية.

ثم عاد حزب الشيطان يحاول أن يلم شمل أتباعه ليقف أمام الأمة الربانية محارباً لها حرباً باطنية ينخر في أفرادها نخر السوس.

وظهرت أولى ثمار هذه الحزب باكورة فجة متمثلة في نجاح المؤامرة الأولى واغتيال الخليفة أمير المؤمنين، وأسدل الستار على الفصل الثاني من

---

(١) صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٩ ـ ٢٢.

(٢) أبو الفداء بن كثير، البداية والنهاية (مكتبة المعارف، شارع الأمير أمين، بيروت، طـ ١٩٧٤ م) ج ٧، ص ١٤٦.

فصول المؤامرة وانتهى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

لكن المسلمين اتفقوا على الراشد الثالث ذي النورين عثمان، ولم تتزعزع أركان الدولة الإسلامية بمضي عمر ولا هي تأثرت، فبعد أن مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء أبو بكر، ثم مضى أبو بكر فجاء عمر، ثم مضى عمر وجاء عثمان رضي الله عنهم.

فهل ثمة جديد بعد مضي الخليفة الراشد الثاني ومجيء الخليفة الراشد الثالث؟.

أما بالنسبة للأمة والخلافة.. فاقرأ قول الإمام أحمد بن حنبل «لم يتفق الناس على بيعة كما اتفقوا على بيعة عثمان، ولاه المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام وهو مؤتلفون متفقون متحابون متوادّون معتصمون بحبل الله جميعاً»[1].

أما بالنسبة للباطنية.. فلقد نجحت في اغتيال خليفة المسلمين عمر.. بعد مؤامرة وتخطيط وتدبير. هي باكورة فجة؛ لكنها الزرع أحصد، والجهد أنتج، وهدف مرحلي توصل إليه.. وتأسيساً على هذا النجاح فلتهيء الباطنية نفسها لخطط أدهى وتدابير أمرّ.. فها قد أظل المسلمين عهد خليفة جديد.. وهو للباطنية مسرح فصل جديد.

---

(١) تقي الدين بن تيمية الحراني، منهاج السنّة (مكتبة خياط، شارع بلس، بيروت، لبنان) ج ٣، ص ٢٣٤.

الفصل الخامس والعشرون

عهد عثمان والفتنة

قال علي: «كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين».

بويع عثمان بن عفان رضي الله عنه «بالخلافة بعد دفن عمر بثلاث ليال، فروي أن الناس كانوا يجتمعون في تلك الأيام إلى عبد الرحمن بن عوف يشاورونه ويناجونه، فلا يخلو به رجل ذو رأي فيعدل بعثمان أحداً، ولما جلس عبد الرحمن للمبايعة حمد الله وأثنى عليه وقال في كلامه: إني رأيت الناس يأبون إلا عثمان»[1] وتسلم ذو النورين مسؤولية أمارة المؤمنين على سنة الله وسنة رسوله، وانفرج الستار عن بداية الفصل الثالث «عهد عثمان والفتنة» هذا الفصل الذي تتلاحق وتتباين وتتداخل فيه المشاهد المختلفة.

فبينما ترى ذا النورين خليفة راشداً.. وتطمئن إلى الحكمة والرشاد في سياسة الحكم، وتتلمس معاني الازدهار والرخاء والعدل؛ تدوي في جنبات التاريخ أحاديث الفتوحات والانتصارات الجديدة فتمتد رقعة الدولة الإسلامية وتستوعب من الرعية الجديدة أخلاطاً وأوشاباً تخرج منهم طلائع الفتنة. التي لا تلبث أن تقتل الراشد ذا النورين ويبرز ـ من ثم ـ قرنها.

ذو النورين

قيل لعلي كرم الله وجهه: حدثنا عن عثمان.

---

(١) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر) ص ١٥٣، (قال) أخرجه بن عساكر عن المسور بن مخرمة.

فقال: ذلك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين»[1].

ولقد ذكر عثمان في مجتمع من الناس فقال الحسن بن علي:

الآن يجيء أمير المؤمنين (قال) فجاء علي فقال علي: «كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين»[2].

«ولد رضي الله عنه في السنة السادسة من الفيل، وأسلم قديماً وهو ممن دعاه الصدِّيق إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين: الأولى إلى الحبشة والثانية إلى المدينة، وتزوج رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل النبوة، وماتت عنده في ليالي غزوة بدر، فتأخر عن بدر لتمريضها بإذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وضرب له بسهمه وآجره، فهو معدود في البدريين بذلك، وجاء البشير بنصر المسلمين ببدريوم دفنوها بالمدينة، فزوجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعدها أختها أم كلثوم، وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة (قال العلماء: ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره، ولذلك سمي ذا النورين). فهو من السابقين الأولين، وأول المهاجرين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو عنهم راض»[3]. كما ذكر عمر بن الخطاب عند ترشيحه إياهم للخلافة بعده.

«كان يكنى في الجاهلية أبا عمرو، فلما كان الإسلام ولدت له رقية عبد الله فاكتنى به، فهو أبو عبد الله»[4].

عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٩.

(٢) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ٥٦.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٤٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٤٩.

وسلم يقول لعثمان: «لو أن لي أربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة»[1].

ولما ماتت بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال فيه: «زوجوا عثمان، لو كان لي ثالثة لزوجته، وما زوجته إلا بالوحي من الله»[2].

عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مر بي عثمان وعندي ملك من الملائكة فقال:
شهيد يقتله قومه، إنا نستحيي منه»[3].

وقال مرة لعائشة أم المؤمنين: «ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة»[4].

و «عن عبد الرحمن بن سمرة قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جيش العسرة فجاء عثمان بألف دينار فنثرها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم ولى، (قال) فسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقلب الدنانير وهو يقول: ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم»[5].

و «عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه

---

(١) أخرجه ابن عساكر، المصدر السابق، ص ١٥٣.
(٢) المصدر السابق، ص ١٥٣.
(٣) المصدر السابق، ص ١٥٣.
(٤) صحيح مسلم ج ٧، ص ١١٦.
(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم ج ١، ص ٦٠.

ولا يفهم من هذا الحديث أن عثمان قد حصل على صك غفران بهذا الثمن فلا تضره معصية بعد هذا اليوم، إذ لا وجود لمثل هذا المفهوم في الإسلام، إنما أعلم الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن وصول عثمان إلى درجة من التقوى والبذل في سبيل الله فلن يفعل - بتوفيق الله إياه - فعلاً يضره عند الله عز وجل. ولم تكن مثل هذه البشائر تقلل من تقوى الصحابة اتكالاً على نبوءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. إنما كانوا يفهمونها كفهمهم لفكرة القدر وما كانوا يأمنون مكر الله. فلذلك كنت ترى عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة بن اليمان كاتم سر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «هل أنا من المنافقين» فيقول: لا ولا أزكي على الله أحداً بعدك. وعمر مبشر بالجنة عدة بشائر...

وآله وسلم في حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «افتح له وبشره بالجنة، ففتحت له، فإذا أبو بكر فبشرته بما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فحمد الله. ثم جاء رجل فاستفتح، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «افتح له وبشره بالجنة» ففتحت له فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحمد الله، ثم استفتح رجل، فقال لي: «افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه». فإذا هو عثمان فأخبرته بما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحمد الله ثم قال: «الله المستعان»[1].

من أجل هذه الأوصاف التي يشهد لذي النورين بها عدول الشهداء؛ بويع رضي الله عنه للخلافة على مشورة من المسلمين وإجماع ما شذ عنه واحد، «فعن النزال بن سبرة قال: شهدت عبد الله بن مسعود في هذا المسجد، ما خطب خطبة إلا قال: أمَّرْنا خير من بقي ولم نألُ»[2]. وتحدث الإمام أحمد بن حنبل عن هذه البيعة فقال: «لم يتفق الناس على بيعة كما اتفقوا على بيعة عثمان، ولّاه المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام وهم مؤتلفون متفقون متحابون متوادون معتصمون بحبل الله جميعاً»[3].

الخليفة الراشد

وهكذا يمضي الخليفة الثالث على سنة صاحبيه الخليفتين الراشدين من قبل لا يغير ولا يبدل، يرنو ببصره إلى الجنة حيث مقعد الصدق عند مليك مقتدر مع الأحبة محمد وصحبه، يبقى - بعد تسلمه الخلافة - له إيمانه ويقينه وحياؤه وسخاؤه وحلمه وتواضعه... يجود من ماله جود المتوكلين وقد أخرج حب الدنيا من قلبه فهو يوزع ما أعطاه الله منها في يده ذات الشمال وذات

---

(١) صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٦.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت، لبنان، ط ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م) ج ٣ ص ٦٣.

(٣) تقي الدين بن تيمية الحراني، منهاج السنّة (مكتبة خياط، شارع بلس، بيروت، لبنان) ج ٣، ص ٢٣٤.

اليمين، لم يأكل من بيت مال المسلمين قليلاً ولا كثيراً... إنما احتسب في عمله للمسلمين عند الله، وأنفق على نفسه وأقاربه من ماله الخاص فبدد ثروته كلها في سبيل الله ـ وكان أغنى العرب ـ فلم يبق له يوم استشهد مظلوماً إلا ناقتان كان قد ربطهما لحجه رضي الله عنه [١].

أما سيرته في حياته الشخصية «فلقد كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت»[٢] ويقول عبد الله بن شداد: «رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة على المنبر عليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة وريطة كوفية ممشقة»[٣].

وكان على كبر سنّه وهرمه وهو خليفة ـ يلي وضوء الليل بنفسه، فقيل: لو أمرت بعض الخدم فكفوك.

فقال: لا، إن الليل لهم يستريحون فيه [٤].

وكان رضي الله عنه يقيل في المسجد ـ وهو يومئذٍ خليفة ـ ويقوم وأثر الحصى بجنبه.

فيقال: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين [٥].

وكان يرى على بغلة وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة [٦].

---

(١) هذا ما بقي له من ماله الخاص، أما ما بقي في خزينة بيت المال مما نهبه ثوار أهل الفتنة الذين قتلوه، فعن «عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: كان لعثمان بن عفان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة ألف دينار، فانتهبت وذهبت، وترك ألف بعير بالربذة.

وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار» عن كتاب محمد بن سعد، المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٧.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ج ١، ص ٦٠.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠. والرِّيطة: كل ملاءة تكون قطعة واحدة ونسجاً واحداً ليس لها لفقان، أي شقتان، وممشقة: مصبوغة بالمشق وهو المغرة.

(٤) حياة الصحابة عن كنز العمال، ج ٢، ص ٥٥٢.

(٥) حلية الأولياء لأبي نعيم ج ١، ص ٦٠.

(٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠.

سياسة الحكم

لما تمت بيعة عثمان رضي الله عنه خطب الناس فقال: «الحمد لله، أيها الناس اتقوا الله، فإن الدنيا كما أخبر الله عنها ﴿لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[1] فخير العباد فيها من عُصم بالله واستعصم بالله وبكتابه، وقد وكلت من أمركم بعظيم، ولا أرجو العون عليه إلا من الله، ولا يوفق للخير إلا هو، ما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب»[1].

«استقبل عثمان رضي الله عنه بخلافته سنة أربع وعشرين فأقر عمال عمر، فلم يعزل منهم أحداً عاماً كاملاً، أخذاً بوصية عمر» وكان أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله: «أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة، ولم يخلقوا جباة، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، إلا أن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بما عليهم، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم، وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدو الذي تنتابون، فاستفتحوا عليهم بالوفاء»[2].

وكتب إلى القواد والأمراء الأجناد في الثغور «أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه»[3].

---

(١) محمد الصادق عرجون، الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفان (الدار القومية للطباعة والنشر، ١٥٧، شارع عبيد، روض الفرج، مصر) ص ٥١.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر، ط ١٩٣٩) ج ٣، ص ٣٠٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠٦.

ثم خص عمال الخراج ووزراء المال فكتب إليهم: «أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق، وأعطوا الحق به، والأمانة الأمانة، قوموا عليها، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد، فإن الله خصم لمن ظلمهم»[1].

كما كتب إلى عامة الأمة في جميع الأمصار: «أما بعد، فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا»[2].

كما كتب إلى عامة الأمة أيضاً: «إني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم، وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته، وليس لي ولا لعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم، وقد رفع إليَّ أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ويضربون، فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ويأخذ حقه حيث كان، مني أو من عمالي.. أو تصدقوا إن الله يجزي المتصدقين»[3].

ثم زادَ الناسَ في أعطياتهم مائة.. فجرت. فأقر عثمان الذي كان صنع عمر، وزاد فوضع طعام رمضان فقال: للمتعبد الذي يتخلف في المسجد، وابن السبيل، والمعتر من الناس في رمضان[4].

---

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٠٧.

(٣) محمد شديد، منهج القرآن في التربية (مكتبة وهبة، ١٤ شارع الجمهورية بعابدين، مصر) ص ٢١٦.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٠٧.

عن موسى بن طلحة قال: رأيت عثمان يخرج يوم الجمعة عليه ثوبان أصفران فيجلس على المنبر، فيؤذن المؤذن وهو يتحدث يسأل الناس عن أسعارهم وعن قُدَّامهم وعن مرضاهم، ثم إذا سكت المؤذن قام يتوكأ على عصاً عقفاء فيخطب وهي في يده، ثم يجلس جلسة فيبتدىء كلام الناس فيسائلهم كمسألته الأولى، ثم يقوم فيخطب، ثم ينزل ويقيم المؤذن[1].

أما سياسته الاقتصادية مع الرعية فيلخصها قوله: «يا أبا ذر؛ علي أن أقضي ما علي، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد»[2].

الانتصارات الجديدة

ولي عثمان الخلافة على نظام الشورى الذي رسمه للأمة عمر، وأطبقت الأمة على مبايعته سنة ثلاث وعشرين ما شذ منها واحد.

وفي هذه السنة من خلافته فتحت الري ـ وكانت فتحت وانتقضت ـ وفيها فتح من الروم حصون كثيرة.. وفي سنة ست وعشرين زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه واشترى أماكن للزيادة وفيها فتحت سابور، وفي سنة سبع وعشرين غزا معاوية قبرس فركب البحر بالجيوش وكان معهم عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان الأنصارية[3]، وأبو ذر الغفاري، وفيها فتحت أرجان ودار تَجْرَد.. (وغزا عبد الله بن أبي سرح) أفريقية فافتتحها سهلاً وجبلاً، فأصاب كل إنسان من الجيش ألف دينار وقيل: ثلاثة آلاف دينار ثم فتحت الأندلس في هذا العام... وفي سنة تسع وعشرين فتحت اصطخر عنوة ونسا وغير ذلك وفيها زاد عثمان في مسجد المدينة ووسعه... وفي سنة ثلاثين فتحت جور وبلاد كثيرة من أرض خراسان،

---

(١) الطبقات الكبرى (لابن سعد) ج ٣، ص ٥٩.

(٢) تاريخ الطبري، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٦.

(٣) التي تنبأ لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنها ستكون من الجيش الذي يغزو في البحر، ودفنت بقبرس.

وفتحت نيسابور صلحاً، وقيل عنوة، وطوس وسرخس كلاهما صلحاً، وكذا مرو وبَيْهق. ولما فتحت هذه البلاد الواسعة كثر الخراج على عثمان، وأتاه المال من كل وجه حتى تتخذ له الخزائن وأدرّ الأرزاق، كان يأمر للرجل بمائة ألـف بدرة في كل بدرة أربعة آلاف أوقية.. وفي سنة ثلاث وثلاثين غزا عبد الله بن سعد بن أبي سرح الحبشة.. وفي سنة خمس وثلاثين كان مقتل عثمان[1].

رعية عثمان

مرت معنا في الفصل السابق نماذج من رعية عمر.. التي كان منها عثمان.. ولقد كان من رعية عمر، ومات في عهد عمر من الأعلام: عتبة بن غزوان، والعلاءبن الحضرمي، وقيس بن السكن، وأبو قحافة والد الصديق رضي الله عنه، وسعد بن عبادة، وسهيل بن عمرو، وابن أم مكتوم المؤذن، وعياش بن أبي ربيعة، وعبد الرحمن أخو الزبير بن العوام، وقيس بن صعصعة أحد من جمع القرآن، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأخوه أبو سفيان، ومارية أم السيد إبراهيم، وأبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس، وأبو جندل بن سهيل، وأبو مالك الأشعري، وصفوان بن المعطل، وأبي بن كعب، وبلال المؤذن وأسيد بن الحضير، والبراء بن مالك أخو أنس، وزينب بنت جحش، وعياض بن غنم، وأبو الهيثم بن التيهان، وخالد بن الوليد، والجارود سيد بني عبد القيس، والنعمان بن مقرن، وقتادة بن النعمان، والأقرع بن حابس، وسودة بنت زمعة، وعويم بن ساعدة، وغيلان الثقفي، وأبو محجن الثقفي، وخلائق آخرون من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين[2].

بعد هذا الدهر الذي مات فيه من الصحابة هؤلاء الرهط الكريم وغيرهم من خيرة الرعية من المسلمين تسلم عثمان إمرة المسلمين ولكل زمان دولة ورجال. والناس غير الناس والرعية غير الرعية.

---

(١) تاريخ الخلفاء (للسيوطي) ص ١٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٧.

صحيح أنه بقي من بقي له من صالحي الصحابة كعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن.. إلا أن جمهرة الرعية نقصها العدد الكبير من جمهور الصحابة، وزاد عليها العدد الكبير من جديدي العهد بالإسلام، ومن أبناء الشعوب المفتوحة ومن أبناء الأعاجم والدهاقين. واتسعت الفتوح، وزاد عدد الأرقاء في المجتمع الإسلامي، وانفتح المسلمون على مدنية الأمم المجاورة واختلط الحابل بالنابل.

طلائع الفتنة

إثر النجاح الذي أحرزه أعداء الإسلام في اغتيال ثاني الخلفاء الراشدين. وإثر مضي الدولة الإسلامية في الوصول إلى أهدافها وتحقيق انتصارات جديدة وعظيمة على عهد عثمان وخلافته الراشدة التي دامت «اثني عشرة سنة غير اثني عشر يوماً»[1] ازداد تصميمهم على المضي في الحرب الباطنية مع ازدياد حقدهم على الإسلام وأهله وانتصاراته.

وعادوا إلى أسلوب النفاق الأول في بث الإشاعة الكاذبة. وأخذوا بإدخال التحسينات عليها والابتكارات الجديدة، وأفرز هذا الأسلوب ثماراً كان هَمُّ الباطنية أن تحطم المجتمع الإسلامي من الداخل بخلخلة معلومات أفراده وتصديع الحق الذي يبحث عنه المسلمون، وتجريد المسلمين ـ من ثم ـ من السلاح الذي هزموا به عدوهم ومزقوا به ممالكه وأزالوا به دوله: الحق والصدق.

وبَرَعَ الباطنيون هؤلاء باستعمال «فن التزوير» تزوير حقائق الواقع بإشاعة القصص الكاذبة، وتزوير الرسائل والتواقيع والأختام على لسان من شاؤوا من صحابة أو أعلام في التاريخ الإسلامي.

بدأت عمليات التزوير الأولى كثيرة متفننة على عهد عثمان، وما لبث بعد مقتله ـ رضي الله عنه ـ أن تنوعت وتشعبت. ولما لم يكن مقصد هذا

---

(١) الطبقات الكبرى (لابن سعد) ج ٣، ص ٧٧.

الكتاب شرح فن «الإعلام الباطني في المجتمع الإسلامي»[1] ولما كان من الضروري تبيين حقيقته وأهميته لشدة تأثيره في مجرى الأحداث في دراستنا لقضية أبي ذر على عهد عثمان كانت هذه العجالة المختصرة التي توضح هذا المقصد في الباب التالي «قرن السبئية» يقدم فيه شرحاً لمصطلح «السبئية» ويتحدث عن الأصل والغاية والاسم، ويعرف بزعيمها الذي نسبت إليه وسميت باسمه «عبد الله بن سبأ» وبعض تشبيهاتها الأولى في تضليل العامة.

مشاهير عمليات التزوير

فبالإضافة إلى جرائم السبئية «أو الحزب الباطني في المجتمع الإسلامي» في إثارة الفتن وترويج بضاعة النفاق في محاولة لدحر العقيدة الإسلامية من نفوس معتنقيها وإبادة دولة المسلمين؛ فلقد قام السبئية، بعمليات تزوير ـ على الطبيعة ـ وفي رواية القصص والتاريخ لا تكاد تحصى، نذكر منها مشاهيرها على سبيل المثال.

- تقليد خاتم بيت المال في الكوفة أيام كان عبد الله بن مسعود يلي بيت المال أيام عمر.
- كتابة رسالة على لسان الخليفة عثمان يأمر بها عامل مصر بقتل محمد بن أبي بكر ومن معه بعد أن ولاه عمالة مصر.
- تقليد خاتم الخلافة وختم الرسائل به.
- إرسال الرسائل على ألسنة الصحابة وأمهات المؤمنين ممهورة بتواقيع مزورة، يزعمون فيها أنهم يشكون إلى أهل الأمصار ويتظلمون من حكم عثمان (علي، طلحة، الزبير، عائشة.. إلخ).
- إرسال الرسائل على ألسنة مشاهير كل مصر وعوامه إلى بقية الأمصار يصفون فيها الحالة العامة في البلاد بالسوء كاذبين.

---

(١) الإعلام الباطني في المجتمع الإسلامي. بحث وتصنيف مفرد نرجو الله عز وجل أن يوفقنا إلى إخراجه. أو يوفق غيرنا إلى هذا الخير، كما نرجو الله أن يوفقنا أو يلهم من شاء من صالحي الأمة إلى إخراج بحث عن «منهج تلقي الخبر عند المسلم».

- اختلاق الأحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإكثار من وضع الأحاديث.
- اختلاق قصص وحكايات وخرافات على لسان التوراة وإشاعتها بين المسلمين.
- ترويج القصص المتعددة حول الحادثة الواحدة وإشاعتها جميعاً حتى يختلط الأمر على السامعين.
- التفنن في إبداع قصص «هادفة» جذابة مثيرة للعواطف والمشاعر والانتباه.
- تنويع أساليب العرض والطرح وتعديد «أدوات الإشاعة» وابتكار الجديد منها.. فكتب وقصائد وحكايا وقصص وأمثال وحكم ومسرحيات ورسوم وأغان وأهازيج.

وهكذا أقاموا فتنة هوجاء كم سفكت من دماء، أرادوها كافرة ملحدة ناهبة مدمرة في كل حين ثاروا أو كل آن ظهروا.. لكن الأمّة الربانية دافعتهم في معركة الحق والصراحة، فكان الصدام بين الحق والباطل صداماً بين علنية ظاهرة وسرية باطنية، استخدمت فيه الربانية سلاح الحق المبين، واستخدمت فيه الباطنية سلاح النفاق اللعين.. ومضت سنة الله في هذه الأمة يتقدم جند الله غالبين في كل معركة - حينما يتصفون بالجندية الربانية حقاً - ويجانبهم النصر وتقع بهم الهزيمة عندما يتنكبون لأوامر الله لهم بالإسلام والانقياد إلى أمره ونهيه بدون اعتراض.

كيف قتلوه

ذلك الرجل الذي يدعى في الملأ الأعلى ذا النورين[1] والذي قال فيه علي رضي الله عنه «كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين»[2] ذلك المسلم الذي تستحي منه الملائكة[3].

---

(١) تاريخ الخلفاء (للسيوطي) ص ١٤٩.
(٢) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج ٢١، ص ٥٦.
(٣) صحيح مسلم. ج ٧، ص ١١٦.

عندما بلغ هذا الخليفة الراشد الثالث الثانية والثمانين من عمره، دخل عليه الثوار من أهل الفتنة وقتلوه. وبلغ من وحشية الثوار ما تحكيه لنا روايتا ابن سعد في طبقاته حيث قال:

«ضرب كنانة بن بشر جبينه ومقدم رأسه بعمود فخر لجنبه، وضربه سودان بن حُمران المرادي بعدما خر لجنبه فقتله، وأما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق فطعنه ست طعنات، وقال: أما ثلاث منهن فإني طعنتهن لله، وأما ثلاث فإني طعنته إياهن لما كان في صدري عليه»[1].

«وعن الزبير بن عبد الله عن جدته قالت: لما ضربه بالمشاقص قال عثمان: بسم الله توكلت على الله.

وإذا الدم يسيل على اللحية، ويقطر والمصحف بين يديه، فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول: سبحان الله العظيم.

وهو في ذلك يقرأ المصحف والدم يسيل على المصحف حتى وقف الدم على قوله تعالى: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾.

وَأطلق المصحف، وضربوه جميعاً ضربة واحدة، فضربوه والله بأبي هو يحيي الليل في ركعة، ويصل الرحم، ويطعم الملهوف، ويحمل الكل، فرحمه الله»[2].

وتحدث ابن سعد عن مقدار ما تركه ذو النورين في خزينة بيت المال يوم قتل وانتهبه هؤلاء المجرمون فحدث عن ٣٥٥٠٠٠٠/ درهماً و/ ١٠٠٠٠٠/ديناراً «فانتهبت وذهبت» [3].

فمن هم هؤلاء الثوار؟ وهل يمكن لعاقل أن يصدق أنهم جماعة «إصلاحيون» يريدون تقويم حاكم وتعديل سياسة!.

---

(١) الطبقات الكبرى (لابن سعد) ج ٣، ص ٧٤.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٤.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٧.

هـل يمكن لعـاقـل أن يصـدق أنهم جمـاعـة غضبـوا بعـد مصادرتهم ـ حقاً ـ رسالة غادرة أرسلت تطلب من عامل مصر القديم أن يقتل عاملها المعين الجديد[1] ؛ ممهورة بخاتم أمير المؤمنين؟ فإن هم كانوا غضاباً من مضمون الرسالة أفليس يلزمهم أن يتحققوا ـ بأسلوب التحقيق الإسلامي إن كانوا مسلمين ـ ؟ فإن تُجُوِّزَ عن خطئهم في ترك التحقق وهذا لا يجوز؛ أفلم يكن قتل الخليفة يكفيهم! فلماذا نهبوا بيت مال المسلمين!.

وإذا كان وفد مصر قد صادروا الرسالة بعد ثلاثة أيام من صدور وفد مصر إلى مصر، ووفد الكوفة إلى الكوفة، ووفد البصرة إلى البصرة؛ فلماذا رجع وفد مصر ووفد الكوفة ووفد البصرة في يوم واحد ليجتمعوا كلهم جميعاً في المدينة منطلقين إلى علي أبي الحسنين رضي الله عنه! أتواصوا بهذا قبل الصدور من المدينة!.

إن علياً رضي الله عنه كشف مؤتمراتهم وبيّن لهم أن هذا الأمر دبّر بليل عندما قال لهم: «هذا والله أمر أبرم بالمدينة» [2] كما فضح للتاريخ عمليات تزويرهم للرسائل والتواقيع عندما قالوا له: «ألم تر إلى عدو الله كتب فينا بكذا وكذا؟ وقد أحل الله دمه. قالوا له:

---

(1) الأخبار التي جاء فيها أن الراكب غلام عثمان، وأن الجمل جمل الصدقة، وأن عثمان اعترف بذلك، كلها أخبار مرسلة لا يعرف قائلها. أو مكذوبة أذاعها رواة مطعون في صدقهم وأمانتهم. ومضمون الكتاب اضطربت الروايات فيه، ففي بعض الروايات «إذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فاجلده مائة واحلق رأسه ولحيته وأطل حبسه حتى يأتيك أمري. وعمرو بن الحمق فافعل به مثل ذلك. وسودان بن حمران مثل ذلك، وعروة بن النباع الليثي مثل ذلك» وفي رواية «إذا أتاك محمد بن أبي بكر الصديق ـ وفلان وفلان ـ فاقتلهم وأبطل كتابهم وقر على عملك حتى يأتيك رأيي» وفي رواية ثالثة أن مضمون الكتاب أمر عامله بالقتل والقطع والصلب على هؤلاء الثوار. وهذا الاختلاف في مضمون كتاب واحد مما يزيد الريبة في أمره. عن هامش: محب الدين الخطيب، على كتاب: أبي بكر العربي، العواصم من القواصم (مكتبة لجنة الشباب المسلم، ١١ سكة راتب باشا بالحليمية الجديدة بالقاهرة طـ ١٣٧١ هـ) ص ١٢٧.

(2) يعلق المحقق محب الدين الخطيب على المؤامرة والتزوير في حاشيته على كتاب أبي بكر العربي، العواصم من القواصم فيقول: «واعجب العجب أن قوافل الثوار التي كانت متباعدة =

فقم معنا إليه.

قال: والله لا أقوم معكم.

قالوا: فلم كتبت إلينا؟.

قال: والله ما كتبت إليكم.

فنظر بعضهم إلى بعض»[1].

= في الشرق والغرب عادت معاً إلى المدينة في آن واحد، أي إن قوافل العراقيين التي كانت بعيدة مراحل متعددة عن قوافل المصريين ووصلتا إلى المدينة معاً كأنما كانوا على ميعاد. ومعنى هذا أن الذين استأجروا راكباً آخر خرج من المدينة معه قاصداً قوافل العراقيين ليخبرهم بأن المصريين اكتشفوا كتباً بعث به عثمان إلى عبد الله بن سعد في مصر بقتل محمد بن أبي بكر. قال الطبري (٥: ١٠٥) فقال لهم علي: «كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة» (يشير رضي الله عنه إلى تخلف الأشتر وحكيم في المدينة، وأنهما هما اللذان دبرا هذه المسرحية). قال الثوار العراقيون: «فضعوه على ما شئتم. لا حاجة لنا إلى هذا الرجل. ليعتزلنا» وهذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مفتعلة، وأن الغرض الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين عثمان وسفك دمه الذي عصمه الله بشريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم». اهـ. ص ١٢٧.

وخذ مثلاً على تزويرهم الكتب على لسان أم المؤمنين ما رواه مسروق عن عائشة قالت حين قتل عثمان: تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قربتموه تذبحونه كما يذبح الكبش، هلا كان هذا قبل هذا؟.

فقال لها مسروق: هذا عملك، أنت كتبْت إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه.

(قال) فقالت عائشة: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا!!.

قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها». من كتاب محمد بن سعد، الطبقات الكبرى ج ٣، ص ٨٢.

(١) أبو بكر بن العربي، المصدر السابق، ص ١٢٨. وقد علق محب الدين الخطيب على هذا بما يلي: «وهذا الحوار بين علي والثوار مجمع عليه في كل الروايات. وهو نص قاطع على أن اليد التي زوّرت على علي كتاباً إلى الثوار العراقيين بأن يعودوا وقد قلنا إن الثوار فريقان ـ خادع ومخدوع ـ فالذين نظر بعضهم إلى بعض عندما حلف علي بأنه لم يكتب إليهم هم من الفريق المخدوع يتعجب كيف لم يكتب علي إليهم وقد جاءهم كتابه، ومن ذا الذي يكون قد كتب الكتاب على لسانه إن لم يكن هو الذي كتبه؟ وسيأتي قريباً أن مسروق بن الأجدع الهمداني (وهو من الأئمة الأعلام المقتدى بهم) عاتب أم المؤمنين عائشة بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان. فأقسمت له بالله الذي =

إذن فلم يكن قتل عثمان تقويماً لاعوجاج، ولا إصلاحاً لفساد، كما لم يكن انتصاراً لحق ولا تغليباً لحزب على حزب، ولا غضباً لحيف أو ظلم أصاب فرداً أو جماعة. . . إنما قام طلائع الفتنة من الثوار بتنفيذ جريمة اغتيال عهد الراشد الثالث بما فيه من فتوح وانتصارات ووئام ووحدة. . قام طلائع الفتنة بقتل الراشد الثالث انتقاماً لدول الكفر المندثرة، وانتصاراً للشيطان وأعوانه لينجم قرن السبئية يحاول أن يفتك بالمسلمين ليغتال العقيدة.

▪ آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون أنها ما كتبت إليهم سواداً في بياض. قال سليمان بن مهران الأعمش - أحد الأئمة الأعلام الحفاظ - : «فكانوا يرون أنه كتب على لسانها»، أيها المسلمون في هذا العصر وفي كل عصر: إن الأيدي المجرمة التي زورت الرسائل الكاذبة على لسان عائشة وعلي وطلحة والزبير هي التي رتبت هذا الفساد كله، وهي التي طبخت الفتنة من أولها إلى آخرها، وهي التي زورت الرسالة المزعومة على لسان أمير المؤمنين عثمان إلى عامله في مصر في الوقت الذي كان يعلم فيه أنه لم يكن له عامل في مصر، وقد زورت هذه الرسالة على لسان عثمان بالقلم الذي زورت به رسالة أخرى على لسان علي، كل ذلك ليرتد الثوار إلى المدينة بعد أن اقتنعوا بسلامة موقف خليفتهم، وأن ما كان أشيع عنه كذب كله، وأنه كان يتصرف في كل أمر بما كان يراه حقاً وخيراً. ولم يكن صهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المبشر منه بالشهادة والجنة هو المجنى عليه وحده بهذه المؤامرة السبئية الفاجرة، بل الإسلام نفسه كان مجنياً عليه قبل ذلك. والأجيال الإسلامية التي تلقت تاريخها الطاهر الناصع مشوّهاً ومحرّفاً هي كذلك ممّن جنى عليهم ذلك اليهودي الخبيث والمنقادون له بخطام الشهوات» اهـ. المصدر السابق، حاشية الصفحتين ١٢٨ - ١٢٩.



البَابُ السَّادِسُ

قرن السبئيّة

ليست السبئية وما ظهر من فروعها من أسماء؛ طائفة إسلامية، أو فرقة تشذ عن بقية المسلمين وتفارق السواد الأعظم في عقيدة دينية أو رأي علمي؛ بل هي حزب كفر أمام حزب الله، وطائفة لا دينية أمام أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قرن السبئية

ليست السبئية وما ظهر من فروعها من أسماء؛ طائفة إسلامية أو فرقة تشذ عن بقية المسلمين وتفارق السواد الأعظم في عقيدة دينية أو رأي علمي؛ بل هي حزب كفر أمام حزب الله وطائفة لا دينية أمام أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم رغم ما يدعيه أتباعها أو تلاميذها من الالتحاق بفرقة إسلامية[1] أو يعتنقه غفلتها وأغبياؤها من دين غير دين الإسلام من أديان الكفر التي قال الله عز وجل عن متبعيها: ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ «سورة آل عمران: ٨٥».

---

(١) يقول الإمام عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي: «والصحيح عندنا أن أمة الإسلام تجمع المقرين بحدوث العالم وتوحيد صانعه وقدمه وصفاته وعدله وحكمته ونفي التشبيه عنه ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته إلى الكافة، وبتأييد شريعته، وبأن كل ما جاء به حق. وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة، وأن الكعبة هي القبلة التي تجب الصلاة إليها، فكل من أقرّ بذلك كله ولم يَشُبْه ببدعة تؤدي إلى الكفر فهو السنّي الموحد.

وإن ضم إلى الأقوال بما ذكرنا بدعة شنعاء نُظر: فإن كان على بدعة الباطنية أو البيانية أو المغيرية أو الخطابية الذين يعتقدون إلهية الأئمة، أو إلهية بعض الأئمة، أو كان على مذهب الحلول، أو على بعض مذاهب أهل التناسخ، أو على مذهب الميمونية من الخوارج الذين أباحوا نكاح بنات البنات وبنات البنين، أو على مذهب اليزيدية من الإباضية في قولها بأن شريعة الإسلام تنسخ في آخر الزمان، وأباح ما نص القرآن على تحريمه، أو حرم ما أباحه القرآن نصاً لا يحتمل التأويل فليس من أمة الإسلام ولا كرامة له» من كتاب: عبد القاهر بن طاهر البغدادي. الفرق بين الفرق (مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر، ط ١٩٧٠) ص ١٤٠.

الفَصْل السَادِس وَالعُشْرون

الأصل والغاية والاسم

إن الباطنية خارجة عن فرق الأهواء وداخلة في فرق الكفر الصريح لأنها لم تتمسك بشيء من أحكام الإسلام لا في أصوله ولا في فروعه.

ابن طاهر البغدادي

«إن الباطنية خارجة عن فِرق الأهواء وداخلة في فِرق الكفر الصريح لأنها لم تتمسك بشيء من أحكام الإسلام لا في أصوله ولا في فروعه وإنها دعوة المجوس بالتمويه إلى دين الثنوية.

وسبب ذلك أن المجوس في زمان المأمون تشاوروا في استدراك ملكهم فعلموا عجزهم عن قهر المسلمين فدبروا في تأويل أركان الشريعة على وجوه تؤدي إلى رفعها... وخالفوا المسلمين في التوحيد: إن الإله هو الأول الذي خلق شيئاً ثانياً، فهو مع الثاني مدبران للعالم، وهذا بعينه قول المجوس: إن الإله خلق الشيطان ثم إنه مع الشيطان مدبران للعالم، فهو مدبر الخيرات والشيطان مدبر الشرور.

وقالوا في النبوات برفع المعجزات الناقضات للعادات وأنكروا نزول الملائكة من السماء. وتأولوا الملئكة على دعاتهم إلى بدعتهم وزعموا أن كبراءهم هم المسمّون بجبرائيل وميكائيل وإسرافيل.

وتأولوا الشياطين على مخالفيهم وزعموا أن علماء مخالفيهم هم الأبالسة.

وقالوا: إن الأنبياء ساسة احتالوا للزعامة على العامة بالنواميس. وكل

واحد منهم صاحب دور، إذا مضى من دوره سبعة انقضى دوره واستؤنف بغير أمره.

وقالوا في تأويل الصلاة: إنها الثناء على الإمام، والزكاة دفع الخمس إليه، والصوم الإمساك عن إفشاء أسرارهم عند مخالفيهم، والزنا إفشاء أسرارهم بغير عهد.

وأسقطوا العبادات والحدود وأباحوا الخمر ونكاح ذوات المحارم، وهذا هو التمجّس بعينه»[1].

---

(1) عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، أصول الدين (مطبعة الدولة، ط ١، ١٩٢٨) ص ٣٢٩ - ٣٣٠. وذكر الشيخ زاهد الكوثري تعليقاً على موافقة الباطنية لعقائد أسلافهم المجوس: «وذلك أن الثنوية قالوا: إن للعالم صانعين، أحدهما: النور يكون منه الخيرات والمنافع، والآخر: الظلمة يكون منه الشر والمضار. وقالوا: إن كل واحد من هذين الأصلين له طبائع أربعة: الحرارة، والبرودة والرطوبة واليبوسة... ثم غيرت الباطنية عباراتهم فقالوا: إن الله تعالى خلق النفس، وكان الله هو الأول، والنفس هو الثاني... وزعموا أن هذا يدبران العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربعة..» اهـ. هامش كتاب، ابن طاهر الإسفراييني، التبصير في الدين (مطبعة الأنوار مصر) ص ٨٥. وتقرأ مثل هذا الخبط في كتاب الدرزي: أمين محمد طليع، أصل الموحدين الدروز وأصولهم. حيث يصف ربه في اعتقاده كما يلي: «إنه أحد قديم لا بداية له ولا نهاية، متصف بكافة الأوصاف الكمالية، وهو الذي خلق النور والظلمة، فكان النور العقل الكلي، وكانت الظلمة بإبليس اللعين والضد» ص ٩٣. كما يذكر في الكتاب نفسه تلك العقيدة الباطنية «إن الله قد أبدع من نوره الكلي صورة أزلية سماها [العقل الكلي] فكان الحد الأول أو السابق، لأنه سبق الحدود الروحانية إلى معرفة الخالق وتوحيده، والسابق يسمى الناطق، وفي كل دور من الأدوار يليه صامت، فكان الناطق الأول آدم والثاني نوح والثالث إبراهيم والرابع موسى والخامس عيسى والسادس محمد، وقد أشرق نور كل ناطق في أساسه، فكان شيث أساساً لآدم، وسام أساساً لنوح، وإسماعيل أساساً لإبراهيم، ويوشع بن نون أساساً لموسى، وشمعون أساساً لعيسى، وعلي بن أبي طالب أساساً لمحمد، وسيكون سابعهم كما سترى الحاكم بأمر الله الفاطمي سدرة المنتهى وبداية دور القيامة» ص ٣٤ من كتاب الدرزي أمين محمد طليع الذي قدم له ومدحه وتملقه وأشاد به النصراني مارون عبود في مقدمة الكتاب.

ويذكر ابن طاهر الأسفراييني في كتاب، التبصير في الدين في معرض الحديث عن محاولاتهم لتمجيس الناس: «وقد كان منهم من جملة البرامكة من سعى في إظهار عبادة النار بين المسلمين فقال لهرون الرشيد: ينبغي أن ترتب في الكعبة إحراق العود والند، ليكون ذلك أثراً زائداً على من قبلك، وأراد بذلك أن يجعل الكعبة بيت نار» ابن طاهر الإسفراييني، التبصير في الدين (مطبعة الأنوار مصر) ص ٨٥.

كما ذكر ابن طاهر البغدادي خلاصة القول فيهم فقال: «الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم: دهرية، زنادقة، يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع. والدليل على أنهم كما ذكرناه ما قرأته. في كتابهم «السياسة والبلاغ الأكيد، والناموس الأعظم» وهي رسالة عبيد الله بن الحسين القيرواني[1] إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنّابي[2] أوصاه فيها بأن قال: «أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة في السماء وإبطال الجن في الأرض، وأوصيك أن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم»[3].

وخط له أسلوب التضليل فأوصاه فيها بأن قال: «ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم، فمن آنست منه رشداً فاكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا، وإنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء، وعلى القول بقدم العالم ـ لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا نعرفه ـ»[4]. وذكر في هذا الكتاب إبطال القول بالمعاد والعقاب، وذكر فيها أن الجنة نعيم الدنيا، وأن العذاب هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد.

وقال أيضاً في هذه الرسالة: إن أهل الشرائع يعبدون إلهاً لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم.

وقال فيها: أكرم الدهرية فإنهم منا ونحن منهم[5].

---

(١) هو عبيد الله المهدي مؤسس دولة العبيديين.

(٢) هو أبو طاهر القرمطي الذي كسر الحجر الأسود عام ٣١٧ هـ بدبوسه وقلعه من مكانه في الكعبة.

(٣) ابن طاهر الأسفراييني التبصير في الدين (مطبعة الأنوار، مصر، ط ١٩٤٠) ص ٢٩٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٩٦.

(٥) المصدر السابق، ص ٢٩٥.

وذكر في آخر الكتاب: «إنك وإخوانك هم الوارثون، ورثوا الفردوس» ثم فسّر الفردوس فقال: «هو نعيم الدنيا ولذاتها التي حرمها هؤلاء الجهال الذين تمسكوا بشرائع قوم من المتنبئين. هنيئاً لكم الراحات التي وصلتم إليها والخلاص من التكليفات التي ابتلوا بها»[1]. «وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعي العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة في حسنها فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبي. ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي، وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرّم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله الذي يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولاً، واستباح بذلك أموالهم، بقوله: ﴿لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾[2] فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون. وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج»[3].

وكتب الإمام المحقق حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في كتابه الفريد «فضائح الباطنية» ما يلي: «ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدين وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين، وضربوا سهام الرأي في استنباط تدبير يخفف عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين، وينفس عنهم كربة ما دهاهم من أمر المسلمين، حتى أخرسوا ألسنتهم عن النطق بما هو معتقدهم من إنكار الصانع وتكذيب الرسل وجحد الحشر والنشر والمعاد إلى الله في آخر الأمر، وزعموا أنّا بعد أن عرفنا أن الأنبياء

---

(١) المصدر السابق ص ٨٦.

(٢) سورة الشورى: ٢٣.

(٣) عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، الفرق بين الفرق (مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر، مصر، ط ١٩٧٠) ص ٢٩٨.

كلهم ممخرقون ومنمّسون[1] فإنهم يستعبدون الخلق بما يخيلونه إليهم من فنون الشعبذة والزرق، وقد تفاقم أمر محمد واستطارت في الأقطار دعوته، واتسعت ولايته، واتسعت أسبابه وشوكته، حتى استولوا على ملك أسلافنا وانهمكوا في التنعم في الولايات مستحقرين عقولنا، وقد طبقوا وجه الأرض ذات الطول والعرض، ولا مطمع في مقاومتهم بقتال ولا سبيل إلى استنزالهم عما أصروا عليه إلا بمكر واحتيال، ولو شافهناهم بالدعاء إلى مذهبنا لتنمّروا علينا، وامتنعوا من الإصغاء إلينا، فسبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم هم أركهم عقولاً، وأسخفهم رأياً، وألينهم عريكة لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات وهم الروافض، ونتحصن بالانتساب إليهم، والاعتزاء إلى أهل البيت عن شرهم، ونتودد إليهم بما يلائم طبعهم، من ذكر ما تم على سلفهم من الظلم العظيم والذل الهائل، ونتباكى لهم على ما حل بآل محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ونتواصل به إلى تطويل اللسان في أئمة سلفهم الذين هم أسوتهم وقدوتهم، حتى إذا قبحنا أحوالهم في أعينهم، وما ينقل إليهم شرعهم بنقلهم وروايتهم، اشتد عليهم باب الرجوع إلى الشرع، وسهل علينا استدراجهم إلى الانخلاع عن الدين»[2] .

---

(١) التخرق: التخلق من الكذب، والتنميس: ما ينمس به الرجل من الأحيال.

(٢) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، فضائح الباطنية (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٥٧ شارع عبيد، روضة الفرج، مصر) ص ١٨ ـ ١٩. وذكر محمد بن حسن الديلمي في كتابه قواعد عقائد آل محمد نقلاً عن كتاب الحسام البتار في الرد على القرامطة:

اعلم أن ابتداء وضع مذهب الباطنية (سلّط الله عليهم طوفان نوح، وريح عاد، وحجارة لوط، وصاعقة ثمود) كان في سنة خمسين ومائتين من الهجرة وضعه قوم تطابقوا وكان في قلوبهم بُغض للإسلام وبغض النبي عليه السلام من الفلاسفة والملحدة والمجوس واليهود ليسلخوا الناس عن الإسلام بعد قوته وبعثوا الدعاة إلى الآفاق والأطراف ليدعو الناس إلى هذا المذهب المشؤوم لعلّ المملكة ترجع إليهم ويبطِّل دين النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأبى الله إلا أن يتم نوره» (٩: ٣٢) ولم يزل بفسخ همّتهم ومرادهم بحمد الله ومنّه، وكان آخر دعاتهم ميمون القدّاح الثنوي.. وقيل أصل هذه الدعوة الملعونة التي استهوى بها الشيطان أهل الكفر والعصيان والطغيان ظهورُ ميمون القداح في الكوفة سنة ست وسبعين ومائة سنة من التاريخ، فنصب الملعون للمسلمين حبائل وبغى لهم الغوائل ولبّس الحق بالباطل: «ومكر أولئك هو يبور» (٣٥: ١٠) وجعل لكل آية من كتاب الله تفسيراً، ولكل حديث عن رسول الله =

لقد ظهر حزب السبئية وجنّد أعضاءه من مواطني الدولة الإسلامية مترامية الأطراف من الموتورين والحاقدين وجهلة عوام أطراف المملكة، واستقرت فكرة قادته ومخططيه على نخر عقيدة الأمة بتضليل عوامها والتلبيس عليهم، والوثوب على السلطة ـ عند ضعف الدولة ـ وتعطيل الحكم بالإسلام بل وتحريم التدين به!.. وجهد السبئيون من أجل نخر عقيدة الأمة في توهين هذا الدين في نفوس حاملي لوائه وتشويهه وتغييره، كما جهدوا في ترويج ما يشوه سمعة بُناته الأوائل ليقطفوا ثمرة توهين الدين آناً سريعاً، وثمرة تشويه سمعة الأوائل مستقبلاً. ولم يصل الحزب السبئي إلى كل هذه الخطط والمناهج دفعة واحدة عند اجتماع مؤسسيه الأوائل، إنما تكاملت الفكرة والخطط والمناهج على التراخي على مدار الحرب القائمة بين الباطنية والإسلام.

ولقد شاعت في بعض الأوساط العلمية الإسلامية أسماء اصطلاحية لهذا الحزب الكبير العريق... منها الباطنية والسبئية والغلاة كما تفرعت عن الحزب الكبير العريق أسماء محلية أو تجارية نسبت إلى قادتها ومشاهيرها[1].

ولقد اخترنا في هذا الكتاب تسمية «السبئية» كعَلَم ينبيء عن هذا

= صلى الله عليه وآله وسلم تأويلاً، وزخرف الأقاويل، وضرب الأمثال، وجمع الأعداد والمقابلات، وقال إن جميع المفروضات والمسنونات رموز وإشارات وأمثال الممثلات، وإن الظواهر كلها قشور وبواطنها هو اللبّ المقصود، وأمر بالاعتصام بالغائب المفقود والإعراض عن الحاضر الموجود، من العترة الزكيّة عليهم السلام من ربّ البريّة، وكان الملعون عارفاً بالنجوم معطلاً لجميع العلوم فجعل أصل دعونه الاختصاص لعليّ بالتقديم والإمامة ليستُر بجلالة الإسلام وبجاه علي وأولاده عليهم السلام كفره العظيم وإفكه القديم وإلحاده المبين، والطعنَ على جميع الصحابة والتابعين وكان الملعون يعتقد اليهودية ويظهر الإسلام وكان يخدم لاسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام وكان حريصاً على هدم شريعة الإسلام لما في اليهود من عداوة النبي عليه السلام، وكان قد خرج في أيّام قرمط ولذلك نسبوهم إلى القرامطة لأنهما اجتمعا وعملا ناموساً يدعون إليه...» قواعد عقائد آل محمد، ص ٣ ـ ٥.

(١) يذكر الديلمي في قواعد عقائد آل محمد «اعلم أن ألقابهم خمسة عشر: الباطنية، والقرامطة، والقرمطية، والإسماعيلية، والمباركية، والسبعية، والتعليمية، والإباحية، والملاحدة، والزنادقة، والمزدكية، والبابكية، والخرّمية، والمحمّرة، والخرّمدينية» ص ٢١.

ولمذهب هؤلاء الزنادقة ألقاب على اختلاف البلدان أشهرها الباطنية لزعمهم أن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً انسلاخاً من الدين. ويعرفون في العراق باسم القرامطة جمع قرمطي =

الحزب الكبير العريق في التاريخ الإسلامي؛ نسبة إلى أول ما ظهر اسمه من المنظمين والمخططين له وأشهرهم، على الرغم من احتمال وجود من هو أعظم خطراً من «عبد الله بن سبأ» هذا، سبق ابن سبأ أو عاصره أو لحق به.

فالحزب السبئي أو «السبئية» أو «الباطنية» في اصطلاحنا طائفة كبيرة من الناس تركزت قيادتها الظاهرة أيام عثمان وعلي رضي الله عنهما بإمرة

= نسبة إلى قرمط... وباسم المزدقية أيضاً بالنظر إلى أنهم يدينون بدين الاشتراك في الأبضاع والأموال الذي ابتدعه «مزدق» في عهد قباز الساساني، ويسمون في خراسان بالتعليمية والملاحدة والميمونية، نسبة إلى ميمون أخي قرمط السابق ذكره دون ميمون بن ديصان لأنه ليس بفرع بل هو أصل البلاء كله، ويدعون في مصر بالعبيدية نسبة إلى عبيد المعروف. وفي الشام بالنصيرية والدروز التيامنة، وفي فلسطين بالبهائية، وفي الهند بالبهرة والإسماعيلية، وفي اليمن باليامية نسبة إلى القبيلة المعروفة. وفي بلاد الأكراد بالعلوية حيث يقولون علي هو الله - تعالى الله عما يقولون - وفي بلاد الترك بالبكداشية والقزلباشية على اختلاف مزاعمهم، وفي بلاد العجم بالبابية.

ولهم فروع إلى يومنا هذا تلبس لكل قرن لبوسه، ولكل قوم بمظهر تقضي به البيئة.

وقدماؤهم كانوا يسمون أنفسهم بالإسماعيلية باعتبار تميزهم عن فرق الشيعة بهذا الاسم، لكننا دللنا فيما سبق على أن صلتهم بإسماعيل بن جعفر الإمام كصلتهم بالإسلام». مقدمة محمد زاهد الكوثري لكتاب محمد مالك الحمادي اليماني، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (مطبعة الأنوار، مصر ط ١٩٣٩) ص ٨. وأضاف محمد بن حسن الديلمي في كتابه قواعد عقائد آل محمد، ص ٣٤، الألقاب التالية «السبعية والخُرْميّة والبابكية والمحمّرة والإباحية والزنادقة والخرمدينية» اهـ من كتاب ابن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ١٦٩ وذكر ابن طاهر في الكتاب نفسه عن بداية التخطيط لظهور الخارجين على الإسلام والدولة الإسلامية من الباطنيين في سجن والي العراق أيام المأمون ما يلي: «وقد حكى أصحاب المقالات أن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة منهم: ميمون بن ديصان، المعروف بالقداح (وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق) وكان من الأهواز. ومنهم محمد بن الحسين الملقب بدندان». (المصدر السابق ص ٢٨٠). «وجماعة كانوا يدعون الجهاربجة [أي الغلمان الأربعة]. اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديصان في سجن والي العراق فأسسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان، وابتدأ بالدعوة في ناحية «توز» فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل من أهل الجبل المعروف بالبدين، ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب [من توز والأهواز] وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب، وزعم أنه من نسله، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فقبل الأغبياء ذلك منه على جهل بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب عند علماء الأنساب، اهـ. من كتاب الفرق بين الفرق، ص ٢٨٠.

عبد الله بن سبأ. . قامت بإثارة فتنة عظيمة أدت إلى قتل الخليفة الراشد الثالث عن طريق ثورة من الغوغاء المنظمين دخلوا المدينة مخططين لقتل الخليفة هادفين، متظاهرين بأنهم نصحاء للأمة والخليفة مطالبين بإصلاحات، وقد حملوا معهم بعض أبناء الصحابة يسوقون سذاجتهم بخبيث التدبير الماكر، هذه الطائفة السبئية تابعت بعد مقتل الخليفة الراشد مسيرتها في زمن علي رضي الله عنه في توهين عقيدة دهماء المسلمين وحرفها إلى حيث يريد الشيطان أن تنحرف. . ثم تابعت المسيرة خلال التاريخ الإسلامي[1] مثيرة

---

(١) وكثرت أسماء الفرق والطوائف الباطنية المعادية للإسلام والمسلمين في أسمائها: البيانية والمنصورية والخطابية. .

والحاصل أن الطائفة المنسوبة إلى بيان بن سمعان التي يقال لها البيانية والطائفة المنسوبة إلى أبي منصور التي يقال لها المنصورية. والطائفة المنسوبة إلى أبي الخطاب التي يقال لها الخطابية، كلهم من غلاة الروافض، وأنهم يستحلون المحارم، وأنهم يقولون بعدم انقطاع النبوة وبارتفاع التكاليف، وأنهم أقدم الباطنية، والبيانية ألوان، والدروز والنصيرية من شيعتهم والحمزوية من أتباعهم، والمقالات المنسوبة إلى بيان بن سمعان أخذ بها بعده طائفة يقال لهم الباطنية، والإسماعيلية، وممن اشتهر منهم حسن بن الصباح الذي جاء في عصر ملكشاه السلجوقي، وألف كتباً كثيرة يبين مقالات الباطنية وينصرهم وينافح عنهم واستولى على القلاع في فارس والجبل ونسلطن هناك حتى يقال له «صاحب القلاع» وقد حاول الرد عليه وإبطال كلامه كثير من العلماء، ومنهم الإمام الغزالي الطوسي، ألف في إبطاله كتباً كثيرة. والنصيرية والدروز كانوا في نواحي الشام ومنهم بنو العبيد ويقال لهم الفاطميون أيضاً استولوا على بلاد المغرب أولاً ثم على إفريقيا ومصر، ومنهم طائفة من الروم يقال لهم الحمزوية والبيرامية كانوا على مسلك هؤلاء الباطنية. والجميع فرقة من فرق الروافض الغالية الذين قالوا بقدم العالم وعدم الحشر والنشر بالتجسم والتناسخ والحلول.

وبعد أن نقل ابن تيمية أقوال الأشعري في طوائف الغلاة قال: «فهذا بعض ما نقل الأشعري وغيره عنهم، وهو بعض ما قيل فيهم في هذا الباب فإن الإسماعيلية والنصيرية لم يكونوا حدثوا إذ ذاك. والنصيرية من نوع الغلاة والإسماعيلية ملاحدة أكفر من النصيرية، ومن شيعة النصيرية من يقول:

اشهد أن لا إله إلا	حيدرة الأنزع البطين
ولا حجاب عليه إلا	محمد الصادق الأمين
ولا طريق إليه إلا	سلمان ذو القوة المتين

ويقولون: إن شهر رمضان أسماء ثلاثين رجلاً، والثلاثون أسماء ثلاثين امرأة، وأن الصلوات الخمس عبارة عن خمسة أسماء وهي: علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة إلى =

الفتن كقطع الليل، فإن هي جعلت المسلمين يقتتلون زغردت فرحاً وسروراً، وإن هي تسلمت السلطة قتلت من المسلمين ما استطاعت جزلة محبورة، وإن تأخرت عن هذا وهذا اكتفت في بعض مناهجها المرحلية بإشاعة قصص وحكايا كثيرة تملأ آذان الناس وأخيلتهم فتضيع خلالها قصص الحقيقة ضمن ركامات الأكاذيب والاختلافات فلا يدري السامع من عامة المسلمين ما يصدق ولا يستطيع أن يصل إلى قصة الحقيقة، فإن يصله بعضها كذب الحق وصدق الباطل.

= أنواع من الكفر الشنيع الذي يطول وصفه.. ولهذا صارت الملاحدة والغالية علمين على بعض من ينتسب إليهم. فالملاحدة علم على الإسماعيلية، والغالية على علم القائلين بالإلهية في البشر كالنصيرية...» من كتاب تقي الدين ابن تيمية الحراني، منهاج السنة (مكتبة خياط، بيروت) ج ٢، ص ٤١٠.

الفصل السابع والعشرون

ابن سبأ

قال المحققون من أهل السنّة إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى عليه السلام

ابن طاهر البغدادي

«هو عبد الله بن سبأ يهودي من صنعاء، أمه يهودية سوداء، وينسب إليها فيقال ابن السوداء، أو ابن اليهودية، ادعى الإسلام في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه»[1].

واعلم أن ابن السوداء كان رجلاً يهودياً وكان قد تستر بالإسلام أراد أن يفسد الدين على المسلمين.. وكان من غلاة الروافض وكان يقول في أول أمره: إن علياً كان نبياً، ثم زاد على ذلك فقال: كان إلهاً.

(١) عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق ص ٢٣٥ «وذكر الحسن بن موسى النوبختي (وهو من كبار علماء الشيعة) في كتابه **فرق الشيعة** (ط استانبول ١٩٣١) ص ٩ - ٢٠: وأول من قال بالغلو. وهذه الفرقة تسمى السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ، وكان ممن أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم وقال: إن علياً - عليه السلام - أمره بذلك، فأخذه علي فسأله عن قوله هذا فأقر به، فأمر بقتله... وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي - عليه السلام - أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً - عليه السلام - وكان يقول وهو على يهوديته في يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام بهذه المقالة، فقال في إسلامه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله في علي - عليه السلام - بمثل ذلك، وهو أول من شهر القول بفرض إمامة علي - عليه السلام - وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه...» اهـ. من حاشية كتاب ابن تيمية، **منهاج السنة** (مكتبة خياط، بيروت) ج ١، ص ١٥.

وكان يقول: هو الإله في الحقيقة.

وكان يدعو الخلق إلى مقالته فأجابته جماعة إليها في وقت علي رضي الله عنه، فلما رفع خبره إلى علي أمر بحفر حفرتين وكان يحرقهم فيهما حتى قال الشاعر في معناه:

لترم الحوادث بي حيث شاءت إذا لم ترم بي في الحفرتين

ولما أحرقهم علي رضي الله عنه نفى عبد الله بن سبأ إلى ساباط المدائن فلما قُتل علي، قال عبد الله بن سبأ: إن علياً حي لم يقتل ولم يمت وإنما الذي قُتل شيطان تصور بصورته وتوهمت الناس أنه قتل كما توهم اليهود والنصارى أن المسيح قُتل. (قال) وهذا التوهم منهم خطأ وهذا القول منهم كذب بل هو في السماء، وعن قريب ينزل وينتقم من أعدائه[1].

وقال المحققون من أهل السنَّة: إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى عليه السلام، فانتسب إلى الرافضة السبئية حين وجدهم أعرق أهل الأهواء في الكفر، ودلّس ضلالته في تأويلاته[2].

---

(١) التبصير في الدين (للأسفراييني) ص ٧٢.

(٢) الفرق بين الفرق (للبغدادي) ص ٢٣٥.

الفَصْلُ الثَامِنُ وَالعُشْرُون

السبئية والسلطة

ثم ترى فضيحتهم سافرة حين يثبون إلى الحكم ويتسلمون السلطة، فترى أن كل ما يؤلفون من مناهج إنما تسير في مخطط مجرم يقصدون من ورائه إزالة وجود الإسلام من أنفس المسلمين.

السبئية والدولة القوية

السبئية في التاريخ الإسلامي قديمة جديدة.. ظاهرة خفية، تتوارى عند غلبة حكومة إسلامية قوية تحت لواء من ألوية المسلمين، فإذا ما كشفت الحكومة الإسلامية الحركة السبئية ـ لسبب من الأسباب ـ تظاهر المنكشفون بالإسلام والغيرة على العدل الإسلامي وتظاهروا بأنهم «دعوة دينية وفرقة إسلامية» مقصدها وهمّها «إزالة الظلم» ودفع الحيف الذي حل «بأهل البيت» من أبناء علي رضي الله عنه. ويتظاهر المنكشفون بأن حركتهم لم تكن إلا لإيصال «ذرية أهل البيت» الصالحة و «العترة الشريفة» إلى الحكم الذي «اغتصب» منهم، لأنهم أحق بالحكم والسلطة من الحكام «الحاليين» الذين سلبوا الملك من أهله واستبدوا بالبلاد والعباد، والسبئيون ـ في هذه الحالة ـ يلحقون أنفسهم «بالشيعة» ـ والشيعة منهم يتبرؤون ـ ويزعمون أنهم «فرقة» من فرقهم على تطرف يتجافى عن باقي الفرق في حب علي.. وتقديره.. وتقديسه! بل وتأليهه!.

ترى مثل هذا الاعتراف من أحدهم صريحاً، فلما جاء الرشيد بـ «شاكر» رأس الزنادقة ليضرب عنقه قال:

«أخبرني، لم تعلمون المتعلم معكم أول ما تعلمونه الرفض والقدر؟.

قال: أما قولنا بالرفض فإننا نريد الطعن على الناقلة، فإذا بطلت الناقلة أوشك أن نبطل المنقول. وأما قولنا بالقدر فإنا نريد أن نجوز إخراج بعض أفعال العباد لإثبات قدر الله، فإذا جاز أن يخرج البعض جاز أن يخرج الكل»[1].

السبئية وضعف الدولة:

والسبئية في التاريخ الإسلامي قديمة جديدة ظاهرة خفية، تتبجح عندما يقوى عودها، ويكثر أتباعها، ويقوون على السيطرة والقضاء على الحكومة الإسلامية المهلهلة الضعيفة، فتراهم عند استلامهم للسلطة يعلنونها كافرة ملحدة متوحشة همجية، يستبيحون المحرمات ويأتون المنهيات، لا يرعون في المسلمين والإسلام إلاً ولا ذمة، ولا يفرقون ـ عند الذبح ـ بين مسلم ومسلم، وغالباً ما يبدؤون بأهل البيت الحقيقيين، خذ أمثلة عن أيامهم بما عرف بالتاريخ «بثورة الزنج» ودولة القرامطة، وحركة الإسماعيلية، وغلبة العبيديين، وهيمنة النصيرية، خلال التاريخ الإسلامي، ولقد حاولت السبئية بما لها من قوة وهيمنة على وسائل الإعلام خلال التاريخ الإسلامي من تزوير التاريخ، وطمس ذكر حقائق هذه الدعوات والحركات وجرائمها، وتضليل الناس ـ إن هم ذكروا شيئاً منها أو عنها ـ فلا يكاد الناس يعرفون شيئاً عن تفاصيل ما قامت به هذه الحركات ولا عن تفاصيل ما قامت عليه ودعت إليه، ولا يكادون يعرفون شيئاً عن هويات الخارجين من زعمائها بل هم في لبس وتضليل حتى عن أسماء هؤلاء الخارجين عن الإسلام في تاريخ الدول الإسلامية[2].

---

(1) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد** (دار الكتاب العربي، بيروت) ج ٤، ص ٣٠٨.

(2) الخارجون من الباطنية ـ أعداء الإسلام ـ على الإسلام والدولة الإسلامية كُثر في أيام ضعف الدولة الإسلامية على مر التاريخ. وسنذكر في هذه الحاشية أسماء مشاهير من خرج وظهر أمره وقاتل المسلمين على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

ذكر الإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي في كتاب **الفرق بين الفرق** «إن الدعوة الباطنية ظهرت أولاً في زمان المأمون، وانتشرت في زمان المعتصم» ص ٢٨٥. وكان من سياسة =

= الباطنية كما ذكرنا أنها تتطفل على أطراف الدولة الإسلامية لسببين: أولهما قلة عدد العلماء وفشو الجهل الناتج عنه، وثانيهما ضعف هيمنه الدولة الإسلامية عليها.

فمن أوائل الخارجين: «بابك الخرّمي.. الذي كان مستعصياً بناحية البدين [اسم جبل بفارس] وكان أهل جبله خرّمية على طريقة المزدكية، فصارت الخرّمية مع الباطنية يداً واحدة.

.. ودخل في دعوتهم الإفشين صاحب جيش المعتصم ـ وكان في سره مع بابك ـ وتوانى في القتال معه ودله على عورات عساكر المسلمين وقتل الكثير منهم.. واشتدت شوكة البابكية والقرامطة على عسكر المسلمين.. إلى أن أظفر الله المسلمين بالبابكية فأسر بابك وصلب بسرّ من رأى سنة ثلاث وعشرين ومائتين (٢٢٣) هـ.

ثم أخذ أخوه إسحق وصلب مع مازيّار صاحب المحمّرة بطبرستان وجرجان.. وصلب الإفشين كذلك..» ص ٢٨٥.

ومن أوائل الخارجين محمد بن الحسين الملقب بدندان ابتدأ الدعوة في أكراد جبال توز [قرب الأهواز] حتى دخل في دعوته جماعة من أهل بدين [جبل هناك أيضاً].

ثم خرج ميمون بن ديصان في ناحية المغرب [من توز والأهواز] وانتسب إلى عقيل بن أبي طالب، فلما دخل في دعوته قوم منهم، ادعى أنه من أولاد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق فقبل الأغبياء ذلك على جهل من أن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب.

ثم خرج (من أتباع ميمون) حمدان قِرْمط فدعا أهل البحرين إلى الباطنية، وإليه تنسب القرامطة.

ثم خرج بالشام: أبو القاسم زكرويه بن مهرويه (وهو حفيد ميمون بن ديصان، وقال لمن تبعه: هذا وقت ملكنا.. وذلك سنة تسع وثمانين ومائتين (٢٨٩) هـ. وقتل أصحاب ابن مهرويه «سبكا» صاحب المعتضد ودخلوا الرصافة وأحرقوا مسجدها الجامع وقصدوا بعد ذلك إلى دمشق فاستقبلهم الحمّامي غلام ابن طيلون فهزمهم إلى الرقة.

ثم خرج المعروف بأبي سعيد الحسن بن بهرام الجَنّابي الذي استولى على الإحساء والقطيف والبحرين، فأتى بأتباعه على أعدائه، وسبى نساءهم وذراريهم وأحرق المصاحف والمساجد، ثم استولى على هجر، وقتل رجالها واستعبد ذراريهم ونساءهم. ثم قتله خادم له صقلبي بعد أن راوده عن نفسه بالحمام سنة ٣٠١ هـ.

ثم ظهر المعروف منهم بالصناديقي باليمن وقتل الكثير من أهلها حتى قتل الأطفال.

ثم ظهر مأمون أخو حمدان قرمط بأرض فارس، وقرامطة فارس يقال لهم المأمونية لأجل ذلك.

وخرج أبو حاتم في أرض الديلم فاستجابت له جماعة منهم أسفان بن شرويه.

وظهر بنيسابور داعية لهم يعرف بالشعراني فقتل بها في ولاية أبي بكر بن حجاج عليها.

ثم خرج من أهل خراسان الحسين بن علي المروزي تلميذ الشعراني في الوقت الذي كان يتولى هراة ومروروذ.

ثم قام بالدعوة الباطنية محمد بن أحمد النسفي فيما وراء النهر وهو المعروف بالبزدوي، =

= وصنف النسفي هذا لهم كتاب «المحصول».

ثم ظهر أبو يعقوب السجزي أقام دعوته بناصية سجستان وصنف أبو يعقوب للباطنية كتاب «أساس الدعوة» وكتاب «كشف الأسرار» وكتاب «تأويل الشرائع».

ثم خرج سليمان بن الحسن بن سعيد الجنّابي المعروف بأبي طاهر القرمطي في سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، وعظمت فتنته ودامت طويلاً. فلقد كبس البصرة عام ٣١١ هـ وقتل أميرها ونقل أموال البصرة إلى البحرين.

وسطا عام ٣١٢ هـ على الحجيج لعشر بقين من المحرم وقتل أكثرهم وسبى الحريم والذراري. ثم دخل الكوفة عام ٣١٣ هـ فقتل الناس وانتهب الأموال. وهزم جيش ابن أبي الساج عام ٣١٥ هـ وأسره. ودخل مكة عام ٣١٧ هـ. وقتل من وجده في الطواف حول الكعبة. وقيل إنه قتل بها ثلاثة آلاف. وأخرج منها سبعمائة بكر، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى البحرين، ثم رد منها إلى الكوفة. (ولم يُرَدّ إلى مكة إلا سنة ٢٣٩).

وقصد أبو طاهر بغداد سنة ٣١٨ هـ فلما ورد «هيت» رمته امرأة من سطحها بلبنة فقتلته. وانقطعت بعد ذلك شوكة القرامطة، وصاروا يتصدون للحجيج من الكوفة والبصرة إلى أن غلبهم الأصفر العقيلي على بعض ديارهم.

ثم ظهر الغلام المعروف بابن أبي زكريا الطامي في البحرين والأحساء وسن لأتباعه اللواط، وأوجب قتل الغلام الذي يمتنع على من يريد الفجور به، وأمر بقطع يد من أطفأ ناراً بيده، وبقطع لسان من أطفأها بنفخه. وكان ظهور هذا الغلام في سنة تسع عشرة وثلاثمائة، وطالت فتنته إلى أن سلط الله عليه من ذبحه على فراشه.

ثم خرج بالمغرب عبيد الله المهدي وأمر أن يدعى له في الخطبة ويلقب بأمير المؤمنين المهدي وذلك عام ٢٩٧ هـ. وأسس دولة وزعم أنه من نسل فاطمة الزهراء، ووضع لنفسه نسباً وسمى دولته بدولة الفاطميين ثم خلفه ابنه نزار ثم ابنه المنصور إسماعيل ثم ابنه المعز وهو أول من ملك مصر من العبيديين عام ٣٥٠ هـ. وبقيت دولة هؤلاء الباطنيين إلى أن أزيلت على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وكان ذلك تمهيداً لإزالة دولة الصليبيين من بيت المقدس.

ولقد ذكر السيوطي في كتاب «تاريخ الخلفاء» ما يلي:

«قال الذهبي: المحققون متفقون على أن عبد الله المهدي ليس بعلوي... وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: كان المهدي عبيد الله باطنياً خبيثاً، حريصاً على إزالة ملة الإسلام، أعدم العلماء والفقهاء ليتمكن من إغواء الخلق، وجاء أولاده على أسلوبه: أباحوا الخمر والفروج وأشاعوا الرفض. وقال الذهبي: كان القائم بن مهدي شراً من أبيه، زنديقاً ملصياً، أظهر سب الأنبياء. (وقال): وكان العبيديون على ملة الإسلام شراً من التتر. وقال أبو الحسن القابسي: إن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه من العلماء والعباد [ذبحاً في دار النحر التي كانوا يعذبون فيها الناس] أربعة آلاف رجل ليردوهم عن الترضي عن الصحابة فاختاروا الموت، [على لعن =

= الصحابة]، فيا حبذا لو كان رافضياً فقط، ولكنه زنديق». تاريخ الخلفاء ص ٤ ـ ٥. [وأما الذين انصاعوا لهم وشرقوا ـ على مصطلحهم ـ ففي غاية الكثرة، وأما الذين قتلوهم من عامة المسلمين فيما بين المغرب الأقصى ومصر فلم يعلم عددهم إلا الله سبحانه] زاهد الكوثري، مقدمة كتاب كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة. ص ٦.

ولقد ترك لنا التاريخ محضراً مسجلاً أصدره قاضي القضاة الإمام أبو محمد بن الأكفاني، يتعلق بنسب العبيديين وإنكار اتصالهم بنسب آل البيت الزكي ووقع المحضر من جملة من وقع «الشريفان (الرضى والمرتضى) و(ابن الجزري) و(أبو حامد الإسفراييني) و(عبد الله الصيرمي) و(أبو الحسن القدوري) و(أبو الفضل النسوي) و(أبو جعفر النسفي) وغيرهم من كبار الأئمة في مذاهبهم، وصورة هذا المحضر: (هذا ما شهد به الشهود أن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد منتسب إلى ديصان بن سعيد الذي ينتسب إليه الديصانية وأن هذا الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم ـ حكم الله عليه بالبوار والدمار ـ بن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد ـ لا أسعده الله ـ وأن من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس ـ عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين ـ أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأن ما ادعوه من الانتساب إليه زور وباطل. وأن هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفار زنادقة ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون أباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسبوا الأنبياء، وادعوا الربوبية. وكتب في ربيع الأول سنة اثنتين وأربعمائة).

. . . والشعر المنسوب إلى الشريف الرضي في الاعتداد بنسب العبيديين مختلق غير موجود في ديوانه وهو أجل قدراً من أن يظهر بمظهرين في وقتين» مقدمة محمد بن زاهد الكوثري على كشف أسرار الباطنية ص ٦ ـ ٧. وما ذكر في المحضر من الأسماء فمعدّ: هو المعز الذي اتخذ مصر عاصمة للعبيديين بعد أن استولى قائده جوهر الصقلي عليها. وعبد الرحمن: هو القائم نزار. وسعيد: هو عبيد المهدي. ومنصور: هو الحاكم بأمر الله الذي ادعى الربوبية، وكل واحد له عدة أسماء تسمى بها.

وقال القاضي عياض: سئل أبو محمد القيرواني الكيزاني (من علماء المالكية) عمن أكرهه بنو عبيد ـ يعني خلفاء مصر ـ على الدخول في دعوتهم أو يقتل؟ قال: يختار القتل. ولا يعذر أحد في هذا الأمر. كان [ذلك] أول دخولهم قبل أن يعرف أمرهم، وأما بعد؛ فقد وجب الفرار، فلا يعذر أحد بالخوف بعد إقامته؛ لأن المقام في موضع يطلب من أهله تعطيل الشرائع لا يجوز، وإنما أقام من أقام من الفقهاء ـ على المباينة لهم ـ لئلا تخلو للمسلمين حدودهم فيفتنوهم عن دينهم. وقال يوسف الرُّعيني: أجمع العلماء بالقيروان على أن حال عبيد حال المرتدين والزنادقة، لما أظهروا من خلاف الشريعة». عن كتاب جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ٤ ـ ٦.

ونذكر طرفاً من الكلام على أصل عبيد والعبيديين ليتبين للقارىء كم هي فعالة أساليب =

= السنية في كف الناس عن معرفة الحقائق وطمس التاريخ الذي لا يريدونه أن يُعرف، وإنشاء تاريخ للمسلمين ليس له أصل. شاع بين عامة المسلمين فلا حول ولا قوة إلا بالله.

فجلال الدين السيوطي يذكر: «إنهم غير قرشيين، وإنما سمتهم بالفاطميين جهلة العوام، وإلا فجدهم مجوسي، قال القاضي عبد الجبار البصري: اسم جد الخلفاء المصريين سعيد، وكان أبوه يهودياً حداداً نشابة» المصدر السابق ص ٤. ويحقق المحقق محمد محي الدين عبد الحميد في حاشية الصفحة نفسها من الكتاب فيقول: اسم جد الفاطميين مختلف فيه اختلافاً كثيراً، والذي يترجح عندنا أنهم جهلة، فجار، مجوس، أو يهود، كما ذكره المؤلف ولم نجد أحداً دافع عنهم كالمقريزي صاحب الخطط. والتاريخ - وهو متهم - لأن نسبه متصل بهم كما قيل.

ومن الطريف أن نسب العبيديين ينقطع مرتين مرة عندما يضع ميمون بن ديصان نسباً لنفسه فيدعي أنه ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق - ومحمد بن إسماعيل لم يعقب. ومرة عندما يدعي «عبيد الله» بنوته إلى الحسين بن محمد أحد أحفاد ميمون بن ديصان، يقول كمال الدين الدميري في كتابه: حياة الحيوان الكبرى: «ذلك أن الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله القداح - وذلك أنه كان يعالج العيون ويقدحها - ابن ميمون قدم إلى (سَلَمِيَّة) قبل وفاته وكان له بها ودائع وأموال من جده عبد الله القداح، فاتفق أنه جرى بحضرته ذكر النساء، فوصفوا له امرأة يهودي حداد مات عنها زوجها وهي في غاية الحسن والجمال وله منها ولد يماثلها في الجمال، فتزوجها وأحبها وحسن موضعها منه وأحب ولدها فعلمه فتعلم العلم وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة وكان الحسين يدعي أنه الوصي وصاحب الأمر، والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه، ولم يكن له ولد فعهد إلى ابن اليهودي الحداد وهو عبيد الله المهدي أول ملك من العبيديين ونسبتهم إليه، وعرفه أسرار الدعوة من قول وفعل وأمر الدعاة وأعطاه الأموال والعلاقات وأمر أصحابه بطاعته وخدمته وقال إنه الإمام والوصي وزوجه بابنة عمه، فوضع حينئذ المهدي لنفسه نسباً وهو:

عبيد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن موسى بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. رضي الله عنه (وبعض الناس يقول إنه من ولد القداح) فلما توفي الحسين قام بعده المهدي وانتشرت دعوته وأرسل إليه داعية بالمغرب يخبره بما فتح الله عليه من البلاد وأنهم ينتظرونه، فشاع خبره عند الناس أيام المكتفي فطلب فهرب هو وولده أبو القاسم نزار الملقب بالقائم وهو يومئذ غلام، ومعهما خاصتهما ومواليهما يريدان المغرب فلما وصلا أفريقية أحضر الأموال منها واستصحبها معه فوصل إلى رقادة في العشر الأخير من شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين ونزل في قصر من قصورها وأمر أن يدعى له في الخطبة يوم الجمعة في جميع تلك البلاد ويلقب أمير المؤمنين المهدي وجلس للدعاء. يوم الجمعة فأحضر الناس بالعنف، ودعاهم إلى مذهبه فمن أجاب أحسن إليه ومن أبى حبسه.

فابتداء دولتهم سنة سبع وتسعين ومائتين» ١ هـ. من كتاب كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى (دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت) ج ١، ص ٩٥.

السبئية والسلطة حديثاً

والسبئية في التاريخ الإسلامي قديمة جديدة، ظاهرة خفية ظهرت في الآونة الأخيرة بمظهر جديد بعد فتور العصبية الدينية في أوساط العامة ـ إثر انتصار الصليبيين على المسلمين «فيما دعي بالحرب العالمية الأولى»[1] واحتلالهم عاصمة المسلمين وإلغائهم الخلافة وتدمير الدولة العثمانية المهترئة ـ إذ اتجه السبئيون بعد دعوى التقدم والتغريب إلى الإدعاء بأنهم حركة تناصر الضعفاء والمسحوقين من العمال والفلاحين.. ثم ترى فضيحتهم سافرة حين يثبون إلى الحكم ويتسلمون السلطة فترى أن كل ما يؤلفون من مناهج إنما تسير في مخطط مجرم يقصدون من ورائه إلى إزالة وجود الإسلام من أنفس المسلمين. ثم هم يعلنونها كافرة ملحدة همجية شرسة لا يفرقون ـ عند الذبح ـ بين مسلم ومسلم، وغالباً ما يبدؤون بالعمال والفلاحين والضعفاء المسحوقين.

---

(١) كانت عبارة الجنرال اللنبي قائد قوات الحلفاء في الشرق الأوسط عند دخوله القدس هي: «الآن انتهت الحروب الصليبية» كما أن رئيس مجلس العموم البريطاني قدّمه بعدها إلى أعضاء المجلس قائلاً: «نحن نستقبل الآن بطل الحرب الصليبية التاسعة والأخيرة».

الفَصْلُ التَّاسِعُ وَالعُشْرُون

السبئية والعامة

قامت السبئية بتضليل عوام المسلمين من ضعفاء العقول، والسفهاء من عبّاد الأهواء، مستنصرة بهم على الإسلام والدولة الإسلامية في تحركها التخريبي للمجتمع الإسلامي على مر التاريخ إلى يومنا هذا.

قامت السبئية بتضليل عوام المسلمين من ضعفاء العقول والسفهاء من عبّاد الأهواء، مستنصرة بهم على الإسلام والدولة الإسلامية في تحركها التخريبي للمجتمع الإسلامي على مر التاريخ حتى يومنا هذا.

وقد تبع السبئية في مقالاتها وتأثر بضلالاتها خلق كثير ممن ضعفت عقولهم، أو قويت شهواتهم وأهواؤهم، أو طغى جهلهم على علمهم فأصبحوا لها جنوداً، ولأفكارها وتضليلاتها وقوداً.

ولذلك قال البغدادي: «اعلموا أسعدكم الله أن أضرار الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى عليهم، بل أعظم من مضرة الدهريّة وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان، لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا هذا أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها عن أربعين يوماً، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقَطْر»[1].

---

(١) عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق ص ٢٨٥.

أسلوب الدعوة

اعلم أن المتسبين لهذا الحزب الباطني على درجات في العضوية، وهم يعاملون منتسبيهم وأعضاءهم حسب نظام دقيق ومناهج مرسومة، وتُهيأ للدعاة منهم تربية خاصة، ويدربون تدريباً صارماً مدروساً يعتمد على دراسة ذكية لدوافع النفس الإنسانية وأساليب سياستها.

فأما الدعاة فإن من شأنهم «أن ينتقلوا في الأرض، ولا يطيلوا اللبث في مكان واحد، لكيلا يكون مملولاً مستثقلاً، وليكون أبعد من تمكين أحد من كشف بواطن أمره حذراً، ورأوا أن من أولى الأمور أن يتعاطى مِنْ حِفْظِ ألفاظ التوراة والأناجيل وكتب الأنبياء طرفاً، وأن يكون بكثير من اللغات عارفاً، وأن يتحلى بطرف من الهندسة، ومعان من تهاويل المتفلسفة»[1].

وأما المدعوين فإن من سياسة الدعوة مما يعلم الدعاة «يسالم في ظاهره أهل الديانات المختلفة، ويريهم في بعض أحواله أن اليهودية والنصرانية والمجوسية والإسلام كلها معان متقاربة ودعوة واحدة، وأن البلاء الذي وهَم الجهال اختلافها اتكالهم على ظاهرها دون باطنها، وجهلهم بمعانيها وأوضاعها وأن الآفة جاءت في ذلك من الناقلين لها، وعلمهم بغير ما توجبه حقائقها، وأن الناس لو عرفوا بواطن ذلك لاستراحوا واتفقوا وتألفوا وما اختلفوا، وهذه مرحلة من مراحل دعوتهم»[2].

«واعلم أن أول ما يحتالون به هؤلاء على السلاطين والعوام الذين لا خبرة لهم في العلوم، تقبيحهم العلماء في أعين العوام، يقولون للواحد منهم: إن علماءكم لا يعرفون شيئاً، ولو شئتم لجربتموهم وعرفتم من حالهم ما يقولون:

---

(١) محمد زاهد الكوثري، مقدمة كتاب محمد بن مالك اليماني، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ٩.

سلوهم: لِمَ وجب غسل الوجه في الوضوء، والحدث خرج من موضع آخر؟ وأي حكمة؟ وأي عاقل يستحسن مثل هذا؟.

واسألوهم: لم كانت صلاة المغرب ثلاث ركعات، وصلاة الصبح ركعتين، كل واحد منهما في طرف من طرفي النهار؟.

ولم كان الركوع واحداً والسجود اثنين؟.

ولم لم يقطع فرج الزاني؟ وتقطع يد السارق وهما جميعاً آلة الخيانة؟.

واسألوهم: لم كان اللسان واحداً؟ والأذن اثنين؟ والذكر واحداً؟ والخصية اثنتين؟.

ولم كانت الأهداب ثابتة على جفن الإنسان، ولا يكون لسائر الحيوانات الأهداب إلا على أحد الجفنين؟ ولم كان ثدي الإنسان على صدره وثدي سائر الحيوانات على بطنها؟ ولم كان بعض الحيوانات يبيض وبعضها يلد؟...

وإذا ظفروا بواحد من السلاطين والمحتسبين قالوا له: وضعت هذه الشريعة للحمير والعوام، وأنتم من جملة الخواص. ينبغي أن يكون لدينك خاصية تخالفهم دينهم. ويقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن نبياً ولا رسولاً، ولكنه كان حكيماً، أراد أن يستعبد العوام فكلفهم هذه التكاليف ولا بد للخواص أن يتميزوا عنهم، ولا ينقادوا لشيء لا أصل له.

وإذا وردت هذه الأسئلة على العامي تحير فيها، ورجع إلى واحد من أهل العلم فيقول العالم: لا تسمع هذا الكلام، ولا تغتر به لأنه من كلام الباطنية، وهذا الذي تسألني عنه إنما هو أمور أمر الله بها فلا اعتراض عليه، ولو أمر بخلافه لكان يجوز. وأشياء خلقها الله كان يجوز أن يخلق بخلافها لعموم قدرته. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى خلق بعض الحيوانات على رجلين وبعضها على أربع، وبعضها خلق بلا رجل تمشي على بطنها، وفيها ما يطير بالجناح، وخلق بعضها يمشي على البر؛ ولو سقط في الماء هلك، وبعضها يعيش في البر والبحر، وخلق بعض الأجسام بحيث ترسب في الماء مثل

الحجر والحديد، وبعضها يطفو على الماء كالخشب وغيره، فهذا كله دليل عموم قدرة الله تعالى، وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون».

فإذا رجع العامي إلى من لقنه تلك الأسئلة وذكر الجواب الذي وصفه. قال له: قد علمت الآن أنك لا تعرف شيئاً، فشككه في أمر الدين، وفي حال العالم، فأوهم بذلك الغر الغمر أن تحتها حكمة عظيمة يعرفها. ويقولون إذا تحير العامي: لا يعرف أسرار هذه الأمور غيرنا. فإذا طالبهم العامي ببيانه يقولون: ليس هذا من الأسرار التي تفشى بلا عهود ولا ميثاق، فإنها أسرار يعرفها الخواص.

فيُحلِّفونه: بالله وبالرسول وبالعتاق والطلاق وتسبيل المال والنعم ـ وإن كان هذا اليمين لا خطر لها عندهم فإنهم لا يؤمنون بالله وبالرسول؛ ولكنهم يريدون التهويل على المسلم ـ ويقولون أيضاً: لا نظهره إلا بتقديم خير عليه فيطلبون مائة وتسعة عشر درهماً من السبيكة الخالصة. ويقولون: هذا تأويل قول الله تعالى: ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾[1] فالحاء والسين والنون إذا جمع عددهم بحساب الجمّل يكون مبلغه مائة وتسعة عشر. فإذا سمع الغر هذا الكلام وبذل لهم العهد، وأعطى هذا المال، قال لهم: لم يبق إلا تهدوني إلى طريقكم وتفشوا لي أسراركم (فيخافون أن يظهروا له حقيقة ما هم عليه) فيظهرون له ما يشبه أن يكون ظاهره دين الإسلام حتى لا يبادر إلى الإنكار عليهم. ويستقر مع ذلك مقدار من خرافاتهم. ثم يلقون الأمر إليه درجة درجة فيسلخونه من الدين سلخاً.

فما يلقونه إلى المبتدىء قولهم: إن الله تعالى خلق ذوات الأربع من الحيوانات، فاختار منها واحداً وهو الظبية وجعلها محلاً للمسك الذي فيه تكون هذه الروائح الطيبة في هذه الجنة، ويعنون بالجنة دار الدنيا ونعيمها.

---

(١) سورة الحديد: ١٨.

وخلق ذوات الأجنحة من الحيوانات واختار منها واحدة هي النحلة، وجعلها محلاً للشهد الذي منه أطيب الحلاوات في هذه الجنة.

وخلق الحيوانات التي تمشي وتتحرك على بطنها فاختار واحدة منها وهي دودة القز وجعل منها الابرسيم الذي منه زينة هذه الجنة.

وخلق الناس واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم.

فيستحسن المبتدىء هذا الكلام الذي يلقيه إليه.

ويقول: أتدري من محمد؟.

فيقول: نعم. محمد رسول الله خرج من مكة وادعى النبوة وأظهر الرسالة وعرض المعجزة.

فيقول: ليس هذا الذي تقول إلا كقول هؤلاء الحمير (يعنون بهم المؤمنين من أهل الإسلام) إنما محمد أنت!.

فيستعيذ السامع ويقول: لست أنا محمداً.

فيقول له: الله تعالى وصف هذا في القرآن فقال: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[1] وهؤلاء الحمير يقولون من مكة.

فيقول الغر الغمر: على أي معنى نقول أنا محمد.

فيقول: خَلقك وصورك خلقة محمد فالرأس بمنزلة الميم «مـ» واليدان بمنزلة الحاء «حـ» والسرة بمنزلة الميم «مـ» والرجلان بمنزلة الدال «د» وكذلك أنت عليّ أيضاً، عينك هي العين «عـ» والأنف هي اللام «ل» والفم هي الياء «يـ» ثم يقول: إن الله ما خلق شيئاً إلا على صورة محمد وعلي حتى الفأرة خلقها على هذه الصورة «يوهمه بأن قول القائل محمد صلى الله عليه وسلم وعلي رضي الله عنه لا لشخصين من الأشخاص المعينة» يريد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسمى بعلي رضي الله عنه.

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

وكذلك يقولون إن المراد بإثبات الذات يرجع إلى نفسك ويؤولون عليه قوله تعالى: ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾[1] ويقولون الرب هو الروح، والبيت هو البدن «يمهدون بكلامهم هذا أن لا إله ولا نبي»[2].

كما ذكر الإمام ابن الجوزي عن أساليب دعوتهم ما يلي: «وأما الإشارة إلى مذاهبهم فإن مقصودهم الإلحاد وتعطيل الشرائع، وهم يستدرجون الخلق إلى مذاهبهم بما يقدرون عليه فيميلون إلى كل قوم بسبب يوافقهم، ويميزون من يمكن أن يخدعهم ممن لا يمكن، فيوصون دعاتهم فيقولون للداعي: إذا وجدت من تدعوه فاجعل التشيع دينك، ادخل عليه من جهة ظلم الأمة لعلي عليه السلام، وقتلهم الحسين وسبيهم لأهله، والتبرؤ من تيم[3] وعدي[4] وبني أمية وبني العباس، وقل بالرجعة وإن علياً يعلم الغيب.

فإذا تمكنت منه أوقفته على مثالب علي وولده، وَبَيِّنْتَ له بطلان ما عليه أهل ملة محمد عليه السلام، وغيره من الرسل عليهم السلام.

وإن كان يهودياً فادخل عليه من جهة انتظار المسيح، وأن المسيح هو محمد بن إسماعيل بن جعفر وهو المهدي، واطعن في النصارى والمسلمين.

وإن كان نصرانياً فاعكس.

وإن كان صابئياً، فتعظيم الكواكب.

وإن كان مجوسياً، فتعظيم النار والنور.

وإن وجدت فيلسوفاً فهم عمدتنا، لأننا نتفق وهم على إبطال النواميس[5] والأنبياء وعلى قدم العالم.

---

(١) سورة قريش: ٣.

(٢) ابن طاهر الأسفراييني، التبصير في الدين ص ٨٦ - ٨٨.

(٣) تيم: من قريش، ومنها أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

(٤) عدي: من قريش، ومنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) النواميس: جمع ناموس. والناموس هو جبريل عليه السلام، وكذلك كل ملك يرسل من قبل الله تعالى بالوحي إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومن أظهرت له التشيع فأظهر له بغض أبي بكر وعمر، ثم أظهر له العفاف والتقشف وترك الدنيا والإعراض عن الشهوات، ومُرْ بالصدق والأمانة والأمر بالمعروف، فإذا استقر عنده ذلك فاذكر له ثلب أبي بكر وعمر.

وإن كان سنياً فاعكس!.

وإن كان مائلاً إلى المجون والخلاعة فقرر عنده أن العبادة بله والورع حماقة، وإنما الفطنة في اتباع اللذة، وقضاء الوطر من الدنيا الفانية.

وقد يستحبون من له صوت طيب بالقرآن فإذا قرأ تكلم داعيهم ووعظ، وقدح في السلاطين، وعلماء الزمان وجهال العامة، ويقول: الفرج منتظر ببركة آل الرسول صلى الله عليه وسلم. وربما قال: إن الله عز وجل في كلماته أسراراً لا يطلع عليها إلا من اجتباه.

ومن مذاهبهم أنهم لا يتكلمون مع عالم بل مع الجهال، ويجتهدون في تزلزل العقائد بإلقاء المتشابه وكل ما لا يظهر للعقول معناه، فيقولون: ما معنى الاغتسال من المني دون البول؟ ولم كانت أبواب الجنة ثمانية أبواب وأبواب النار سبعة؟ وقوله ﴿عليها تسعة عشر﴾[1] ضاقت القافية؟.

ما بطن هذا إلا لفائدة لا يفهمها كثير من الناس.

ويقولون: لم كانت السموات سبعاً؟.

ثم يشوقون إلى جواب هذه الأشياء، فإن سكت السائل سكتوا، وإن ألح قالوا: عليك العهد والميثاق على كتمان هذا السر، فإنه الدر الثمين.

فيأخذوا عليه العهود والميثاق على كتمان هذا.

ويقولون في الأيمان: وكل مالك صدقة، وكل امرأة طالق ثلاثاً إن أخبرت بذلك».

ثم يخبرونه ببعض الشيء ويقولون: هذا لا يعلمه إلا آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون هذا الظاهر له باطن، وفلان يعتقد ما نقول

---

(١) سورة المدثر: ٣٠.

ولكنه يستره ـ ويذكرون له بعض الأفاضل، ولكنه ببلد بعيد ـ »[1].

---

(١) عبد الرحمن بن الجوزي، **القرامطة (المكتب الإسلامي) ص ٥١ ـ ٥٦**. أما محمد بن الحسن الديلمي فكتب تحت عنوان «ذكر حيلهم التي وضعوها وعوّلوا في الدعاء إلى مذهبهم عليها» ما يلي:

اعلم أنه لمّا كان قصدهم بهذه الدعوة هو السلخ عن الدين، وإرادة استدراج عوام المسلمين، ولم يمكنهم أن يصرحوا بذلك في دار الإسلام؛ فوضعوا حيلاً تكون عوناً لهم على إدراك مناهم ومرامهم، وهي تسع حيل، مرتب بعضها على بعض: **الزرق، والتفرس، ثم التأنيس، ثم التشكيك، ثم التعليق، ثم الربط، ثم التدليس، ثم الخلع، ثم المسخ**.

فالحيلة الأولى وهي الزرق والتفرّس: وهو أنهم قالوا: ينبغي أن يكون الداعي فطناً، ذكياً، صادق الفراسة، قوي الحدس، ويكون حاصلاً على ثلاثة أمور: **أحدها** ـ وهو أهمها ـ أن يميز بين من يطمع في استدراجه لقبول ما يلقى إليه مما يخالف معتقده، فَرُبَّ رجل لا يمكن أن ينزعه مما رسخ في قلبه، فلا يُضيع كلامه ويتقي بكلّ حال إلقاء البذر في الأرض السبخة، **وثانيها** أن يكون قوي الحدس، ذكيّ الخاطر، في تغيير الظواهر وردّها إلى البواطن؛ إما اشتقاقاً من لفظها، أو تلقّباً بها من عددها، أو تشبيهها لها بما يناسبها، حتى إذا لم يقبل منه تكذيب القرآن والسنّة؛ طلب منه ما يقرب منه وترك اللفظ على حاله، **وثالثها** ألا يدعو كل أحد إلى مسلك واحد؛ بل يبحث أوّلاً عن حاله وما عليه مَيله في طبعه، فإن كان مائلاً إلى الدنيا قرّر عنده أن العبادة بَلَهٌ، وأن الزهد والورع حماقة، وأن القيام بمشقة التكاليف جهالة، وأن الأولى بالعاقل قضاء الوطر مما يشتهيه من هذه الدنيا التي لا سبيل إلى تلافي لذّاتها عند انقضاء العمر. فإن كان من أبناء الدين جاءه بما يليق بمذهبه، فإن كان من الشيعة فيقرّر عنده تعظيم أهل البيت عليهم السلام، ويظهر التألم من الأئمة لظلمهم إيّاهم، كذلك في كل مذهب من مذاهب أهل القبلة وغيرهم من اليهود والنصارى، فإن مذهبهم ملتقط من فنون البدع والكفر، فلا نوع من الكفر إلا وقد اختاروا منه شيئاً يسهّل عليهم مخاطبة تلك الفرقة.

وأمّا الحيلة الثانية وهي التأنيس فهي أن يُظهر للمدعوّ بلسانه وفعله ما يميل إليه ويألفه على الوجه الذي قدّمنا، ثم يظهر له أشياء من العلوم وآيات القرآن والكلمات العذبة.

وأمّا الحيلة الثالثة وهي حيلة التشكيك: فمحصولها إلقاء إليه أسئلة عن معاني الشرع، ومتشابه القرآن، ولِمَ أمر بالغسل من المنيّ ومن البول والغائط بالوضوء؟ وهو أغلظ نجاسة، ولِم أمرت الحائض بقضاء الصوم دون الصلاة؟ وكلاهما واجبان على السواء، ولم أمر بالغض عن المحرّمات من العجائز دون الجواري من الإماء؟ ولم كانت أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة؟ وعن الحجّ؟ ورمي الجمار؟ وغيرها من الإحرام والطواف؟ إلى غير ذلك، ويعظّمون أمرها ليشككوا فيها.

والرابعة وهي التعليق: فإنه إذا سألهم عما ذكرنا عنهم علّقوا قلبه بطلبه؛ فإذا رجع إليهم بالسؤال، قالوا: لا تعجل فإن دين الله أجلّ من أن يبذل لكل أحد، ووردت سنن المرسلين بأخذ الميثاق، وتلَوُا الآيات التي فيها ذكر العهد والميثاق، ونحو قوله تعالى ﴿ ألَمْ يوخذ عليهم

= ميثاق الكتاب ألاّ يقولوا على الله إلا الحق ﴾ (الأعراف: ١٦٩) وأمثاله.

والخامسة وهي حيلة الربط: وهي أخذ العهود والمواثيق من المدعو وهذه نسخة عهدهم مختصرة:

جعلتَ على نفسك عهد الله وميثاقه، وذمّتهُ وذمة رسوله صلى الله عليه وأنبيائه وملائكته ورسله، وما أخذ الله عزّ وجلّ على النبيّين من عقد وعهد وميثاق، أنك تستر جميع ما سمعته مني وتسمعه، وعلمته وتعلمه، وعرفته وتعرفه، من أمري وأمر المقيم بهذا البلد، وهو المهديّ وأمور أصحابه وإخوانه وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين؛ فلا تُظهر من ذلك قليلاً ولا كثيراً؛ إلا ما أُطلقه لك صاحب الأمر المقيم في هذا البلد، فتفعل في ذلك بأمرنا ولا تتعدّاه، ولا تزيد عليه. . .

وأمّا الحيلة السادسة وهي التدليس: فهو أن يقول للمدعو أمر الدين ليس بهيّن، وهو سرّ الله المكتوم، وأمره المخزون، ولا ينهض به إلا الإمام المنصور، الذي هو الطريق إلى علم النبي الناطق صلى الله عليه، والوصي، وهو الأساس، إلى نحو ذلك، ومن تدليسهم تعظيمهم ظاهر الشرع ولهذا كان العهد مأخوذاً عليه كيلا يظن المدعوّ به ظن السوء، ومن تدليسهم الدعاء إلى الإمام المستور وأنّه من العترة، حتى يكون أقرب إلى الاستدراج وهو أي الإمام من أولاد ميمون القداح الثنوي المقدّم ذكره، وأوهموا الناس بأنه مستور، لئلا يطالبهم أحد بموضعه وصفته وحليته وأحواله.

وأما السابعة وهي التأسيس: فهو وضع مقدّمة لا تُنكر في الظاهر ولا تبطِل الباطن، يستدرج بها المدعوّ لحيث لا يدري، فيقول: الظاهر قشر والباطن لُبّ، والظاهر رمز والباطن المعنى المقصود كما ذكرنا في الصلاة والصوم وغيره وسنذكره أيضاً.

والثامنة هي الخلع من الدين: فيقول له: فائدة الظاهر أن يفهم ما أودع فيه من علم الباطن لا العمل به، ويقولون لا معنى لما يقوله الظاهرية من العمل بالظاهر، بل العمل به جهل، والمقصود به معرفة باطنه، فمتى وقف المدعوّ على الباطن سقط عنه حكم الظاهر، وهو المراد بقوله: ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٧) يريد هذه التكاليف الشاقة من الصلوة والصيام وغيرها من شرائع الإسلام، وكذلك الكفّ عن المحرّمات التي تتوق الأنفس إليها، فمتى عرف المرء معانيها، فلا فائدة في تجنبه لها، بل هي حلال طلق.

والتاسعة وهي الانسلاخ من الدين: فهي أنهم إذا أنسوا من المدعوّ الإجابة وصار منهم، قالوا: ما قال أبو القاسم القيرواني في «البلاغ الأكبر» وإعلم أنّي قد احللتك بكتابي هذا من عقالك، وأطلقتك من وثاقك، وحلّ لك ولمن هو في درجتك ما هو محظور على العالم المنكوس ﴿ اليوم أُحلّ لكم الطيّبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم ﴾ الآية (٥: ٥) فإذا ارتقى المؤمن إلى أعلى درجة الإيمان زال عنه العمل، فلا صوم عليه، ولا صلاة، ولا حجّ، ولا جهاد، ، ولا يحرُم عليه شيء بتّةً، من طعام وشراب وملبس ومنكح - إلى غير ذلك من الكفر الذي ذكر فيه لعنه الله، بيان مذهب الباطنية وبطلانه ص ٢٥ - ٣٠.

ويذكر محمد بن حسن الديلمي عن مراحل دخول الدعوة الباطنية ما يلي:

«.. وأما ترتيب الاستدراج إلى الدعوة الملعونة» فعلى أنواع: منها أنه إذا قبل منهم الجاهل المغرور هذه التُرّهات التي ذكرناها قالوا له: قرِّبْ قرباناً يكون لك سُلّماً، ونسأل لك مولانا ـ يعني الإمام ـ يحطّ عنك الصلاة، ويضع عنك هذا الإصر، فيدفع اثني عشر ديناراً، فيقول ذلك الداعي: يا مولانا عبدك فلان قد عرف الصلاة ومعانيها فاطرح عنه الصلاة، وضع عنه هذا الإصر والأغلال التي كانت عليه، وهذا نجوى اثنا عشر ديناراً، فيقول الإمام الشيطان: اشهدوا أني قد وضعت عنه الصلاة، ويقرأ له ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ (٧: ١٥٧) فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة الملعونة، يهنئونه ويقولون: الحمد لله الذي وضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك!.

ثم يقول الداعي الملعون للمغرور المفتون بعد مدّة: قد عرفت الصلاة وهي أوّل درجة، وإنما أرجو أن يُبلغك الله أعلى الدرجات، فاسأل وابحث، فيقول المغرور الجاهل: عما أسأل؟ فيقول عن الخمر والميسر (راجع سورة ٢: ٢١٩، ٥: ٩٠ و ٩١) فاعرف معناهما فإن الدين لا ينال إلا بالعلم، والذين أوتوا العلم درجات، فالخمر والميسر اللذان نهى الله عن قربهما أبو بكر وعمر، لمخالفتهما علياً عليه السلام وأخذهما الخلافة دونه، فأما الخمر الذي يُعمل من العنب وسائر الخمور ليس بحرام، لأنه مما تنبت الأرض ويتلو عليه ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق﴾ الآية (٧: ٣٢) وقوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا﴾ الآية (٥: ٩٣).

ويقول الصوم الكتمان ويتلو عليه ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ (٢: ١٨٥) يريد كتمان الأئمة في وقت استتارهم خوفاً من الظالمين ويقرأ عليه ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيًّا﴾ (١٩: ٢٦) فلو كان عنى

بالصيام ترك الطعام لقال فلن أطعم اليوم، فدلّ على أن الصيام الصموت، فحينئذ يزداد ذلك المخدوع طغياناً وكفراً، ويتهمّك إلى قول ذلك الداعي الملعون،.. ثم يقول: ادفع نجوى تكون لك سُلّماً ووسيلةً حتى نسأل مولانا يضع عنك الصوم، فيدفع اثني عشر ديناراً، فيمضي إليه ويقول: يا مولانا عبدك فلان قد عرف معنى الصوم على الحقيقة فأبح له الأكل في رمضان، فيقول له: قد وثِقتَ به على سرائرنا؟ فيقول: نعم، فيقول: قد وضعتُ عنه ذلك فيقيم بعد ذلك مدّة.

ثم يأتيه الداعي الملعون فيقول له: عرفت ثلاث درجات فاعـرف الطهارة ما هي؟ ومعنى الجنابة ما هي في التأويل؟ فيقول: فسّر لي معنى ذلك، فيقول له: اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب، وأن المؤمن طاهر بذاته، والكافر نجس بذاته، لأنه لا يطهّره الماء ولا غيره، وأن الجنابة موالاة أضداد الأنبياء والأئمة وأهل طاعته، وكيف يكون المنيّ نجساً ومنه مبدأ الإنسان وعليه أساس البنيان؟ فلو كان التطهّر منه من أمر الدين لكان الغسل من الغائط والبول أوجب لأنهما أنجس، ألا ترى أنه إذا تنجّس هدب من إزارك ما يُغسل إلا ذلك، وإنما معنى قوله ﴿ وإن كنتم جنباً فاطّهّروا﴾ (٥: ٦) معناه فإن كنتم جَهَلَة بعلم الباطن فتعلموا واعرفوا العلم الذي هو حياة الأرواح، كالماء الذي هو حياة الأبدان، قال تعالى: ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حيّ ﴾ (٢١ : ٣٠) ثم يأمره الداعي الملعون أن يدفع اثني عشر ديناراً نجوى ويقول: يا مولانا عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة وهذه قربانه فيقول الإمام الشيطان اشهدوا أني قد أحللت له ترك الغسل من الجنابة.

ثم يقول له بعد مدّة: قد عرفت أربع درجات وبقي عليك الخامسة فاكشف عنها فإنها منتهى أمرك وغاية سعدك، ويتلو عليه ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين﴾ (٣٢: ١٧) فيقول له المخدوع: ألهمني إيّاها، فيتلو ﴿ لقد كنتَ في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ (٥٠: ٢٢) فيقول له: تُحبّ أن تدخل الجنة؟ فيقول: نعم وكيف لي بذلك؟

فيتلو عليه ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ (٩٢: ١٣) وقوله ﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحيوة الدنيا خالصةً يوم القيامة ﴾ (٧: ٣٢) والزينة ههنا ما خفي عن الناس من أسرار النساء التي لا يطّلع عليها إلا المخصوص بذلك، وذلك قوله ﴿ ولا يُبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ ﴾ (٢٤: ٣١) والزينة مستورة غير مشهورة، ثم يتلو عليه ﴿ وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ (٥٦: ٢٢، ٢٣) فمن لم ينل الجنّة في الدنيا لم ينلها في الآخرة، إن الجنة مخصوص بها ذوو العقول والألباب دون الجهّال، لأن المستكنّ من الأشياء ما خفي ولذلك سُمّيت الجنَة جنّةً لأنها مستخفية، وسمّي الجنّ جنّاً لاختفائهم عن الناس، والترس الجنّة لأنه يستر والجَنّة ههنا ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقل، فحينئذٍ يزداد المخدوع انهماكاً ويقول للداعي الملعون: تلطّفْ لي ويلغني ما شوّقتني إليه، فيقول له: ادفع النجوى اثني عشر ديناراً قرباناً فيقول يا مولانا عبدك فلان قد صحّت سريرته وصفت خَبْرته وهو يريد أن تبلّغه حدّ الأحكام، وتدخله الجنّة بسلام، وتزوجه الحور العين، فيقول له: قد وثِقْتَ به؟ فيقول: علْمنا صعب مستصعب، لا يحمله إلا نبي مرسَل أو ملَك مقرَّب أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان، فإذا صحّ عندك، فاذهب به إلى زوجتك فاجمعْ بينه وبينها، فيقول سمعاً وطاعة لمولانا، فيمضي به إلى بيته فيبيت مع زوجته حتى الصباح، فيقرع عليهما الباب ويقول قوما قبل أن يعلم بنا هذا الخلق المنكوس، فيشكر المخدوع المدبور له، فيقول: ليس هذا من فضلي، هذا من فضل مولانا، فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل الداعي الملعون!.

ثم يقول له لا بدّ أن تشهد المشهد الأعظم عند مولانا فادفع قربانك فيدفع اثني عشر ديناراً فيصل به إليه ويقول: يا مولانا إن عبدك فلان يريد أن يشهد هذا المشهد الأعظم وهذا قربانه، حتى إذا جنّ الليل ودارت الكؤوس وطابت النفوس وحميت الرؤوس أحضر جميع أهل هذه الدعوة الملعونة حريمهم، فيدخلن عليهم وقد أطفؤا السرج فيأخذ كل واحد منهم ما وقع في

يده، ثم يأمر الإمام زوجته أن تفعل كفعل الداعي وجميع المستجيبين فيشكره المخدوع على ما فعل فيقول ليس هذا من فضلي هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين صلوات [الله] عليه فاشكروه، ولا تكفروه (سورة ٢ : ١٥٢) على ما أطلق من وثاقكم ووضع عنكم أوزاركم، وأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم جهالكم ﴿ وما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما يُلقّاها إلا ذو حظّ عظيم ﴾ (٤١ : ٣٥) هذا هو رواية محمد بن مالك عنهم بعد ما دخل عليهم وأقام فيهم»[١].

وهكذا يهيئون أعضاء هذا الحزب الباطني المخرب ليصبحوا على استعداد لاعتناق الزندقة والإلحاد. ثم يقوموا ببث هذه العقيدة دسّاً في أذهان بقية المسلمين عن طريق تشبيهات مضللة نستعرض فيما يلي بعضاً منها مع تعريف مختصر لكل منها.

الرجعة:

كان عبد الله بن سبأ أول من أظهر أمر الرجعة في المجتمع الإسلامي، المصري آنذاك، معتمداً على فشو الأحاديث الصحيحة ـ في ذلك المجتمع ـ التي تذكر رجعة عيسى عليه الصلاة والسلام في آخر الزمان حاكماً بالشريعة الإسلامية؛ ومعتمداً على خرافات «اليهود القائلين برجوع كل من ملكصيدق بن عامر بن أرفخشد بن سام بن نوح» و «العبد الذي وجهه إبراهيم عليه السلام ليخطب ريقا بنت بنؤال بن ناخور بن تارح على إسحق ابنه عليه السلام» و «إلياس عليه السلام» و «فنحاس بن العازار بن هرون عليه السلام»[٢].

بدأ ابن سبأ الدهماء من العامة بهذه المناقشة:

«قال: هل يرجع عيسى في آخر الزمان؟.

قالوا: يرجع.

---

(١) بيان مذهب الباطنية وبطلانه للديلمي ص ١١ ـ ١٥.

(٢) علي بن حزم الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل (مكتبة المثنى، بغداد) ج ٤، ص ١٨٠.

قال: ومحمد؟.

قالوا: لا يرجع.

قال: أيهما أفضل عيسى أم محمد؟.

قالوا: بل محمد ﷺ.

قال: فكيف يرجع عيسى ولا يرجع محمد ومحمد أفضل من عيسى! (عليهما الصلاة والسلام).

فسكتوا لا يدرون بم يجيبون!.

وفصَّل لهم أموراً في أمر الرجعة مما فُصِّل في ملة يهود..»[1].

وتمادت شبهاته وخرافاته على العامة تبعاً لاستجابات جهلهم، وأهوائهم.

ثم تتابعت السبئية وتلاميذ مدرستها في ادعاء الرجعة لرجال سوى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهم من هذه الدعوى براء فإما جهل وبلادة عقل وإما نفاق وتشويه راية»[2].

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٦.

(٢) سنذكر من هؤلاء المسترجعين (الذي يدعى السبئيون - أو يتمنى مغفلو تلاميذهم - أنهم سيرجعون) عدداً على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.. مع ذكر زمن وفاتهم ومكانه.

أولهم محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ادعى ابن سبأ رجعته في بداية تضليله للعامة. توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقبر في المدينة المنورة في العام الحادي عشر للهجرة.

وقال ابن سبأ في علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنه «حي لم يقتل ولم يمت وإنما الذي قتل شيطان تصور بصورته وتوهمت الناس أنه قتل كما توهم اليهود والنصارى أن المسيح قتل.. بل هو في السماء وعن قريب ينزل، وينتقم من أعدائه...» وزاد: إنه في السحاب. وقال ابن سبأ إذ بلغه مقتل علي رضي الله عنه: «لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته. ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً...» وقد قتل أمير المؤمنين رضي الله عنه غدراً بيد الخارجي عبد الرحمن بن ملجَم سنة أربعين للهجرة بالكوفة ودفن بدار الإمارة فيها.

ومنهم من قال: إن محمد بن علي بن أبي طالب وهو ابن الحنفية حي بجبال رضوى عن يمينه أسد وعن يساره نمر، تحدثه الملائكة، يأتيه رزقه غدواً وعشياً، لم يمت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

ومنهم من قال: إن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (الذي قتله =

تأليه البشر:

ولقد قامت الباطنية السبئية في إشاعة نوع من الكفر بين قليلي العقل والعلم والثقافة من مواطني الدولة الإسلامية فادعوا بإلهية بعض البشر مضاهين في ذلك قول النصارى في عيسى عليه السلام.

فترى أن ابن سبأ قد صرّح لأتباعه بألوهية علي ـ رضي الله عنه ـ وتوالت السبئية من بعده في ترديد مثل هذا الكفر في علي وفي غير علي. اقرأ تعريف السبئية عند الإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي في كتابه الفرق بن الفرق، حيث يقول: «السبئية: أتباع عبد الله بن سبأ الذي غلا في علي رضي الله عنه وزعم أنه كان نبياً، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله، ودعا إلى ذلك قوماً من غلاة

= المنصور بن عيسى بأمر من أبي جعفر المنصور) حي لم يقتل ولا مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. «وأنه حي في جبل حاجر من ناحية نجد».

ومنهم من قال: إن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (الذي قتله بالكوفة محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين بأمر من المستعين) حي لم يقتل ولا مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

ومنهم من قال: إن محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (القائم بالطالقان أيام المُعتصم) حي لم يمت ولا قتل ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

ومنهم من قال مثل ذلك في جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ومنهم من قال: إن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حي لم يمت ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

ومنهم من قال مثل ذلك في أخيه إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ومنهم من قال: إن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (وهو القائم بفارس أيام مروان بن محمد، وقتله أبو مسلم بعد أن سجنه دهراً) حي بجبال أصبهان إلى اليوم، ولا بد له أن يظهر، وكان عبد الله هذا رديء الدين معطلاً مستصحباً الدهرية.

ومنهم من قال: إن محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب حي لم يمت ولا يموت حتى يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً «وهو عندهم المهدي المنتظر ـ» من كتاب علي بن حزم الظاهري الفصل في الملل والأهواء والنحل (مكتبة المثنى بغداد) ج ٤، ص ١٨٠.

الكوفة... ورفع خبرهم إلى علي رضي الله عنه فأمر بإحراق قوم منهم في حفرتين حتى قال بعض الشعراء في ذلك:

لترم بي الحوادث حيث شاءت إذا لم ترم بي في الحفرتين[1]

ثم لما قتل علي رضي الله عنه زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً وإنما كان شيطاناً تصور للناس في صورة علي، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم عليه السلام، وقال كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى، كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل علي، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شبهوه بعيسى، وكذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلاً شبه علياً فظنوا أنه علي، وعلي قد صعد إلى السماء، وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه. وزعم بعض السبئية أن علياً في السحاب، وأن الرعد صوته، والبرق سوطه، ومن سمع من هؤلاء صوت الرعد قال: وعليك السلام يا أمير المؤمنين[1].

ثم تمادى الحزب السبئي في هذا الزعم وصرح بإلهية العديد من البشر.

«وصرح بعضهم بإلهية آدم عليه السلام والنبيين نبياً نبياً إلى محمد عليه

---

(١) وفي تفصيل ذكر هؤلاء الكفرة من أصحاب ابن سبأ يذكر علي بن حزم الظاهري في كتاب الفصل: «أن جماعة من أصحاب ابن سبأ أتوا إلى علي بن أبي طالب فقالوا مشافهة:

أنت هو.

فقال لهم: ومن هو؟.

قالوا: أنت الله.

فاستعظم الأمر وأمر بنار فأججت وأحرقهم بالنار، فجعلوا يقولون وهم يُرمون في النار: الآن صح عندنا أنه الله، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله.

وفي ذلك يقول رضي الله عنه:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناراً ودعوت قنبرا

ـ يريد قنبراً مولاه ـ وهو الذي تولى طرحهم في النار.

نعوذ بالله من أن نفتتن بمخلوق أو يفتتن بنا مخلوق فيما جل أو دق، فإن محنة أبي الحسن رضي الله عنه من بين أصحابه رضي الله عنهم كمحنة عيسى ﷺ بين أصحابه من الرسل عليهم السلام». الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، ص ١٨٦.

(١) الفرق بين الفرق (للبغدادي) ص ٢٣٤.

السلام، ثم بإلهية علي، ثم بإلهية الحسن، ثم الحسين، ثم محمد بن علي، ثم جعفر بن محمد ووقفوا هنا»[1]. «ثم زادت فرقة على ما ذكرنا فقالت بإلهية محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد وهم القرامطة. وفيهما من قال بإلهية أبي القاسم النجار القائم باليمن من بلاد همدان المسمى بالمنصور.

.. وقالت طائفة منهم بإلهية عبيد الله ثم الولاة من ولده إلى يومنا هذا»[2].

وزعم البيانية «أن الله على صورة إنسان وأنه يفنى كله إلا وجهه، وزعموا أن بيان بن سمعان تحّول إليه روح الإله فصار إلهاً...»[3].

وزعم أتباع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر «أن زعيمهم عبد الله حلّ فيه تلك الروح وأنه أباح لهم المحرمات وأسقط عنهم العبادات»[4].

وكان «الخطابية يقولون: إن الأئمة كانوا آلهة..» ويقولون: «إن جعفراً الصادق كان إلهاً وأبا الخطاب كان إلهاً إلا أن أبا الخطاب كان أفضل منه.. وقد أسر والي الكوفة - في أيام المنصور - أبا الخطاب وصلبه في كناسة الكوفة»[5] وكان الخطابية قد «كثر عددهم حتى تجاوزوا الألوف.. وكان يقولون: جميع أولاد الحسن أبناء الله وأحباؤه، وكانوا يقولون إنهم لا يموتون ولكنهم يرفعون إلى السماء..

وقالت طائفة بإلهية الحسن بن منصور حلاج القطن المصلوب ببغداد أيام المقتدر.

---

(١) وأعلنوا ذلك في جموع عظيمة في ولاية عيسى بن موسى بن علي بن عبد الله بن العباس. خرجوا محرمين ينادون بأعلى أصواتهم: لبيك جعفر، فخرج إليهم عيسى بن موسى فقاتلوه فقتلهم واصطلمهم.

(٢) الفصل لابن حزم ج ٤، ص ١٨٨.

(٣) عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أصول الدين (مطبعة الدولة، استانبول، ط ١، ١٩٢٨) ص ٣٣١.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٣١.

(٥) التبصير في الدين (للإسفراييني) ص ٧٤.

. . وقالت طائفة بإلهية محمد بن علي بن الشلمغاني الكاتب المقتول ببغداد أيام الراضي. . »[1].

وزعم المغيرية «أن لله أعضاء على صورة حروف الهجاء، وشبهوا الهاء بالفرج، وزعموا أن الله تعالى خلق الشمس والقمر من عيني ظله، وفيهم من ادعى حلول روح الإله في زعيمهم المغيرة بن سعيد العجلي»[2].

وقالت طائفة بإلهية أبي مسلم السراج[3] ثم قالت طائفة من هؤلاء بإلهية المقنع الأعور القصار. .

وقالت الراوندية بإلهية أبي جعفر المنصور. .

وقالت طائفة بإلهية عبد الله بن الحزب الكندي الكوفي» [4] . .

وقالت طائفة بإلهية سليمان المرشد المشهور بالفيسة الذي ادعى الألوهية، ثم سمى أبناءه بأسماء الله الحسنى، ظهر في جبال النصيرية من أعمال اللاذقية في بلاد الشام وأعدم شنقاً في دمشق عام ١٩٤٧ م[5].

وألّه النصيرية من بعده ابنه مجيب بن سليمان المرشد الذي ما لبث أن قتلته السلطات السورية بعد عصيانه في جبال النصيرية بعد إعدام أبيه بقليل[6].

---

(١) وكان أمر أصحابه أن يفسق الأرفع قدراً منهم به ليولج فيه النور. وكل هذه الفرق ترى الاشتراك في النساء.

(٢) أصول الدين (للبغدادي) ص ٣٣١.

(٣) وهو أبو مسلم الخراساني صاحب دعوة بني العباس والذي قتله الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور.

(٤) الفصل لابن حزم ج ٤، ص ١٨٨.

(٥) ولا تزال طائفة النصيرية على هذا الكفر. زعموا أن «ظهور الروحاني بالجسماني لا ينكر، ففي طرف الشر كالشياطين، وفي طرف الخير كالملائكة، فلا يمنع أن يظهر الله تعالى في صورة بعض الكاملين، وأولى الخلق بذلك وأشرفهم وأكملهم هم العترة الطاهرة، ولم يتحاشوا عن إطلاق الإلهية على أئمتهم» عن كتاب مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين (دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١٩٥٠) ج ٣، ص ١٨٧.

(٦) واستمر النصيرية يؤلهون مجيباً هذا بعد مقتله، وما زالوا يذبحون الذبائح على اسمه، =

ادعاء تغيير القـرآن

أما القرآن الكريم وكتاب الإسلام الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [1] والذي قال فيه سبحانه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [2] فأكد سبحانه أنه هو المنزل على القطع، وأنه هو الذي نزله محفوظاً من الشياطين، وهو حافظه ـ سبحانه ـ في كل وقت من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل، فلقد حاول الباطنيون تلبيس أمر القرآن على من غوى بأتباعهم أو أصاخ السمع إلى تُرَّهاتِهم «ذكر عمرو بن بحر الجاحظ قال: أخبرني أبو إسحق إبراهيم النظام وبشر بن خالد أنهما قالا لمحمد بن جعفر الرافضي المعروف بشيطان الطاق:

ويحك ما استحييت من الله أن تقول في كتابك في الإمامة إن الله تعالى

= فيقولون: «باسم المجيب أكبر من يدي لرقبة أبي بكر وعمر». بل اخترعوا «صلاة» مرشدية هي: «تسبيح إلى مولانا مجيب بن سليمان المرشد الرب العظيم، لك العزة والمجد والتهليل والتكبير، سبحانك ربنا، أشياعك الذين يسبحونك وينزهونك عن الصورة البشرية، وإنك أنت وعدتنا قبل أن تصعد إلى سمائك، وتجلس على عرشك العظيم، كما أنك وعدتنا ـ وأنت خير من يوعد ـ بأن ترسل على الذين يظلمون من الحكام والبشر النقمة والغضب، تنقذنا من يد الأشرار، كما قلت أنني سأجعل لكم من لدني عوناً ونصيراً غريباً عن دينكم، وغريباً عن وطنكم، ليكون لكم سنداً إلى يوم الحساب الأكبر، إننا ثابتون على صحة يقيننا وعلى صحة هذا الدين، ولا نشك بوعودك الصادقة إنك كريم رحيم، يا مولانا يا مجيب المرشد، سبحانك أنت الرب العظيم، ارحمنا من الحكام والأشرار وأرسل لنا الذين وعدتنا بهم ينقذوننا من الحكام الفجار، والقوم الأشرار، إنك على ذلك لقدير، قد بزغت شمس وجودك من وعدتنا بهم ينقذوننا من الحكام الفجار، والقوم الأشرار، إنك على ذلك لقدير، قد بزغت شمس وجودك من المغرب كما كان غيابك في المغرب، مولانا أرسل لنا الجحافل والناصرين لإنقاذنا من الظالمين الذين يمنعوننا من عبادتك وعن مديد التسبيح لأهل بيتك إنك على ذلك لقدير، نختم دعاءنا بكلمة سبحانك أنت الرب العظيم، نقدم هذا التسبيح إلى البهاليل المؤمنين ليذكروا ربهم في كل حين». عن كتاب الحسيني عبد الله، الجذور التاريخية للنصيرية العلوية (دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ٨ شارع حسين حجازي، ط ١) ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(١) سورة السجدة: ٤٢.

(٢) سورة الحجر: ٩.

لم يقل في القرآن ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾[1].

(قالا) فضحك شيطان الطاق ضحكاً طويلاً حتى كأننا نحن اللذين أذنبنا[2].

كما يزعم بعضهم أنه توجد نسخة من القرآن فيها زيادات عما في أيدي المسلمين من مصاحف! إلا أن هذا الصنف من الباطنية شديد التحفظ والاستبطان، فلا يظهرون هذا القول ويجاهرون به إلا بعد اشتداد ساعدهم واستبداد قوتهم واستغنائهم عن التَّقيَّة عند هجومهم على الإسلام، كما فعل الحاج ميرزا حسين محمد تقي الدين النور الطبرسي الذي أخرج على الملأ عام ١٢٩٢ هـ كتاباً أسماه «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب» ثم أتبعه بكتاب آخر يؤكد فيه تمسكه بقوله الإدّ ويردُّ فيه على من استنكر طبع كتابه ونشره، أو خالفه الرأي[3].

ويدعي بعضهم أن هناك مصحفاً ـ ويسمونه مصحف فاطمة ـ يعدل ثلاثة أمثال المصحف الذي بين أيدي المسلمين، ويزعمون أنه يحوي سبع عشرة ألف آية[4].

---

(١) سورة التوبة: ٤٠.

(٢) الفصل لابن حزم ج ٤، ص ١٨٢.

(٣) واستشهد هذا النوري بما ادعاه محمد بن يعقوب الكليني الرازي في كتابه «الكافي في الأصول» (طبعة إيران ١٢٧٨ هـ) ص ٢٨٩. ناسباً الكلام إلى الإمام علي بن موسى الرضا إذ سأله سائل «جعلت فداك إنا نسمع الآيات في القرآن ليس هي عندنا كما نسمعها، ولا نحسن أن نقرأها كما بلغنا عنكم فهل نأثم؟» فقال: «لا، اقرأوا كما تعلمتم، فسيجيئكم من يعلمكم!» انظر كتاب محب الدين الخطيب، الخطوط العريضة (مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط ١٤٠٠ هـ) ص ٨ ـ ١١.

(٤) في حين أن آيات القرآن الكريم لا تزيد عن مائتين وستة آلاف آية إلا قليلاً. نجد في كتاب محمد بن يعقوب الكليني الرازي، الكافي في الأصول (ط إيران ١٢٧٨ هـ) ص ٥٧. أو (ط ١٣٨١ هـ) ص ٢٣٨ ما نسبه افتئاتاً على جعفر الصادق: «وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام... (قال). قلت: وما مصحف فاطمة؟ قال مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد»! عن كتاب محب الدين الخطيب المصدر السابق، ص ١٥.
=

= واستهتر هؤلاء الباطنية واستخفوا بعقول أتباعهم وعقول من يستمعون لقولهم، فافتروا على الله كذباً، واخترعوا حديثاً إدّاً، وجاءوا بقصة يكتشف عورها وزورها من أوتي مسكة من عقل! اقرأ إذا شئت كلام أحمد بن أبي طالب الطبرسي (المتوفى سنة ٥٨٨ هـ) في كتابه الاحتجاج على أهل اللجاج (ط. إيران سنة ١٣٠٢ هـ) ص ٧٦ - ٧٧. فتراه يحمّل أبا ذر رضي الله عنه أكذوبة مفتراة هي: «لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله، جمع عليّ القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأنصار، وعرضه عليهم لما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله. فلما فتحه أبو بكر خرج في أول صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر وقال: يا علي: اردده فلا حاجة لنا فيه. فأخذه علي عليه السلام وانصرف، ثم أحضر زيد بن ثابت، وكان قارئاً للقرآن فقال له عمر: إن علياً جاء بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار وقد رأينا أن نؤلف القرآن ونسقط منه ما كان فيه من فضيحة وهتك المهاجرين والأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال: فإذا أنا فرغت من القرآن على ما سألتم وأظهر عليّ القرآن الذي ألفه أليس قد بطل كل ما عملتم؟ قال عمر: فما الحيلة؟ قال زيد: أنتم أعلم بالحيلة، فقال عمر: ما حيلة دون أن نقتله ونستريح منه، فدبر في قتله على يد خالد بن الوليد، فلم يقدر على ذلك. فلما استخلف عمر، سألوا علياً عليه السلام أن يرفع إليهم القرآن فيحرفوه فيما بينهم. فقال عمر: يا أبا الحسن إن جئت بالقرآن الذي كنت جئت به إلى أبي بكر حتى نجتمع عليه. فقال: هيهات ليس إلى ذلك سبيل. إنما جئت به إلى أبي بكر لتقوم الحجة عليكم ولا تقولوا يوم القيامة: «إنّا كنّا عن هذا غافلين» أو تقولوا ما جئتنا به. إن القرآن الذي عندي لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدي. فقال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ فقال عليه السلام: نعم إذا قام القائم من ولدي يظهره ويحمل الناس عليه». عن كتاب: إحسان إلهي ظهير، الشيعة والسنّة (إدارة ترجمان السنة، ٧ أيبك رود، لاهور، باكستان، ط. ٣، ١٩٧٩ م) ص ٨٥. قصة يترفع عنها أولاد الأزقة يلصقونها بمن قال الله فيهم: «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...» وهَمُّ المؤلفين الباطنيين اجتثاث قدسية القرآن - كلام الله - من قلوب المسلمين. ثم تراهم يشيعون تأسياً على هذا الكذب قصصاً لا تنتهي ويُتخمون بعض الكتب مما يدعون بأنه أمثلة على التحريف والتغيير، خذ هذا المثل الذي يرد على من افتراه! إذ يزعمون أنه أسقط من القرآن آية (وجعلنا علياً صِهْرَك) زعموا أنها أسقطت من سورة ألم نشرح لك صدرك. وهم لا يخجلون من هذا الزعم مع علم الناس أجمعين أن سورة الإنشراح من السور المكية حيث لم يكن عليٌّ صهراً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. وإنما كان صهره الوحيد فيها هو العاص بن الربيع الأموي، الذي أثنى عليه صلوات الله عليه على منبر مسجده النبوي فيما بعد لمّا أراد عليٌّ أن يتزوج بنت أبي جهل على «فاطمة» فشكت ذلك فاطمة إلى أبيها صلوات الله عليه. ويردّ على أكذوبة إسقاط (وجعلنا علياً صهرك) بأن علياً إذ كان صهر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على إحدى بناته فقد جعل الله عثمان بن عفان صهراً على ابنتيه! عن كتاب محب الدين الخطيب، الخطوط العريضة ص ١٢. ولو فتحنا باب نقد هذه الأكاذيب المفتراة لتندر بها أولاد المدارس =

تكذيب الأنبياء

ومن تشبيهات الباطنية تشكيك الناس بصحة دعوى الأنبياء وتكذيبهم، وربما فضلوا أعداء الأنبياء عليهم، ويتفقون جميعاً على إنكار معجزات الأنبياء ويصفونها بالمخرقة والشعبذة أو يؤولونها بما يخرجها عن كونها معجزات. «ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة فساسوا العامة بالنواميس والحيل طلباً للزعامة بدعوى النبوة والإمامة»[1] خذ مثلاً رسالة عبيد الله مؤسس دولة العبيدية في المغرب، إلى أبي طاهر القرمطي قالع الحجر الأسود في المشرق، يوصيه فيقول: «... وينبغي أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم، كعيسى بن مريم قال لليهود: لا أرفع شريعة موسى، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلاً من السبت، وأباح العمل في السبت، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها، ولهذا قتلته اليهود لما اختلفت كلمته.. ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال: ﴿ الروح من أمر ربي ﴾[2]. لما لم يعلم ولم يحضره جواب المسألة، ولا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعبذة، ولما لم يجد المحقق في زمانه عنده برهاناً قال: ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري ﴾[3] وقال لقومه: ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[4] لأنه كان صاحب الزمان في وقته»[5].

تغليط جبريل

ومن سفهاء السبئية من يصرح بغلط جبريل عليه السلام كالغرابية الذين «كانوا يقولون: إن الله تعالى بعث جبريل إلى علي فغلط وجاء إلى محمد (قالوا): وإنما غلط لأنه كان يشبه محمداً وكان أشبه به من الغراب بالغراب،

= الابتدائية.. ومع هذا لم يتوان الباطنيون من قذفها هنا وهناك في منعطفات الأفكار! وقاذورات الكتب.

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٩٦.

(٢) سورة الإسراء: ٨٥.

(٣) سورة الشعراء: ٢٩.

(٤) سورة النازعات: ٢٤.

(٥) وهو هنا يدافع عن فرعون ويبرِّر كفره، ويُفضّله على موسى ويسميه صاحب الزمان!.

والذباب بالذباب..»[1] وقال بعضهم «لا لوم على جبريل في ذلك لأنه غلط، وقالت طائفة منهم: بل تعمد ذلك جبريل، وكفروه ولعنوه ـ لعنهم الله»[2].

تأويل الشريعة:

قام الحزب السبئي بتحريف الكلم عن مواضعه، وتأويل أحكام القرآن الكريم، وصرف معانيه عن المفهوم من اللسان العربي المبين، وذلك لعباً من السبئية على ضعاف التميز والمحاكمة العقلية ممن يصر على الإيمان بصحة القرآن وصحة نسبته إلى الله عز وجل، لكنهم يقبلون مثل هذا التأويل الذي يحرف الكلم عن مواضعه فيلغي المعاني المفهومة لدى المسلمين طبقاً لقواعد اللغة العربية في التعبير والبيان كما يلغي فهم النبي وسنته العملية ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وفهم أصحابه للقرآن الكريم وتطبيقه على حياتهم رضي الله عنهم.

وعلى هذا أباح السبئية لأتباعهم هؤلاء المحرمات من الزنا والخمر والميتة والخنزير والدم وقالوا: إنما هي أسماء رجال.

وكما أن الباطنية احتالوا في أصول الدين احتالوا في خداع أتباعهم واستمالة قلوبهم؛ فأباحوا لهم جملة اللذات والشهوات. وأباحوا لهم نكاح البنات والأخوات. وأسقطوا عنهم فرائض العبادات. وتأولوا أركان الشريعة، فقالوا:

معنى الفرائض: موالاة زعمائهم، وأئمتهم.

---

(١) من أجل هذا سموا غرابية، «وهؤلاء كانوا يلعنون صاحب الريش يعنون به جبريل عليه السلام» من كتاب ابن طاهر الإسفراييني، التبصير في الدين (مطبعة الأنوار، مصر، ط ١٩٤٠) ص ٧٤. لاحظ شدة كراهية هؤلاء الغرابية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي رضي الله عنه عندما يشبهون كلاً منهم بالغراب ثم بالذباب. ثم لاحظ شدة استهتارهم بعقول متبعيهم واعتمادهم على جهلهم عندما يشبهون رجلاً في الأربعين بصبي في الثامنة شبه الغراب بالغراب والذباب بالذباب قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

(٢) الفصل لابن حزم ج ٤، ص ١٨٣.

ومعنى المحرّمات: تحريم موالاة أبي بكر وعمر وكل من خالف مذهب الباطنية[1].

وكانوا يُؤوِّلون الملائكة على دعاتهم الذين يدعون إلى بدعتهم، وقالوا: إن الشياطين هم الذين لا يكونون على مذهبهم من المسلمين من علماء أصحاب الحديث والرأي، وكان يسمون موافقيهم على بدعهم المؤمنين، ومخالفيهم الحمير والظاهرية.

وتعللوا لإسقاط التكاليف بأساليب شتى: منها أنها تعني معان تخالف ما اتفق عليه المسلمون[2].

---

(١) التبصير في الدين (للإسفراييني) ص ٨٥.

(٢) وقالوا: كل ما ذكر من التكاليف فرموز إلى باطن، فمعنى الجنابة: مبادرة المستجيب بإفشاء سر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق لذلك. ومعنى الغسل: تجديد العهد على من فعل ذلك. والزنا: إلقاء نطفة العلم الباطن إلى نفس من لم يسبق معه عقد العهد. والاحتلام: أن يسبق الإنسان إلى إفشاء السر في غير محله. والصيام: الإمساك عن كشف السر. والمحرمات: عبارة عن ذوي السر. والبعث عندهم: الاهتداء إلى مذاهبهم. ويقولون: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ الذكر: الإمام. والحجة: الأنثى ـ وقالوا: ﴿يوم يأتي تأويله﴾ أي يظهر محمد بن إسماعيل. وفي قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ قالوا: الميتة: الحامل على الظاهر الذي لا يلتفت إلى التأويل. وقالوا: إن الشاء والبقر هم الذين حضروا محاربة الأنبياء والأئمة، يترددون في هذه الصورة. ويجب على الذابح أن يقول عند الذبح: اللهم إني أبرأ إليك من روحه وبدنه، وأشهد له بالصلاة، اللهم لا تجعلني من المذبوحين، عن كتاب عبد الرحمن بن الجوزي، القرامطة (تحقيق محمد الصباغ، منشورات المكتب الإسلامي ط ١٩٧٠) ص ٦٥.

وذكروا عن المنصوريه أصحاب أبي منصور أنهم كانوا يقولون عنه إنه قال: إن آل محمد هم السماء، والشيعة هم الأرض، وإنه هو الكسف الساقط في بني هاشم، وأنه عرج به إلى السماء فمسح معبوده رأسه بيده، ثم قال له: أي بني اذهب فبلغ عني ثم نزل به إلى الأرض، ويمين أصحابه إذا حلفوا: ألا والكلمة. وزعم أن عيسى ابن مريم أول من خلقه، ثم علي، وأن رسل الله لا تنقطع أبداً. وكفر بالجنة والنار، وزعم أن الجنة رجل، والنار رجل، واستحل النساء والمحارم وأحل ذلك لأصحابه. وزعم أن الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر والميسر حلال. قال: لم يحرم الله ذلك علينا ولا حرم شيئاً تقوم به أنفسنا، وإنما هذه الأسماء أسماء رجال حرم الله ولايتهم، وتأول في ذلك قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ «المائدة: ٩٣». وأسقط الفرائض وقال: هي أسماء رجال أوجب الله ولايتهم، فأخذه يوسف بن عمر والي العراق في أيام بني أمية فقتله.

والنصيرية الموجودون في هذه الأزمنة يشبهون هؤلاء في كثير من الوجوه». كتاب =

بل زعم بعضهم «أن علياً هو إسرافيل، وأن الحسن هو ميكائيل، وأن الحسين جبريل، وفاطمة ملك الموت، وآمنة أم النبي عليه السلام ليلة القدر»[1].

وزعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها، وتأولوا في ذلك قوله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ «سورة الحجر: ٩٩» وحملوا اليقين على معرفة التأويل[2] وزعموا أن التكاليف سقطت عنهم ـ كما سقطت على آبائهم بزعمهم ـ لأنهم حاربوا مع علي وبقيت على عامة المسلمين الذين حاربوا علياً بزعمهم.

«.. ويقولون للشرائع باطن لا يعرفه إلا الإمام ومن ينوب منابه، وكذلك كل ما ورد في الحشر والنشر وغيرها فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن، فمعنى الغسل تجديد العهد عليه، ومعنى الجماع مكالمة من لا عهد له بالباطن، ولذلك أوجب الشرع القتل على الفاعل والمفعول به، والزنا إلقاء العلم في سمع من لم يعاهده، والاحتلام سبق اللسان لمذهب الباطن، والطهور التبرّؤ من كل مذهب خالف الباطنية، والتيمّم الأخذ للعلم من المأذون، والصلاة [الدعاء] إلى الإمام، والزكاة بثّ العلوم لمن يتزكى لها ويستحقّها، والصوم كتمان العلم عن أهل الظاهر وكذلك كتمان المذهب، والحجّ طلب العلم الذي تُشدّ رحائل العقل إليه، وقيل الكعبة النبي، والباب علي، والصفا النبي، والمروة عليّ، والميقات الإمام، والتلبية إجابة الداعي إلى باطنهم، والطواف بالبيت سبعاً هو الطواف بمحمد إلى تمام الأئمة السبعة، وصلاة الفجر دليل على السابق، والظهر على التالي، والعصر على الأساس وهو الوصيّ، والمغرب على الناطق، والعشاء على الإمام، وقالوا

= تقي الدين بن تيمية الحراني، منهاج السنّة (مكتبة خياط، شارع بلس، بيروت لبنان) ج ٢، ص ٤٠٣.

(١) أبو الحسن عبد الجبار الأسد أبادي، المغني في أبواب التوحيد والعدل (الدار المصرية للتأليف والنشر) ج ٢، ص ٣٣٦. والقاضي عبد الجبار معتزلي.

(٢) الفرق بين الفرق (للبغدادي ـ ص ٢٩٧).

أيضاً الصلاة مفروضة في كل سنة مرّة، وكذلك من صلّاها في السنة مرّة فقد أقام الصلاة بغير تكرار كالزكاة.. وقالوا أيضاً الزكاة والصلاة محمد وعليّ فمن تولّاهما فقد أقام الصلوة وآتى الزكوة.

وأمّا في المعاد زعموا أيضاً أن النار عبارة عن التكاليف بالعبادات، فإنها موظّفة على الجهّال بعلم الباطن.. الجنّة علم الباطن، والنار علم الظاهر، وأبواب الجنة درجات العلوم الباطنة، ودرجات الحكمة البالغة وإنّما سماها أبواباً كأبواب الكتاب فإنها درجات ما فيه من العلوم والباب الثامن هو الغاية المطلوبة فإذا لم يدخل الباب الثامن لا ينتفع بالسبعة، وقالوا وأنهار اللبن معادن العلم الباطن فإنه غذاء للروح اللطيف، وأنهار الخمر هو العلم الظاهر، وأنهار العسل المصفى على الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة.

وفي المعجزات قالوا: الطوفان هو العلم غرق فيه أهل الشبه والظاهر، والسفينة حرزه الذي تحصّن به المستجيب، ونار إبراهيم غضب نمرود عليه، وذبح إسحاق أخذ العهد عليه، وعصا موسى حجّته التي غلب بها عند المناظرة وليست بخشبة، وانفلاق البحر هو افتراق علم موسى على أقسام، والبحر هو العالِم، والغمام الذي أظلّهم إمام نصبه موسى، والجراد والقمل والضفادع والدم هي التِزامات موسى واحتجاجاته، والمنّ والسلوى علم نزل من السماء بداعٍ من دعاتهم، وتسبيح الجبال هم رجال شداد منهم، والجنّ أصحاب سليمانَ باطنية ذلك الزمان، والشياطين هم أهل الظاهر الذين كُلّفوا بالأعمال الشاقّة، وكلام عيسى في المهد علم بواطن العلوم قبل التخلّص من قالب الأجسام بخلاف من لا يعلمها إلا بعد موته، وإحياء الموتى تعليمه الجهّال بالباطن، وإبراؤه للأعمى تعريفه الضلّال والبرص هو الكفر.

وأمّا إبليس وآدم فعبارة عن أبي بكر وعليّ، وكان أعور لانه لم يُبصر إلا بعين الظاهر، ويأجوج ومأجوج أهل الظاهر»[1].

---

(١) قواعد عقائد آل محمد لمحمد بن الحسن الديلمي ص ٨ ـ ٩. وذكر المؤلف في الكتاب نفسه =

= ما يلي:

وإذا عرفت هذا فلنذكر الكلام مرتّباً في أقسام، الأوّل في تأويلهم الشهادة، الثاني [في] تأويلهم للعبادات من الصلاة وغيرها، الثالث في تأويلهم المحرّمات الشرعيّة، وكذلك ذكر نكت من تأويلهم للآيات الإلهية والأحاديث النبويّة، الرابع الكلام في إبطال الباطن الذي ذهبوا إليه.

أمّا الأوّل فاعلم أن أساس الإسلام وقاعدته معرفة الله تعالى ثم النطق لله بالوحدانية، والشهادة بالنبوة لمحمّد صلى الله عليه والتصديق له فيما جاء به، فقد تأوّلوا الشهادة على وجه يشهد بأن غرضهم الإلحاد والكفر بربّ العباد منها ما ذكره صاحب كتاب «تأويل الشريعة» وهو الملقّب بالمعزّ لدين الله أي المذلّ قال: لا إله إلا الله مركّبة من ثلاثة أحرف هي اللام والألف والهاء لا يدلّ عليها نقطة ولا تشير إليها علامة فهي تدل بنفسها على نفسها.. مجمله: لا إمام إلا إمام العصر.. ومنها ما ذكر صاحب كتاب الإمتاع (قال).. لا إله إلا الله كلمةٌ واحدة، وقطعتان، وأربعةٌ، وسبعة، واثنا عشر، كذلك في الإنسان رأسه واحد، نصفان، نصف قُدّام عامر، ونصف خراب من خلف، والأربعة (!) القفا واللحيان والصدغان، والسبعة العينان الاذنان والمنخران والفم، وحروفها اثنا عشر عين ثلاثة أحرف [أذن ثلاثة أحرف] منخر أربعة أحرف، فم حرفان، فهذه اثنا عشر حرفاً مكتوب بخط الباري على وجه كل إنسان.

(ثم قال) محمد رسول الله حروفها أيضاً اثنا عشر، محمد أربعة حروف، رسول أربعة حروف، الله أربعة حروف، محمد أيضاً نصفه نفي ونصفه إثبات مع مد.. إلى آخر ما ذكره، واعلم أن هذا باب واسع، لأنهم أوّلوا كل آيات القرآن من أوّله إلى آخره على هذا الوجه، فمن أراد بعض ذلك فعليه بكتاب «الحسام البتار» للفقيه حميد المحلّي، لأنه أخذ من كتبهم المشهورة مثل كتاب «البلاغ الأكبر» لأبي القاسم القيرواني وكتاب «الرضاع» وكتاب «الجامع» وكتاب «المبتدأ والمنتهى» وكتاب «العلم المكنون والسر المخزون» لأبي يعقوب السجستاني و «دعائم الإسلام» و «المحصول» وكتاب «تأويل الشريعة» للمعزّ وغيرها وإنما ذكرنا أسامي هذه الكتب ليعرف من أراد أن يطلع عليها، لأنها موضع تأويلهم الفاسد الرديء الذي يذهب إليه الباطنية الإسماعيلية ولا يناسبها الخطاب، ولا يدلّ عليها سنّة ولا كتاب، وهي باطلة عند أولى الباب خارجة عن الحق والصواب.

القسم الثاني في تأويلاتهم للعبادات نحو الصلاة والصوم والزكاة والحجّ، فاعلمْ أن تأويلاتهم في نهاية الاختلاف لأنها على غير أصل معلوم بل هي عوارض خواطر رديئة وسوانح أفكار فاسدة ونحن نشير إلى جُمَل تكشف لذوي البصيرة أنهم أبعد الناس عن الصواب.

عن صاحب كتاب «تأويل الشريعة» الملقّب بالمعزّ: المسجد في الباطن على الإمام وقد يكون في موضع على الحجّة وعلى الداعي، ومثل الكعبة على الرسول، والمسجد الحرام على الوصيّ، الأذان خمس عشرة كلمة تدلّ على الأساس، وستّة متمّين، وسبعة خلفاء، والخامس عشر دليل على القائم، بسم الله الرحمن الرحيم تسعة عشر حرفاً دليل على سبعة أئمة، واثني عشر حجة، أربعة فصول دليل على الحدود الأربعة السابق والتالي والناطق والأساس، وبسم الله سبعة أحرف دليل على النطقاء، والقائم سابعهم، والرحمن الرحيم اثنا عشر حرفاً دليل =

= على الحجج كعدد نقباء بني إسرائيل، وعلى هذا ذكر تأويل الفاتحة وغيرها من أذكار الصلاة وأركانها وشرائطها ومقصودنا الإشارة.

آداب الوضوء: المسواك دليل على الداعي بيّن الحدود للمستجيبين، بيت الخلاء مثل الظاهر الخالي من الحقيقة والباطن والحكمة، والغائط مثل نجاسة أهل الظاهر بالجهل، والماء مثل العلم الحقيقي الباطن الذي به طهارة كل جاهل من نجاسة الجهل، كما أن الماء الطاهر العذب يروي الشارب ويطهّر النجاسات من الإنسان هكذا، العلم الباطن يطهّر القلوب من الشكوك والجهالة، وآداب الوضوء اثنا عشر بمنزلة الحجج الأثني عشر في جزائر الأرض، وتقدّم رجلك اليسرى، أي إذا كنت بين أهل الظاهر فقدم أئمتهم، وتستر رأسك أي استر داعيك ولا تكشف أمره لهم، ولا تستقبل القبلة ولا تستدبرها أي لا تُظهر ولاية الإمام ولا تظهر البراءة منه، والقبلة هو الإمام عندهم، وتستنجي بثلاثة أحجار أي الإمام والحجة والداعي الذين بعلمهم مكنون الطهارة، ولا تضرب الماء على الغائط أي لا تعطي أهل الظاهر جواباً باطناً، ولا تطيل الجلوس على الخلاء أي لا تطيل معاشرة الظاهرية إلا لحاجة ماسّة، وتقدم رجلك اليمنى إذا خرجت أي إذا اجتمعت مع الإخوان وخرجت من أهل الظاهر فقدّم دليلك، وفي الخلاء إناء فيه ماء تأخذ الماء منه باليمين فالإناء مثل الداعي الذي هو وعاء العلم، والمضمضة أخذ العلوم الحقيقية من الحجّة والاستنشاق أخذه من الإمام.

قالوا والفم مثل الناطق وهو الرسول ﷺ، ومثل الأنف مثل الأساس وهو وصيّة فمن قبل الفم يكون البيان والغذاء الذي هو بالحياة ومن قبل الأنف يكون التنفس الذي به أيضاً تكون الحياة، والوجه يغسل وكذلك اليدان والرأس والرجل يمسحان لأن الناطق أمره وظاهر علمه وشريعته مكشوفة وعلومه واحدة تذكر بأسباع.

وأمّا الصلاة فقد ذكروا فيها تأويلات كثيرة تدل على أن غرضهم الإلحاد وإبطال الشرع الشريف. ذكر في كتاب «الرضاع» في فرائض الصلاة أن الصلاة لا تجوز قبل الوقت، والوقت فريضة، ثم النيّة والقبلة والمحراب والتكبير وقراءة الحمد والركوع والسجود والتشهّد والتسليم والثوب النظيف، الوقت الحجّة، والنيّة الولاية، والقبلة السابق، والمحراب التالي، وجه آخر: الكعبة حجّة الله في زمانك، والمحراب لاحقه.

وأمّا الصوم فقد ذكروا فيه تأويلات فاسدات قال صاحب «تأويل الشريعة» الصوم فهو الستر على إمامك وحجّتك.. والسكوت عمّا أمرت بالسكوت عنه، ولا يحلّ الأكل والشرب في رمضان ولا نكاح في سلطان النهار أي لا يحل تعليم الظاهرية ولا أخذ علم الظاهرية، والغيبة تبطل الصوم أي معاداة المؤمن حرام، وقال ﷺ جنّة أي جنّة المكتوم.

وأمّا الزكاة ففيها تأويلات أيضاً قال صاحب «تأويل الشريعة» الزكاة هي بثّ العلوم لأهل مذهبهم ودينهم يتزكون بها، وذلك لأنه الزكاة من التزكية والنماء وهي نوع من الطهارات لقوله تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها ﴾ (٩: ١٠٣) والعلم هو الذي يطهر من جنب الجهل.

وأمّا الحجّ ففيه تأويل أيضاً قال صاحب «تأويل الشريعة» السفر الراحل بك إلى وليّ الله، =

= والمراحل النكت الحقيقية التي تؤديك إلى الغاية الموجبة للسكون، والإحرام الدعوة فمن دخل في الدعوة دخل في الحرم حرم الله وحرم معرفته وحرم حكمته، والتعرّي خلع ولاية الأضداد فمن يمشي على رجليه كمن أقر بمحمد وعليّ، ومثل من يركب كمن أقرّ بمحمد وعليّ والقائم وحجّته، وغسل الإحرام إشارة إلى أخذ العلم الحقيقي الباطن، ورمْيه ثوبيه الوسخين رميه ما هو عليه من علم أئمة الضلال، والثوبان الجديدان مثل علمي الإمام والحجّة، والمحرم لا يحل له أن يعمل شيئاً أو يذبح كذلك المؤمن لا يحل له أن يتكلم في بيان حتى يبلغ النهاية في العلم والحد الذي يجوز أن يبيّن - إلى آخر أركان الحجّ. .

وقال صاحب كتاب «الرضاع». . وأخذك الثوبين إقرارك بالنقيب والإمام وإجابتك إيّاهم، وأمّا ترك النساء والصيد والذبيحة فحرام عليك أن تعاهد أحداً وأنت محرم لا يجوز أن تعلّم أحداً وأنت متعلّم. . .

وأمّا القسم الثالث في تأويلهم المحرّمات الشرعيّة فقد سلكوا في تأويلها ما لا يلائم موضوعها من ذلك ما ذكر أبو يعقوب السجستاني في «العلم المكنون والسر المخزون» في تأويل قوله تعالى ﴿ حُرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ الآية (٥ : ٣) قال الميتة كالظاهر والظاهر بلا باطن كبدن بلا روح، والدم هو الشك حرام عليك أن تفاتح شاكاً حتى تُوقّف وتعرّف، كما أنه حرام على الرجل أن يطأ امرأة قبل التطّهر من حيضها، ولحم الخنزير هو المنافق ليس لك أن تسمع منه ظاهراً ولا باطناً، لأن الخنزير كشف عن نابيه والمنافق كشف عن الأصلين وهما النابان ﴿وما أُهلّ لغير الله به﴾ فهو من دعا إلى أصل وليس معه حقّ ﴿والمنخنقة﴾ الذي نقض العهد وهو المنخنق تحت السكين ﴿والموقوذة﴾ هو ما ضُربت بعصا الداعي «والمتردّية» ما قد علا. الدرجة العالية ثم شك فتردى من العلوّ إلى السفل «والنطيحة» من نطحه داعيه أي حمل عليه علماً لم يقْو عليه ﴿وما أكل السبع﴾ وهو ما استنزله منافق أو وقع عليه عذاب من الشيطان فكشف أمر الله ﴿ إلا ما ذكيتم﴾ يعني إلاّ ما عاهدتم ﴿وما ذُبح على النصب ﴾ أي على رجل أُخذ عليه عهدٌ لإمام لم ينصبه الله لأهل زمانه ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ يقول لا تعاهدوا بالإيمان القائم أئمة الظاهر فإن ﴿ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ فهؤلاء منافقون كفروا بعد إيمانهم ﴿فلا تخشونهم﴾ إذا بايعوا، واخشوهم إذا نافقوا ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم ﴾ بمعرفة وليّكم. . والذي قالوه من هذا الجنس كثير لا فائدة في تطويله. . .

وأمّا سائر الآيات فقد ذكروا فيها من المعاني ما لا يشهد عليه عقل ولا يدلّ عليه سمع، وقد سبقت الإشارة إليه فيما قدّمنا ونزيد طرفاً قال أبو يعقوب في الكتاب المقدّم ذكره أعلم أن كل ما ورد عليك في كتاب الله عزّ وجلّ من ذكر الجنّات والأنهار والنخيل والأعناب والزيتون والرمان والتين وجميع الشهوات وما يشاكلها فهو دالّ على الأئمة عليهم السلام، ثم على الحجج، ثم على اللواحق، ثم على الدعاة، ثم على المستجيبين البلغ، ثم على الأدنى فالأدنى من المستجيبين، وما ورد عليك من كتاب الله من الجبْت والطاغوت (٤ : ٥١) وإبليس وهاروت وماروت (٢ : ١٠٢) ويغوث ويعوق ونسراً ووداً وسُواعاً (راجع ٧١ : ٢٣) فمثلهم =

= وشكلهم على أهل الظاهر ورؤسائهم وعلمائهم بعد أئمتهم الجور المعاندين لأهل الحق والمخالفين لأولياء الله، والشجرة الطيّبة شجرة الخلد المذكورة في قوله تعالى ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ (٢: ٣٥، ٧: ١٩) وهي علي القائم، وبحذائها الشجرة الخبيثة إبليس الروحاني، والشجرة الثانية التي في قوله ﴿[ضرب الله] مثلاً كلمة طيّبة﴾ الآية (١٤: ٢٤) وهي شجرة الناطق والأساس..

وقال في قوله تعالى ﴿ يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض ﴾ الآية (١٤: ٤٨) يعني في ذلك أنه لا يرجع الأمر إلى السابق كما قال: ﴿ ورُدّوا إلى الله مولاهم الحقّ ﴾ الآية (١٠: ٣٠) يعني القائم وهو ﴿ الواحد القهار ﴾ (١٤: ٤٨)، وقال في قوله تعالى ﴿وأوحى ربّك إلى النحل ﴾ الآية (١٦: ٦٨) النحل دعاة الإمام، والجبال هم دعاة البلاغ، والشجر هم الحجج، وما يعرشون هو ما يحملون من دعاة الاحرام بفيض من دعاة البلاغ بفيض من الحجّة والإمام، والأمر بيت الله وحجابه، فما ظهر منه قاسم مشهور وبيت معمور وهو الناطق. وقال في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتّقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ (٤: ١) هو السابق واحد الأعداد ﴿خلق منها زوجها﴾ يعني التالي وزوج كل شيء، شكله ﴿وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ يعني النطقاء ونساؤهم الأسس ﴿واتّقوا الله﴾ وهو الإمام ﴿الذي تساءلون به والأرحام﴾ يعني الحجج ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ يعني الداعي. وقال في قوله ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام ﴾ (١٧: ١) فسبحان الأمر، والعبد محمد بن أبي بكر الولد التامّ المبارك وهو أوّل الثمانية، والليل السرّ والكتمان، والمسجد الحرام الذي يقبل منه وهو حد التالي، والمسجد الأقصى الذي صار إليه وهو حدّ السابق.

وجه آخر: سبحان التالي، والعبد محمد بن أبي بكر، والليل السرّ والكتمان، والمسجد الحرام عبد المطلب، والمسجد الأقصى حدّ أبي طالب.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ (١٦: ٩٠) فالفحشاء أبو بكر، والمنكر عمر، والبغي عثمان، وكذا تأوّلوا قوله: ﴿ إنما الخمر والميسر ﴾ (٥: ٩٠) أي أنهما أبو بكر وعمر وقال صاحب «الرضاع» عليه اللعنة في قوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾ (٢: ٢٥٧) أي كفروا بنعمة الإمام أولياؤهم الطاغوت يعني الذين طغوا عن الحق وجحدوا أئمة الهدى ونصبوا لأنفسهم الأصنام يعني أصنامهم الطاغوت، فأوّل صنم من أصنام الطاغوتية أبو بكر وعمر وعثمان ومن كان مثلهم في كل وقت وزمان... واعلم أن جنس هذه الأباطيل لا يجوز أن تكتب إلا أن الغرض انضاح كفرهم وإلحادهم..

فأمّا الأحاديث فقد تأوّلوها أيضاً على وجه غير معقول ولا مسموع، قال صاحب «الرضاع» في قول النبي ﷺ «حبب إلي من دنياكم...» الحديث، فالنساء الحجج، والطيب الحكمة، وقرة عينه أساسه. وقالوا في قوله ﷺ «لا نكاح إلا بوليّ وشاهدَي عدل» أي لا جماع إلا بالذّكر وهو الوليّ، وشاهدا عدل الخصيتان، إلى غير ذلك من الهذيان...» بيان مذهب الباطنية وبطلانه، للديلمي ص ٤٠ ـ ٥٤.

«وكلهم أنكر القيامة، وقالوا: هذا النظام، وتعاقب الليل والنهار، وتولد الحيوانات لا ينقضي أبداً. وأوّلوا القيامة بأنها رمز إلى خروج الإمام ولم يثبتوا الحشر ولا النشر ولا الجنة ولا النار. ومعنى المعاد ـ عندهم ـ عود كل شيء إلى أصله»[1].

فمن أتباع السبئية من يصرح بإنكار المعاد، فيعلن الدهرية، أو يميع فكرة القيامة والبعث والجنة والنار فيقول بتناسخ الأرواح، أو يصرح بأن العذاب في النار للكافرين ينقلب عذوبة يشعرون بها، فأهل الجنة في الجنة سعداء، وأهل النار في النار سعداء.

«وأكثر مذاهبهم يوافق الثنوية والفلاسفة في الباطن والروافض في الظاهر؛ وغرضهم بهذه التأويلات انتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الناس حتى تبطل الرغبة والرهبة»[2].

---

(١) عبد الرحمن بن الجوزي، القرامطة (تحقيق محمد الصباغ، المكتب الإسلامي) ص ٦١.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٢، ونقل الشيخ مصطفى صبري قول من حاول تمييع عقيدة «اليوم الآخر» لتضليل من يتبع أو تشكيك ضعاف العقول مهزوزي العقيدة، فذكر عنهم قولهم: «وقد حقت الكلمة أنهم عُمّار تلك الدار فيجعل الحكم للرحمة التي وسعت كل شيء فأعطاهم في جهنم نعيم المقرور والمحرور لأن نعيم المقرور بوجود النار، ونعيم المحرور بوجود الزمهرير، وتبقى جهنم على صورتها ذات حر وزمهرير، ويبقى أهلها فيها متنعمين بحرورها وزمهريرها ولهذا أهل جهنم لا يتزاورون إلا أهل كل طبقة في طبقتهم فيتزاور المحرورون بعضهم في بعض، والمقرورون بعضهم في بعض، لا يزور محرور مقروراً، ولا مقرور محروراً، وأهل الجنة يتزاورون كلهم لأنهم على صفة واحدة في قول النعيم لأنهم كانوا هنا أعني في دار التكليف أهل توحيد لم يشركوا وأهل النار لم يكن لهم صفة التوحيد وكانوا أهل شرك فلهذا لم يكن صفة أحدية تعمهم في النعيم مطلقاً من غير تقيد، فهم في جهنم فريقان وأهل الجنة فريق واحد فينفرد كل شريك بطائفة وهم أهل الثنوية ما ثم غيرهم، وهم أهل النار والذين هم أهلها، وأما أهل التثليث فيرجى لهم التخلص لما في التثليث من الفردية لأن الفرد من نعوت الواحد فهم موحدون توحيد تركيب فيرجى أن تعمهم الرحمة المركبة ولهذا سموا كفاراً لأنهم ستروا الثاني بالثالث فصار الثاني بين الواحد والثالث كالبرزخ فربما لحق أهل التثليث بالموحدين في حضرة الفردانية لا في حضرة الوحدانية، وهذا رأينا في الكشف المعنوي لم نقدر أن نميز بين بين الموحدين وأهل التثليث إلا بحضرة الفردانية فإني رأيت =

واستهتر السبئية بعقول من أطاعهم من الجهال فأقنعوهم بالتصريح بعقيدة [تناسخ الأرواح] ومفادها: إن عدد الأرواح معدودة فلا يموت جسد حي إلا وتنتقل روحه إلى جسد غيره. فلا تزال الروح تنتقل من جسدٍ إلى آخر دون زيادة في عدد الأرواح أو نقصان. وتنتقل الروح إلى جسد خَلَف أفضل - حسب التصنيف السبئي - إذا كانت أعمال السلف صالحة. بينما تنتقل روح السلف سيء الأعمال إلى جسد حيوان حقير تبعاً لسوء أعماله في جسده السابق. وهكذا تترقى الأرواح الصالحة من جسد صالح إلى جسد أصلح، وتتهاوى الأرواح الشريرة من جسد حقير إلى جسد أحقر.

قالوا: فجسم الأدمي يبلى، والروح إن صفت بمجانبة الهوى، والمواظبة على العبادات، وغذيت بالعلم، استعدت بالعود إلى وطنها الأصلي، وكمالها بموتها، إذ به خلاصها من ضيق الجسد، وأما النفوس المنكوسة المغموسة في عالم الطبيعة المعرضة عن طلب رشدها من الأئمة المعصومين، فإنها أبداً في النار، على معنى أنها تتناسخ في الأبدان الجسمانية، وكلما فارقت جسداً تلقاها آخر، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ [1] «سورة النساء: ٥٦».

وبلغ الأمر بسفهائهم «بمن يذهب إلى هذا أن يأخذ أحدهم البغل أو الحمار فيعذبه ويضربه ويعطشه ويجيعه على أن روح أبي بكر وعمر [رضي

= لهم ظلالاً في الوحدانية ورأيت أعيانهم في الفردانية ورأيت أعيان الموحدين الفردانية والوحدانية فعلمت الفرق بين الطائفتين. وأما ما زاد على التثليث فكلهم ناجون بحمد الله من جهنم ونعيمهم في الجنة يتبوأون فيها حيث يشاؤون كما كانوا في الدنيا ينزلون من حضرات الأسماء الإلهية حيث يشاؤون» قال الناقل: «ويعني بما زاد على التثليث من هم القائلون بمقالته بإلهية كل موجود فهذا نص مقدّم القافلة إن كان إيمانك وعقلك صحيحاً». عن كتاب مصطفى صبري: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ج ٣، ص ٢٦٧.

(١) القرامطة (لابن الجوزي) ص ٦١.

الله عنهما] فيه فاعجبوا بهذا الحمق الذي لا نظير له، وما الذي خص هذا البغل الشقي أو الحمار المسكين بنقل الروح إليه دون سائر البغال والحمير وكذلك يفعلون بالعنز على أن روح أم المؤمنين [عائشة] رضي الله عنها فيها» [1].

تكفير الصحابة

وفيهم من يدعي «أن جميع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كفروا بعد موت النبي ـ ﷺ ـ إذ جحدوا إمامة علي، وأن علياً كفر إذ أسلم الأمر إلى أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، . . . ثم رجع إلى الإسلام بعد مقتل عثمان وإذ كشف وجهه وسل سيفه، وإنه وإياهم كانوا قبل ذلك مرتدين عن الإسلام كفاراً مشركين، ومنهم من يرد الذنب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ لم يبين الأمر بياناً رافعاً للإشكال [2].

وهناك طائفة تدعى النصرية . . . ومن قولهم لَعْنُ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولعن الحسن والحسين ابني علي ـ رضي الله عنهما ـ وسبهم بأقذع السب، وقذفهم بكل بلية والقطع بأنها وابنيها ـ رضي الله عنهم ولعن مبغضيهم ـ شياطين تصوروا في صورة الإنسان» [3].

أما غايتهم من طعنهم في الصحابة فينبئك بها رأس الزنادقة «شاكر» عندما جيء به إلى أمير المؤمنين هرون الرشيد لتضرب عنقه وسأله الرشيد،

قال: أخبرني؛ لم تعلمون المتعلم معكم أول ما تعلمونه الرفض والقدر؟.

---

(١) الفصل (لابن حزم) ج ٤، ص ١٨٢. ولا يزال هؤلاء الجهال يفعلون هذه الفعلة الوحشية بالعنز حتى اليوم حيث ينذرونها ثم ينتفون شعرها وهي حية تصيح ألماً على رأس جبل يسمونه جبل زين العابدين بالقرب من حماة من بلاد الشام.

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٨٣.

(٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ٨٨. بل منهم من يكفرهم والنبي ﷺ حيّ، ويسميهم المنافقين ويحرف كلام الله من بعد ما سمعه ليبهتهم رضي الله عنهم أجمعين فيجعل آية﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ «سورة التحريم: ٩» (جاهد الكفار بالمنافقين).

قال: أما قولنا بالرفض فإننا نريد الطعن على الناقلة، فإذا بطلت الناقلة أوشك أن يبطل المنقول [1].

وضع الحديث

قال الحافظ بن حجر العسقلاني في معرض كلامه عن الحديث ورجاله: «وأول من كذب عبد الله بن سبأ» يعني أول من روج الكذب في الروايات ودسها [2]. ثم وضعت الزنادقة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعداداً كبيرة من الأحاديث قدرت بأربعة عشر ألف حديث ولم يُقصِّر علماء الإسلام في كشفهم والتعريف بهم «ونشأ علم لا مثل له بين الأمم وهو علم مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل» وقد تتبعها الأئمة، وحصروها ودللوا على وضعها تارة بالتنصيص على كل حديث منها، وتارة بضوابط وقواعد كلية [3]. كما أن الدولة الإسلامية لاحقت هؤلاء الوضاعين الكذابين الخبثاء فقبضت على الكثير منهم وعاقبتهم عقوبات شديدة، فمن هؤلاء الباطنيين الوضاعين: «عبد الكريم بن أبي العوجاء الذي قتل وصلب في زمن المهدي. قال ابن عدي: لما أخذ ليضرب عنقه قال: وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيه الحلال وأحلل الحرام؛ وكبيان بن سمعان الذي قتله خالد القسري وأحرقه بالنار، قال الحاكم: وكمحمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة، فروى عن حميد عن أنس مرفوعاً: (أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي؛ إلا أن يشاء الله) وضع هذا الاستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة، والدعوة إلى التنبي» [4] وقد قتله أبو جعفر على الزندقة.

---

(١) تاريخ بغداد (للخطيب البغدادي) ج ٣، ص ٣٠٨. والأمر واضح فإذا رفع الوثوق بالصحابة رضي الله عنهم انهدم قصر الإسلام عند من لا يثق.

(٢) تقي الدين الندوي الظاهري، علم رجال الحديث (المكتبة الإمدادية - باب العمرة - مكة المكرمة) ص ٧٣.

(٣) أبو العلا علي أبو العلا، دراسات في علوم الحديث (دار الطباعة المحمدية، درب الأتراك بالأزهر) ص ٢١٠.

(٤) جلال الدين السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (دار الكتب الحديثة ١٣ شارع الجمهورية بعابدين، القاهرة ط ١٩٦٦) ج ١، ص ٢٨٤.

وكانوا يصنعون من الأحاديث ما لا يقبله العقل حتى إذا عاد سامع الحديث إلى عقله كذب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1]، من ذلك وضعهم لحديث: «إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصلّت عند المقام ركعتين» وكذلك وضعهم لحديث: «إن الله خلق الفَرَس فأجراها فغرقت فخلق نفسه منها» هذا لا يضعه مسلم ولا عاقل[2]. كما «كانوا يجتمعون على وضع الحديث[3]. لما في الاجتماع على الوضع من تجويد في أسلوب العرض وتركيز الهدف وتعميم مجال الإشاعة.

وكان من هؤلاء الباطنيين الوضاعين من يفيض حقده على الإسلام والمسلمين من قلبه على لسانه عندما يقبض عليه فيتبجح بكلمات يسترخص بها حكم الإعدام مقابل وضع الحديث وتلبيس الإسلام على المسلمين. فلقد أخذ الرشيد زنديقاً ليقتله، فقال: أين أنت من ألف حديث وضعتها؟.

قال: فأين أنت ـ يا عدو الله ـ من أبي إسحق الفزاري وابن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً»[4].

وقد قيل لابن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة. فقال: تعيش لها الجهابذة. ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[5] «سورة الحجر: ٩».

---

(١) ولذلك قال علماؤنا: «المدار في الركة على ركة المعنى، فحيثما وجدت دل على الوضع؛ وإن لم ينضم إليه ركة اللفظ، لأن هذا الدين كله محاسن والركة ترجع إلى الرداءة. أما ركاكة اللفظ فلا تدل على ذلك لاحتمال أن يكون رواه بالمعنى فغير ألفاظه بغير فصيح. نعم إن صرح بأنه من لفظ النبي ﷺ فكاذب.. وإن من جملة دلائل الوضع أن يكون مخالفاً للعقل بحيث لا يقبل التأويل، ويلتحق به ما يدفعه الحس والمشاهدة أو يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي». المصدر السابق ج ١، ص ٢٧٦.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٨.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٥.

(٤) علم رجال الحديث (للندوي الظاهري) ص ٤٦. عن تذكرة الحفاظ ج ١، ص ٢٧٣، ومعرفة علوم الحديث ص ٣٦.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٢.

تزوير التاريخ:

شوه السبئيون من تاريخ المسلمين ما لا تزال تعـاني أجيالهم من تأثيراته، وتتمزق بين ولاء للأجداد الميامين من العظام الفاتحين، وبين تبرؤ من هؤلاء «الهمج» الذين قصت عليهم السبئية قصتهم، وأرّخت لهم تاريخهم، وأفهمتهم عنهم وعن مواقفهم الكثير الكثير من الكذب والتزوير.

وكان منهم نوابغ ألفوا «قصصاً» و «كتباً» شيقة جذابة تروي ما لذ وطاب من أخبار الزمان سمي بعضها «كتب التاريخ» ككتب الرحالة الذين جابوا البلاد وسمعوا من العباد فألفوا عن غرائب ما رأوا وما «سمعوا!» وتفننوا في أساليب إيصال مضامينها إلى مختلف أنواع المواطنين في الدولة الإسلامية حتى يسابقوا قصص الحقيقة إلى أذهان المسلمين [١].

---

(١) من ذلك تزوير تاريخ أبي ذر رضي الله عنه كما سيرد تفصيلاً في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

الفصل الثلاثون

السبئية والإعلام

سيطر السبئيون ـ بحذق ومهارة ـ على وسائل إعلامية شعبية كثيرة خلال مسيرة التاريخ القديم ـ فكانت «القهاوي» و «الحكواتية» فيها تؤدي دوراً في «الإشاعة التاريخية» يجلس فيها «الحكواتي» على كرسي مرتفع ويقرأ من «ألف ليلة وليلة» أو «على الزيبق» أو «تغريبة بني هلال» مما لا يعرف مؤلفوها.

تفنن الحزب السبئي وعدّد أساليبه في استعمال أدوات الإعلام التي سيطر عليها في مجتمع المسلمين، فبعد إن كان مسيطراً على كتب العامة كألف ليلة وليلة، وعلي الزيبق، وعلى الحكايات والخرافات التي تشيع الإشاعات وتشعها، وعلى «حكواتية» القهاوي والجمعيات؛ استطاع السبئيون القفز لاستلام زمام وسائل الإعلام الحديثة فالتهموا المجلات والجرائد والإذاعات والمرائي «سينما وتلفزيون» وسيطروا على دور النشر والتوزيع بل على وزارات الإعلام في كثير من دول المسلمين كما استطاعوا توجيه مناهج التعليم والتربية في حكومات الدول من بعيد أو قريب.

كان من نتائج هذه القوة وهذه السيطرة أن تأثير كثير من طيبي القلب من المسلمين وصدق أن السبئية بأسماء فرقها المعلنة بعضُ فرق المسلمين التي تطرفت وشذت وغلت ومرقت من الدين، لقد صدق هؤلاء الطيبون هذا رغم أن علماء المسلمين صنفوا فرق الباطنية هذه ـ نظراً لعقائدها ـ مع فرق الكفرة خارج حدود الإسلام تبعاً للقواعد الإسلامية المقررة في التفريق بين المسلم

والكافر والمرتد والزنديق. ولم يهتم هؤلاء العلماء كثيراً بإثبات أصلهم وتبعيتهم بعد أن أثبتوا وصفهم، وتصنيفهم. إلّا أن البحث في أصل هذه الفرق الباطنية وتبعية الحزب السبئي أصبح من الأمور الهامة لنا هذه الأيام لجلاء وجه الحق الذي لا مراء فيه، حتى يتبين في عصر الفتن الصديق المخلص من العدو الذي يلبس ثوب الأخ الناصح الشفيق، فلقد استطاع قوم من اليهود لا يبلغ عددهم نسبة واحد في المائة من أعداد قوم مسلمين أن يأخذوا من المسلمين أرضاً ويقيموا عليها دولة، ثم يهددوا جيرانهم ثم يقتطعوا قطعاً من أراضيهم. وكلاب الدول المجاورة تنبح عشرات السنوات وتهدد هذه الدولة الصغيرة بالدمار المحقق والإبادة... ثم تُسلمها المزيد من الأراضي وتقدم لها المزيد من التنازلات ثم تقوم بالتهديد والوعيد والإنذار، فهل هؤلاء النباحون من الحكام والأحزاب سبئيون! وهل لا يزال السبئيون ـ عند طيبي القلب من المسلمين ـ فرقة منحرفة ضالة يرجون هدايتها و«عودتها» إلى حظيرة الإسلام.

لكن أمر كفر السبئية ظاهر. وكذلك مفارقتهم ومناوأتهم للعقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية واضح، بل إن بياناتهم وشروحهم لعقائدهم في الماضي والحاضر تضاد الإسلام وتناقضه، وخاصة في فترات ظهور أمرهم واستبداد قوتهم وغلبتهم على مناوئيهم ـ في أرض من أراضي المسلمين ـ عند وهن المسلمين لضعف استمساك المسلمين بدين ربهم الذي هو عصمة أمرهم وسبب نصرهم وغلبتهم، كما حدث يوم غلبوا مسلمين على أمرهم، وأقاموا «دولة سبئية» لعهد قريب أو عهد بعيد أو يوم دعمتهم دول أو حكومات ـ لجهلها أو عدائها للإسلام ـ كما قاموا به من التصريح بعد الاستبطان ـ لعنهم الله ـ أيام ثورة الزنج في البصرة، ودولة القرامطة في البحرين ودار الهجرة، ومعاقل الإسماعيلية في ألموت، وملك العبيديين في المغرب ومصر، وضيع الدروز في الشام وإسرائيل، وأحزاب الاتحاد والترقي والكماليين في تركيا الإسلامية، وتجمع البابية والبهائية في إيران ومصر ودولة

إسرائيل في فلسطين، وحركة القاديانية في الهند، وطائفة النصيرية في سورية، ومحافل الماسونية والتنظيمات الشيوعية وغيرها من الأسماء في البلاد الإسلامية في العصر الحديث.

إن الذي يجب أن يكون واضح الظهور للمسلمين هذه الأيام أن هؤلاء القوم ليسوا مسلمين مهما ادعوا وادعى أنصارهم وألحقوا أنفسهم بفرق الإسلام أو سموا أنفسهم بأسماء المسلمين.

وكذلك يجب أن يتبين للمسلمين أن «وراثة العقائد» لا قيمة لها بالعرف الإسلامي، فيدخل الإسلام داخلٌ بكلمة لا إله إلا الله مهما أوغل آباؤه وأجداده في الكفر والصد عن سبيل الله، كما يخرج من الإسلام مرتد بكلمة تنقض شهادة لا إله إلا الله مهما أوغل آباؤه وأجداده في الجهاد والاستشهاد في سبيل الله. ولهذا يمكنك أن تقرأ في قائمة المدرسة السبئية القديمة والعصرية أسماء من أسماء المسلمين. تماماً كما تقرأ في القائمة أسماء جورجي زيدان وأنطون وميشيل وجورج، وكامل أمين ثابت.

إن وجه المناسبة في التركيز على المدرسة السبئية وحزبها في هذا الباب من كتاب «هذا أبو ذر» يتوضح من جانبين:

أولهما: أن الدعاية السبئية سبقت إلى أذهان كثير من المسلمين قبل قصة التاريخ الحقيقية فالدعاية السبئية لها بهارجها وأفانينها ويدعمها حزب متشعب في بلاد المسلمين يضلل العامة ويعمّي عنهم وجه الحق ورُبَّ سلطات وحكومات تدعم هذا الحزب فيصل إلى الكثير من أهدافه في تزوير التاريخ وتضليل العامة.

وثانيهما: أن الحزب السبئي بدأ أعماله التخريبية من الأيام الأولى لقيام المجتمع الإسلامي وتداخلت نتائج مؤامرات السبئية مع بعض المواقف التي وقفها أبو ذر رضي الله تعالى عنه على طريقة السبئيين في استغلال نتائج الاختلافات العادية بين الإخوة المختلفين.

لقد تفننت السبئية وعددت أساليبها في استعمال وسائل الإعلام الشعبية التي استطاعت السيطرة عليها في مجتمع المسلمين، وكانوا سباقين إلى الأخذ بكل الأفانين والوسائل الإعلامية في العصر الذي تعيش فيه، بل غالباً ما يبتكر السبئيون ـ في كل عصر ـ أدوات وأجهزة وأفانين إعلامية غير ما تعارف عليها المجتمع، فنجحوا أي نجح.

يتناجى اثنان ـ في عهد الصحابة الكرام ـ أو يختلف ثلاثة بالرأي في قضية من القضايا، ويتناقشون فيها وتترامى القصة هذه إلى مسامع السبئية فيتلقفونها ليزيدوا عليها وينقصوا منها ويشيعوا قصصاً كثيرة متنوعة ذات حبكات وعقد، ولا تمانع السبئية من ذكر الواقعة الصحيحة مع ما يشيعون من أقاصيص.. وتصل القصة ـ من خلال أدوات الإشاعة المختلفة ـ إلى مسامع عامة الناس فيضيع الحق «الواقعة الصحيحة الوحيدة» في خضم الباطل «القصص غير محدودة العدد» ويضيف العامة ـ عند نقل القصة ـ زيادات تناسب «إسقاطات» نفوسهم عليها، كما أن العامّة تختار من هذه القصص، أشدّها جاذبية وسحراً، ويهيء السبئيون «للشعب» من القصص ما لذّ وطاب، يقدمونها ـ على مر التاريخ ـ بأساليب فنية رائعة، فتعم المصيبة، ويشيع الباطل بين العامة، ويضيع الحق، ويبقى «التاريخ الصحيح» متداولاً بين طبقة قليلة العدد من «العلماء المنهجيين» الذين لا يقبلون من القصص إلا ما يطابق منهج النقد العلمي المنصف «إذا كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل».

ولقد سيطر السبئيون ـ بحذق ومهارة ـ على وسائل إعلامية شعبية كثيرة ـ خلال مسيرة التاريخ القديم ـ فكانت «القهاوي» والـ «حكواتية» فيها تؤدي دوراً في الإشاعة التاريخية: يجلس فيها «الحكواتي» على كرسي مرتفع ويقرأ من «ألف ليلة وليلة» أو «علي الزيبق» أو «تغريبة بني هلال»، مما لا يعرف مؤلفوها[1]. وكذلك نبغ ـ من تلاميذ المدرسة السبئية ـ نوابغ ألفوا

---

(١) ومما يندى له جبين العصر أن كثيراً من الجامعات في بلاد المسلمين ورثت دور «القهاوي» وبعض أساتذتها ورثوا دور «الحكواتية» في الإسهام بالإشاعة التاريخية المزورة.

«قصصاً» و «حكايا» و «كتباً» شيقة جذابة سموا بعضها «تاريخاً» وسموا بعضها الآخر «أدباً»[1].

ثم ظهر في عصرنا هذا الأخير طائفة من المؤلفين ـ منهم السبئي العنيد المجاهر في عدائه للإسلام وأهله، ومنهم المتستر المتخفي اللابس لبوس الناصح للمسلمين المشفق على الإسلام ومبادئه ـ فألفوا ما ألفوا، ولفقوا ما لفقوا، وافتأتوا ما افتأتوا، فزادت «أعمالهم الفنية» الطين بلة، وساهموا في تضليل الشباب أية مساهمة[2]. يستطيع المتتبع لإنتاجهم «الفني» هذا ـ خلال فترة يسيرة من الزمان ـ أن يلاحظ التغيير والابتداع والتزوير[3].

(١) خذ مثلاً على الأولى ـ التاريخ ـ كتاب مروج الذهب للرحالة المسعودي سبّاب الصحابة، وعلى الثانية «الأدب» كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ذلك الرجل الذي لم يُخْفِ في مقدمة كتابه أن يذكر أن عمله في الكتاب وفي سرد مناسبات النصوص التي يذكرها يكثر فيه التأليف والصناعة والاختلاق. ثم يعتبر بعض الجهلة من المتعلمين العصريين أن مثل هذه الكتب مصادر تاريخهم فلا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢) من هؤلاء المضللين السبئي الكبير عميد الأدب العربي، رئيس اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية الدكتور طه حسين الذي يقوم بالدعاية إلى مذهبه في تزوير التاريخ الإسلامي في مقدمة كتابه «على هامش السيرة» فيقول: «وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى، واتخاذها موضوعاً قيماً خصباً لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما، بل كذلك للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد...» (دار المعارف بمصر، الطبعة العشرون) ج ١، ص ي، اقرأ في حاشية الصفحة ٤٨٠ من «هذا أبو ذر» تفصيلاً...

(٣) للموضوع تفصيل وأمثلة في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

البَابُ السَّابِعُ

أينَ أبُو ذَر

وظهرت عليه ـ رضي الله عنه ـ صفات اشترك فيها مع بقية زملائه الصحابة الكرام فلا يكاد بينهم يبين، وتميز رضي الله عنه بصفات شخصية جعلته فرداً يعيش وحده ويموت وحده ويبعث وحده .



أين أبو ذر

بوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انتهت مرحلة التلقي عند أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وظهرت شخصية أبي ذر مميزة، هذا الصحابي الجليل في جيل الصحابة الفريد.. لم يعد أبو ذر تلميذاً يضيع أثناء التلقي بين بقية التلاميذ والأتراب السابقين.. بل تخرج أبو ذر الصحابي ولم يعد يتلقى، وظهرت عليه رضي الله عنه صفات اشترك فيها مع بقية زملائه الصحابة الكرام، فلا يكاد بينهم يبين، وتميز رضي الله عنه بصفات شخصية جعلته فرداً يعيش وحده ويموت وحده ويبعث وحده.

وفي سبيل تخلية الذهن عما علق به من تأثيرات القصص والحكايا المزوّرة للتاريخ - سواء اتخذت شكل الكتب، الرسمية أو غير الرسمية، فهي تبث بين الناس بأساليب وأفانين، أو كانت على شكل مقالات أو دراسات أو مسرحيات أو إشاعات ترسخ في ضمير عامة الشعب - اضطرنا لإطالة كان لا بد منها في البابين السابقين عن أحوال المجتمع والحكم والسياسة وفصول المؤامرة وقرن السبئية ما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ذلك ليتمهد لنا أن نضع أبا ذر رضي الله عنه في موضعه الحقيقي من المجتمع الإسلامي والتاريخ، ولنتمكن من تحليل مواقفه وأحداث حياته - بعد - تحليلاً موضوعياً صحيحاً مبرءاً من تأثيرات السبئية وإشاعاتها ودعاياتها.

ويمكننا أن نستعرض شخصية الصحابي ونلاحق مواقفه في مصر والشام، ثم نقف نتأمل مواقفه من أمير المؤمنين عثمان ونتابعه من ثم إلى الربذة.

الفصل الحادي والثلاثون

في مصر والشام

كان لأبي ذر ثلاثون فرساً يحمل عليها، فكان يحمل على خمسة عشر منها يغزو عليها، ويصلح آلة بقيتها، فإذا رجعت أخذها فأصلح آلتها وحمل على الأخرى.

كان عطاؤه أربعة آلاف... وكان أبو ذر وأبو الدرداء في مظلتين من شعر في دمشق.

عهد أبي بكر وعمر

يختفي ذكر أبي ذر في عهدي الراشدين الأولين، وتشرئب ومضات منه، أولاها ما أورده صاحب أسد الغابة أن أبا ذر هاجر إلى الشام بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه[1].

وثانيها ما جاء في صحيح مسلم تشعر انه عاش في مصر إلى أن رأى إشارة حدثه عنها نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم تدل على تطور المدنيّة في مصر ووصولها إلى درجة الاختصام على شبر أو شبرين من الأرض.. فيأتمر الصحابي المسلم بأمر نبيه ويصدع ويمتثل فيغادر مصر كما سيغادر غيرها طاعة لله ورسوله.

فعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى

(١) علي بن محمد بن محمد الشيباني.. ابن الأثير، أسد الغابة (المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ) ج ١، ص ٣٠١.

أهلها فإن لهم ذمة ورحماً ـ أو قال: وصهراً ـ فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها».

(قال): فرأيت عبد الرحمن بن شُرحبيل بن حسنة وأخاه يختصمان في موضع لبنة فخرجت منها[1].

وفي مكة يقف واعظاً للناس. فعن سفيان الثوري قال: قام أبو ذر الغفاري عند الكعبة فقال:

يا أيها الناس؛ أنا جندب الغفاري، هلموا إلى الأخ الناصح الشفيق. فاكتنفه الناس فقال:

أرأيتم لو أن أحدكم أراد السفر أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه؟

قالوا: بلى.

قال: فسفر يوم القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا منه ما يصلحكم.

قالوا: وما يصلحنا؟.

قال: حجوا حجة لعظام الأمور، صوموا يوماً شديداً حره لطول النشور، صلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور، كلمة خير تقولها أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها، اجعل الدنيا مجلسين: مجلساً في طلب الآخرة. ومجلساً في طلب الحلال. والثالث: يضرك ولا ينفعك لا تريده، اجعل المال درهمين، درهماً تنفقه على عيالك من حله، ودرهماً تقدمه لآخرتك، والثالث يضرك ولا ينفعك ولا تريده.

ثم نادى بأعلى صوته:

يا أيها الناس قد قتلكم حرص لا تدركونه أبداً»[2].

وكان يقول: يا أيها الناس إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق.

---

(١) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٢٢.

(٢) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج ١، ص ١٦٥.

صلّوا في الليل لظلمة القبور.
صوموا في الدنيا لحر يوم النشور.
تصدقوا مخافة يوم عسير.
يا أيها الناس إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق»[1].

ويمضي أبو ذر إلى الشام بلاد الجهاد بقيادة أميرها معاوية بن أبي سفيان «وفي سنة ثمان وعشرين غزا معاوية قبرس وفتحها بأمر عثمان وكان معه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم أبو ذر، وعبادة بن الصامت، ومعه زوجته أم حرام، والمقداد وأبو الدرداء، وشداد بن أوس»[2].

وبعد الفتح وخلال وجوده في بلاد الشام «كان أبو ذر وأبو الدرداء في مظلتين من شعر بدمشق»[3].

ثم بدا لأبي الدرداء أن يبني مسكناً «فمر عليه أبو ذر فقال:
ما هذا؟ تعمر داراً أذن الله بخرابها! لأنْ تكون رأيتك تهرع في عَذِرة أهلك أحب إلي من أن أكون رأيتك فيما رأيتك فيه»[4].

واعترض أبو ذر على أبي الدرداء مؤنباً إذ لا يليق بأبي الدرداء ـ وهو الزاهد ـ أن يكلف غيره من الناس ببناء بيت له يعيش هو فيه، ويعتذر أبو الدرداء ويبرر عمله هذا ببيان حاجته لبناء بيت فتجري بينهما هذه المحاورة:

قال أبو ذر: «لقد حملت الحجر على عواتق الرجال؟.
فقال له: إنما هو بيت أبنيه.
فقال له أبو ذر رضي الله عنه مثل ذلك.
فقال: لعلك يا أخي قد وجدت علي في نفسك من ذلك؟.

---

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٥.
(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي، مصر، ط ١٩٣٩) ج ٣، ص ٣١٥.
(٣) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٣٣.
(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٣.

قال: لو مررت بك وأنت في عذرة أهلك كان أحب إلي مما رأيتك فيه»[1].

عن الأحنف بن قيس قال: دخلت بيت المقدس فوجدت فيه رجلاً يكثر السجود فَوَجَدتُ في نفسي من ذلك، فلما انصرف، قلت:

أتدري على شفع انصرفت أم على وتر؟.

قال: إن أك لا أدري فإن الله عز وجل يدري.

ثم قال: أخبرني حبي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بكى.

ثم قال: أخبرني حبي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بكى.

ثم قال: أخبرني حبي أبو القاسم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

ما من عبد يسجد لله إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة وكتب له بها حسنة.

(قال): قلت: أخبرني من أنت يرحمك الله؟.

قال: أنا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فتقاصرت إلى نفسي»[2].

وكانت حالته المادية في الشام كما يروي الذهبي جيدة من حيث الموارد.. زاهدة من حيث التمتع. فعن سعيد بن أبي الحسن: أن أبا ذر كان عطاؤه أربعة آلاف، فكان إذا أخذ عطاءه دعا خادمه فسأله عما يكفيه للسنة فاشتراه، ثم اشترى فلوساً بما بقي وقال:

---

(١) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج ١، ص ١٦٣. ولقد وردت هذه المحاورة في رواية الإمام أحمد بن حنبل في كتاب الزهد كما يلي: إن أبا ذر مر بأبي الدرداء وهو يبني بناء له فقال له:

قد حملت الصخر على عواتق الرجال؟.

فقال: إنما هو بيت أبنيه.

فقال له أبو ذر مثل ذلك، فقال:

يا أخي لعلك وَجدْت عليَّ من ذلك!.

فقال: لو مررتُ بك وأنت في عذره أهلك كان أحب إليّ مما رأيتك فيه.

أحمد بن حنبل، كتاب الزهد (دار الكتب العلمية، بيروت لبنان) ص ١٤٦.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند (المطبعة الميمنية، مصر، ط ١٣١٣ هـ) ج ٥، ص ١٦٤.

إنه ليس من وكاء ذهب ولا فضة يوكى عليه إلا وهو يتلظى على صاحبه»[1].

وكان أبو ذر رضي الله عنه يرى أن كنز الذهب والفضة حرام ولا بأس بادخار المعادن الأخرى كالفلوس المصكوكة.. لكن بقية معاصريه كانوا يعترضون على هذا الفهم ويتهمونه بالكنز لوجود الفلوس المدخرة عنده إن كان أي ادخار حرام، فيصر على رأيه بأن ادخار الفلوس حلال وادخار الذهب الأصفر أو الفضة البيضاء كنز حرام.

«جاءت ابنة أبي ذر وعليها مجنبتا صوف سفعاء الخدين، ومعها قفة لها فمثلت بين يديه وعنده أصحابه فقالت:

يا أبتاه زعم الحراثون والزراعون أن أفلسك هذه بهرجة[2].

فقال: يا بنية؛ ضعيها فإن أباك أصبح بحمد الله ما يملك من صفراء ولا بيضاء إلا أفلسه هذه[3].

وأما الثروة التي جمع فمنها ثلاثون فرساً وحمولة مجاهد على كل منها، لكنه لم يجمعها ليتمتع بها رضي الله عنه، إنما ليقدمها لنفسه يوم القيامة فهو يحمل على كل واحدة مجاهداً في سبيل الله.

«قال يحيى بن أبي كثير: كان لأبي ذر ثلاثون فرساً يحمل عليها، فكان يحمل على خمسة عشر منها يغزو عليها، ويصلح آلة بقيتها، فإذا رجعت أخذها فأصلح آلتها واحدة على الأخرى»[4].

ثم تراه ـ مع استلامه عطاءً سنوياً أربعة آلاف وقيامه على الثلاثين فرساً يحمل عليها في سبيل الله ـ يعيش عيشة الزهاد المعدمين، فيظنه من يرى حاله فقيراً فيرسل له القائد حبيب بن مسلمة ثلاثمائة دينار، ويرسل له رجل يقال له

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٥٣.
(٢) بهرجة: أي زائفة.
(٣) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج ١، ص ١٦٤.
(٤) سير أعلام النبلاء (للذهبي) ج ١، ص ٥٣.

الحارث مثلها فيردها رضي الله عنه مع عبارة تبين أنه ليس فقيراً إنما هو زاهد.

«بعث حبيب بن مسلمة ـ وهو أمير بالشام ـ إلى أبي ذر بثلاثمائة دينار وقال:

استعن بها على حاجتك.

فقال أبو ذر:

ارجع بها إليه ـ أما وجد أحداً أغَرَّ بالله منا ـ ما لنا إلا ظل نتوارى به وثلة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها، ثم إني لأتخوف الفضل»[1].

«بلغ الحارث ـ رجلاً كان بالشام من قريش ـ أن أبا ذر به عَوَز، فبعث إليه بثلاثمائة دينار فقال:

ما وجد عبداً لله تعالى هو أهون عليه مني؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من سأل وله أربعون فقد ألحف» ولأل أبي ذر أربعون درهماً وأربعون شاة، وماهنان»[2].

ومع هذا فقد ينفق جميع الأربعين ويحتاج في بعض الأيام لدقيق وسويق فيقبل من الصحابية شيئاً منه، «فعن أم طلق قالت:

دخلت على أبي ذر فرأيته شعثاً شاحباً بيده صوف قد جعل عودين وهو يغزل بهما، فلم أر في بيته شيئاً، فناولته شيئاً من دقيق وسويق، فقال لي: أما ثوابك فعلى الله»[3].

وفي الشام يظهر أبو السبئية عبد الله بن سبأ يَذُرُّ رمال الفتنة يميناً وشمالاً، لا يوفّر أحداً من شرِّه، فكما بدأ جموع اليمنيين وجماهير المصريين بالضحك على عقولهم عند ادعاء الرجعة[4] نراه في الشام وقد جوّد درساً في

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ج ١، ص ١٦١.
(٢) المصدر السابق، ج ١ و ص ١٦١، والماهن: الخادم.
(٣) سير أعلام النبلاء (للذهبي) ج ١، ص ٥٣.
(٤) انظر أمر الرجعة في الفصل التاسع والعشرين من هذا الكتاب.

الدس حتى على الصحابة، متبعاً أسلوب الباطنية في صرف العبارات عن معانيها التي يقصدها صاحبها إلى ما يصل به إلى غايته، فبعد موعظة من أمير الشام معاوية يقول فيها للناس «المال مال الله» يتلقفها ابن سبأ ويسقط عليها من المعاني ما شاء له تدبيره الماكر فيذكر القول لأبي ذر رضي الله عنه مفسراً له القول تفسيراً باطنياً مثيراً، ويتظاهر أمامه بشيء من العلمية عندما يضع في أول التفسير الباطني احتمالاً بكلمة «كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين».

ثم يأتي ابن سبأ أبا الدرداء رضي الله عنه بمثل ما جاء به أبا ذر عندما يرى أن الدس لم يثر فتنة بين أبي ذر ومعاوية، ثم يثلث بعبادة بن الصامت رضي الله عنه أيضاً.

ويتأثر أبو ذر بمقابلة ابن سبأ فينطلق إلى معاوية مناقشاً، ويزول أثر الزوبعة بعد لقاء الصحابيين.

ويرفض الصحابي الزاهد أبو الدرداء قول اليهودي ويغلب على ظنه أنه يهودي لم يستقم للإسلام بعد، أما عبادة بن الصامت فقد أمسك بمحرك الفتنة وأتى به إلى معاوية.

روى الطبري عن السَّري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي[1]:

لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال:

يا أبا ذر ألا تعجب لمعاوية يقول: «المال مال الله، ألا إن كل شيء لله» كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين. ويمحو اسم المسلمين!..

فأتاه أبو ذر فقال:

ما يدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله؟.

قال: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه والأمر أمره.

---

(١) يعد هذا السند أصح إسناد الطبري على الإطلاق.

قال: فلا تقله.

قال: فإني لا أقول ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين.

فأتى أبا الدرداء فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهودياً!.

فأتى عبادة بن الصامت، فتعلق به فأتى به معاوية فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر[1].

وهنا تظهر أخلاقيات الصحابة، فعندما يسأل الصحابي المحكوم أبو ذر الصحابي أمير الشام معاوية مستنكراً «ما يدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله!» يجيب الأمير الحاكم «يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره!» بهذه الوداعة والسماحة. وعندما يجيب الصحابي المحكوم بلهجة الأمر «فلا تقله» يكون تعليق الصحابي الأمير مراعياً شعور الصحابي المحكوم ومصراً على الحق في الاعتقاد «فإني لا أقول ليس لله. ولكن سأقول مال المسلمين».

ثم تثور قضية أخرى بين أبي ذر ومعاوية ولا تذكر لنا روايات التاريخ ما إذا كان الذي أثارها يهودياً هذه المرة أيضاً. إلا أنها تتعلق باليهود تعلقاً ما.

يقول أبو ذر: «كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾[2].

فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب.

فقلت: نزلت فينا وفيهم.

وكان بيني وبينه في ذلك. فكتب إليَّ عثمان: أن أقدم...»[3].

---

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي، مصر ط ٣٩٣٩) ج ٣، ص ٣٢٦.

أما إذا لم يمثل معاوية بمثير الفتنة هذا فهو الجواب الذي يصفح أفواه الكذابين الذين يفترون على تاريخ الصحابة الكذب. فلم يكن معاوية سباباً حتى لمثيري الفتن، ولا حاكماً عليهم إلا ضمن القوانين الإسلامية النافذة. وهو في حلمه وسماحته مع إخوانه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أولى له وهكذا كان.

(٢) سورة التوبة: ٣٤.

(٢) تجد كامل رواية الإمام البخاري هذه في سبب ترك أبي ذر رضي الله عنه للشام في الفصل التالي.

الفَصل الثاني وَالثلاثون

أبو ذر وعثمان

قال عثمان: «يا أبا ذر؛ علي أن أقضي ما علي، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد».

قال أبو ذر: «والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة، وأطول جبل لسمعت وأطعت وصبرت ومشيت ورأيت أن ذلك خير لي».

أسباب القدوم

ترك أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ مصر لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، «فإذا رأيت رجلين يختصمان في موضع لبنة فاخرج منها»[1].

ويعيش أبو ذر في الشام مدة من الزمن مجاهداً زاهداً يحيا الإسلام كما يؤمن به.. ثم تظهر إرهاصات الفتنة لوصول ابن سبأ إلى الشام وبدئه ذر رمال الفتنة بين العامة والخاصة. ففي رواية الطبري بأصح إسناده، يذكر ثلاثة من الصحابة الزهاد يسعى ابن سبأ إليهم في قصة «المال مال الله».

ثم تثور مشكلة أخرى بين أبي ذر ومعاوية إذ يختلفان في سبب نزول آية ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة... ﴾.

وهنا يذكر لنا البخاري بسنده وما أدراك ما البخاري وما سنده، والطبري بأصح إسناده وهو الطبري وأصح إسناده، يذكران لنا قصتي رسالتين أرسلهما أمير المؤمنين ذو النورين إلى كل من الصحابيين الحاكم والمحكوم فعن

(١) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٢٢.

«زيد بن وهب قال: مررت بالربذة، فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه، فقلت: ما أنزلك منزلك هذا؟.

قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾[1] فقال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك. وكتب إليّ عثمان رضي الله عنه يشكوني؛ فكتب إليَّ عثمان أن أقدم فقدمتها فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك. فذكرت ذاك لعثمـان فقال: إن شئت تنحيت فكنت قريباً؛ فذاك الذي أنزلني هذا المنزل. ولو أمّروا عليَّ حبشياً لسمعت وأطعت»[2].

وأما قصة الرسالة الثانية لرواية الطبري في أصح إسناده[3] أن معاوية استشار أمير المؤمنين في مشكلة أبي ذر التي أعضلت به ولم يجد لها حلاً. فكتب إليه عثمان محذراً له من الفتنة المتوقعة والتي بـدت إرهاصاتها وأوصاه بتجهيز أبي ذر وتزويده بما يكفيه والرفق في معاملته وأن يبعث معه دليلاً أيضاً يعينه على مشاق الطريق.

وكان الذي أَمَرَ أميرُ المؤمنين...

وإليك رواية الطبري «فكتب معاوية إلى عثمان:

إن أبا ذر قد أعضل بي وقد كان من أمره كيت وكيت» فكتب إليه عثمان: «إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها فلم يبق إلا أن تثب، فلا تنكأ القرح، وجهز أبا ذر إلي وابعث معه دليلاً، وزوده، وارفق به، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت فإنما تمسك ما استمسكت».

فبعث بأبي ذر ومعه دليل، فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سَلْعٍ قال: بَشِّرْ أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار.

---

(1) سورة التوبة: ٣٤.

(2) صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٣٣.

(3) عن السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي.

ودخل على عثمان فقال:

يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذربك؟.

فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً.

فقال: يا أبا ذر، علي أن أقضي ما علي، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد.

قال: فأذن لي بالخروج فإن المدينة ليست لي بدار.

قال: أو تستبدل بها إلا شراً منها!.

قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أخرج منها إذا بلغ البناء سَلْعاً.

قال: فانفذ لما أمرك به. (قال)

فخرج حتى أتى الـربذة، فخط بها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل، وأعطاه مملوكين. وأرسل له:

أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً. ففعل»[1].

إذن فهما رسالتان أرسل بهما الخليفة الراشد إلى كل من الصحابيين المحكوم والحاكم رضي الله عنهم أجمعين.. ولله در هذه السياسة ما أحكمها.. يختلف أمير الشام كلها مع صحابي عظيم الشأن ليس له وظيفة فيرسل أمير المؤمنين رسالة لأبي ذر مراعاة لحرمته ومكانته، ويرسل رسالة لأمير الشام يأمره فيها بما لا يحتاج الحليم معاوية إلى تذكير.. الرفق بالصحابي وتزويده وتجهيزه ودعمه بدليل في سفره إلى العاصمة. ويتخلق الثلاثة رضي الله عنهم بأخلاق الإسلام فهم إخوة.. كما قال الله عز وجل فيهم.

لقاء الصحابيين

عن مالك بن أوس قال: قدم أبو ذر من الشام فدخل المسجد وأنا

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي، مصر، طـ ١٩٣٩) ج ٣، ص ٣٣٦.

جالس فسلم علينا وأتى سارية فصلى ركعتين تجوز، ثم قرأ ألهاكم التكاثر، واجتمع عليه الناس فقالوا: حدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال: سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «في الإبل صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البر صدقته، من جمع ديناراً أو تبراً أو فضة، لا يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله كوي به.

قلت: يا أبا ذر؛ انظر ما تخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن هذه الأموال قد فشت.

قال: من أنت يا ابن أخي؟.

فانتسبت له فقال: قد عرفت نسبك الأكبر، ما تقرأ ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ﴾[1] «سورة التوبة: ٣٤».

ثم يتلاقى الصحابيان ذو النورين عثمان وصادق اللهجة أبو ذر.

وقبل أن نسترسل في سرد روايات الثقات عن لقاءات الصحابة لا بد لنا أن نتذكر وصف الله عز وجل لهؤلاء الصحابة ـ رضوان الله عنهم أجمعين ـ فنجد مصداق وصفهم في أخلاقهم. يقول سبحانه: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ «سورة محمد: ٢٩» وهكذا كانوا وصدق الله العظيم. وكذب أعداء الله المضلِّلون.

عن زيد بن خالد الجهني قال: كنت عند عثمان إذ جاء أبو ذر، فلما رآه عثمان.

قال: مرحباً وأهلاً بأخي.

فقال أبو ذر: مرحباً وأهلاً بأخي. لقد أغلظت علينا في العزيمة. والله لو عزمت علي أن أحبو لحبوت ما استطعت، إني خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحو حائط[2] بني (فلان) فقال لي «ويحك بعدي» فبكيت

---

(١) سير أعلام النبلاء (للذهبي) ج ١، ص ٤٧.

(٢) حائط: يعني بستان.

فقلت: يا رسول الله؛ وإني باق بعدك؟ قال: نعم، فإذا رأيت البناء على سَلْع[1] فالحق بالمغرب أرض قضاعة.

قال عثمان: أحببت أن أجعلك مع أصحابك، وخفت عليك جهال الناس»[2].

وعن عبد الله بن الصامت قال:

دخلت مع أبي ذر على عثمان، فلما دخل حسر عن رأسه وقال:

والله ما أنا منهم يا أمير المؤمنين (يريد الخوارج)[3].

قال له عثمان: صدقت يا أبا ذر، إنما أرسلنا لك لتجاورنا بالمدينة.

قال: لا حاجة لي في ذلك، إئذن لي إلى الربذة.

قال: نعم ونأمر لك بنعم من الصدقة تغدو عليك وتروح.

قال: لا حاجة لي في ذلك تكفي أبا ذر صريمته[4].

فلما خرج قال: دونكم معاشر قريش دنياكم فاغنموها ودعونا وربنا»[5].

وعندما وصل أبو ذر للمدينة استنكر اجتماع الناس عليه في المدينة وذكر ذلك لعثمان وطلب منه الإذن في الخروج إلى الربذة فاعترض عثمان بادىء الرأي لئلا يستبدل بالمدينة شراً منها، فأعلمه بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أمره بالخروج واعتزال الناس إذا رأى البناء بلغ جبل سَلْع، فائتمر عثمان بأمر رسول الله وأمره به.

ففي رواية الطبري في أصح إسناده[6] «فلما قدم المدينة ورأى

---

(١) سَلْع: اسم جبل في ظاهر المدينة، تحده ثنية الوداع شرقاً والمساجد السبعة غرباً.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج ٢، ص ٥٠.

(٣) حسر أبو ذر عن رأسه ليريه عثمان يريد أن يطمئنه أنه ليس من الخوارج ـ ولم يكونوا قد ظهروا بعد ـ بل كان وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم أنهم «سيماهم التحليق».

(٤) الصريمة: تصغير صرمة، وهي القطعة من الإبل، قيل: ما بين العشرين إلى الثلاثين، وقيل: ما بين الخمسين والأربعين.

(٥) سير أعلام النبلاء (للذهبي) ج ٢، ص ٤٨.

(٦) عن السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي.

المجالس في أصل سَلْعٍ قال: «بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار»، ودخل على عثمان فقال:

يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذربك.

فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال: «مال الله» ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً.

فقال: يا أبا ذرٌ علي أن أقضي ما علي وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد.

قال: فائذن لي بالخروج. فإن المدينة ليس لي بدار.

قال: أو تستبدل بها إلاّ شراً منها؟.

قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أخرج منها إذا بلغ البناء سَلْعاً.

قال: فانفذ لما أمرك به.

(قال) فخرج حتى أتى بالربذة، فخط فيها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين، وأرسل له: «أن تعاهد المدينة، حتى لا ترتد أعرابياً، ففعل» [1].

أما رواية البخاري ففيها:

«فكتب إليَّ عثمان: أن أقدم المدينة. فقدمتها، فكثر عليَّ الناس، حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك. فذكرت ذاك لعثمان فقال:

«إن شئت تنحيت فكنت قريباً» فذاك الذي أنزلني هذا المنزل. ولو أمروا علي عبداً حبشياً لسمعت وأطعت» [2].

وعندما سأل غالبُ بن سعد الحسنَ البصري قائلاً:

يا أبا سعيد؛ أكان عثمان أخرج أبا ذر؟.

قال: معاذ الله» [3].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (للطبري) ج ٣، ص ٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري، ورواها محمد بن سعد في الطبقات الكبرى ج ٤، ص ٢٢٧.

(٣) سير أعلام النبلاء (للذهبي) ج ٢، ص ٥٢.

و «عن عبد الله بن الصامت: قالت أم ذر:

والله ما سيَّر عثمان أبا ذر ـ تعني إلى الربذة ـ ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا بلغ البناء سَلْعاً فاخرج منها»[1].

ويحدثنا عبد الله بن الصامت الذي حضر مقابلة عمه أبي ذر مع عثمان رضي الله عنهما وعن خروجه معه إلى الربذة فيقول: «ثم استأذن إلى الربذة، (قال) فانطلق وانطلقت معه حتى قدمنا الربذة (قال) فصادفنا مولى لعثمان غلاماً حبشياً يؤمهم، فنودي بالصلاة فتقدم، فلما رأى أبا ذر نكص فأومأ إليه أبو ذر: تقدم فصلِّ، فصلى خلفه أبو ذر»[2].

---

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢.

(٢) الطبقات الكبرى (لابن سعد) ج ٤، ص ٢٣٢.

الفصل الثالث والثلاثون

في الربذة

من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فَيْد تريد مكة..
وكانت من أحسن منزل في طريق مكة.
وكانت الربذة على عهد عثمان عامرة بأهلها ذات ماء وكلأ ومرعى وكانت أنعام الصدقة تموج فيها...

الرَّبَذَة:

من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة..

وفي سنة ٣١٩ خرجت الربذة باتصال الحروب بين أهلها وبين ضَرِيَّة، ثم استأمن أهل ضرية إلى القرامطة فاستنجدوهم عليهم فارتحل عن الربذة أهلها، فخربت، وكانت من أحسن منزل في مكة[1].

وكانت الربذة على عهد عثمان عامرة بأهلها ذات ماء وكلأ ومرعى

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان (مطبعة السعادة بمصر، ط ١) ج ٤، ص ٢٢٢. لكنه ذكر انها على ثلاثة أميال من المدينة، ولعله تصحيف وقع عند طباعة الكتاب إذ لا يعرف مكان بهذا الاسم أو اثر يدل عليه بهذا القرب من المدينة، ويذكر عن مكانين يبعدان ثلاثة أيام عن المدينة كل منهما يدعي أهلوه أنه الربذة وأن فيه مقام أبي ذر وهما من قرى المدينة. أولهما على طريق حايل بجوار بلدة «الحناكية» في مكان يسمى «البركة» وهو يبعد عن المدينة مقدار ١٥٠ كم.
وثانيهما بجوار بلدة الواسطة على بعد ١٣٠ كم من المدينة في طريق مكة وفيها «البركة» أيضاً قريباً من بدر.

وكانت أنعام الصدقة تموج فيها حتى أن الرعاة من غلمان الصدقة كانوا يذبحون كل يوم جزوراً يقسمون لأبي ذر عظماً منه[1] وكان لأبي ذر صرمة من الغنم وقطيع من الإبل تعيش فيها، وكان لبيت المال ـ يوم قُتل عثمان شهيداً ـ في الربذة ألف من الإبل.

وكان الناس مترددين في وصفها فيراها بعضهم بادية كابن مسعود رضي الله عنه، ولا يراها أبو ذر كذلك رضي الله عنه ففي حوار ابن مسعود مع امرأة أبي ذر قال:

ما دعاه إلى الأعراب؟.

فقالت: أما إن أمير المؤمنين قد كره ذلك، ولكنه كان يقول «هي بعدُ وهي مدينة»[2].

إذن فهي في نظر أبي ذر رضي الله عنه مدينة لقربها منها. وهي «بُعْد» تليق بالعزلة التي أُمر بها أبو ذر إذا بلغ البناء سَلْعاً.

الاعتزال والإقامة

اعتزل أبو ذر المدينة وسار إلى الربذة ائتماراً بأمر حبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

«ولما نزل أبو ذر الربذة أقيمت الصلاة وعليها رجل يلي الصدقة فقال: تقدم يا أبا ذر.

فقال: لا، تقدم أنت فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: «اسمع وأطع وإن كان عليك عبد مجـدع» فأنت عبد ولست بأجدع.

(وكان من رقيق الصدقة وكان اسمه مجاشع)[3].

إذن فلقد وصل أبو ذر بعد طول تنقل بين مصر والشام والمدينة إلى مقامه الأخير من حياته الدنيا، إلى الربذة.

---

(١) العظم: يعني عظماً مكسواً لحماً كالذراع أو الكتف أو الفخذ.

(٢) تاريخ الأمم والملوك (للطبري) ج ٣، ص ٣٥٥.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٧.

«فخط فيها مسجداً. .
وأقطعه عثمان صرمة من الإبل. .
وأعطاه مملوكين. .
وأرسل له أن «تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً [ففعل]»[1].
وأجرى عليه كل يوم عظماً[2].

وتمضي أيام أبي ذر هادئة وادعة في الربذة فلقد «كان يحب الوحدة والخلوة»[3] وها هي الربذة تهيء له ما يريد وتلبي له شعوره بالراحة في بيئة كالبدوية، لكنه فيها لا يرتد أعرابياً لكثرة ما يتردد الناس عليها. . ولقربها من المدينة المنورة حيث كان يتردد عليها ماشياً حسب نصيحة أمير المؤمنين وأمره.

«فعن ابن عباس قال: كان أبو ذر يختلف إلى المدينة من الربذة مخافة الأعرابية. وكان يحب الوحدة والخلوة، فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار، فقال لعثمان:

لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات.

فقال كعب: من أدّى الفريضة فقد قضى ما عليه.
فرفع أبو ذر محجنه فضربه فشجه، فاستوهبه عثمان فوهبه له.
وقال: يا أبا ذر اتق الله واكفف يدك ولسانك.
وقد كان قال له: يا ابن اليهودية ما أنت وما ههنا، والله لتسمعن مني أو لا أدخل عليك»[4].

---

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٦.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٧.
(٣) رواية الطبري عن ابن عباس.
(٤) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٧.

قال: لا وربك، ما أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين حتى ألحق بالله وبرسوله [1].

وها هو ذا يأتيه الناس يستفتونه في الحج ويفتي ويعلّم. فعن أبي كثير عن أبي مرثد قال «أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى[2] وقد اجتمع الناس عليه يستفتونه، فأتاه رجل فوقف عليه فقال:

الم ينْهَكَ أمير المؤمنين عن الفتيا؟.

فرفع رأسه ثم قال:

أرقيب أنت علي! لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار بيده إلى قفاه ـ ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن تجهزوا علي لأنفذتها» [3].

وكأن السائل يستفهم تأثراً بدعايات السبئية الكاذبة بأن أمير المؤمنين نهى أبا ذر عن الفتيا فاستفهم منه وكان جواب أبي ذر متجهاً للسائل مباشرة «أرقيب أنت علي! لووضعتم». . . ولم يلتفت رضي الله عنه للإجابة عن السؤال بأن أمير المؤمنين منعه. فهو من الكذب الذي لا يرد عليه بل يعلّم السائل كيف يكون موقف المسلم من إظهار الحق.

الناس والربذة

يتردد الناس على الربذة ذاهبين آيبين إلى مكة في عمرة أو حج. فهي على طريق الحجاج من أحسن المنازل في طريق مكة. فينزلون على الماء ويتمتعون بما يرون. . فعن سلمة بن نباتة «خرجنا معتمرين فأتينا الربذة، فطلبنا أبا ذر فلم نجده، وقالوا: ذهب إلى الماء، فتنحينا ونزلنا قريباً من منزله، فمر ومعه عظم جزور يحمله معه غلام فسلم ثم مضى حتى أتى منزله، فلم يمكث إلا قليلاً حتى جاء فجلس إلينا وقال:

---

(1) سير أعلام النبلاء (للذهبي) ج ٢، ص ٤٦.

(2) أحد ثلاثة أماكن في منى يقوم الحجاج فيها برمي سبع حصيات.

(3) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥.

إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: اسمع وأطع وإن كان عليك عبد حبشي أجدع، فنزلت هذا الماء، وعليه رقيق من رقيق مال الله وعليهم حبشي وليس بأجدع وهو ما علمت ـ وأثنى عليه ـ ولهم في كل يوم جزور، ولي منها عظم آكله أنا وعيالي.

قلت: ما لك من المال؟.

قال: صرمة من الغنم، وقطيع من الإبل، في أحدهما غلامي، وفي الآخر أمتي. وغلامي حر إلى رأس السنة [1].

(قال) قلت: إن أصحابك قبلنا أكثر الناس مالاً!.

قال: أما إنهم ليس لهم في مال الله حق إلا ولي مثله [2].

«وعن شيخين من بني ثعلبة قالا: نزلنا الربذة، فمر بنا شيخ أشعث أبيض الرأس واللحية فقالوا: هذا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاستأذنّاه بأن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا، فبينا نحن كذلك إذ أتاه نفر من أهل العراق ـ حسبته قال من أهل الكوفة ـ فقالوا:

يا أبا ذر؛ فعل بك هذا الرجل وفعل فهل أنت ناصب لك راية فنكملك برجال ما شئت؟.

فقال: يا أهل الإسلام، لا تعرضوا عليّ داءكم، ولا تذلوا السلطان، فإن من أذل السلطان فلا توبة له. والله لو صلبني على أطول خشبة أو حبل لسمعت وصبرت ورأيت أن ذلك خيراً لي [3].

وعن أبي أسماء أنه دخل على أبي ذر بالربذة وعنده امرأة له سوداء، مشعثة ليس عليها أثر المجاسد والخلوق. فقال:

ألا تنظرون ما تأمرني به؟ تأمرني أن آتي العراق، فإذا أتيتها مالوا عليّ

---

(١) أي أنه وعد عبده بأنه سيصبح حراً في رأس السنة وربما كاتبه مكاتبة.

(٢) تاريخ الأمم والملوك (للطبري) ج ٣، ص ٣٣٧.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، ج ٢، ص ٥١.

بدنياهم، إن خليلي عهد إلي أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض ومزلة، وإنا إن نأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار أحرى أن ننجو[1].

«وعن عيسى بن عميلة: أخبرني من رأى أبا ذر يحلب غنيمة له، فيبدأ بجيرانه وأضيافه قبل نفسه»[2].

قال المعرور بن سويد: نزلنا الربذة فإذا برجل عليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا: لو عملتهما حلة لك واشتريت لغلامك غيره.

فقال: سأحدثكم، كان بيني وبين صاحب لي كلام، وكانت أمه أعجمية، فنلت منها فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ساببت فلاناً؟» قلت: نعم. قال: «ذكرت أمه؟» قلت: من سابّ الرجال ذكر أبوه وأمه. . فقال: «إنك أمرؤ فيك جاهلية».

وذكر الحديث إلى أن قال: «إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ولا يكلفه ما يغلبه»[3].

«وعن جسرة بنت دجاجة أنها انطلقت معتمرة فانتهت بالربذة فسمعت أبا ذر يقول:

قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الليالي في صلاة العشاء فصلى بالقوم، ثم تخلف أصحاب له يصلون فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله، فلما رأى القوم قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلى، فجئت خلفه فأومأ إلي بيمينه فقمت عن يمينه، ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله، فقمنا ثلاثتنا يصلي كل رجل منا بنفسه ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو. فقام بآية من القرآن يرددها حتى صلى الغداة.

فبعد أن أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة.

---

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٢.

فقال ابن مسعود بيده: لا أسأله عن شيء حتى يحدث إلي.

فقلت: بأبي أنت وأمي؛ قمت بآية من القرآن ومعك القرآن! لو فعل هذا بعضنا وجدنا عليه.

قال: دعوت لأمتي.

قال: فماذا أجبت ـ أو ماذا رد عليك ـ

قال: أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة.

قال: أفلا أبشر الناس.

قال: بلى.

فانطلقت معنقاً قريباً من قذفة بحجر.

فقال عمر: يا رسول الله إنك إن تبعث بهذا إلى الناس نكلوا عن العبادة فنادى: أن ارجع.

فرجع ـ وتلك الآية: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (سورة المائدة: ١١٩)[١].

عن عبد الله بن خراش قال: رأيت أبا ذر رضي الله عنه بالربذة، في مظلة سوداء، وتحته امرأة له سحماء، وهو جالس على قطعة جوالق فقيل له: إنك امرؤ ما يبقى لك ولد.

فقال: الحمد لله الذي يأخذهم في دار الفناء ويدخرهم في دار البقاء.

قالوا: يا أبا ذر؛ لو اتخذت امرأة غير هذه؟.

قال: لأن أتزوج امرأة تضعني أحب إلي من امرأة ترفعني.

فقالوا: لو اتخذت بساطاً ألين من هذا.

قال: اللهم غفراً، خذ مما خولت ما بدا لك»[٢].

عن إبراهيم التيمي عن أبيه أنه مر بأبي ذر بالربذة فسأله عن جمع الحج والعمرة فقال: «إنما كانت لنا خاصة دونكم»[٣].

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند (المطبعة الميمنية بمصر، ط ١٣١٣ هـ) ج ٥، ص ١٧٠.

(٢) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج ١، ص ١٦١.

(٣) صحيح مسلم ج ٢، ص ٨٩٨.

وصايا وعظات

وهكذا يقضي أبو ذر باقي أيام حياته، يقوم بمهمة التبليغ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمن ينتابه من الزوار، ويقدم العظات والوصايا من العامة والخاصة ـ في الربذة أو المدينة أو مكة.

فتراه يقول:

«في المال ثلاثة شركاء: القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم، وأنت الثالث، فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن. فإن الله عز وجل يقول ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ألا وإن هذا الجمل مما كنت أحب من مالي، فأحببت أن أقدمه لنفسي»[1].

وتراه يقول:

«هل ترى الناس ما أكثرهم! ما فيهم خير إلا تقي أو تائب»[2].

وتراه يقول:

«يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الملح من الطعام»[3].

وتراه يقول:

«من أراد الجنة فليصمد لها صمدها»[4].

وتراه يقول:

«ذو الدرهمين أشد حساباً من ذي الدرهم»[5].

«والله لو تعلمون ما أعلم ما انبسطتم إلى نسائكم، ولا تقاررتم على فرشكم، والله لوددت أن الله عز وجل خلقني يوم خلقني شجرة تعضد ويؤكل ثمرها»[6].

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ج ١، ص ١٦٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٤.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٤.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٤.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٤.

(٦) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٤.

الباب الثامن

شخصية الصحابي

كان رأساً في الزهد والصدق والعلم، قوّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم.. على حدة فيه.

شمس الدين الذهبي

شَخْصِيَّةُ الصَّحَابِيِّ

أنعم الله على البشرية بدين الإسلام، وأرسل رسوله بدين الحق للناس كافة.. أبيضهم وأسودهم، سيدهم وعبدهم، القوي فيهم والضعيف، والرجل فيهم والمرأة.

وجاء هذا الدين من قبل خالق البشر أجمعين عالماً بكينونة النفس البشرية طاقات وإمكانيات واستعدادات ـ جاء لكل فرد من أفراد البشرية هو في وسعه، وفتح أمام كل فرد ـ في أي مستوى من مستويات الحضارة كان أو مستويات الطبقية غرس ـ المجال الرحب الفسيح كي ينطلق مباشرة ـ ومن اللحظة التي ينطلق فيها بشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ إلى أعلى عليين.. والدنيا دار عمله، ولا حدود لفضل الله، وأمامه جنة عرضها السموات والأرض وملك الله لا ينفد.

فالإسلام يوحد عقيدة المؤمنين به، ويوحد غايتهم، ويوحد تطلعاتهم، ويوحد من سلوكهم ضمن تعليمات وقانون ومبدأ واحد.. فيتشابه المؤمنون جميعاً عقيدة وتصوراً ومنهاجاً، ثم تتميز الاستجابات السلوكية لكل فرد حسب تكوينه الخلقي أو الطبعي، وهكذا تظهر الصفات المميزة لكل مسلم عن الآخر. فما هي الصفات التي ميزت الصحابي المسلم ليصبح أبا ذر الغفاري رضي الله عنه.

الفصل الرابع والثلاثون

انعزالية البدوي

فلئلا تقع الخصومة بين أبي ذر رضي الله عنه والمجتمع المدني المتكاثر في المستقبل؛ لاحقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأوامر في الخروج وترك أي مجتمع يصل إلى درجة معينة في درجات المدنيّة، ولهذه الدرجة علامات.

البداوة طباع يتطبع بها أناس فلا يستطيعون الانفكاك عنها، وتظهر بعض هذه الطباع في أناس من البدو على عمق غور فيهم أو بساطته. من هذه الطباع ـ مما يتعلق بشخصية أبي ذر رضي الله عنه ـ ما يلي: الانعزالية وتحدي المدنية وعاداتها في المأكل والمشرب والمسكن والملبس. وتظهر خلة الانعزالية وحب الوحدة فيما يرويه لنا ابن عباس عن أبي ذر رضي الله عنهما من صفاته المميزة. وربما كان في رواية مقارنة بين أبي ذر وغيره من إخوانه ما يجعل هذه الصفة واضحة ميزة.

فمع أن غفار ـ قبل الإسلام ـ كانت مختصة بقطع الطريق. وكانت تغير على الحجاج. وكان «جندب بن جنادة» رجلاً من غفار، نراه ـ في شدة وضوح ميزة الانعزالية فيه ـ «رجلاً يصيب الطريق، وكان شجاعاً، ينفرد وحده بقطع الطريق، ويغير على الصرم، في عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه، كأنه السبع، يطرق الحي، ويأخذ ما يأخذ»[1].

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ٢، ص ٣٨.

أما أبو بصير

فبعد صلح الحديبية يهرب «أبو بصير» بدينه إلى المدينة المنورة، فيأتي مشركان من مكة يطلبانه تنفيذاً لأحكام صلح الحديبية، فيسلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفاءً بالعهد.. وفي الطريق يقتل «أبو بصير» أحد المشركين بسيف نفسه، فيهرب الثاني مذعوراً إلى المدينة.

ويعود «أبو بصير» ليقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك» فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

ويل أمه مِحَشّ[1] حرب لو كان معه رجال.

ثم خرج أبو بصير حتى نزل على ساحل البحر الأحمر بطريق قوافل قريش إلى الشام، وجاء أبو جندل بن سهل بن عمرو ومَنْ فر من قريش بدينه من الضعفاء، وتزعم أبو بصير هذه العصابة من ضعفاء المسلمين.

.. وضيقوا على قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمرّ بهم عير إلا اقتطعوها حتى كتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسأله بأرحامها إلا آواهم، فلا حاجة لهم بهم، فآواهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقدموا على المدينة»[2].

أما أبو ذر

إذا أراد أن يقطع على المشركين الطريق فقد كان يقطعها منفرداً، ففي رواية ابن سعد قال «قال أبو ذر:

يا رسول الله إني منصرف إلى أهلي وناظر متى يؤمر بالقتال فألحق بك فإني أرى قومك عليك جميعاً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أصبت.

فانصرف فكان يكون بأسفل ثنية غزال فكان يعترض لعيرات قريش

---

(١) محش حرب: موقد حرب ومهيجها. وفي الصحيح «ويل أمه مسعر حرب».

(٢) عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ١٩٥٥) ج ٣، ص ٢٢٤.

فيقتطعها فيقول: لا أرد إليكم منها شيئاً حتى تشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

فإن فعلوا رد ما أخذ منهم وإن أبوا لم يرد عليهم شيئاً.

فكان على ذلك حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومضى بدر وأحد ثم قدم فأقام بالمدينة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وشواهد انعزالية أبي ذر كثيرة.. فهو انعزالي فرد حتى في قطع الطريق.. ومن أجل هذا الطبع في أبي ذر رضي الله عنه عامله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معاملة تليق بهذه الانعزالية فلا تؤذيها ولا يسمح لها أن تؤذي الآخرين؛ فهو بدوي الطبع ولا يتلاءم مع مجتمع المدينة الكبير فلئلا تقع الخصومة بين أبي ذر رضي الله عنه والمجتمع المدني المتكاثر في المستقبل، لاحقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأوامره في الخروج وترك اي مجتمع يصل إلى درجة معينة في درجات المدنيّة، ولهذه الدرجة علامات، من مثل أن تضيق المدنية بأهلها ويبدأ الناس يختصمون على تحديد مساحات البيوت وحدودها الفاصلة، «فإذا رأيت رجلين يختصمان في موضع لبنة فاخرج منها»[2] وعندما رأى أبو ذر رضي الله عنه هذه العلامة في مصر خرج منها.

فطالما أن سكان البلد قليل والأرض واسعة لا تضيق بأهلها فلا خوف أن يقع صدام بين طبيعة أبي ذر ومن حوله من الناس. أما إن أصبح الناس على جدل وخصام على موضع لبنة بين حدود البيوت بين الجيران فقد وصلت البلدة إلى درجة مدنية لا يجوز أن يبقى فيها أبو ذر «فاخرج منها» لئلا تقع الخصومة بين الانعزالية وبين المجتمع المدني الحديث.

وعندما عاد أبو ذر للمدينة المنورة رأى العلامة الثانية إذ «رأى المجالس في أصل سَلْع..» فاستأذن الخليفة في الخروج «فتأذن لي بالخروج فإن المدينة ليست لي بدار» ويعجب الخليفة لهذا الطلب كيف يستبدل أبو ذر

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (مكتبة صادر، بيروت) ج ٤، ص ٢٢٤.

(٢) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٢٢.

بالمدينة بلداً من بلاد الدنيا «أوَتستبدل بها إلا شراً منها؟» ويزول العجب عندما يبلغه أبو ذر بأن الأمر أمر رسول الله «أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أخرج منها إذا بلغ البناء سَلْعاً» ويأمر الخليفة ويأذن «فانفذ لما أمرك به» فخرج حتى أتى الربذة، فخط بها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل، وأعطاه مملوكين وأرسل له: «أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً» ففعل[1].

وربما كان وصف الانعزالية غريباً منكراً عند أهل المدن إن كانوا لم يروا مثل هذه النماذج البدوية الطبع.

ولكن الذي عاش في أوساط البدو؛ رأى أمثال هذه النماذج تعيش لليوم.

أرأيت إلى رجل يأنف من البيوت المبنية من الحجر ويفضل عليها بيتاً من لبن أو بيتاً من شعر!.

أرأيت إلى رجل يأنف من قضاء الحاجة في كنيف تلمع جدرانه وأرضه، ويفضل قضاءها في فلاة من الأرض وقد تغطى بعباءته تعج فيها الروائح!.

أسمعت إلى «ميسون» البدْوية زوجة أكبر ملوك الأرض في عصره معاوية بن أبي سفيان وهي راغبة عن كل مظاهر المدنية في دمشق وتتوق إلى كل قسوة البادية فتقول:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إليّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إليّ من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطرّاق دوني ... أحب إليّ من قط أليف

إن الذي يلد أو يعيش في مَدَنِيَّة مدينة ويتطبع بطباع أهل المدنية يستنكر

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر، ط ١٩٣٩) ج ٣، ص ٣٣٦.

الفصل الخامس والثلاثون

تحدي المدنيّة

إذن فأبو ذر لا يقبل بناء بيت من حجر ويفضل عليه سكنى مظلة من شعر.

والخلة الثانية من خلال البدوية هي التحدي لما هو مدنيّ من عادات، سواء في المأكل أو الملبس أو المسكن.

«كان أبو ذر وأبو الدرداء في مظلتين من شعر بدمشق»[1] هذا هو سكن البدوي حتى إنه لا يطيق غيره ولو كان في دمشق.. لكن أبا الدرداء يبدأ ببناء مسكن له يقيه برد دمشق القارس فيمر عليه أبو ذر ويعجب كيف فعل أبو الدرداء هذا فيسأله: «لقد حملت الحجر على عواتق الرجال؟» فأجاب الدرداء «إنما هو بيت أبنيه» فقال له مثل ذلك[2].

إذن فأبو ذر لا يقبل بناء بيت من حجر ويفضل عليه سكنى مظلة من شعر. ولا نريد أن نظلم نية أبي ذر ولعل الزهد هو الدافع بدليل قوله له: «ما هذا.. تعمر داراً أذن الله بخرابها!» لكننا لا نستطيع أن نظلم نية أبي الدرداء الزاهد أيضاً فلم يكن رضي الله عنه من المتفاخرين أو الذين يحبون مظاهر الدنيا وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «وأبو الدرداء أعبد أمتي وأتقاها»[3] لكنها دمشق وبرد دمشق فبناء البيت في مثل هذه البلاد

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٥٣.

(٢) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ١٦٣.

(٣) زيادة الديلمي في مسند الفردوس من حديث شداد بن أوس من كتاب جلال السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (دار الكتب الحديثة، ١٣ شارع الجمهورية بعابدين، مصر، ط ١٩٦٦) ج ٢، ص ٢٢٥.

إنما هو نوع من الضرورة التي لم يقبل أبو ذر إباحتها لنفسه ولا لأبي الدرداء رضي الله عنهما.

وأما الملبس فحسبك أن ما بقي لنا من وصفه رضي الله عنه أنه كان خلقاً من أخلاق العرب.

الفصل السادس والثلاثون

صدق اللهجة

ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر.

حديث شريف

يكفينا من هذه الصفة المميزة أن الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ترك للتاريخ هذا الوصف: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر»[1].

ولكن ما الذي تركته لنا روايات الكتب عن صدق اللهجة؟.

إن القارىء لهذه اللقاءات بين أبي ذر وإخوانه من الصحابة وباقي عامة المسلمين يلحظ معنى قد يكون هو المقصود من «صدق اللهجة» وهو أن أبا ذر رضي الله تعالى عنه لم يكن يتأنق في كلمة يلقيها إنما كان لسانه يفيض عما في قلبه بصدق لهجة وسلامة طوية، وربما كان في الكلمة التي يلقيها إساءة للسامع، لكنه أمر لا يفكر به أبو ذر، إنما هي لهجة صادقة تفيض من قلبه على لسانه.

فأول بداية تظهر له يوم إسلامه فلا يستطيع أن يغلق قلبه على كلمة «لا إله إلا الله» حتى ولو تخوف عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: «إني أخاف عليك أن تقتل» قال أبو ذر: لا بد منه وإن قتلت.

ثم جاء رضي الله عنه وقريش حلقاً يتحدثون في المسجد فوقف عليهم

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (مكتبة صادر، بيروت) ج ٤، ص ٢٢٨.

وفاض ما في قلبه على لسانه فصاح فيهم مجلجلاً بصوته «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله».

ولا بأس بما يصيب صادق اللهجة بعد أن ارتاح قلبه في إظهار الحق.

ويمضي صادق اللهجة ليسلم أخوه على يديه بعد كلمات قليلة، وكذلك أمه ومن ثم نصف القبيلة ويستعد نصفها الآخر لذلك.

أما عندما يصل صادق اللهجة للمجتمع الإسلامي في المدينة ويختلف مع رجل مسلم أسود اللون ينطلق لسانه معبراً عما في قلبه من بقايا جاهلية فلا يستطيع ضبط لسانه وإلجامه بلجام الإسلام فيصيح به معيّراً «يا ابن السوداء» ولا يرى بهذا القول بأساً طالما أنه صورة لسانية عما يكتنفه قلبه من صورة الرجل. فتراه يدافع عن نفسه بعد استنكار رسول الله لهذا الخلق الجاهلي «أعيرت أخاك بأمه؟» فيصرّ - حتى اللحظة - على موقفه «من سب الرجال سبوا أباه وأمّه» ويهزه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معيداً نفس التأنيب الاستنكاري: «يا أبا ذر؛ أعيرت أخاك بأمه! إنك امرؤ فيك جاهلية»[1].

ويضطر أبو ذر أن يفكر - فهو متهم بالجاهلية من أجل كلمة صادقة في إظهار ما يبطن القلب من وصف، لكن صدق الوصف يجب أن يلجم منذ الآن بقوانين الإسلام وآدابه حتى ولو كان لون الوجه أسود لكن «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح».

ويستغفر أبو ذر ربه ويعتذر من نبيه ويطلب الصفح من أخيه، ويراقب نفسه.. فلا بأس ببيان اللسان عما يكمن في القلب وبفيضان اللسان به، إلا أن اللسان يجب أن يقيد بقيد الإسلام «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»[2].

ويأخذ درساً جديداً في صدق اللهجة بعد مبايعة وتوثيق وإشهاد فيقول

---

(١) صحيح مسلم ج ٣، ص ١٢٨٣.

(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، عن كتاب يحيى النووي، رياض الصالحين (دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٩٧٣) ص ٨٣٠.

أبو ذر: «بايعني رسول الله خمساً وأوثقني سبعاً وأشهد علي تسعاً: ألا أخاف في الله لومة لائم»[1].

فهو درس جديد في صدق اللهجة يلقيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الناس ويبايعهم عليه.. ولكنها اللهجة المضبوطة بضوابط الإسلام عقيدة وتصوراً وسلوكاً.

وتتعدد مظاهر صدق اللهجة بهذا المعنى بعد هذا فتراه يلقي ما يعلم من مبادىء إسلامية وعلوم إسلامية وتصورات إسلامية لا يخشى في الله لومة لائم ولا يتأنق في كلام مع أخ صحابي أو مع عامة الناس كبير أو صغير.

وترى استجابات السامعين مختلفة فبعضهم يقبل ويشكر أبا ذر على تذكيره إياه، وبعضهم يتحاشى لقاءه وسماع حديثه.

فها هو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وقد ولي أمر البصرة أميراً لعمر رضي الله عنه، وأبو ذر له رأي في أية إمرة وأي أمير. فلما «قدم أبو موسى لقي أبا ذر، فجعل أبو موسى يكرمه ـ وكان أبو موسى قصيراً خفيف اللحم وكان أبو ذر رجلاً أسود كث الشعر ـ فيقول أبو ذر: إليك عني.

ويقول أبو موسى: مرحباً بأخي.

فيقول: لست بأخيك! إنما كنت أخاك قبل أن تلي!»[2].

هكذا كان يكلم الناس.. وهكذا يجيب من يسأله مباشرة وليرضى من يرضى وليغضب من يغضب ولينفر من ينفر وليفر من يفر.

كما لا بأس عنده أن يحدد أمام الناس مجلسه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة عند عودته لهم إلى أن يزهدوا في الدنيا كما يزهد.

فيقول: إني لأقربكم مجلساً من رسول الله يوم القيامة، إني سمعته يقول: «إن أقربكم مني مجلساً من خرج من الدنيا كهيئته بما تركته عليه». وإنه والله ما منكم إلا من تشبث منها بشيء[3].

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ٢، ص ٤٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٣.

(٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٥.

عن الأحنف بن قيس قال: قدمت المدينة وأنا أريد العطاء من عثمان بن عفان فجلست إلى حلقة من حلق قريش، فجاء رجل عليه أسمال له قد لف ثوباً على رأسه، جاء حتى كان قريباً منهم.

قال: ليبشر الكنازون بكيٍّ من قبل ظهورهم يخرج من قبل بطونهم، وبكيٍّ من قبل أقفائهم يخرج من جباههم.

فإذا أنا برجل يفر الناس منه حين يرونه، ثم تنحى إلى سارية فصلى خلفها ركعتين فقلت: من هذا؟.

قيل: أبو ذر.

فقمت إليه فاتبعته حتى جلس إلى سارية.

فقلت له: ما شيء سمعتك تنادي به؟.

قال: ما قلت لهم شيئاً إلا قد سمعته من نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم.

(قال) فقلت: من أنت؟.

قال: أنا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(قال) قلت: ما يفر الناس؟.

قال: إني أنهاهم عن الكنوز بالذي كان ينهاهم عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إن خليلي أبا القاسم صلى الله عليه وآله وسلم دعاني فقال: يا أبا ذر؛ فأجبته.

فقال: هل ترى أحداً؟.

فنظرت ما علا من الشمس وأنا أظن أنه يبعثني في حاجة، فقلت: أراه.

قال: ما يسرني أن لي مثله ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير»[١].

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند (المطبعة الميمنية بمصر) ج ٥، ص ١٦٢.

الفصل السابع والثلاثون

الحِدَّة

ولكنه رضي الله عنه كان يحاول أن يتسامى بهذه الحدة فلا يسمح لها بالظهور إلا إذا كانت في سبيل الله أو ما يعتقده أنه حق، فينجح مرة ويفشل أخرى.

يذكر الذهبي أن أبا ذر «كان رأساً في الزهد والصدق والعلم. قوّالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم.. على حدة فيه»[1].

والحدة طبع خلقي كان منغمساً فيه لا يكاد ينفك عنه، لكنه رضي الله عنه كان يحاول أن يتسامى بهذه الحدة فلا يسمح لها بالظهور إلا إذا كانت في سبيل الله أو ما يعتقده أنه حق فينجح مرة ويفشل أخرى.

فعندما يطلب أبو ذر في أحد لقاءاته مع عثمان: «لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدي الزكاة أن يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات» ويتدخل كعب الأحبار دون إذن قائلاً: «من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه». فلا يتمالك أبو ذر نفسه، فتنقذف حمم حدته على لسانه ويده فيصيح فيه: «يا ابن اليهودية ما أنت وما ههنا»، وينطلق محجنه على رأس كعب الأحبار فيشجه بحضرة أمير المؤمنين.

أما المثال على نجاح أبي ذر في ترويض طبع الحدة فيكتم غيظه ويضبط انفعالاته ويخيب أمل الأملين في إثارة حدته. فـ «عن مطرف قال: قعدت إلى نفر من قريش فجاء رجل فجعل يصلي يركع ويسجد ثم يقوم ثم يركع ويسجد لا يقعد.

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٣٢.

فقلت: والله ما أرى هذا يدري وينصرف على شفع أو وتر.

فقالوا: ألا تقوم إليه فتقول له.

قال: فقمت إليه فقلت: يا عبد الله؛ ما أراك تدري تنصرف على شفع أو وتر.

قال: ولكن الله يدري. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من سجد لله سجدة كتب الله له بها حسنة وحط بها عنه خطيئة ورفع له بها درجة».

فقلت: من أنت؟.

قال: أبو ذر.

فرجعت إلى أصحابي فقلت: جزاكم الله من جلساء شر أمرتموني أن أعلم رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

وكان أبو ذر «يسقي على حوض له فجاء قوم فقالوا: أيكم يورد على أبي ذر ويحتسب شعرات من رأسه؟.

فقال رجل: أنا.

فجاء الرجل فأورد عليه الحوض فدقه.

وكان أبو ذر قائماً فجلس ثم اضطجع.

فقيل له: يا أبا ذر؛ لم جلست ثم اضطجعت؟.

قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»[2].

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند (المطبعة الميمنية بمصر، ط ١٣١٣ هـ) ج ٥، ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٥٣.

الفصل الثامن والثلاثون

الضعف

يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تَأمَّرَنَّ على اثنين ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم.

حديث شريف

بينما ترى وصف أبي ذر «كان شجاعاً ينفرد وحده بقطع الطريق ويغير على الصرم في عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه، كأنه السبع، يطرق الحي. . .»[1] نرى وصفاً آخر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول له: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تامرن على اثنين ولا تولين مال يتيم»[2]. . . ولا تقبضن أمانة. . . ولا تقض بين اثنين.

فهو على هذا كله شجاع صادق اللهجة ضعيف. . والضعف الموصوف هنا لا يتعلق بالأداء الجسماني. إنما يتعلق بتتمة الحديث من حيث نهيه عن الإمرة، وتولي مال اليتيم وقبض الأمانة والقضاء. فلا شأن لأبي ذر بهذه الأمور بل هو ضعيف لا يليق بها ولا تليق به، وكما لم يكن يعيب ابن أم مكتوم أنه كان أعمى وقد وصف بالقرآن بهذا ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾ «سورة عبس: ٢» فهو وصف له على الحقيقة لا ينقص من فضله شيء، كذلك لم يكن وصف أبي ذر بالضعف وعدم اللياقة للإمرة وتولي مال اليتيم وقبض الأمانة والقضاء.

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٣٨.

(٢) صحيح مسلم ج ٣، ص ١٤٥٨.

وقد يتساءل بعض الناس مع كل هذا لماذا؟ كما قد يفهم بعض الناس أن النهي عام فطالما ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى أبا ذر عن الإمرة فيجب أن يصدع جميع الصحابة بهذا. وليس الأمر كذلك.

لقد بيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبب النهي ومبرره قبل النهي فقال له: «إني أراك ضعيفاً». ولم ينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الإمرة واستلام الحكم الناس جميعاً.. كيف يفعل وهو أمير الصحابة وأمير جميع المسلمين؟ وهو الذي يأمر أمته «إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم».

لقد كان سبب النهي هو ضعف أبي ذر والإمارة تحتاج لقوي يستطيع أن يقف في وجه العرب كلها إذا ارتدت ويصمد أمام آراء الصحابة وأشدائهم فيقول لعمر إذ شعر بتهاونه أمام حرب المرتدين «أجبَّار في الجاهلية خوّار في الإسلام يا عمر تالله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقتلتهم عليه» ولذلك لم ينه الصديق عن الإمرة، فكان الصديق خليفة رسول الله من بعده.

الإمارة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحتاج للقوي عمر يأطر الناس على الحق أطراً وترتعد الجبابر من هيبته ولن نطيل الحديث عن قوة عمر.

تحتاج الإمارة للقوي الثابت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له: «أن اثبت ولا تنزع قميصاً قمصكه الله» فيثبت للموت صبراً ولا يسمح لنفسه بأن يريق دماً من دماء الثوار أصحاب الفتنة، مع أن الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبناءهم يعرضون عليه مرات ومرات أن يأمرهم ليكونوا أنصار الله مرتين فينادي فيهم آمراً «من يرى أن عليه الطاعة لأمير المؤمنين أن يلقي سلاحه» وذلك ائتماراً منه بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وثباتاً على العهد الذي عهد به إليه.

تحتاج الإمارة لأبي الحسن الذي يقوى على الصبر في حرب الطوائف

الباغية من المسلمين ويصبر على تطبيق أحكام الله فيها فلا يُذَفَّفُ على جريح ولا يتبع مهزوماً ولا يغنم لهم سلباً ولا يسترق لهم أسيراً حتى ولو كانوا من الخوارج الذين كانوا يُكفِّرونه علناً ويستبيحون دمه، ودماء أصحابه.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير من يعرف للرجال أقدارهم ويضع المناسب منهم في مكانه المناسب، فخص أبا ذر بما خص لضعف فيه، فلا يليق به أن يكون أميراً لقوم وهو يتصف بالحدة لئلا ينفض الناس من حوله والإمرة تحتاج إلى القوي الأمين، فلذلك لم ينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأقوياء الأمناء أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً عن تسلم الإمرة، إنما شجعهم على أخذها بحقها في نبوءات ووصايا كثيرة. أما أبو ذر فلقد نهاه. كما نهى كثيراً عن تسلمها «إنها أمانة وإنها خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى حق الله فيها» وهذا النهي الذي يكاد أن يكون عاماً لولا الاستثناء هو ما يناسب وظيفة الإمارة في مجتمع المسلمين فالرعية كثير والأمير واحد.. فنسبة الواحد إلى الكثير تناسب مثل هذا الأمر والنهي. والإمرة تحتاج إلى ملكات، وإمكانيات، من ثاقب الرأي، وحسن سياسة الناس، والحكمة والحلم، والصبر على كثير من الأذى، وكبت العواطف، والحزم في موضعه واللين في موضعه، واتساع العلم والصدر ليشمل اتجاهات الرعية ضمن السماحة في اختلاف الرأي..

ويظهر مثل هذا من عبارة ذي النورين لأبي ذر رضي الله عنهما يبين له سياسته الاقتصادية رداً على وصيته الحازمة.. «ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً» فقال: «يا أبا ذر؛ علي أن أقضي ما علي، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد»[1]. فإن يقتنع بهذه السياسة الحكيمة التي تدل على فراسة المسلمين الذين اختاروا عثمان لهذا الأمر العظيم (نقول) إن يقتنع العاقل بمثل هذه السياسة الحكيمة فإنه أمر

---

(1) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر ط ١٩٣٩) ج ٣، ص ٣٣٦.

صعب أن يطبق على أحد مثل هذه السياسة الحكيمة فضلاً عن أن يقننها ويقنن مثلها في باقي مجالات الإمرة وفروعها.

إذن فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أميراً على الجميع وأمَّر في كل سرية أميراً، وأمَّر على المدينة عند كل غزوة أميراً وحدد للناس حدود الأمير، واختصاصاته ووجه الكثير من أصحابه إلى الإمرة، ودافع عن إمرة من يستحق الإمارة إذا انتقده الناس وهو الذي أمَّر عبد الله بن جبير، وزيد بن حارثة، ومن ثم ابنه أسامة، وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، والركب طويل وتعداده لا يكاد ينتهي. ورضي بإمرة خالد بن الوليد على غير عهد ثم سماه سيف الله.. لكنه نهى أبا ذر عن الإمرة وعمم النهي ليشمل قطاعاً كبيراً من المسلمين الذين لا يستطيعون أن يأخذوها بحقها ويؤدوا حق الله فيها!.

ومن كل هذا يظهر وصف «الضعف» على أبي ذر واضحاً في معناه، وتعلقاته فمع فضله رضي الله عنه ومع مكانته في الإسلام وعند المسلمين إلا أنه لا يليق بالإمرة ولا يتولى مال اليتيم ولا يقبض الأمانة ولا يتولى القضاء.

وهذا يؤدي بالتالي إلى أنه لن يتدخل في تقنين مثل هذه الأمور لقصور إمكانياته فيها، ويؤدي إلى إذعانه رضي الله عنه للأمراء الذي شهدت لهم الأمة بأحقيتهم للإمرة، فهم أقوياء عليها ويؤدون حق الله فيها، وذلك ائتماراً منه رضي الله عنه بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليه بأن يسمع ويطيع ولو لعبد مجدع. فلقد كان مسلماً منقاداً ممتثلاً لأمر الله ورسوله طواعية بدون اعتراض.

ولكل هذا تراه رضي الله عنه يقول مخاطباً أمير المؤمنين عثمان «والله لو عزمت علي أن أحبو لحبوت ما استطعت»[1] ويقول: «لو أمرني عثمان أن أمشي على رأسي لمشيت»[2] بل يقول: «والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة

---

(١) سير أعلام النبلاء (للذهبي) ج ١، ص ٥٠.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٥١.

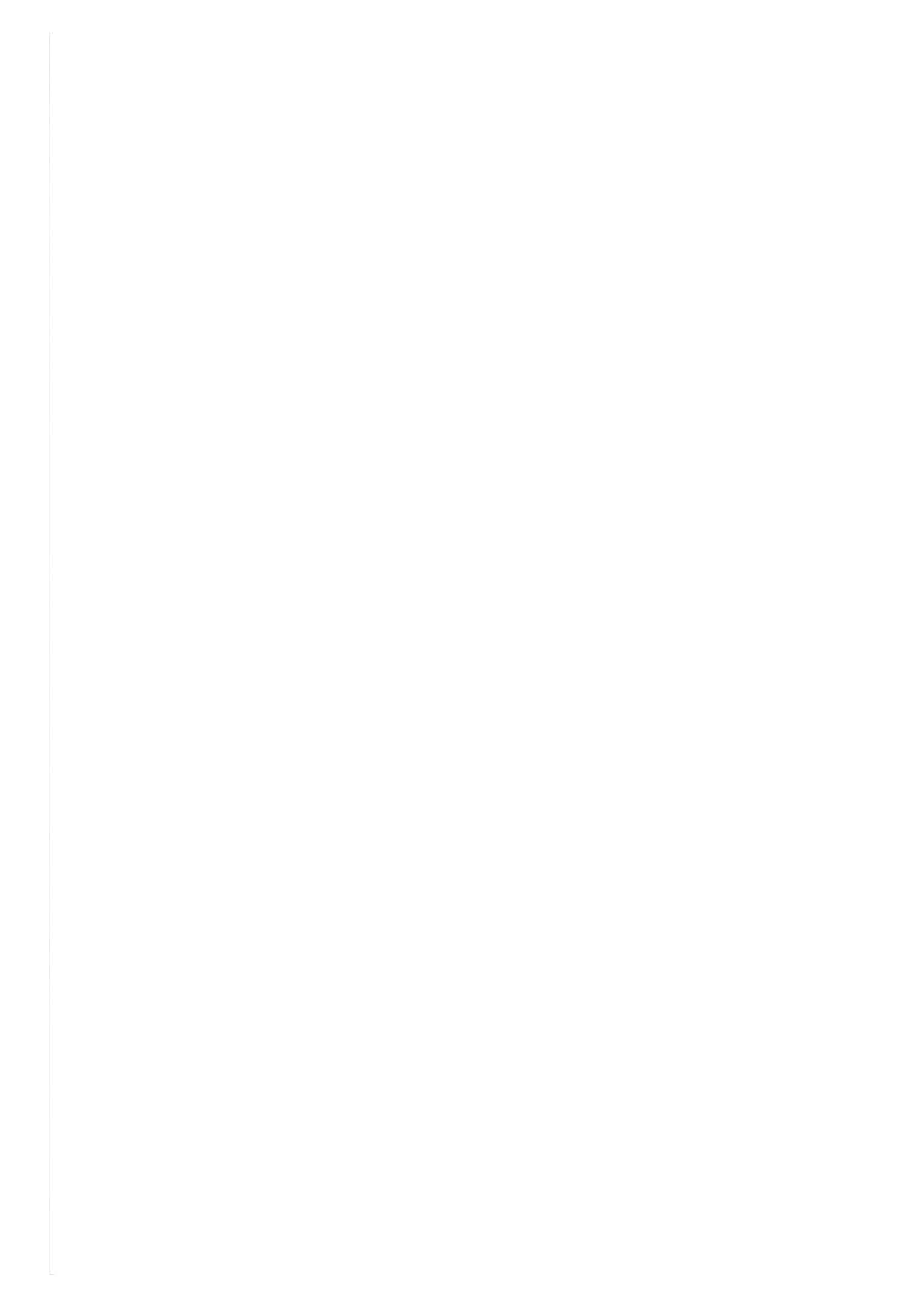
أو أطول جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذلك خير لي، ولو سيرني ما بين الأفق إلى الأفق (أو قال: بين المشرق والمغرب) لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي»[1].

ولا يكتفي رضي الله عنه بالقول إنما يرى في الربذة غلاماً من رقيق الصدقة أسود اسمه مجاشع يتقدم الناس للصلاة فعندما يرى أبا ذر يقول: تقدم يا أبا ذر؛ فيقول أبو ذر: لا. تقدم أنت. فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: «اسمع واطع وإن كان عليك عبد مجدع» فأنت عبد ولست بأجدع[2].

فائتماراً بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد أن أصبح أبو ذر الغفاري رضي الله عنه شيخاً كبيراً من مشايخ المسلمين يرى غلاماً رقيقاً صغير العمر اسمه مجاشع هو راعٍ من رعاة إبل الصدقة يتقدم القوم، فيأتمر بأمره ويعلن ولاءه للأمير المسلم.. ويذكرنا هذا بأبي ذر المهاجر إلى المدينة الذي يناطح بلالاً المؤذن ويعيره بأمه، ثم يصرّ بعد سماعه استنكار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أعيرت أخاك بأمه» فيقول: «من سب الرجال سبوا أباه وأمه» فيقال له: «يا أبا ذر أعيرت أخاك بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية»[3] ماذا فعل الإسلام بالغفاري ذي الأنفة والعصبية وأين يذهب منه التفاخر الجاهلي باللون وتعصبه للآباء!.

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (مكتبة صادر، بيروت) ج ٤، ص ٢٢٧.
(٢) تاريخ الأمم والملوك (للطبري) ج ٣، ص ٣٣٧.
(٣) صحيح مسلم ج ٣، ص ١٢٨٣.



البَابُ التَاسِع

أبُوذَرٍ وَالزهد

لا شك أن أبا ذر كان رأساً في الزهد، فما هو معنى الزهد؟ وهل كان لـه أنداد في الـزهد، وكـان له سابقين؟ أم كان فرداً لا مثيل له في عصره؟ ولا في أعصر تلته؟.

أبو ذر والزهد

تختلط المفاهيم ويضطرب التفكير عند غياب مفهوم المصطلح على جيل العصر، ويُسقط كل مستعمل له فهمه على الصحابي الذي كان رأساً في الزهد. فيصبح زهد الصحابي كما يريد المُسقط لا كما كان زهد أبي ذر على الحقيقة.

ويزداد انحراف المرء وبعده عن الجادة في تصور شخصية الصحابي وتصويره؛ بنسبة انحرافه عن فهم الإسلام وجهله بمصطلحاته.

لكل هذا أفردنا باباً للزهد كي لا تذهب الخواطر والأفكار مذاهب ضالة كما فعل المبطلون.

فلا شك أن أبا ذر كان رأساً في الزهد. فما هو معنى الزهد؟ وهل كان له أنداد في الزهد؟ وكان له سابقون؟ أم كان فرداً لا مثيل له في عصره ولا في أعصر تلته؟.

الفَصْلُ التَّاسِعُ وَالثَّلاثُون

في الزهد

الزهد، هو رغبة الزاهد عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة، أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى (وهي الدرجة العليا).

الزهد: هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه[1].

والزهد علم وحال وعمل[2] لأن أبواب الإيمان كلها ـ كما قال السلف ـ ترجع إلى عقد وقول عمل.

---

(١) يقول أبو حامد الغزالي في بيان حقيقة الزهد: «فكل من عدل عن شيء إلى غيره لرغبته عنه، وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره، فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه رغبةً وحباً، فإذن يستدعي حال الزهد مرغوباً فيه هو خير من المرغوب عنه. وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً إذ تارك الحجر والتراب وما أشبه لا يسمى زاهداً، لأنهما ليسا مظنة الرغبة... وشرط المرغوب فيه أن يكون عند الزاهد خيراً من المرغوب عنه.

فإذن كل من باع الدنيا للآخرة فهو زاهد في الدنيا، وكل من باع الآخرة للدنيا فهو زاهد في الآخرة. ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا.

وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً مما عند الزاهد فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه...

(٢) فالعلم: هو انعقاد قلب الزاهد على أن المرغوب عنه أقل قيمة من المرغوب فيه، فمن تحقق فيه معرفة أن ما عند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى فقد تعلم الزهد.

وأما الحال: فهو انصراف رغبته عن الدنيا وزينتها إلى الآخرة وما عند الله من ثواب.

وأما العمل: فهو ما يصدر عن حال الزهد، فهو ترك المزهود به بالكلية وهو الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها، فيخرج من القلب حبها، ويدخل حب الطاعات، ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب، ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات. ■

وليس للزهد حالة انزواء الدنيا عن العبد (وهذا الذي يسمى فقراً) بل هي حالة انزواء العبد عن الدنيا بإرادته(١).

فالزهد إذن هو رغبة الزاهد عن الدنيا عدولاً إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولاً إلى الله تعالى (وهي الدرجة العليا).

ويكون الزهد في المهمات من أمور الدنيا ـ وفي كمالياتها من باب

= وعلامة الزهد: الإخراج، كما أن علامة الرغبة الإمساك. فإن أنت أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون بعضها الآخر فأنت زاهد فيما أخرجت فقط.

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة، وعلى سبيل استمالة القلوب، وعلى سبيل الطمع، فذلك من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات.

وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة.

ويتصور أي نوع من الترك ممن لا يؤمن بالآخرة، ويكون الترك عند هذا مروءة أو فتوة أو سخاء أو حسن خلق، ولكنه لا يكون زهداً بحال، إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ الدنيا العاجلة، وهي ألذ وأهنأ على كثير من النفوس من المال.

(١) والزاهد من أتته الدنيا راغمة صفواً وعفواً وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفاً من أن يأنس بها، فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله، ويكون مشركاً في حب الله تعالى غيره.

أو تركها طمعاً في ثواب الله في الآخرة، فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة، وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعاً في الحور العين، وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة: وخوفاً من أن يقال له ﴿أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا﴾ فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفواً صفواً لعلمه بأن ما في الآخرة خير وأبقى، وأن ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلاً.

والزهد درجات:

الدرجة الأولى: وهي السفلى أن يزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ، وقلبه إليها مائل، ونفسه إليها متلهفة، ولكنه يجاهدها ويكفها. وهذا يسمى المتزهد.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالإضافة إلى طمع فيه بالآخرة كالذي يترك درهماً لأجل درهمين.

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده. إذ عرف أن الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى في ذلك معارضة ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً، والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة. فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة.

أولى ـ والمهمات سبع هي: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاث المسكن، والمنكح، والمال، والجاه. ولكل واحد من هذه المهمات السبع حد لا يتجاوزه زاهد وحد لا بد منه لكل إنسان:

١ ـ فلا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه.

٢ ـ وأعلى درجات الزهد في الملبس ما يدفع الحر والبرد، ويستر العورة. وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان، وأدناه أن يكون معه منديل وسراويل.

٣ ـ وأعلى درجات الزهد في المسكن أن لا يطلب لنفسه موضعاً خاصاً، فيقتنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصفة، وأوسطها أن يطلب لنفسه موضعاً خاصاً مثل كوخ مبني من سعف أو جص أو ما يشبهه، وأدناها أن يطلب حجرة مبنية بشراء أو إجارة. فإن كانت سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة كان زاهداً، وإلا فلا.

٤ ـ وأثاث البيت على قدر الحاجة أيضاً وما زاد أخرجه عن الزهد.

٥ ـ أما المنكح: فلا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته، وقد حبب إلى سيد الزاهدين صلى الله عليه وآله وسلم النساء، وكان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أربع نسوة وبضع عشرة سرية.

وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو على المشغول مشؤوم.

٦ ـ والمال: لا يخرج عن الزهد منه ما كان على قدر الحاجة وضرورياً للمعيشة.

٧ ـ والجاه: معناه ملك القلوب ليتوصل به للاستعانة للوصول إلى الأغراض والغايات الدنيوية، و يطلب من قبل الزاهد.

أما الزهد في الدنيا فلم يكن المقصود به كراهية الدنيا وعدم الالتفات إليها، وإنما كان المقصود به عدم حب الدنيا. وفرق كبير بين المنزلتين، فالكراهية تدعو إلى التباعد والدفع والنفور والفرار، وعدم الحب ليس فيه أكثر من عدم الاهتمام وعدم الالتفات والترقب وعدم التطلع.

فإذا أقبلت الدنيا عليهم لم يقبلوا عليها بقلوبهم، ولكنهم كانوا يصرفونها بعقولهم وحسن تدبيرهم، فإذا جاءها الحق يطلبها من أيديهم قالوا بها هكذا وهكذا، ينفقونها راضية أنفسهم، قريرة أعينهم، وإذا تطلعت إلى المكارم كانوا بها أجود من الريح المرسلة، لا يمسكون، ولا يسرفون، وإنما عدل وإحسان.

ذلك لأنهم رأوا القرآن الكريم يعرض لذكر الدنيا فيصفها بأنها لهو ولعب، وأن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية فيقول الله تعالى: ﴿ وَمَا هذه الحياةُ الدُّنيا إلا لهوٌ ولعبٌ وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَوْ كَانوا يَعْلَمُون﴾ «سورة العنكبوت: ٦٤». ويقول عز اسمه: ﴿ اعلموا أنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزينةٌ وتفاخُرٌ بَيْنَكُم وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ كمَثَلِ غيثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نباتُهُ ثُمَّ يهيجُ فتراهُ مُصْفرّاً ثُمَّ يكونُ حُطاماً وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ * وما الحياةُ الدُّنيا إلَّا متاعُ الغُرور * سابِقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ ربِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ والأرضِ أُعِدَّتْ للذينَ آمنوا باللهِ ورُسُلِهِ ذلكَ فَضْلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم﴾ «سورة الحديد: ٢٠». في آيات من هذا اللون وهذا التصوير كثيرة.

الفصل الأربعون

من زهد سيد الزهاد

ولما كان ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ صاحب الدرجة الرفيعة في الزهد، كان الصحابة الكرام يتسابقون إلى الزهد ويتنافسون أمام الله ولله فيه.

إن الخير كل الخير ما أمر به الله عز وجل واختاره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ديناً وخلقاً، فلما سئلت عائشة أم المؤمنين عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»[1] فكان المنفذ الأول لما يريد رب الناس من الناس. وأتقى الناس، وأبرّ الناس، وأكرم الناس، وأورع الناس، وأعبد الناس، وأشجع الناس.. على المعاني الإسلامية الاصطلاحية لكل وصف من هذه الأوصاف؛ ولما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ صاحب الدرجة الرفيعة في الزهد؛ كان الصحابة الكرام يتسابقون إلى الزهد ويتنافسون أمام الله ولله فيه.. ولذلك تجد «الزهد» هذا الحال الإسلامي النبيل نمطاً من أنماط الحال له شيوع يشبه التعميم على عدد كبير من الصحابة الكرام أسوة بنبيهم عليه الصلاة والسلام.

وسنستعرض فيما يلي نماذج من زهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وزهد العشرة الأوائل من الصحابة وزهد أبي ذر رضي الله عنهم أجمعين. ذلك ليتأتى لمسلم العصر الحاضر أن يرى مسيرة التيار الذي كان يعيش به أبو ذر رضي الله عنه ولئلا يخطىء الفهم والحكم على جيل القرآن العظيم ويظنه

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل.

كجيل «أبناء القرن العشرين» الذي يَعجب السامع إن سمع عن زاهد أو زهد.. على الحقيقة كزهد أبي ذر:

قالت عائشة: والله يابن أختي إن كنا ننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نار.

(قال عروة) قلت: يا خالة؛ فما كان يعيشكم؟.

قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جيران من الأنصار وكانت لهم منايح، وكانوا يرسلون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ألبانها فيسقينا[1].

وعن أبي بردة قال: دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن، وكساءً من التي يسمّونها المُلبّدة، (قال) فأقسمت بالله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قُبض في هذين الثوبين»[2].

وقال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نلت السقف.

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال:

دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع. وفي رواية البخاري: فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر.

وفي صحيح البخاري: ما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) متفق عليه، عن كتاب يحيى النووي، رياض الصالحين (دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٩٧٣) ص ٣٤٥.

(٢) صحيح مسلم ج ٦، ص ١٤٥.

عند موته درهماً ولا ديناراً، ولا عبداً ولا أمةً، ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة[1].

ونـام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حصير، فقام وقد أثّر في جنبه.

قلنا: يا رسول الله؛ لو اتخذنا لك وطاءً.

فقال: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[2].

وعن عائشة رضي الله عنه قالت: دخَلَتْ عليَّ امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عباءة مثنية، فرجعَتْ إلى منزلها، فبعثتْ إليَّ بفراش حشوه الصوف، فدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

ما هذا؟.

فقلت: فلانة. . الأنصارية، دخلتْ عليَّ فرأت فراشك فبعثت إليّ بهذا.

فقال: ردّيه.

فلم أرُدَّه، وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال لي ذلك ثلاث مرات.

فقال: يا عائشة؛ رديه، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة. فرددته[3].

والحديث عن «زهد» النبي صلى عليه وآله وسلم لا تستوعبه الرسائل ولا يَحْسَبَنَّ امروٌ أن زهده صلى الله عليه وآله وسلم كان عن غير غنىً لو أراده.

وإنما كان زهده صلى الله عليه وآله وسلم تقللاً من الدنيا، وإعراضاً عن زهرتها وقد سيقت إليه بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها وغنائمها.

---

(1) صحيح البخاري، ج ٤، ص ٥٣.

(2) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، يحيى النووي، رياض الصالحين ص ١٤٩.

(3) أحمد بن حنبل، كتاب الزهد (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١٩٧٨) ص ١٤.

وتقول عائشة رضي الله تعالى عنها:

لم يمتلىء جوف النبي صلى الله عليه وآله وسلم شبعاً قط، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها. ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به، وأمسح على بطنه مما به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء؛ لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك؟.

فيقول: يا عائشة؛ ما لي وللدنيا.. إخواني أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم، وما من شيء هو أحب إلي من اللحوق بإخواني وأخلائي.

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فما أقام بعد إلا شهراً حتى توفي صلى الله عليه وآله وسلم[1].

---

(١) صحيح مسلم ج ٤، ص ١٩٢٢.

الفَصل الحَادي وَالأربَعون

من زهد الراشدين الأربعة

وقد تأسى الصحابة رضوان الله عليهم. بنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم، وجَرَوْا على سنّته.

«أما زهد الصحابة رضوان الله عنهم في دنيا الناس فهو عند الخاصة من الأكابر زهد القادرين الواجدين الذين ظلفوا أنفسهم وهي بين أيديهم، وطوع إشارتهم وهو زهد العاملين الشاكرين الذين كانوا يعملون تعبداً وشكراً ورجاءً وخشية.

وهو عند إخوانهم زهد المجاهدين الصابرين، وزهد العاملين الراضين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وهكذا كانت سيرتهم الطاهرة وحياتهم الطيبة المباركة، رشحت عليها أنوار النبوة فأشرقت أرض قلوبهم بضياء العبودية، فكانوا سرّ اختصاص الإضافة في نداء الشهداء في قوله عز وجل: ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾ «العنكبوت: ٥٦».

ولم يكن زهد الصحابة تعطيلاً للمذاهب الإنسانية التي هي أجلّ نعم الله على عباده، ولا كان زهدهم استكانة للفقر، أو استسلاماً للعجز، أو قناعة بغير عمل، وهم رضوان الله عليهم صفوة الصفوة، أعرَف الخلق بربهم بعد النبيين، أقام الله بهم معالم اليقين، وشيّد بأعمالهم منائر الدين، ونشر بجهادهم الدعوة إلى الحق والعدل والرحمة»[١].

---

(١) محمد الصادق العرجون، التصوف في الإسلام (الطبعة الاولى) ص ٢٩.

وقد تأسى الصحابة رضوان الله عليهم بنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وجَرَوْا على سنته...

من زهد أبي بكر

عن زيد بن أرقم: استسقى أبو بكر فأتي بإناء فيه ماء وعسل فلما أدناه من فمه بكى، حتى أبكى من عنده، فسكت وما سكتوا، ثم عاد فبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته، ثم مسح وجهه فأفاق فقالوا:

ما هاجك على هذا البكاء يا أبا بكر؟.

قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجعل يدفع عنه شيئاً يقول «إليك عني، إليك عني» ولا أرى معه أحداً. فقلت: يا رسول الله؛ أراك تدفع عنك شيئاً ولم أر معك أحداً؟ فقال: «هذه الدنيا، تمثلت لي بما فيها فقلت: إليك عني. فتنحّت، وقالت: أما والله لئن أفلتَّ مني لا ينفلت منّي مَنْ بعدك» فخشيت أن تكون قد لحقتني، فذلك الذي أبكاني[1].

روى زيد بن أرقم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندي.

فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً.

(قال): فجئت بنصف مالي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أبقيت لأهلك؟.

قلت: مثله.

وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أبقيت لأهلك؟.

---

(١) أحمد المحب الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة (محمد أمين الخانجي وشركاه بالأستانة ومصر) ص ١٧٤. وكذلك أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط ١٣٨٧) ج ١، ص ٣١.

قال: أبقيت لهم الله ورسوله.

قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً[1].

«وفي حديث عبد الرحمن بن عوف قال: دخلت على أبي بكر رضي الله تعالى عنه في مرضه الذي توفي فيه، فسلمت عليه فقال:

رأيت الدنيا قد أقبلت ولما تقبل، وهي جائية، وستتخذون ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألمون النوم على الصوف الأذربي كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان.. والله لئن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا»[2].

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها:

مات أبو بكر رضي الله عنه فما ترك ديناراً ولا درهماً، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه في بيت المال[3].

ولن نطيل في قصص زهد الصدِّيق.. فما قل دل ولا نستعرض القصص للحصر.

فهذا هو الصديق أحد تلاميذ مدرسة الزهد.. يكلف نفسه بزهد صعب ولكنه لا يفرضه على غيره ولا يدعي بوجوب هذا المنهج، وهو إذا ذاك خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله الصلاة والسلام وأمير المؤمنين.

وكذا كان باقي الصحب تلاميذ مدرسة الزهد.

من زهد عمر

يقـول سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه:

قد علمت بأي شيء فضلنا عمر، كان أزهدنا في الدنيا.

وعن حذيفة قال: أقبلت فإذا الناس بين أيديهم القصاع، فدعاني عمر، فأتيته، فدعا بخبز غليظ وزيت (قال) قلت له:

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم، ج ١، ص ٣١.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤.

(٣) أحمد بن حنبل، كتاب الزهد (دار الكتب العلمية بيروت، لبنان) ص ١١٠.

أمنعتني أن آكل من الخبز واللحم ودعوتني على هذا!.

قال: أنا دعوتك على طعامي. فأما هذا فطعام المسلمين[١].

وعن سالم بن عبد الله قال: لما ولي عمر رضي الله عنه قعد على رزق أبي بكر رضي الله تعالى عنه الذي كانوا فرضوا له فكان بذلك، فاشتدت حاجته. فاجتمع نفر من المهاجرين منهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم. فقال الزبير: لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه.

فقال علي: وددنا أنه فعل ذلك. فانطلقوا بنا.

فقال عثمان: إنه عمر فهلموا نستبرىء ما عنده من وراء. نأتي حفصة رضي الله تعالى عنها فنسألها ونستكتمها.

فدخلوا عليها وأمروها أن تخبر الخبر عن نفر ولا تسمي له أحداً إلا أن يقبل وخرجوا من عندها.

فَلَقِيَتْ عمر في ذلك فعرفت الغضب في وجهه.

وقال: من هؤلاء؟.

قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك.

فقال: لو علمت من هم لسُؤت وجوههم، أنت بيني وبينهم[٢]، أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتك من الملبس؟.

قالت: ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما الجمع.

قال: فأي الطعام نال عندك أرفع؟.

قالت: خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة لنا، فجعلناها هشة دسمة فأكل منها وتطعم منها استطابة لها.

قال: فأي مبسط كان يبسطه عندك أوطأ؟.

---

(١) أحمد بن حنبل، كتاب الزهد (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان) ص ١٢١.

(٢) يعني أنت الحكم بيني وبينهم.

قالت: كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه.

قال: يا حفصة؛ فأبلغيهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجئة، وإني قدرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجئة. إنما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقاً؛ فمضى الأول وقد تزود زاداً فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقاً فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما.. وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما[1].

وعن أنس قال: تقرقر بطن عمر رضي الله تعالى عنه وكان يأكل الزيت عام الرمادة ـ وكان قد حرّم على نفسه السمن ـ (قال) فنقر عمر بطنه بإصبعه، وقال: تقرقر، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيى الناس[2].

وقال أنس: دخلت حائطاً فسمعت عمر يقول ـ وبيني وبينه جدار ـ : عمر أمير المؤمنين، بخْ بخْ، والله يا بُنيَّ الخطاب.. لتتَّقِيَنَّ الله أو ليُعذِّبنَّك[3].

وهذا أيضاً زهد عمر.. فهل لنا أن نسترسل بأحاديث عمر؟.

من زهد عثمان

غنيّ الصحابة في الجاهلية والإسلام.. الذي أنفق الملايين في سبيل الله، الذي قدم في تبوك عشرة آلاف دينار وجهّز الجيش، وجاء بسبعمائة أوقية من ذهب، وحمل على ألف[4] فيها خمسون فرساً، وكفى ثلث الجيش مؤونتهم حتى ما بقي لهم حاجة إلا كفاهم إياها.. هذا الصحابي الذي كان يدفع كل هذا كم كان له من المال آنذاك؟.

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر، ط ١٩٣٩) ج ٤، ص ١٦٤.

(٢) أحمد بن حنبل، كتاب الزهد (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان) ص ١١٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٥.

(٤) أي تحمل مؤونة ألف مقاتل على ألف بعير فيها خمسون فرساً.

أصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر، فلما اشتد بهم الأمر جاؤوا أبا بكر وقالوا: يا خليفة رسول الله؛ إن السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فما نصنع؟.

فقال لهم: انصرفوا واصبروا فإني أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرّج الله عنكم.

فلما كان آخر النهار، ورد الخبر بأن عيراً لعثمان بن عفان جاءت من الشام. فلما جاءت خرج الناس يتلقونها، فإذا هي ألف بعير موسقة براً وزيتاً وزبيباً. فأناخت بباب عثمان، فلما جعلها في داره جاء التجار.

فقال لهم: ما تريدون؟.

قالوا: إنك لتعلم ما نريد، بعنا من هذا الذي وصل إليك فإنك تعلم ضرورة الناس إليه.

قال: حباً وكرامة؛ كم تربحوني على شرائي؟.

قالوا: الدرهم درهمين.

قال: أعطيت زيادة على هذا.

قالوا: أربعة.

قال: أعطيت زيادة على هذا.

قالوا: خمسة.

قال: أعطيت أكثر من هذا.

قالوا: يا أبا عمرو ما بقي في المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليك أحد! فمن ذا الذي أعطاك؟.

قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة. أعندكم زيادة؟.

قالوا: لا.

قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين.

هذا الصحابي المسلم الغني وصل بعدها إلى الخلافة ليصبح أمير

المؤمنين فبعد أن كانت حياته الخاصة مستورة في بيته أضحت معروفة مشهورة للناس، وسيرته تذكر وتتداول فلنر كيف كان يعيش أمير المؤمنين.

عن شرحبيل بن مسلم أن عثمان كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت[1].

عن عبد الملك بن شداد بن الهاد قال: رأيت عثمان بن عفان يوم الجمعة على المنبر عليه إزار عدني غليظ ـ لا يساوي أربعة دراهم أو خمسة ـ وريطة كوفية ممشقة[2].

وعن الحسن قال: رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين[3].

سئل الحسن عن القائلين[4] في المسجد فقال:

رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد وهو يومئذٍ خليفة (قال) ويقوم وأثر الحصى بجنبه (قال) فيقال: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين[5].

عن ميمون بن مهران أخبرني الهمداني أنه رأى عثمان بن عفان وهو على بغلة وخلفه غلامه نائل، وهو خليفة[6].

كان عثمان يلي وضوء الليل بنفسه (قال) فقيل له:

لو أمرت بعض الخدم فكفوك.

فقال: لا. الليل لهم يستريحون فيه[7].

---

(١) حلية الأولياء ج ١، ص ٦١.
(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠.
(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠.
(٤) القائلون في المسجد: هم الذين ينامون وقت القيلولة فيه.
(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠.
(٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠.
(٧) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (مكتبة صادر، بيروت، ط ١٩٥٧ م) ج ٣، ص ٦٠.

من زهد علي

يقول محمد الصادق عرجون:

وأما ربيب النبوة، ورضيع الأنوار المحمدية، زوج سيدة نساء الدنيا، وأبو سيدي شباب أهل الجنة الإمام المعلم، مفرج كربات المسلمين بسيفه، وكاشف غمراتهم بعلمه أبو الحسن علي بن أبي طالب.. رضي الله عنه وأرضاه، فقد كان في الزهد نسيجاً وحده، لو أراد القلم أن يصوره في زهده لوجب أن ينقل سيرته كلها ممثلة في سائر أحواله.

حدَّث ـ رضي الله عنه ـ بعضَ أصحابه عنه وعن زوجته البتول فاطمة بنت الرسول فقال:

كانت أكرم أهله عليه، وكانت زوجتي: فَجَرَّت بالرَّحى حتى أثَّر الرحى بيدها، واستقَت بالقِرْبة حتى أثَّرت القربة بنحرها، وقمّت البيت حتى أغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دنست ثيابها، فأصابها من ذلك ضر.

فقدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبي فقلت لها:

انطلقي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسليه خادماً يقيك ضر ما أنت فيه فأتت أباها حين أمست.

فقال لها: ما لك يا بنية؟.

قالت: لا شيء؛ جئت لأسلم عليك.

واستحييت أن تسأل شيئاً. فلما رجعت قال لها علي:

ما صنعت؟.

قالت: لم أسأله شيئاً واستحييت منه.

ثم أمرها علي أن ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرجعت ولم تسأله شيئاً. فلما كانت الثالثة ذهب علي وذهبت معه فاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال لهما: ما أتى بكما؟.

فقال علي: يا رسول الله؛ شق علينا العمل فأردنا أن تعطينا خادماً نتقي به العمل.

قال لهما: هل أدلكما على خير من ذلك خير لكما من حمر النعم؟.

قال علي: يا رسول الله نعم.

قال: تكبيرات وتسبيحات وتحميدات مائة حين تريدان أن تناما. فتبيتان على ألف حسنة. ومثلها حين تصبحان فتقومان على ألف حسنة[1].

دخل ضرار بن ضمرة الكناني على معاوية، فقال له: صف لي علياً.

فقال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين؟.

قال: لا أعفيك.

قال: أما إذ لا بد؛ فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلّب كفّه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما جشب، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، يميل في محرابه قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه الآن وهو يقول: «يا ربنا، يا ربنا» - يتضرع إليه - ثم يقول للدنيا: «إليّ تغررت؟ إليّ تشوفت؟ هيهات هيهات، غرّي غيري، قد بتتك ثلاثاً، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آه آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.

فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها، وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء.

---

(١) محمد الصادق عرجون، التصوف في الإسلام، (الطبعة الأولى) ص ٢٩.

فقال: كذا كان أبو الحسن رحمه الله. كيف وجْدُك عليه يا ضرار؟.

قال: وجْد من ذُبح واحدها في حجرها، لا ترقأ دمعتها، ولا يسكن حزنها. ثم قام فخرج[1].

وإنما تحدثنا عن زهد أكرم رجال في الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم خلفاؤه الأربعة قصداً إلى بيان أن الزهد ليس هو كراهية الدنيا وعدم رعايتها رعايةً تجعلها في خدمة الإيمان وأهله، لتكون لهم العزّة في هذه الأرض؛ وإنما كما قلنا: عدم حب الدنيا حباً يشغف بها القلوب، فوجود الدنيا بحذافيرها في يد المؤمن دون أن يعلق بها قلبه فتشغله عن ربه هو في الحقيقة أرفع درجات الزهد، ويليه في مراتبه زهد الرضا لغير واجدي الدنيا، الصابرين الصادقين، الذين لا يغيرهم الفقر ولا يبطرهم الغنى.

هؤلاء الراشدون فتحت عليهم الدنيا وملكوا خزائن الأرض، فلم تملك منهم ذرة من أنفاسهم ولحظات حياتهم، فكان زهدهم زهد القناعة الواجدة، لا زهد الحرمان، ولا زهد التصبر، زهدهم لم يمنعهم أن يحملوا راية الإسلام خفاقة حتى تضعها جيوشهم في أقصى المعمورة من الأرض.

ولم يقصر غيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن شوطهم في الزهد.

---

(١) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج ١، ص ٨٥.

الفصل الثاني والأربعون

من زهد بقية العشرة

قال عمر: غيَّرتْنا الدنيا كلَّنا، غيرك يا أبا عبيدة.

من زهد طلحة

تقول سعدى بنت عوف زوجة طلحة: دخل علي ذات يوم وهو خائر النفس فقلت: مالي أراك كالح الوجه؟ (وقلت): ما شأنك؟ أرابك مني شيء فأعينك؟.

قال: لا، ولنعم حليلة المرء المسلم أنت.

قلت: فما شأنك؟.

قال: المال الذي عندي، قد كثر وأكربني.

قلت: وما عليك؟ اقسمه.

(قالت): فقسمه حتى ما بقي منه درهم واحد.

(قال راوي القصة): فسألت خازن طلحة: كم كان المال؟.

قال: أربعمائة ألف[1].

وعن سُعدى بنت عوف زوج طلحة قالت: لقد تصدق طلحة يوماً بمائة ألف درهم، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفي ثوبه[2].

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ٨٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٨٨. وجمعت بين طرفي ثوبه: يعني أنها خيّطته له لأنه كان ممزقاً وهو لا يملك سواه.

وعن الحسن قال: باع طلحة أرضاً له بسبعمائة ألف، فبات ذلك المال عنده ليلة، فبات أرقاً من مخافة ذلك المال حتى أصبح ففرقه(1).

من زهد الزبير

كـان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون إليه الخراج، فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه منه شيء.. ما يُدخل بيته من خراجهم شيئاً(2).

من زهد عبد الرحمن

قـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

يا ابن عوف إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً، فأقرض الله عز وجل يطلق لك قدميك.

قال ابن عوف: وما الذي أقرض الله؟.

قال: تتبرأ مما أمسيت فيه.

قال: من كله أجمع يا رسول الله؟.

قال: نعم.

فخرج ابن عوف وهو يهم بذلك، فأتاه جبريل فقال:

مُرْ ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، فإذا فعل ذلك كانت كفارة لما هو فيه(3).

وهكذا عاش رضي الله عنه بقية حياته؛ اجتهاد واقتصاد، غني زاهد يحمل الدنيا في يده ولا يضع منها شيئاً في قلبه فبعد ذلك بسنين..

بينما عائشة في بيتها إذ سمعت صوتاً رجَّت منه المدينة، فقالت: ما هذا؟.

قالوا: عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف من الشام (وكانت سبعمائة راحلة).

---

(1) المصدر السابق، ج ١، ص ٨٩.
(2) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٠.
(3) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٩.

فقالت عائشة: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً».

فبلغ عبد الرحمن فأتاها، فسألها عما بلغه فحدثته، قال:

إني أشهدك أنها بأحمالها وأقتابها وأحلاسها في سبيل الله عز وجل[1].

من زهد أبي عبيدة

عن ابن عمر أن عمر حين قدم إلى الشام قال لأبي عبيدة: اذهب بنا إلى منزلك.

قال: وما تصنع عندي؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك علي.

(قال) فدخل فلم يرَ شيئاً؛

قال: أين متاعك؟ لا أرى إلا لبداً وصفحة وشنّاً وأنت أمير. أعندك طعام؟.

فقام أبو عبيدة إلى جونة، فأخذ منها كسيرات، فبكى عمر، فقال أبو عبيدة: قلت لك إنك ستعصر عينيك عليَّ يا أمير المؤمنين، يكفيك ما يبلغك المقيل.

قال عمر: غيرتْنا الدنيا كلنا، غيرك يا أبا عبيدة[2].

هذا رأي عمر الزاهد في زهد أبي عبيدة فاتح الشام رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٨.

(٢) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ١٠.

الفصل الثالث والأربعون

زهد أبي ذر

- يا أبا ذر ما أرى في بيتك متاعاً!.
- إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا.
- إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا.
- إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

كان القصد - في الفصول السابقة - من عرض معنى الزهد، واستعادة صور نماذج الزاهدين إلقاء ضوء على الحياة العامة التي عاش فيها أبو ذر - رضي الله عنه - كي نستطيع تلمس البيئة المحيطة بالصحابي، فنحاكم تصرفاته وأعماله على ضوئها.. لا أن نحكم هذه التصرفات والأحوال إلى بيئة عصرنا في أذناب التاريخ ومؤخرة الركب في فترة الانحطاط والانحلال والتجرد من كل القيم الحميدة، في عصر كثرت فيه الأقوال وندرت - إن لم نقل انعدمت - الأحوال والأفعال.

أذلاء.. ونتباهى بعزة السلف. ضعفاء.. ونتفاخر بقوة الخصوم، ثم الأدهى والأمرّ أن نجم قرن من يشوه تاريخ السلف؛ فيحاكمون أبا ذر إلى مقاييس فاسدة غبية منحرفة.. فحوقلوا واسترجعوا ثم انظروا إلى جيل الخنافس والقردة والخنازير يتكلم عن أبي ذر وصحبه.. إما بمدح! - بمقاييس الخنافس - أو بذم - بموازين الجعلان والصراصير.

فأين موقع أبي ذر رضي الله عنه من الزهد الإسلامي.

صاع من شعير

قال أبو ذر: كان قوتي على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صاعاً، فلا أزيد عليه حتى ألقى الله عز وجل[١].

وقيل له: ألا تتخذ ضيعة كما اتخذ فلان وفلان؟.

فقال: وما أصنع بأن أكون أميراً، وإنما يكفيني كل يوم شربة ماء أو لبن، وفي الجمعة قفيز من قمح[٢].

من أخلاق العرب

أما الملبس فلقد كان أبو ذر فيما هو مشهور من وصفه رضي الله عنه: «خُلقاً من أخلاق العرب».

تعمر داراً أذن الله بخرابها

وفي الشام كان أبو ذر وأبو الدرداء في مظلتين من شعر بدمشق[٣]، وعندما بدا لأبي الدرداء الزاهد أن يبني بيتاً يقيه الحر والبرد اعترض أبو ذر قائلاً: ما هذا تعمر داراً أذن الله بخرابها[٤].

لنا بيت نوجه إليه صالح متاعنا

دخل رجل عليه ـ رضي الله عنه ـ فجعل يقلب بصره في بيته فقال: يا أبا ذر؛ ما أرى في بيتك متاعاً! ولا غير ذلك من الأثاث.

فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا.

فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا!.

فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه[٥].

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ١٦٢.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٢.

(٣) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٣٣.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٣.

(٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٣.

فأحببت أن أقدمه لنفسي

وقال مرة: في المال ثلاثة شركاء:

القدر لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت.

والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم.

وأنت الثالث فإن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تكونن.

إن الله عز وجل يقول ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن هذا الجمل مما كنت أحب من مالي فأحببت أن أقدمه لنفسي[1].

إن دون جسر جهنم طريقاً

وعن أبي أسماء أنه دخل على أبي ذر وهو بالربذة وعنده امرأة له سوداء شعثة ليس عليها أثر المجاسد ولا الخلوق، (قال)

فقال: ألا تنظرون إلى ما تأمرني به هذه السويداء؟.

تأمرني أن آتي العراق، فإذا أتيت العراق مالوا عليّ بدنياهم.. وإن خليلي صلى الله عليه وسلم عهد إليّ أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض ومزلة، وإنا نأتي وفي أحمالنا اقتدار خير من أن نأتيه ونحن مواقير[2].

وهكذا كان أبو ذر زاهداً علماً وحالاً ومقالاً وعملاً. يطبق مفهوم الزهد على نفسه ويدعو الناس إلى أن يكون حالهم كمقالهم أيضاً.. فإذا ما تكلم عبد الله بن عامر بن ربيعة في الزهد أمامه رأينا هذا المنظر.

تتكلم في الزهد؟

جاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته فجعل يتكلم في الزهد، فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرب به، فغضب ابن عامر فشكاه إلى عمر، فقال: أنت صنعت بنفسك، تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة[3].

---

(1) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٨.

(2) أحمد بن حنبل، المسند (المطبعة الميمنية بمصر، ط ١٣١٣ هـ) ج ٥، ص ١٥٩.

(3) إحياء علوم الدين (للغزالي) ج ٤، ص ٢٣٢.

الباب العاشر

أبو ذر والنظام الإسلامي

ولذلك نرى مواقف أبي ذر المسلم رضي الله عنه ثابتة صلبة على أمر الله، فتراه يسمع ويطيع ولو لعبد مجدع، وتراه يتنازل عن اجتهاده ليوافق اجتهاد أمير المؤمنين ويقرر أن الخلاف أشد سوءاً. ويعلن على ملأ من الناس أنه مطيع للخليفة ولو أمره أن يأتيه حبواً.

أبو ذر والنظام الإسلامي

تنبثق العقيدة والشريعة وكل ما تفرع عنهما من قيم وتصورات وموازين في التفكير الإسلامي والنظام الإسلامي من قاعدته الأساسية الأولى التي ينقلب بواسطة الإيمان بها الكافرُ مؤمناً، ويجعل الإعراض عنها من المسلم كافراً وهي كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ويقتضي الإيمان بهذه الكلمة بداهةً أن هذا القرآن كلامُ الله رب العالمين، وأن ما جاء فيه حق واجب الاتباع، وأن مقام المسلم أمام كلام الله ينبغي أن يكون مقام الامتثال والانقياد بدون اعتراض. وأن يبقى العبد المسلم ملتزماً بحدوده العبْدِيَةِ ـ أمام ربِّ العالمين لا يتجاوزها بحال ولا يتخطاها ـ لأن في التجاوز والتخطي انزلاق سريع إلى هاوية الكفر بالله، وهو أشد ما يُرفض عند المؤمن، فإن كل تفكيره وتصرفاته وتقلباته منصبة على البعد عن الكفر وتثبت الإيمان الذي أيقن به عقله، وانساقت معه جوارحه وعواطفه وانفعالاته.

من هذا المنطلق الأساسي والأول والذي لا ينبغي أن يغيب عن ذهنية المسلم لحظة من اللحظات ـ تنبع كل القيم والتصورات والموازين والأنظمة.. ولا يُجادل في هذا المنطلق إلا الذين كفروا.

فكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله هي الكلمة الأولى والأساسية وهي الكلمة الباقية الناظمة لكل تحرك أو سكون إسلامي الوصف. وليس لها مِنْ ثَمَّ ـ مع كونها أولى وأساسية ـ قَبْلية وبَعْدية في التصرف الإسلامي للفرد والجماعة، إنما هي عِنْديةٌ ترافق كل حركة وَسَكَنَةَ إن رغب المتحرك أن يكون مسلماً لله حقاً.

ولكون ذلك كذلك، فإن الخصيصة الأولى للنظام الإسلامي هي أنه رباني المنشأ. وهي خصيصة يتفرد فيها هذا النظام ويختلف عن كل الأنظمة الأرضية.

فالفكر البشري لم ينشىء هذا النظام، ولم يكن له أدنى تدخل في إنشائه، وليس له أن يتدخل في تعديله أو تطويره، ومع كل هذا فإن للفكر البشري في ميزان هذا النظام قيمة عظيمة من حيث كونه أداة تنفيذ هذا النظام واقعياً على مستوى الحياة الاجتماعية الأرضية. والفكر البشري قادر على إدراك خصائص هذا النظام الرباني، وعلى تنفيذ ما أمر به مطبقاً أثناء التنفيذ آيات الله المحكمات، ورائياً أمام ناظريه هدي محمـد رسـول الله الذي جعل الله من إقامته لهذا النظام على وجه الأرض في دولته الإسلامية الأولى أسوة لكل من أراد أن يصل إلى المجتمع الإسلامي والدولة الراشدة.

وعن هذه الخصيصة الأولى والأساسية «الربانية» تنبثق باقي خصائص النظام الإسلامي الرباني.

فهو ثابت في قواعده وأسسه ولا مجال للاجتهاد فيما ورد فيه النص، فمهما انحرفت البشرية، واهتزت قيمها، وبعدت ـ حتى عن إنسانيتها ـ ؛ يبقى النظام الإسلامي بثباته قادراً على إعادتها إلى إنسانيتها وإراءتها الصـراط المستقيم الأنور في أي مستوىً من مستويات المدنية وصَلَته، أو دركٍ من دركات الجاهلية انحطت إليـه، فالنفس الإنسـانية مخلوقـة من قبل رب العالمين، والمجتمعات البشرية مسوقة لنواميس الإله العظيم سبحانه فهو العليم الخبير بكل دقائق النفس والمجتمع، قد وضع لها هذا النظام البديع القادر على أن يُصلح البشر، أي نوع من البشر في كل زمان في نفس اللحظة التي يؤمن فيها البشر ـ فرداً كان أو أمة ـ بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله. وإلى خصيصة الثبات هذه تأرز الأمة الإسلامية في كل حين أرادت أن تقوّم موازين البشرية حينما تهتز القيم وتطيش الموازين.

والنظام الإسلامي رباني المنشأ، من خصائصه الشمول، فالله عز وجل

الذي خلق الخلق جميعهم، وأنشأ له هذا النظام إنشاءً، هو الذي علم ما يلزم لجميع هؤلاء الخلق - أفراداً وجماعات - فأهداهم هذا النظام الفريد البديع الذي يستوعب كل حاجات حياتهم ففيه كل الخير شاملاً جميع المكلفين فالله - وحده - من يستطيع أن يشمل الجميع بنظام واحد ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ «سورة الملك: ١٤».

وينبثق عن خصيصة الربانية أيضاً خصيصة التوازن فالله الحكيم العليم الخبير أعطى ضمن هذا النظام كل مخلوق حقه، مما يجعل المجتمع البشري المطبق لهذا النظام يسير بتوازن بديع، يضاف إليه توافق السير مع مسيرة المنظومة الكونية التي قسرها الله عز وجل على السير تبعاً للنظام الإسلامي الرباني نفسه.

ومع هذه النظرة العالمية بل الكونية لوحدة النظام الإسلامي، فهو ليس نظاماً فلسفياً أو خيالياً بل هو نظام واقعي يمكن تطبيقه، بل لقد أوجد الله له مثالاً حياً لأسلوب التطبيق وهو مثال الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعلها الله حجة على العالمين على أن هذا النظام واقعي ممكن التطبيق، وقد تعددت محاولات التطبيق في التاريخ ونجحت بنسبة نجاح الأمة في اعتناق هذه العقيدة والتضحية في سبيلها من ثم.

الفصل الرابع والأربعون

في النظام الإسلامي

﴿ فلا وَرَبِّكَ لا يُؤمنونَ حَتى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بينَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفُسِهم حَرَجاً مِمَّا قَضَيتَ ويسلموا تَسْليماً ﴾.

سورة النساء: ٦٥

إدارة الحكم وإدارة الاقتصاد مشكلتان أساسيتان من المشاكل التي يتميز أي نظام من أنظمة الدول بحل خاص به يحدد النظام ويعطيه وصفه واسمه.

وقد تميز النظام الإسلامي بحل هاتين المشكلتين حلاً تفرد بكونه رباني المنشأ.

فلقد اعتمد الحل على المبدأ الأساسي الأول الذي دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاماً على تأسيسه وبنائه وتثبيته ورعايته قبل هجرته من مكة وإعلان دولة الإسلام في المدينة وهو «لا إله إلا الله»، ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ﴾ «سورة يوسف: ٤٠» ولم يكن لمسلم أن يقدم بين يدي الله ورسوله ولا أن يخالف عن أمر الله إذا قضى أمراً، أو رسوله إذا نطق بأمر أو نهي لأنه ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ «سورة النجم: ٤».

ولقد ارتاحت الأمة الإسلامية ـ أثناء كل فترة طبقت فيها تعاليم ربها، وأسلمت له ـ من الانشغال بقضايا شغلت أفكار غير الإسلاميين من أصحاب القوانين الأرضية المتخبطة التي لا تستقر على أساس ولا ترضي إلا السادة في الأنظمة التي يستعبد فيها البشر البشر.

ففي الدولة الإسلامية حدد الله تعالى ـ رب الناس جميعاً حاكمين ومحكومين ـ مبادىء سياسة الحكم وقضايا الاقتصاد والمال بنصوص قرآنية ما كان للمسلمين إلا أن يطبقوها ولم يكن لأحد أن يجتهد في حدود النص ـ اللهم إلا الخارجون عن الإسلام من أحد أبواب الخروج عن كلمة لا إله إلا الله ـ وكبقية المواضيع المبدئية والأساسية في حياة الأمة المتطورة لم يتعرض النص الإسلامي إلا لما يعتبر مبادىء أساسية، وترك للأمة أن يجتهد فيها من كان أهلاً للاجتهاد في الفرعيات وفيما لا نص فيه، ولذلك كانت قضية الحكومة وقضية الاقتصاد قضيتين متطورتين لما يناسب كل عصر وكل أمة آمنت بالإسلام ديناً ورضيت به منهاجاً.

ولم يكن لأبي ذر ـ رضي الله تعالى عنه ـ إلا أن يكون مسلماً منقاداً ممتثلاً لأمر الله ونهيه طواعية بدون اعتراض.

فعندما يكون الإمام ولي الأمر من المسلمين لا يسع المسلم إلا الطاعة ﴿ وأطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم ﴾ «النساء: ٥٩». وكذلك كان رضي الله عنه، ولم يكن لموقف أبي ذر في هذا المعرض أن يذكر بين أقرانه المسلمين لولا افتراء باطنية العصر الحديث متابعين آباءهم السبئية الأوائل عندما نجم قرن فتنتهم في الدس والبهتان على أمير المؤمنين عثمان بن عفان وثوروا دهماء الأمصار فأثاروا فوضى فكرية عند الناس من جهلة العوام، ولذلك نرى مواقف أبي ذر المسلم رضي الله عنه صلبة ثابتة على أمر الله فتراه يسمع ويطيع ولو لعبد مجدع، وتراه يتنازل عن اجتهاده ليوافق اجتهاد أمير المؤمنين ويقرر أن الخلاف أشد، ويعلن على ملأ من الناس أنه مطيع للخليفة ولو أمره أن يأتيه حبواً، بل إنه يرى ـ على فرض أن أمير المؤمنين صلبه على أطول خشبة ـ لرأى أن ذلك خيراً له.

الفَصل الخامِس والأربعونَ

آيات الحكم

﴿ أَفَحُكْمَ الجاهِلِيَّةِ يَبْغونَ ومَنْ أحسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقوم يوقنون ﴾

سورة المائدة: ٥٠.

قال الله عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بينَ يديِ اللهِ ورسوله واتَّقوا الله ﴾ «سورة الحجرات: ١». فمن آمن بهذا الدين مسلماً لله رب العالمين ليس له إلاّ أن يصدع بأمر الله منقاداً ممتثلاً لأمره ونهيه بدون اعتراض.

ودين الله العام الشامل وسع السموات والأرض والإنس والجن، شرع الله هذا الدين للناس كافة في كل عصر ومصر ولكل أنثى وذكر، ولكل غني وفقير، ولكل كبير وصغير. ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾ «سورة الأنبياء: ١٠٧». ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناسِ بشيراً ونذيراً ﴾ «سورة سبأ: ٢٨».

أمر الله سبحانه نبيه عليه الصلاة والسلام بتنفيذ كلّ أمر أمره به، وأمره أن يحكم بما أنزل الله قال تعالى: ﴿ وأنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِما أنزَلَ اللهُ ولا تتَّبِعْ أهواءهم ﴾ «سورة المائدة: ٢٩».

وقد أمر الله سبحانه ـ من قبل ـ النبي داود عليه الصلاة والسلام ﴿ يا داودُ إنَّا جعلناكَ خَليفةً في الأرضِ فاحْكُمْ بينَ النَّاس بالحقِّ ولا تتَّبع الهوى ﴾ «سورة ص: ٢٦».

فلما أُمر رسول الله ﷺ بالحكم بما أنزل الله دَلَّ هذا دلالة قطعية لا

يماري فيها إلا معاند أن رسول الله كان حاكم دولة بأمر من الله شريعتها القرآن.

والآيات البينات من كتاب الله المتعلقة بالحكم لا تكاد تحتاج إلى تفسير أو تعليق، إنما يضطر المرء - هذه الأيام - للتذكير بها لتقف أمام افتراءات المشوهين لتعاليم هذا الدين بل الطامسين على أعين عامة المسلمين الحق بحجابات لا تستطيع الوقوف أمام قول الله[1]. ولكن ما العمل مع مسلمين لا يقرؤون القرآن! أو مع مسلمين لا يحاولون فهم آياته أو تدبرها!.

لذلك لم نحاول هنا أن نشرح أو نفسر شيئاً منها إنما أثبتناها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

انظر - رعاك الله - إلى قوله تعالى في سورة المائدة:

﴿ إنَّا أنْزلنا التوراةَ فيها هُدىً ونورٌ يحكُمُ بها النبيونَ الذينَ أسلموا للذين هادوا والربانيُّون والأحبارُ بما استُحفظوا من كتب اللهِ وكانوا عليهِ شُهداء فَلا تَخْشَوُا الناسَ واخْشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومَنْ لم يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الكفرون * وَكَتَبنا عليهِمْ فيها أنَّ النَّفسَ بالنَّفسِ والعينَ بالعينِ والأنفَ بالأنفِ والأذُنَ بالأذُنِ والسِّنَّ بالسِّنِّ والجروحَ قِصاص فمن تصدَّق به فهو كفَّارةٌ لَهُ ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئك هُمُ الظالمون * وقفَّينا على آثارهم بعيسى ابنِ مريمَ مُصدِّقاً لما بينَ يديهِ من التوراةِ وهُدىً ومَوعِظةً للمتَّقين * وَلْيحكُمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنزل الله فيهِ ومَنْ لَمْ يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هُمُ الفاسقون * وأنزلنا إليكَ الكتبَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بين يديهِ مِنَ الكتب ومُهيمناً عليهِ فاحْكُمْ بينهمْ بما أنزل اللهُ ولا تتَّبعْ أهواءهُم عمَّا جاءكَ من الحقِّ لكلٍّ جَعلنا منكمْ شِرعةً ومنهاجاً ولوْ شاءَ اللهُ لَجَعلكمْ أمةً واحدةً ولكنْ ليبلوَكم في ما ءاتكم فاستبقوا الخيراتِ إلى اللهِ مَرْجِعُكم جميعاً فَيُنبِّئُكم بما كنتم فيهِ

---

(١) خذ مثلاً كتاب علي عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكم، الذي كذَّب الله ورسوله والمسلمين حيث تَعَسَّفَ في تعطيل مثل هذه الآيات مدعياً أن النبي لم يتسلم حكم الدولة إلا مضطراً.. إلى مثل هذا الهراء!.

تختلفون * وانِ احْكُمْ بينهم بما أنزلَ الله ولا تتَّبعْ أهواءهمْ واحْذرْهم أن يفتِنوك عنْ بعضِ ما أنزلَ الله إليكَ فإنْ تولّوا فاعْلمْ أنّما يريدُ الله أن يُصيبَهمْ ببعضِ ذُنوبهم وإن كثيراً من الناسِ لفاسقون * أفَحُكمَ الجَهليَّة يبغونَ ومَنْ أحسنُ مِنَ الله حُكماً لقومٍ يوقنون ﴾ «سورة المائدة: ٥٠».

وانظر إلى قوله عز من قائل ﴿ ألمْ ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً مِنَ الكتَب يُدْعَوْنَ إلى كتبِ الله ليحكمَ بينهم ثم يتولى فريقٌ منهُم وهم معرضون ﴾ «سورة آل عمران: ٢٣».

وانظر إلى قوله لا إله إلا هو ﴿ ويقولون ءامنَّا باللهِ وبالرّسولِ وأطعنا ثُمَّ يتولّى فريقٌ مِنْهم مِنْ بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهُ ليحكُمَ بينهمْ إذا فريقٌ منهُم مُعرضونَ * وإنْ يكُنْ لهُمُ الحقُّ يأتوا إليهِ مُذعنين * أفي قلوبهمْ مَرضٌ أم ارتابوا أمْ يَخافونَ أن يحيفَ الله عليهم ورسولُهُ بلْ أولئكَ هُمُ الظالمونَ * إنّما كانَ قَولُ المؤمنينَ إذا دُعوا إلى اللهِ ورسولِهِ ليَحكُمَ بيْنَهُمْ أنْ يقولوا سَمِعْنا وأطَعْنا وأولئكَ هُمُ المُفلحون * ومَنْ يُطعِ الله ورسولَه ويخشَ الله ويَتَّقْهِ فأولئكَ هُمُ الفائزونَ ﴾ «سورة النور: ٤٧ ـ ٥٢».

وانظر إلى قوله جل شأنه: ﴿ إنَّ الله يأمُرُكُمْ أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها وإذا حكمْتُمْ بينَ النَّاسِ أن تحْكُموا بالعدلِ إنَّ الله نِعمَّا يَعِظُكمْ بِهِ إنَّ الله كان سميعاً بصيراً * يا أيّها الذينَ آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر مِنْكُمْ فإنْ تنازعتُمْ في شيءٍ فرُدُّوه إلى الله والرّسول إنْ كنتُمْ تؤمنونَ باللهِ واليوم الآخرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً * ألم ترَ إلى الذينَ يزعُمونَ أنَّهُمْ آمنوا بما أُنزلَ إليك وما أُنزلَ مِنْ قبلِكَ يريدونَ أنْ يتحاكموا إلى الطّغوت وقد أُمِروا أن يَكْفُروا به ويريدُ الشَّيطانُ أنْ يُضِلَّهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيلَ لهم تعالَوْا إلى ما أنزلَ الله وإلى الرَّسولِ رأيتَ المنافقين يصُدُّون عنكَ صُدوداً * فكيفَ إذا أصابتهم مُصيبةٌ بما قدَّمتْ أيديهمْ ثمَّ جاءوك يحلفون باللهِ إن أردْنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً * أولئكَ الذينَ يعلمِ الله ما في قُلوبهمْ فأعْرِضْ عنهُم وعِظْهُمْ وقُلْ لهم

في أنفُسِهِم قولاً بليغاً * وما أرسلنا مِنْ رسولٍ إلا ليُطاعَ بإذنِ اللهِ ولو أنَّهُمْ إذ ظلموا أنفُسَهُم جاءوكَ فاستغفروا اللهَ واستغفرَ لهُمُ الرسولُ لوجدوا اللهَ توّاباً رحيماً * فلا وربِّكَ لا يُؤمنونَ حتى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بينهُم ثم لا يَجِدوا في أنفُسِهِمْ حرجاً مما قضيتَ ويُسَلِّموا تسليماً * ﴾ «سورة النساء: ٥٨ ـ ٦٥».

فالقضية إذن ـ دون مراء ـ قضية دولة وحكم ونظام ودستور ومنهاج.. واضحة لا تحتاج إلى زيادة بيان.

والإيمان بهذا الدين دعوى، يصدقها الإسلام لله والامتثال لأوامره ونواهيه، ويكذبها الإعراض والتولي.

وليست القضية خبطاً في ظلام، وليست قضية اجتهاد وإدلاء برأي أمام نص معروف.. فلكل هذا فصل الله بين العباد فيما يختلفون فيه فيما يتعلق بهذه المسألة فقال: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ «سورة النساء: ٦٥».

واعتبر الله الحكم بغير ما أنزل سبحانه كفراً وفسقاً وظلماً.. فهو جاهلية. وعقب على هذا بقوله سبحانه: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ «سورة المائدة: ٥٠». وبيّن سبحانه ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ «النساء: ١٠٥».

من أجل هذا نجد الصحابي المسلم أبا ذر الغفاري رضي الله عنه يصدع ممتثلاً لأمر الله ونهيه بدون اعتراض، وحق له أن يفعل وهو أبو ذر.

فتراه حين يطلب الإمرة مرة ويجاب بأنه غير جدير بها يحسم الموضوع عنده ويحدث الناس بهذا حتى يموت.

وتراه يقرر بملء فيه أمام القريب والبعيد وجوب طاعة الأمير المسلم ولو

كان عبداً مجدع الأطراف، ويقول: لا تذلوا السلطان.

وتراه يناقش فيما لا نص ـ قطعي الدلالة ـ فيه، فإذا بين له الأمير الحكمة في سياسته الاقتصادية سكت وأذعن.

وتراه يناقش فهم الناس للنص إن اختلف تفسيره وتفسيرهم له.

الفصل السادس والأربعون

أبو ذر والإمرة

يا أبا ذر؛ إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي. لا تأمرن على اثنين ولا تولَّيَنَّ مال يتيم.

حديث شريف

لم يتعرض أبو ذر للتأمر على غيره ـ في الإسلام ـ إلا مرة، فنصحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا يطلبها لأنه ضعيف لا يصلح لها، كما نبهه إلى أنه ـ وللسبب نفسه ـ لا يجوز أن يتولى مال يتيم، ولا يقبض أمانة، ولا يجوز له أن يقضي بين اثنين.

وبعد أن سمع أبو ذر المسلم ـ رضي الله عنه ـ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يتوقع منه ـ وهو المسلم المنقاد الممتثل لأمر الله ورسول الله ونهيه بدون اعتراض ـ أن يعود لمثلها أو تتطلع نفسه بعد هذا إلى أن يصبح أميراً.

«فعن أبي ذر رضي الله عنه قال:

قلت: يا رسول الله؛ ألا تستعملني؟.

(قال): فضرب بيده على منكبي ثم قال:

يا أبا ذر؛ إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[1].

---

(١) صحيح مسلم ج ٣، ص ١٤٥٧، الحديث ١٨٢٥.

وفي حديث آخر قال له: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم»[1].

كما قال له في حديث ثالث: «ولا تقبض أمانة ولا تقض بين اثنين»[2].

---

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٥٨، الحديث ١٨٢٦.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند (المطبعة الميمنية بمصر، ط ١٣١٣) ج ٥، ص ١٨١.

الفَصْل السَابع وَالأربعون

أبو ذر والأمراء

قال أبو ذر: يا أهل الإسلام، لا تعرضوا علي داءكم، ولا تذلوا السلطان فإنه من أذل السلطان فلا توبة له.

أبو ذر ضعيف لا يصلح للإمارة ولا يطلبها ولكنه في الدولة الإسلامية مواطن مسلم له صحبة فما هي إعلاناته عن موقف المحكوم من الحاكم؟.

وما هي واجبات الحاكم؟.

أيام أبي بكر وعمر لا نكاد نسمع صوتاً لأبي ذر وربما سارت حياته في حياة أبي بكر وعمر وعثمان على وتيرة واحدة، وكانت الضجة التي أثيرت حول حياته أيام الراشد الثالث مفتعلة لا أصل لها إلا في تأليفات السبئية!.

وربما كانت مواقفه جواباً منه على فتنة السبئية وموقفها من أمير المؤمنين وعماله المختلفين. وعلى كلا الحالين لم نسمع صوتاً واضحاً لأبي ذر أيام أبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين.

أما عندما أخرجت الفتنة خطمها وبدأ الناس يلوكون ما تؤججه السبئية بينهم من نار، وتحرك أهل الفتنة من الزعماء والأغبياء.. وشاعت القصص الكاذبة والمزورة عن حادثات حدثت زوقت وبهرجت ولونت وقدمت للعامة. ويجيء نفر من أهل العراق ونفوسهم معبأة ـ بتأثير الدعاية السبئية الكاذبة ـ ضد عثمان، يتحدون أمير المؤمنين أمام الصحابي الصالح أبي ذر ويطالبونه بأن يتزعمهم ويحملون معه راية المعارضة والمقاومة؛ يكون جواب الصحابي الجليل أبي ذر رضي الله عنه جواب تأديب وتربية لهؤلاء النفر ويبين لهم الموقف الإسلامي من الرعية المسلمين أمام أمير المؤمنين.

ففي رواية ابن سعد «فبينا نحن كذلك إذ أتاه نفر من أهل العراق [حسبته قال من أهل الكوفة] فقالوا:

يا أبا ذر؛ فعل بك هذا الرجل وفعل، فهل أنت ناصب راية فلنكمل برجال ما شئت؟ فقال: يا أهل الإسلام؛ لا تعرضوا علي ذاكم ولا تذلوا السلطان، فإنه من أذل السلطان فلا توبة له.

والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو أطول حبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي. ولو سيرني ما بين الأفق والأفق [أو قال ما بين المشرق والمغرب] لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي، ولو ردني إلى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي»[1].

وسواء كان هؤلاء النفر من مثيري الفتنة أو من المغرر بهم فإن أبا ذر رضي الله عنه لم يلتفت إلى الرد عليهم فيما افتأتوا على عثمان رضي الله عنه؛ إنما بدأ بتربيتهم طالما أنهم جاؤوه يعترفون له بالفضل إنه حتى لو كان ما تقولون ـ وهو لم يكن ـ فإن واجب المسلم أن يطيع مثل أمير المؤمنين هذا.

وتتوالى هذه التقريرات في ضرورة طاعة ولي الأمر من المسلمين ونورد هنا أمثلة ولا نحاول الحصر «فعن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال: لو أمرني عثمان أن أمشي على رأسي لمشيت»[2].

وتتكرر مثل هذه التصريحات والتوجيهات. بل إن أبا ذر يتنازل عن رأيه الاجتهادي ـ كما فعل ابن مسعود ـ في قضية خلافية ثارت يوم حجوا مع عثمان وأتم الصلاة في منى مع أن عبد الرحمن بن عوف غضب يومها غضباً شديداً ولم يقبل تبريرات عثمان ولم يسكن عنه الغضب إلا بعد حديث ابن مسعود له ينبهه فيه إلى أن الخلاف شر وأمير المؤمنين مجتهد. ولم يكن أبو ذر يحتاج

---

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت) ج ٤، ص ٢٢٧.

(٢) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٥١.

إلى هذا التنبيه إنما كان هو الذي يدعو المسلمين إلى وحدة الكلمة والانضواء تحت لواء أمير المؤمنين.

ففي موسم الحج سنة ٢٩ للهجرة أتم عثمان صلاة الظهر والعصر والعشاء أربعاً. على غير العادة من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر.

وفوجىء الناس بهذا التمام وتساءلوا واشتد الأمر على بعضهم ومنهم أبو ذر، ولكن أبا ذر صلى أربعاً مباشرة بعد سماع الكلام عن تمام صلاة عثمان، دون أن يسمع حجة عثمان أو دليله[١] بل أصر على طاعة الإمام واتباع اجتهاده إن اجتهد، ثم عرض لقضية الخلاف وبخاصة مخالفة أمير المؤمنين الراشد، وأثبت بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن من أذل أمير المؤمنين المسلم فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ولا تقبل له توبة، وناقش المعترضين مؤنباً: لا تغلبونا على ثلاث نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونعلم الناس السنن.

فبعد مناقشة واستنكار من قبل عبد الرحمن بن عوف على عثمان رضي الله عنهما: ـ ولكل منهما اجتهاده ـ يخرج عبد الرحمن مغضباً. فلقي ابن مسعود فقال:

أبا محمد، غيّر ما يعلم؟.

قال: لا.

قال: فما أصنع؟.

قال: اعمل أنت بما تعلم.

---

(١) كان اجتهاد عثمان أنه يلزمه أن يصلي في منى صلاة المقيم لعدة أسباب:

أولها: أن بعض أهل اليمن وجفاة الناس ادعوا بأن صلاة المقيم ركعتان مستندين إلى أن عثمان كان مقيماً وصلى اثنتين في حجين سابقين.

وثانيهما: أن لعثمان في مكة زوجة فهو إذن فيها مقيم.

وثالثها: أن له مال في الطائف فهي له وطن أيضاً وهي لا تبعد مسافة القصر على ما كان يرى.

فقال ابن مسعود: الخلاف شر، قد بلغني أنه صلى بالناس أربعاً فصليت بأصحابي أربعة.

فقال عبد الرحمن بن عوف: قد بلغني أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابي ركعتين، وأما الآن فسيكون الذي تقول. (يعني نصلي معه أربعاً).

أما ما كان من أبي ذر رضي الله عنه فيقول راوي القصة:

«فأتيناه الربذة فلم نجده، قيل: استأذن في الحج فأذن له. فأتيناه بالبلدة [وهي منى] فبينا نحن عنده إذ قيل له: إن عثمان رضي الله عنه صلى أربعاً.

فاشتد ذلك عليه وقال:

صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى ركعتين وصليت مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ثم قام أبو ذر رضي الله عنه فصلى أربعاً.

فقيل له: عبت على أمير المؤمنين شيئاً تصنعه؟.

قال: الخلاف أشد؛ إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطبنا وقال:

إنه كائن بعدي سلطان فلا تذلوه فمن أراد أن يذله فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وليس بمقبول له توبة حتى يسد ثلمته. وليس بفاعل، ثم يعود فيكون فيمن يعزره، أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا تغلبونا على ثلاث: نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونعلم الناس السنن»[1].

(١) أحمد بن حنبل، المسند (المطبعة الميمنية بمصر، ط ١٣١٣ هـ) ج ٥، ص ١٦٥.

الفَصْلُ الثَامِنُ وَالأَربَعُونَ

اقتصاد الدولة وأموال المسلمين

- ما يدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله؟.

- لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات.

يتعلق الحديث عن الاقتصاد بموضوع المال والثروة على مستوى الدولة وسياساتها. بينما يتعلق الحديث عن المال بموضوع المال والثروة على مستوى الأفراد فقط. وضمن هذين المفهومين للاقتصاد والمال سيكون الحديث في هذا الفصل من البحث.

أبو ذر واقتصاد الدولة:

يتلخص ما رواه التاريخ لنا عن تصدي أبي ذر لمفاهيم اقتصادية، بثلاثة مواقف.

ويتبدى الموقف الأول عندما يعلن أمير الشام بعفوية أن المال مال الله. ولم يكن يريد معاوية فيها أي معنى اقتصادي على مستوى الدولة والحكم، ينتبه لها ابن سبأ فيأتي شارحاً لأبي ذر هذه الكلمة شرحاً بطانياً يعلقه بالاقتصاد، فالمال مال الله على الحقيقة ولا يتمارى في هذه الحقيقة مسلمان، لكن الأمر يختلف إذا أعلن هذا القول أمير من أمراء المسلمين.. فهو متهم عند عبد الله بن سبأ بأنه قول يشير إلى سياسة الدولة في مصادرة أموال المسلمين. وهو أمر لا يقبله أبو ذر.. فأبو ذر لا يقبل بل هو يعارض مصادرة أموال المسلمين أو تدويل المال (بمعنى أن تحجبه الدولة دون الأفراد) وهو ما يسميه بعضهم بالتأميم.

ولذلك نفهم من المحاورة التي جرت بين معاوية وأبي ذر رضي الله عنهما أن كل واحد منهما يرمي إلى هدف يختلف عن الآخر. . فبينما ترى معاوية يقرر أن العباد عباد الله والمال مال الله، والخلق خلقه، والأمر أمره ـ وهو تقرير عقيدي لا شبهة فيه ولا نقاش ـ ترى أبا ذر يعارض أن يسمي ممثل الدولة مال المسلمين مال الله ـ ولو كان كل شيء لله على الحقيقة ـ مخافة أن يكون قصد الدولة امتلاك المال دون أفراد المسلمين.

روى الطبري في أصح أسانيده[1] قال:

«لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال:

يا أبا ذر؛ ألا تعجب إلى معاوية يقول: [المال مال الله، ألا إن كل شيء لله] كأنه يريد أن يحجنه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين!.

فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك أن تسمي مال المسلمين مال الله؟.

قال: يرحمك الله يا أبا ذر؛ ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره!.

قال: فلا تقله.

قال: فإني لا أقول ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين.

فأتى أبا الدرداء فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهودياً؟.

فأتى عبادة بن الصامت، فتعلق به فأتى به معاوية فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر»[2].

والموقف الثاني يتبدى حين مقابلة أمير المؤمنين إثر مجيئة من الشام، فعندما يستفسر منه عن سبب الخلاف يعلن أنه لا يجوز أن يسمى مال

---

(١) عن السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي، مصر ط ١٩٣٩) ج ٣، ص ٣٢٦.

المسلمين مال الله لئلا تكون التسمية مبرراً لمصادرة مال الأفراد من قبل الدولة. كما أنه لا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً.

وهنا أعلن الخليفة الراشد عن السياسة الاقتصادية للدولة الإسلامية منبهاً أبا ذر إلى حقوق الدولة وحقوق الأفراد وواجبات الدولة وواجبات الأمراء.

يا أبا ذر: «علي أن أقضي ما علي».. فواجبات أمير المؤمنين أمام الله في القانون الإسلامي لا بد أن يقضيها وهو واجب كل أمير.

«وآخذ ما على الرعية» فمسؤولية الحكام في الدولة الإسلامية أن تنظم وتضبط أمر تنفيذ الرعية للقوانين الإسلامية المالية منها وغيرها.

«ولا أجبرهم على الزهد» فالزهد أمر تعبدي شخصي، ليس من واجب الدولة أن تجبر الرعية عليه فيصبح الأمر تقتيراً وإفقاراً للأمة وفرق كبير بين الزهد والفقر.

«وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد» فالدولة الإسلامية دولة تربية ودعوة وهي السياسة الإسلامية الراشدة: دعوة الناس إلى الاجتهاد في العمل والكسب وتعاطي أسباب التقدم وزيادة الإنتاج.. ودعوة الناس إلى الاقتصاد في المصروف وشكر النعمة والبعد عن التبذير والإسراف.

وهنا يعود أبو ذر ليتذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بترك المدينة واعتزال الناس إذا وصلت المدينة في مدنيتها واتساعها إلى أن يبني الناس في أصل سَلْع الجبل. فيختتم النقاش في إقرار للخليفة الراشد لهذه السياسة الاقتصادية الإسلامية ليطلب الإذن في الخروج من مجتمع المدينة إلى الربذة.

ففي رواية الطبري في أصح أسانيده[1]: فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سَلْع قال:

---

(١) عن السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي.

بشّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار» ودخل على عثمان فقال:
يا أبا ذر؛ ما لأهل الشام يشكون ذربـك؟.
فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال: «مال الله» ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً.
فقال: يا أبا ذر علي أن أقضي ما علي، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد»[1].

وهكذا ينتهي الموقف الثاني الذي يقفه أبو ذر من اقتراح سياسة اقتصادية على ولي الأمر فيجاب بتلخيص السياسة الاقتصادية الإسلامية التي تطبقها القيادة العليا للمجتمع الإسلامي فيقنع أبو ذر ويصدع بالحق وتنتهي المسألة.

أما الموقف الثالث فقد كان تقديم نصيحة للخليفة الراشد في سياسة الناس في موضوع المال والإنفاق فلا ينبغي للدولة أن تقبـل ـ على رأي أبي ذر ـ أن يكون الناس سلبيين في تطبيق أحكام الإسلام بل عليها أن تسعى في حثهم على الإيجابية.

فحتى لو كف الناس أذاهم عن غيرهم يجب أن يؤمروا ببذل المعروف من الأخلاق الإسلامية. وكذلك المؤدي زكاة ماله.. لا ينبغي أن يؤديها وينام قرير العين بل على الدولة أن تستثير همم المسلمين في التحرك للسؤال عن أحوال الجيران والقرابات، فليس في الإسلام سلبية في تطبيق أحكامه ضمن المجتمع الإسلامي بل يجب أن تقوم دولة الدعاة بتحريك هؤلاء المسلمين للتحرك إلى الإيجابية في تطبيق الأحكام.

وهذه المطالب التي يطالب بها أبو ذر ليست جديدة ولا هي من اختراعه رضي الله عنه، فمع أن المسلم في تعريف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[2] إلا أنه عليه الصلاة

(١) ابن جرير الطبري، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٦.
(٢) صحيح البخاري، ورواها محمد بن سعد في الطبقات الكبرى (دار إحياء التراث العربي، بيروت) ج ١، ص ٩.

والسلام أمر أمراً شديد اللهجة وهدد الأمة بقضاء الله الذي لا يرد إن هي قصرت في الأمر بالمعروف فقال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[١].

وكذلك في موضوع من أخرج زكاة ماله فقد أدى ما عليه «ليس في المال حق سوى الزكاة» لكنه أضاف ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»[٢].

لكن وصية أبي ذر تضيع في فهم فقهي جامد لأصل نسبة الزكاة والمحدد «للغرض» منها. وذلك من قبل كعب الأحبار الذي تدخل بين الصحابيين مقرراً «من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه» وهذا صحيح لقد سقط الفرض على من أدّاه ولكن الإسلام ليس فروضاً فقط.. وليست الحياة الإسلامية في المجتمع الإسلامي حياة سلبية جافة التطبيق لفروض الإسلام فحسب إنما شرع الله عز وجل لمن أراد أن يتقدم وراء الفروض واجبات وسنناً ومندوبات.

وتثور حدة أبي ذر رضي الله عنه من هذا الفقه الأعجف الذي لم يستطيع صاحبه أن يتجاوزه إلى امتداد أفق الإسلام ورحابته في الدرجات التي تعلو أداء الفرائض فحسب. لكنه رضي الله عنه يتجاوز الحد في حضرة أمير المؤمنين فيقرر «يا ابن اليهودية ما أنت وههنا» ودين اليهودية على ما هو مشهور، مشهور بالتطبيق الجاف المتشدد للأحكام، وكأن كعب الأحبار ربيب هذا الدين أظهر عن تأثره بهذا الجفاف عند تدخله في الحديث بين ذي النورين وصادق اللهجة. فأين هو في قوله الجاف «من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه» وهي كلمة حق لكنها جافة؛ وبين الأخلاق الإسلامية التي يطلبها أبو ذر

---

(١) يحيى النووي، رياض الصالحين (مؤسسة الرسالة، دار الأرقم، طـ ١٩٨٠ م) ص ٨١. وقال رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(٢) سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير (الطبعة الثانية) ج ١، ص ٢٥٩. وقال المنذري في الترغيب (٣/٣٥٨) وإسناده حسن.

من نفسه أولاً ويطلب من الخليفة الراشد أن يحث الناس عليها ويستنفرهم إليها.

لكن شدة التأثر وثورة الحدة تجعل من أبي ذر لا يتمالك نفسه إذ يرفع محجنه ويضرب به ذا الرأس الذي لا يستطيع أن يتسامى في مثل هذا المجلس إلى أخلاق عدم الرضى بكف الأذى حتى يبذل المعروف؛ والتذكير بأن هناك أخلاقاً إسلامية أخرى تتجاوز تطبيق الفرائض.

وفي زحمة التدخل والحدة تضيع النصيحة من النص التاريخي وتثور قضية اعتداء بالضرب أمام ناظري أمير المؤمنين.

وشرع الله لا يحابي أبا ذر ولا أمير المؤمنين، فالعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص. ويهتم الخليفة باسترضاء المعتدى عليه كي يتنازل عن حقه في ضرب أبي ذر وشجه فيسامح كعب الأحبار أبا ذر ويهب حقه لأمير المؤمنين.

وإليك رواية ابن عباس قال: «كان أبو ذر يختلف من الربذة إلى المدينة مخافة الأعرابية، وكان يحب الوحدة والخلوة، فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار، فقال لعثمان:

لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات.

فقال كعب: من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه.

فرفع أبو ذر محجنه فضربه فشجه، فاستوهبه عثمان فوهبه له.

وقال: يا أبا ذر، اتق الله واكفف يدك ولسانك.

وقد كان قال له: يا ابن اليهودية ما أنت ههنا؟ والله لتسمعن مني أو لا أدخل عليك»[1].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (للطبري) ج ٣، ص ٣٣٧.

أبو ذر وأموال الأفراد

اقتنع أبو ذر رضي الله عنه وانعقد قلبه على عقيدة أن هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها من زينة ومال إنما هي لعب ولهو، وأنها لا قيمة لها بجنب الآخرة، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وأنه لا ينبغي لمن يؤمن بهذا أن يهتم بها إلا بمقدار ما تكون حرثاً للآخرة ودار عمل من أجل الوصول إلى الغاية في حيوان [1] الآخرة.

وأصَرَّ أبو ذر على الزهد عقداً وقولاً وعملاً كما كان هذا الزهد شائعاً بين ذلك الجيل العظيم من الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

وقد عمل أبو ذر بما يعتقده في مسألة المال الشخصي واعتبر هذا الأمر حالاً طبيعياً لمن يؤمن بهذا الإسلام وعقيدته وتعاليمه. حتى إنه رغب في نصيحته لأمير المؤمنين بأن يحرك المسلمين في اتجاه الزهد، إلا أن الأمير يبين له ملخص السياسة الإسلامية الحكيمة في هذا الشأن «ولا أجبرهم على الزهد».

فاقتنع أبو ذر بأن هذا الأمر لا يُجبر الناس عليه فليست سياسة إجبار الناس على الزهد سياسة زهد، إنما تصبح سياسة إفقار للناس والزهد شيء والفقر شيء آخر.

فلهذا لم يعد أبو ذر يتعرض - في موضوع المال الخاص - إلى طلب سياسة اقتصادية تقوم بها الدولة في هذا، إنما أصر رضي الله عنه على الدعوة لهذا الحال بين الأفراد، كيف لا وقد كان بينهم سيد الزهاد.. وكذلك كان خليفته أبو بكر وخليفته عمر.. وكذلك هو خليفتهم عثمان. وكذلك هم أكابر الأمة من أكابر الصحابة وتابعيهم بإحسان.

واستمر أبو ذر في زهده يدعو الناس إلى الزهد طوال حياته في كل مجلس جلسه.

---

(١) الحيوان: الحياة الحقيقية.

أما المال: فلقد تميز أبو ذر عن بقية الصحابة بفهم عن الكنز متفرد. فلقد تمسك بظاهر آية تحريم الكنز.. فأصبح أي ادخار لأي مبلغ من المال كنزاً، إذا كان المدُّخر من أحد هذين المعدنين الذهب والفضة. وأما إذا كان المال المدخر شيئاً آخر كالفلوس المصكوكة من معدن ثالث سوى الذهب والفضة فهو لا يرى فيه شيئاً، ولا يعتبره كنزاً. وربما يعترض عليه بعض معاصريه في هذا الفهم ويتهمونه بالكنز أيضاً لوجود الفلوس المدخرة عنده لكنه لا يأبه لهذا الاعتراض ويصر على أن ادخار غير الذهب والفضة لا بأس به.

وكان ـ رضي الله عنه ـ مع تحريمه للكنز لا يرى بأساً بادخار ضروريات الطعام إلى سنة كاملة.

كما أن الاحتفاظ بثروة في سبيل الخير ـ إذا صحت النية الصالحة ـ لا بأس بها ولو بلغت ـ ثلاثين فرساً ـ وجهاز مجاهد على كل منها.

فعندما جاءت ابنة أبي ذر وعليها مجنبتا صوف، سفعاء الخدين ومعها قفة لها، فمثلت بين يديه وعنده أصحابه فقالت:

يا أبتاه زعم الحراثون والزراعون أن أفلسك هذه بهرجة..

فقال: يا بنية، ضعيها فإن أباك أصبح بحمد الله ما يملك من صفراء ولا بيضاء إلا أفلسه هذه» (١).

«وعن سعيد بن أبي الحسن: أن أبا ذر كان عطاؤه أربعة آلاف، فكان إذا أخذ عطاءه دعا خادمه فسأله عما يكفيه للسنة فاشتراه، ثم اشترى فلوساً بما بقي.

وقال: إنه ليس من وعاء ذهب ولا فضة يوكى عليه وهو يتلظى على صاحبه» (٢).

«وقال يحيى بن أبي كثير: كان لأبي ذر ثلاثون فرساً يحمل عليها،

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ١٦٤.
(٢) شمس الدين الذهبي، حلية الأولياء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٥٣.

فكان يحمل على خمسة عشر منها يغزو عليها، ويصلح آلة بقيتها، فإذا رجعت أخذها فأصلح آلتها وحمل على الأخرى»[1].

وكذلك يعتذر عن قبول ثلاثمائة دينار لأنه يملك ظلاً يتوارى به، «وثلة من غنم تروح علينا، ومولاة لنا تصدقت علينا بخدمتها ثم إني لأتخوف الفضل»[2].

وكذلك يعتذر عن قبول مثلها فيقول: «من سأل ولو أربعون فقد ألحف، ولآل أبي ذر أربعون درهماً وأربعون شاةً وماهنان»[3].

أبو ذر وعطاء الدولة

إنها قضية لا تكاد تصدق هذه الأيام.. حيث إن الضريبة المباشرة والضريبة غير المباشرة تفرضها الدول ـ جميع الدول ـ على رعاياها من المواطنين. بينما كان الأمر في الدولة الإسلامية الراشدة أن الدولة تخصص راتباً محدداً من بيت مال المسلمين يُعطاه كل مسلم متمتع بجنسية الدولة الإسلامية من غير عمل أو قيام بوظيفة ويسمى هذا الراتب عطاء.

وكذلك كان العطاء يعتبر حقاً لكل مسلم وواجباً على الدولة أداؤه.

وهذا العطاء يضاف إلى المخصصات التي تمنح لأمراء الدولة وموظفيها.

وربما ظن بعض هؤلاء الموظفين أو المواطنين أنه بغير حاجة إلى هذا الراتب فيحاول أن يتنازل عنه للدولة. لكن الفقه الإسلامي يرد مثل هذا التنازل فلا بد للموظف أو المواطن من أن يتسلم عطاءه ثم يتصرف به من ثم تصرف المالك.

فعن «أحنف بن قيس قال: كنت في نفر من قريش فمر أبو ذر وهو يقول:

---

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٣.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦١.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١٦١. والماهن: الخادم.

بَشِّر الكانزين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم، وبكيٍّ من قبل أقفائهم يخرج من جباههم.

(قال)، ثم تنحى فقعد (قال) فقلت: من هذا؟.

قالوا: هذا أبو ذر.

(قال) فقمت إليه فقلت: ما شيء سمعتك تقول قُبيل.

قال: ما فعلت إلا شيئاً سمعته من نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم.

(قال) قلت: ما تقول في هذا العطاء؟.

قال: خذه فإن فيه اليوم معونة، فإذا كان ثمناً لدينك فدعه»[1].

---

(١) صحيح مسلم ج ٣، ص ٧٧.

البَابُ الحَادي عَشَر

مَذهَبُ أبي ذَر

لم يشذ أبو ذر رضي الله عنه عن جماعة المسلمين قيد أنملة أو قيد شعرة. لا في عقيدة ولا في حكم شرعي قطعي الثبوت.



الفصل التاسع والأربعون

العقيدة الأصل

. . . وإما مؤمن بعقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ كما تضافرت النصوص قطعية الدلالة على تقريرها ـ وانعقد قلبه على التصديق بها والالتزام بما ينبثق عنها، ومن كان حاله كذلك فقد ذهب مذهب الإيمان.

لقد تضافرت النصوص الواضحة على تقرير عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله بما فيها من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر. وهي أول ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مكة، ولقد كانت هذه العقيدة مفرق الطريق بين الإيمان والكفر، وبنى عليها من ثم التصديق والعمل بكل ما جاء في الشريعة من أحكام. فلذلك إذا أردنا أن نتكلم عن مذهب أبي ذر رضي الله عنه كان لنا أن نشير إلى المنطلق الذي يصدر عنه ابتداءً.

فأبو ذر. . وحتى قبل بعثة الإسلام، كان قد كفر بأوثان الجاهلية. . ثم جاء مسلماً شاهداً شهادة الحق من غير لجلجة أو تردد في أيام الإسلام الأولى في مكة، وعلى التقرير الذي قرره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وتنقسم البشرية ـ بالنسبة إلى العقيدة ـ إلى مذهبين لا ثالث لهما:

فإما شاذ عن عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما تضافرت النصوص قطيعة الدلالة على تقريرها، ومن كان حاله كذلك فقد اختار مذهب الكفر.

وإما مؤمن بعقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله كما تضافرت النصوص قطعية الدلالة على تقريرها، وانعقد قلبه على التصديق بها والالتزام بما ينبثق عنها، ومن كان حاله كذلك فقد ذهب مذهب الإيمان أو اختار لنفسه الإسلام ديناً. . وكذلك كان أبو ذر رضي الله عنه.

الفَصلُ الخمسونَ

أحكام الإسلام

إن مذهب الصحابي المسلم العالم أبي ذر الغفاري رضي الله عنه كان موافقاً لجميع أحكام الشريعة المبنية على نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة.

أنزل الله سبحانه إسلاماً واحداً مبيناً في كتابه عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد وصف الله كتابه بقوله: ﴿ ونَزَّلنا عَليكَ الكتابَ تِبياناً لكُلِّ شيء ﴾ «سورة النحل: ٨٩». كما ذكر في آية أخرى ﴿ وتفصيلَ كُلِّ شيء ﴾ «سورة يوسف: ١١١». وقد فهم المسلمون من هاتين الآيتين ومن أمثالهما من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه ما من قضية من قضايا الوجود إلا ولله فيها حكم، ومجموع أحكام الله هذه هي الإسلام، والمسلم هو من يستسلم لأحكام الله كلها.

وتنبثق جميع أحكام الإسلام «الشريعة» عن الأصل الأول، والمنطلق الوحيد الذي هو العقيدة.

فالشريعة أثر تستتبعه العقيدة، ويتعانق الأصل والأثر ويتلازمان فلا ينفك أحدهما عن الآخر، فلا يُسلَّم بإسلامية شريعة عند زيغ العقيدة، ولا يعترف بدعوى عقيدة عند إنكار شيء من الشريعة[1].

وقد أمر الله سبحانه الذين آمنوا أن يأخذوا الإسلام جملة. ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا ادْخُلوا في السِّلمِ كافَّة ﴾ «سورة البقرة: ٢٠٨».

---

(١) مما جاء بنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة.

ونعى على اليهود الذين كانوا يدّعون الإيمان ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه الآخر: ﴿ أفتؤمنونَ ببعضِ الكتابِ وتكفرون ببعض ﴾ «سورة البقرة: ٨٥».

ولا شك أن أبا ذر رضي الله عنه يذهب هذا المذهب في الإيمان بالإسلام كافة عقيدة وشريعة. وكل من يتهمه بذهاب لغير هذا المذهب فهو المتّهم.

أساسيات وفرعيات

هناك أساسيات في أحكام الشريعة وهي ما كان منها قطعي الثبوت قطعي الدلالة لا يختلف فيها مسلمان ـ ومن شذ شذ في النار ـ[1] ومنها ما تحتاج الأحكام فيه إلى استنباط يقوم به أهل العلم من المسلمين تبعاً لقواعد وأفهام قد يختلفون فيها نوع اختلاف فتتعدد الآراء وتختلف المذاهب.[2]

وكذلك نقرر أن مذهب الصحابي المسلم العالم أبي ذر الغفاري رضي الله عنه كان موافقاً لجميع أحكام الشريعة المبنية على نصوص قطعية الدلالة قطعية الثبوت ومن يتهمه بغير هذا فهو المتّهم.

وانطلاقاً من هذا التصور الإسلامي لأحكام الشريعة الإسلامية وافق مذهب أبي ذر باقي إخوانه من الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين ولا يجوز له ـ رضي الله عنه ـ أن يكون له ـ في أساسيات أحكام الشريعة ـ مذهب متفرد شاذ ونكرر القول مرة ثالثة: فمن يتهمه بهذا الشذوذ فهو المتهم.

ومن خلال ما مر معنا من تعرف على آراء أعلنها أبو ذر ومواقف تبناها

---

(١) نعم قد يجهل امرؤ مسلم بعض أحكام الشريعة، وهذا لا يخرجه من الملة، لكنه إذا عرف الحكم ـ من ثم ـ فعليه الالتزام بقبوله، وإن أنكر ضرورة الالتزام بعد التيقن من صحة الحكم كفر.

(٢) ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية هذه أن يتّبع إماماً من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد في تعرف أدلة إمامه هذا وأن يتقبل كلَّ إرشاد مصحوب بالدليل متى صحَّ عنده صِدقُ مَنْ أرشده وكفايتُه.

رضي الله عنه، يمكننا أن نقدم تلخيصاً لجملة مذهبه الذي ذهب إليه في فهمه وفقهه، وكان ينبغي ألا نتعرض لأساسيات الأحكام التي لم يكن رضي الله عنه يخالف عن أمرها ولا ينبغي له، لكن عموم البلوى هذه الأيام ولسبق إعلام السبئية إلى أذهان كثير من الناس تهوش على المسلم العادي نظرته، أثبتنا فيما أثبتناه تحت باب مذهب أبي ذر حتى بعض الأساسيات[1] التي وافق فيها أبو ذر بقيه المسلمين ـ وما ينبغي له أن يخالف أو يَشُذَّ ـ .

(١) نرجو الله عز وجل أن يوفق عالماً من علمائنا الفقهاء أو أكثر إلى تأليف كتاب يبين فيه ـ لمسلمي هذه الأيام ـ أساسيات العقيدة والشريعة مما يعتبر معروفاً من الدين بالضرورة، والتي ينبغي على كل مُدّع للإسلام أن يلتزم بتصديقها دون مراء حتى يكون مؤمناً، وإلا كان كافراً.

الفصل الحادي والخمسون

المذهب

الصحابة الكرام هم أدرى بعلوم هذه الشريعة، والصحابي حلقة أساسية لا يجوز أن تكسر في سلسلة التبليغ، قال أبو ذر: وننهى عن المنكر، ونعلم الناس السنن.

لم يشذ أبو ذر رضي الله عنه عن جماعة المسلمين قيد أنملة أو قيد شعرة، لا في عقيدة ولا في حكم شرعي قطعي الثبوت.

فلقد كان رضي الله عنه يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله على الفهم الذي أتى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وليس للأجيال التالية إلا أن تتعلم منه ومن إخوانه الصحابة الكرام مفاهيم هذه الكلمة كما فهموها من معلمهم الأول عليه صلوات الله وسلامه.

وهو ـ رضي الله عنه ـ كان موافقاً لجماعة المسلمين في جميع أساسيات أحكام الشريعة ولم يخالف من يعتد برأيه إلا في مجال المناقشة ومحاولة الوصول إلى الحق مما لم يكن يتبين له وجه الحق قطعي الدلالة من الفرعيات.

فمن مذهبه وجوب التبليغ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فالصحابي حلقة أساسية لا يجوز أن تكسر في سلسلة التبليغ.

ومن مذهبه أن الأمة الإسلامية وحدة لا يجوز مفارقتها، وطاعة أمير المؤمنين المسلم واجبة في الأساسيات التي لا خلاف فيها وفي اجتهاداته وهو

أمير المؤمنين، وأهلية الإمرة توجد في ناس وتفقد في آخرين، ومن فقدت فيه كان ضعيفاً لا يصلح للإمرة ولا يطلبها.

ومن مذهبه رضي الله عنه أنه لا يجوز للأفراد كنز قليل ولا كثير من الذهب والفضة أما ادخار الطعام والشراب واللباس والفلوس فليس بكنز، وعطاء الدولة الإسلامية يؤخذ طالما لم يكن رشوة على الدين، ولم يطلب مقابله انحراف أو مخالفة، ولا يستحب لمن ملك أربعين أن يقبل صدقة. وملكية الثروات ـ سوى الذهب والفضة ـ لا حدود لها إذا احتفظ بها بنية إسلامية صالحة، لكن لا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً بنية التمتع الشخصي، وليس للدولة أو ممثليها أن يعبروا بكلمات يخشى أن تفسر لصالح مصادرة أموال المسلمين، الدولة الإسلامية دولة تربية ودعوة فعليها أن تحث الرعية على الإيجابية في بذل المعروف والإحسان للآخرين ولا يكتفى من المسلم بكف الأذى وسلامة الناس من لسانه ويده ولا من مؤدي الفريضة أن يسقطها عنه وكفى، والزهد أمر تعبدي ينبغي أن يأخذ فيه المسلم ويدعى إليه قولاً وحالاً وعملاً.

ومن مذهبه رضي الله عنه أن يعتزل من كان حاله مثله عن المجتمعات المدنية عند عدم توافق المشربين كما لا يجوز للمعتزل أن يبعد إلى البادية كي لا يرتد أعرابياً، فعزلة مثله مطلوبة والأعرابية ممنوعة.

وجوب التبليغ عن رسول الله:

يرى أبو ذر أن من واجب الصحابي أن يبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يخشى في الله لومة لائم، وينبغي أن يصدع بهذا الأمر حتى ولو كلفه حياته، ولا ينبغي للأجيال الإسلامية أن تتطاول على الصحابة وتتدخل في خلافاتهم الفرعية فإن الصحابة الكرام بحكم أخذهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هم أدرى بعلوم هذه الشريعة فلذلك يقول أبو ذر عند تطفل من يتدخل من جيل التابعين في مسألة خلافية اجتهادية بين عثمان الصحابي وبقية الصحابة في مسألة إتمام الصلاة في منى: «لا تغلبونا على

ثلاث؛ نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونعلم الناس السنن»[1].

وحدة الجماعة المسلمة

يرى أبو ذر ـ مع جماعة المسلمين ـ أن الأمة الإسلامية أمة واحدة، لا يجوز أن تفترق. فهو يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين، وأربعة خير من ثلاثة، فعليكم بالجماعة فإن الله عز وجل لن يجمع أمتي إلا على الهدى»[2] وكذلك روى «من فارق الجماعة شبراً خلع ربقة الإسلام من عنقه»[3].

طاعة أمير المؤمنين

يرى أبو ذر ـ مع جماعة المسلمين ـ أن أمير المؤمنين إذا كان مسلماً فتجب طاعته على كل مسلم، كما لا يجوز لمسلم أن يتكلم في حق أمير المؤمنين بما يعتبر إذلالاً ومن أذل السلطان فلا توبة له. كما يرى له أبو ذر أن خيره في الرضى بما يطالبه به أمير كعثمان بن عفان، فلو أمره أن يأتيه حبواً لفعل، ويبعد في هذا أكثر فيرى الخير لنفسه في طاعة أمير كعثمان حتى ولو صلبه على أطول خشبة وأطول حبل.

وهو قد يرى رأياً اجتهادياً في مسألة ويتنازل عملياً توافقاً مع اجتهاد أمير المؤمنين ويحتفظ برأيه في صدره ويقرر بأن الخلاف أشد.

الإمرة

يرى أبو ذر أن بعض الناس ـ وأبو ذر منهم ـ ضعفاء لا يحق لهم أن يتسلموا إمرة على المسلمين، لنهي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إياه عن تسلم إمرة على اثنين.

وينسحب هذا النهي فيجعله يكره الإمارة لمن يعرفه من الصالحين، ذلك لأنها خزي وندامة يوم القيامة إلا من أخذها بحقها وأدى حق الله فيها.

---

(1) أحمد بن حنبل، المسند (المطبعة الميمنية بمصر، ط ١٣١٣ هـ).

(2) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٨١.

(3) المصدر السابق، ج ٥، ص ١٤٥.

وهذا أمر لا يطيقه كثير من الناس فمن الورع أن لا يتسلموا الإمرة على الناس.

الكنز والادخار والعطاء

لأبي ذر في هذه القضية تفصيل، فبينما يرى معاوية أن آية ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة. . . ﴾ «سورة التوبة: ٣٤» نزلت في اليهود. يرى أبو ذر أن الحكم فيها عام يندرج تحته المسلمون أيضاً.

أما تعلق تعريف الكنز عنده فهو لا يشمل إلا الذهب والفضة أولاً، ولا يجوز كنز الذهب والفضة بالنسبة لأفراد المسلمين حتى أياماً «ما من إنسان ترك صفراء أو بيضاء إلا كوي بها»[1] ويجوز ادخار غيره من المال سواء كان نقداً غير المعدنين، أو كان طعاماً وقوتاً.

كما أنه يرى قبض العطاء من الدولة الإسلامية ـ ولو كان القابض غنياً ـ طالما أنه كان حقاً مجرداً. أما إذا أصبح العطاء في دولة منحرفة كالأجر مقابل تنازل من قبل القابض عن شيء فلا يجوز أخذه. وهو عطاء مأخوذ طيلة حياة أبي ذر. ثم هو يفعل به ما يشاء.

أما المعونة المالية فهو مرفوضة إذا كان المعان يملك أربعين.

الملكية الخاصة

لم يتعرض أبو ذر ـ في تقريراته للملكية الخاصة ـ بالنسبة للطعام، واللباس والسكن والأنعام لكنه يرى تحريم كنز أي مقدار من الذهب والفضة. وكذلك كان يرى أن تتدخل الدولة بطريقة من الطرق للحد من اقتناء الذهب والفضة، لكنه لا يصر على هذا الموقف بعد تقرير الخليفة الراشد «ولا أجبرهم على الزهد وأدعوهم للاجتهاد والاقتصاد» بل يسكت.

ولقد تركت لنا روايات التاريخ أنه كان يملك مرة ثلاثين فرساً يحمل على نصفها ويجهز الأخرى ليحملها عليها إذا عادت الأولى، وكذلك كان

---

(١) المصدر السابق ج ٥، ص ١٦٨.

يملك مرة ثلة من الغنم، ومولاة، وماهنين، وأربعين درهماً ثم وقف عند هذه الملكية لأنه يتخوف الفضل.

مال الله ومال المسلمين

يرى أبو ذر أنه لا يجوز للدولة أن تسمي المال الذي بأيدي الناس «مال الله» ولو كان كل شيء لله على الحقيقة. وذلك تحاشياً لقيام الدولة بمصادرة الأموال الخاصة بهذه الحجة.

ما وراء الفريضة

يرى أبو ذر رضي الله عنه أنه من واجب الدولة ألا تكتفي بالجانب السلبي من الأخذ بالإسلام، وتأدية الفرائض، إنما عليها أن تطالب المسلمين بالإيجابية في أداء الواجبات والسنن والمندوبات، فلا يكتفي من المسلم أن يسلم الناس من لسانه ويده إنما يندب إلى القيام بالمعروف «ولا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف».

ولا يعتبر من أدى زكاة ماله قد أدى ما عليه، إنما هو أسقط الفريضة عن نفسه، بل ينبغي أن يندب إلى الإحسان إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات بشتى أنواع الإحسان والصلات.

الزهد

يتفق أبو ذر مع عثمان على أنه ليس للدولة أن تجبر الناس على الزهد، لكن الموجهين الإسلاميين في المجتمع الإسلامي يندبون جميع أفراد الأمة إلى الزهد بمعناه الاصطلاحي، ويعبّر عن هذا المذهب سياسة عثمان الاقتصادية «وأدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد».

أما بحق نفسه فلقد ألزم نفسه بألا يزيد رزقه من الطعام والشراب عما كان يأكله على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «كل يوم شربة ماء أو لبن، وفي الجمعة قفيز من قمح»[1].

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ١٦٢.

وفي الملبس كان خُلقاً من أخلاق العرب.

وفي المسكن يعيش في مظلة من شعر ويستنكر على مثل أبي الدرداء أن يبني بيتاً من حجر.

وأثاث المسكن لا يرى منه الداخل لبيته شيئاً من المتاع.

والمال يقتني منه ما يكفي حياته: ثلة من غنم، وماهنين، وأربعين درهماً. ولا بأس باقتناء أكثر من هذا إذا كان في سبيل غاية عظمى كالجهاد في سبيل الله.

أما الجاه فهو أبعد من أن يطلبه إنما مبتغاه الدار الآخرة.

وأما المنكح فلم يجمع مع زوجته أم ذر غيرها كما يظهر من الروايات التي تُحدِّثنا عن حياته في الشام والربذة. ولقد كانت سفعاء سوداء شعثة كما يصفها من رآها معه بالربذة.

الاعتزال عن المدينة:

يرى أبو ذر أن أناساً من الناس - وأبو ذر منهم - عليهم أن يعتزلوا مجتمعات بعينها إذا هم رأوا علامات تجعل حياتهم فيها مرفوضة وذلك ائتماراً بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلذلك خرج من مصر لما رأى رجلين يختصمان في موضع لبنة.. ثم من المدينة لما رأى البناء يصل سلْعاً.

الأعرابية:

يكره أبو ذر أن يرتد المسلم بعد الهجرة إلى مدينة الإسلام أعرابياً، فإذا كان لا بد من اعتزال الناس فليقصد المُعتزل مكاناً ينفرد فيه، لكنه يجب أن يكون قريباً منها فيبقى منعزلاً ويبقى في المدينة، كما أن عليه أن يتردد على المدينة يتعاهدها حتى لا يرتد أعرابياً، فمن بدا جفا.



الباب الثاني عشر

النهاية

وأبو ذر كريم.. «اذبحي شاة يا بنية وأنضجيها فالوعد غير مكذوب» فإذا جاء القوم الصالحون الذين يلون دفنه «فأقريهم الشاة بعد أن تقرئيهم مني السلام». وأبو ذر موقن بأن أحداً لن يكون معه ساعة النزع الأخير...

الفصل الثاني والخمسون

ذكريات الشيخ

أوصاني بخمس: «أرحم المساكين وأجالسهم، وأنظر إلى من تحتي ولا أنظر إلى من فوقي، وأن أصل الرحم وإن أدبرت، وأن أقول الحق ولو كان مراً، وأن أقول لا حول ولا قوة إلا بالله».

أبو ذر الغفاري

تعود بنا الذكريات وقد بلغ الشيخ منتهى حياته الدنيا بعد حياة طويلة حافلة ابتدأت في غفار، قبيلة من سراق الحجيج، كان منها جندب بن جنادة شجاعاً ينفرد وحده بقطع الطرق ويغير على الصِّرم في عماية الصبح على ظهر فرسه أو على قدميه، كأنه السبع، يطرق الحي ويأخذ ما يأخذ.

ومع هذا كان من المتألهين في الجاهلية لم يستطع عقله أن يقبل هذا الهُراء الذي يجعل الناس يتزلفون للأصنام.. فهداه عقله إلى أن يصلي لله قبل أن يلقى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بثلاث سنين.

ويسمع بنبي الله في مكة فيأتيه ليكون خامس من أسلم على يديه، ثم يقف مجاهراً بكلمة الحق ـ لا يخاف جبروت قريش ولا يخشاها ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثم يعود إلى غفار فيسلم أخوه وأمه ونصف القبيلة.. ثم يسلم النصف الباقي أثناء الهجرة. هي قبيلة غفار أسلمت على يديه، وأَسْلَمَتْ اَسْلَمُ على إسلام نظيرتها غفار فكم دعا وكيف بلّغ!.

وبعد سنين يهاجر إلى المدينة ليستقر في الصفة مع أهل الصفة، ويتجرد للجهاد والعلم. لا يأوي إلى مال ولا أهل. ويمتلىء علماً من نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم. ويعيش أبو ذر على ذكريات أيامه مع خليله عليه الصلاة والسلام وأوامره وتعليماته وتوصياته، وكان يبتدئه إذا حضر ويتفقده إذا غاب.

ثم يموت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فينطلق أبو ذر مطبقاً التعاليم وأحكام الإسلام المنبثقة عن عقيدة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» على نفسه ويدعو غيره إلى تطبيقها.

فيعيش في مصر ويخرج منها لرؤية علامة تنبأ له بها رسول الله، ثم يعيش في الشام ويشارك المجاهدين كالملوك على الأسرّة في فتح قبرس.. في البحر بعد البر. ويعود ليعيش في مظلة من شعر في دمشق، ويلاقي أصنافاً من الناس، ويجاهرُ معاويةَ أميرَ الشام بخلافٍ حول شمول آية لليهود ولأمة محمد ويعود إلى الصاحب ذي النورين.. مرحباً وأهلاً بأخي..

ثم يستأذن في الاعتزال فلقد رأى البناء قد وصل سَلْعاً. إنه الإسلام الكامل لأمر الله وأمر رسوله. واختار الربذة فهي مدينة وهي بُعد، وتعود الذكريات الأخيرة إلى تعاهد المدينة لئلا يرتد أعرابياً وها هو ذا في النهاية في الربذة على ثلاثة أيام من المدينة.. هذه المنطقة الهادئة، ذات الماء والكلأ الوفير، والعدد غير الكبير من السكان.

قال المعرور بن سويد: نزلنا بالربذة فإذا[1] بأبي ذر، (قال) رأيتُ عليه بُرداً، وعلى غلامه بُرداً، فقلت:

لو أخذت هذا فلبسته كانت حُلَّة وأعطيته ثوباً آخر. فقال: كان بيني وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فنِلتُ منها، فذكرني إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: أسابيت فلاناً؟.

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ١٥٢.

قلت: نعم.

قال: أفنِلتَ من أمه؟.

قلت: نعم[1].

قال: إنك امرؤ فيك جاهلية.

قلت: على حين ساعتي هذه من كبر السن؟.

قال: نعم، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه»[2].

وتراه يقول أيضاً: «أوصاني بخمس:
أرحم المساكين وأجالسهم،
وانظر إلى من تحتي ولا أنظر إلى من فوقي،
وأن أصل الرحم وإن أدبرت،
وأن أقول الحق وإن كان مرّاً،
وأن أقول لا حول ولا قوة إلا بالله»[3].

عن أبي ذر قال:

«كنت ردف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حمار وعليه برذعة أو قطيفة»[4].

ويذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن عيسى ونزوله في آخر الزمان فيؤكد لجلسائه قائلاً:

---

(١) وفي رواية الذهبي «من سابّ الرجال ذُكر أبوه وأمه» شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ١٥٢.

(٢) صحيح البخاري، ج ٨، ص ١٩.

(٣) شمس الدين الذهبي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٤.

«ما يُؤيِسُني رقة عظمي، ولا بياض شعري أن ألقى عيسى بن مريم»[1].

عن أبي عثمان النهدي قال: رأيت أبا ذر يميد على راحلته وهو مستقبل مطلع الشمس فظننته نائماً فدنوت منه وقلت:

أنائم أنت يا أبا ذر؟.

قال: لا بل كنت أصلي»[2].

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧.

الفصل الثالث والخمسون

وفاة أبي ذر

وصدعت البنت بالأمر، فذبحت شاة، وطبختها، وذوبت المسك بالماء، ونظفت الخباء، ورتَّبَتْه، ونضحته بماء المسك، ونظرت إلى القدر فإذا باللحم قد نضج. والآن:

- انظري، هل ترين أحداً؟.

- نعم. هؤلاء ركب مقبلون.

- فاستقبلي بي الكعبة.. بسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله.

حان الأجل المحتوم وأحس الصحابي الزاهد بدنوه، وعصفت به الذكريات، وتذكر نبوءة من نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه يموت وحده، ونبوءة أخرى بأن يلي دفنه قوم صالحون.

هما ساعتان متتاليتان إذن.. يموت وحده، ويلي دفنه قوم صالحون.

ولا بد من وقوع نبوءات النبي، فما كان صلى الله عليه وآله وسلم ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. وبالتقدير الإلهي خلت الربذة ممن يجاور أبا ذر ذلك اليوم.. وسيموت أبو ذر - لو كان وحده! - لكن ابنته معه موجودة، فيجب أن تخرج المرأة ليموت وحده وتصدق النبوءة.

والنبوءة الثانية لا بد أن تتحقق هي أيضاً، وهي أن قوماً صالحين سيلون دفنه وهو وعد - عند أبي ذر - غير مكذوب.

«استشرفي يا بنية فانظري هل ترين أحداً؟» فإذا جاء الجواب: لا، قال: «فما جاءت ساعتي بعد».

فلا بد من أمرين اثنين: أن يموت وحده، وأن يلي دفنه قوم صالحون.

وأبو ذر كريم، اذبحي شاة يا بنية وأنضجيها فالوعد غير مكذوب، فإذا جاء القوم الصالحون الذين يلون دفنه فأقريهم الشاة بعد أن تقرئيهم منه السلام، وأبو ذر موقن بأن أحداً لن يكون معه ساعة النزع الأخير. هذه واحدة.

وكذلك سيشهد موته ملائكة الرحمن وهم رسل كرام لا يأكلون ولا يشربون، لكنهم يسرون بالريح الطيب والمنظر الحسن، وهي ساعة كريمة ومناسبة عظيمة.. أن يترك أبو ذر دار الفناء والشقاء لينتقل إلى دار البقاء والهناء، والملائكة لا بد حاضرون، فخذي يا بنية هذه المسكة - مهما كان المسك غالياً ونادراً - فذوبيها بماء ونظفي الخباء، وانضحيه بماء المسك استعداداً للمناسبة الكريمة واستقبال الضيوف، الملائكة والقوم الصالحين.

وصدعت البنت بالأمر فذبحت شاة وطبختها وذوبت المسك بالماء ونظّفت الخباء ورتبته ونضحته بماء المسك. ونظرت إلى القدر فإذا باللحم قد نضج. والآن.

«انظري. هل ترين أحداً؟».

«نعم هؤلاء ركب مقبلون».

إنه الركب المنتظر يلوح في الأفق تصديقاً لنبوءة النبي.

الله أكبر جاءت الساعة وحان الأجل.

«فاستقبلي بي الكعبة» إذن.

ما أروع هذا الالتزام بكل أمر أو ندب ندب إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. حتى في التوجه عند الموت.

وأخذ أبو ذر يردد - وقد احتوشته ملائكة الرحمن - في جو تفوح منه رائحة المسك من كل جهات الخباء «بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

وتركته ابنته وخرجت إلى الركب المقبل، فمات وحده.

هي النبوءة الأولى.

ووصل القوم الصالحون على رأسهم عبد الله بن مسعود، فتولوا غسله وتكفينه ودفنه والصلاة عليه.

وهي النبوءة الثانية.

فلما تم الأمر ووري أبو ذر بالتراب أرادوا أن يرتحلوا فإذا بكرم الكريم أبي ذر يلاحقهم ويعزم عليهم على لسان ابنته:

إن أبا ذر يقرأ عليكم السلام وأقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا.

هذا المشهد الكريم الأخير من حياة أبي ذر وموته رضي الله عنه لم يكن خيال مؤلف، وما كان حديثاً يفترى إنما تشهد به روايات التاريخ الموثوقة عن أصح أسانيد الطبري حيث قال: «لما حضرت أبا ذر الوفاة.. نزل بأبي ذر. فلما أشرف قال لابنته: استشرفي يا بنية هل ترين من أحد؟.

قالت: لا.

قال: فما جاءت ساعتي بعد.

ثم أمرها فذبحت شاة ثم طبختها.

ثم قال: إذا جاءك الذين يدفنوني فقولي لهم إن أبا ذر يقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا.

فلما نضجت قدرها قال لها: انظري هل ترين أحداً؟.

قالت: نعم، هؤلاء ركب مقبلون.

قال: فاستقبلي بي الكعبة.

ففعلتْ. وقال: بسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم خرجت ابنته فتلقتهم وقالت:

رحمكم الله، اشهدوا أبا ذر.

قالوا: وأين هو؟.

فأشارت إليهم وقد مات: فادفنوه.

قالوا: نعم، ونعمة عين. لقد أكرمنا الله بذلك.

وإذا ركب من أهل الكوفة فيهم ابن مسعود فمالوا إليه وابن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يموت وحده، ويبعث وحده.

فغسلوه، وكفنوه، وصلوا عليه، ودفنوه، فلما أرادوا أن يرتحلوا قالت لهم: إن أبا ذر يقرأ عليكم السلام، وأقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا.

ففعلوا، وحملوهم، حتى أقدموهم إلى مكة. ونعوه إلى عثمان. فضم ابنته إلى عياله، وقال: يرحم الله أبا ذر، ويغفر لرافع بن خديج سكونه»[1].

أما الحلحال بن ذري أحد شهود العيان فيروي تفصيلاً عن واقعة الوفاة يقول فيما رواه الطبري[2]:

«خرجنا مع ابن مسعود سنة إحدى وثلاثين ٣١ هـ ونحن أربعة عشر راكباً حتى أتينا على الربذة، فإذا امرأة قد تلقتنا فقالت: اشهدوا أبا ذر. (وما شعرنا بأمره، ولا بلغنا).

فقلنا: وأين أبو ذر؟.

فأشارت إلى خباء فقلنا: ما له؟.

قالت: فارق المدينة لأمر قد بلغه فيها ففارقها.

قال ابن مسعود: ما دعاه إلى الأعراب؟.

فقالت: أما إن أمير المؤمنين قد كره ذلك، ولكنه يقول هي بُعد، وهي مدينة.

فمال ابن مسعود إليه وهو يبكي، فغسلناه، وكفناه، وإذا خباؤه منضوح بمسك، فقلنا للمرأة: ما هذا؟.

فقالت: كانت مسكة، فلما حضر قال: «إن الميت يحضره شهود يجدون الريح ولا يأكلون، فدوفي[3] تلك المسكة بماء ثم رشي بها الخباء،

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر، ط ١٩٣٩) ج ٣، ص ٣٥.

(٢) عن السري عن شعيب عن سيف عن عطية عن يزيد الفقعسي.

(٣) الدَّوف: الخلط والبلّ بماء ونحوه. دُفْته فهو مِسْكٌ مَدوف ومَدووف أي مبلول أو مسحوق.

فأقريهم[1] ريحها، واطبخي هذا اللحم، فإنه سيشهدني قوم صالحون يلون دفني فأقريهم.

فلما دفناه، دعتنا إلى الطعام، فأكلنا وأردنا احتمالها، فقال ابن مسعود: أمير المؤمنين قريب، نستأمره[2].

فقدمنا إلى مكة، فأخبرناه الخبر، فقال:

يرحم الله أبا ذر ويغفر له نزوله بالربذة.

ولما صدر خرج فأخذ طريق الربذة، فضم عياله إلى عياله، وتوجه نحو المدينة. وتوجهنا إلى العراق»[3].

---

(١) القِرى: طعام الضيف.

(٢) وهذا أدب من أدب الصحابة مع بعضهم حاكمين ومحكومين.

(٣) وكان الذين حضروا هذا المشهد الكريم كما يروي أحد الشهود ـ وهو الحلحال بن ذري ـ: ابن مسعود، وأبو مفرز التميمي، وبكر بن عبد الله التميمي، والأسود بن يزيد النخعي، وعلقمة بن قيس النخعي، والحلحال بن ذري الضبي، والحارث بن سويد التميمي، وعمرو بن عتبة بن فرقد السُلمي، وابن ربيعة السُلمي، وأبو رافع المزني، وسويد بن شعبة التميمي، وزياد بن معاوية النخعي، وأخو القرثع الضبي، وأخو معضد الشيباني، عن محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٥٢.

أما رواية قصة نقاش حدث بين أبي ذر رضي الله عنه مع ناس حضروا وفاته فهي رواية تخالف الحق الذي تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تبوك في موت أبي ذر رضي الله عنه «ويموت وحده» ولهذا تعتمد رواية الطبري التي تطابق النبوءة الصادقة، ويُرد ما سواها.

الفصل الرابع والخمسون

تركة أبي ذر

ترك أتانين وحماراً. وأعنزاً وركائب.
شمس الدين الذهبي

الثروة غادية رائحة تزيد وتنقص والعطاء متواصل كل عام يدفع لكل مسلم من الرعية والخير وفير. وأبو ذر زاهد أقطعه عثمان حين التحق بالربذة صرمة من الإبل وأعطاه مملوكين. فخط في الربذة مسجداً حال وصوله إليها[١].

وكان يتسلم كل يوم عظماً مما أجراه عليه عثمان في إبل الصدقة التي كانت تموج في الربذة[٢].

وقد سئل مرة أخرى على ملكيته الشخصية من المال فقال: «صرمة من الغنم، وقطيع من الإبل في أحدهما غلامي وفي الآخر أمتي»[٣].

ومرة أخرى جاء رجل فعرض عليه نفقة فقال أبو ذر:

عندنا أعنز نحلبها، وحمر تنقل، ومحررة تخدمنا، وفضل عباءة عن كسوتنا، إني أخاف أن أحاسب على الفضل»[٤].

«وكان عطاؤه أربعة آلاف»[٥].

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٣٦.
(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٧.
(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣٧.
(٤) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ١٦٣.
(٥) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٥٣.

وعندما احتضر أبو ذر رضي الله عنه طلب من ابنته أن تقري جميع الضيوف فأعطاها قطعة مسك وطلب منها تذويبها بالماء لترش بها الخباء.. وتقري بها الملائكة.

ثم أمرها فذبحت أمامه إحدى الشياه وطبختها بانتظار وصول الركب الموعود.

ثم مات بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ودخل الركب خباء نظيفاً منضوحاً بمسك، ففوجئوا بهذا الأدب وهذا الكرم. فطعام الضيفان جاهز ناضج والقرى يشمل الملائكة أيضاً.

رحمك الله أبا ذر ورضي الله عن أبي ذر.

فكم كانت ثروة أبي ذر يوم مات، ومن أين كان يقري هؤلاء الضيوف؟.

«عن ابن سيرين: سألت ابن أخت لأبي ذر: ما ترك أبو ذر؟

قال: ترك أتانين، وحماراً، وأعنزاً، وركائب»[1].

إذن فلقد ترك أبو ذر ميراثاً.. أتانين وحمار[2] وأعنزاً وركائب. ولم يترك رضي الله عنه صفراء ولا بيضاء.. ولم يذكر في رواية أنه ترك فلوساً أيضاً فحياته في الربذة لا تحتاج لفلوس إذ لا مدنية عنده ولا بيع ولا شراء.

---

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠.

(٢) وفي رواية ابن سعد: «ترك أتانين وعفواً وأعنزاً وركائب» قال: العفو: الحمار الذكر. عن كتاب محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت) ج ٤، ص ٢٣١.

الفصل الخامس والخمسون

كان أبو ذر

كان شحيحاً على دينه، حريصاً على العلم، يكثر السؤال، وعجز عن كشف ما عنده من العلم.

علي بن أبي طالب

وُلِدَ أبو ذر وعاش ومضى.. كما يمضي كل أفراد البشر إذ قضي عليه الموت. وبقي له في هذه الحياة الدنيا ذكر بين الناس؛ كان أبو ذر..

يقول الذهبي عن أبي ذر: «كان رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل قوالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم، على حدة فيه»[1].

وركب رجل من البصرة إلى أم ذر بعد وفاة أبي ذر يسألها عن عبادة أبي ذر، فأتاها فقال: جئتك لتخبرني عن عبادة أبي ذر رضي الله تعالى عنه.

قالت: كان النهار أجمع خالياً يتفكر»[2].

وعندما سئل علي عن أبي ذر ـ من بعد ـ قال فيه:

«وعى علماً عجز عنه، وكان شحيحاً على دينه، حريصاً على العلم يكثر السؤال، وعجز عن كشف ما عنده من العلم»[3].

عن علي أنه قيل له: حدثنا عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ١، ص ٣٢.
(٢) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ٤١.
(٣) شمس الدين الذهبي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢.

وسلم حدثنا عن أبي ذر، قال: «علم العلم ثم أوكى[1] فربط عليه رباطاً شديداً»[2].

و «عن علي: أبو ذر وعاء ملىء علماً ثم أوكي عليه، فلم يخرج منه شيء حتى قبض»[3].

---

(1) شمس الدين الذهبي، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢.

(2) أوكى: شد عليه بالوكاء، وهو سير أو خيط يشد به فم السقاء أو الوعاء.

(3) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢.



الجزء الثالث

أبوذرّ والمزوّرون الجُدُد

لكن الحزب السبئي الباطني قام بإشاعة حديث مفترى وقصص مزورة وذلك باختراع شخصية خرافية ليس لها ولا لصاحبها في التاريخ الإسلامي نصيب، وأسموا هذه الشخصية الخرافية «أبو ذر الغفاري».

أَبُوذَرّ وَالمزَوِّرُونَ الجُدُد

﴿محمد رسول الله، والذين معه: أشداء على الكفار، رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. سيماهم في وجوههم من أثر السجود. ذلك مثلهم في التوراة. ومثلهم في الإنجيل: كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار... ﴾. سورة الفتح: ٢٩.

في الجزأين الأول والثاني من كتاب «هذا أبو ذر» رافقنا الصحابي الجليل رضي الله عنه في مسيرة حياته الحافلة بالأحداث، مذ كان قاطع طريق في قبيلة جاهلية متخصصة بقطع الطريق.. مروراً بإسلامه في مكة، وتدربه العملي على الحياة الإسلامية مع أهل الصفَّة تحت أنظار محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ثم تابعناه إلى مصر والشام، ثم المدينة والربذة، وأطللنا على مشهد وفاته رضي الله عنه في جو من الكرم ورائحة المسك تملأ أرجاء الخباء ونواحيه، فيموت وحده لا يشهده إلا ملائكة الرحمن في موكب بار كريم، ويلي دفنه قوم صالحون.

لقد رافقنا الصحابي الجليل ـ رضوان الله عليه ـ كل هذه المدة فرأينا فيه نسخة صحابية مسلمة تخرجت من مدرسة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، تعلِّم البشرية قولاً وحالاً وعملاً أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، بكل التزامات الإيمان بها عقيدة وشريعة وتنفيذاً. وهكذا كان أبو ذر رضي الله عنه جندياً نمطياً من جنود هذه الدعوة ملتزماً بمبادىء هذا الدين منسجماً مع تعاليمه ملتزماً بطاعة قيادة دولته كائنة من كانت إذا ما توفر في هذه القيادة

صحة الإسلام.. حتى ولو تمثلت هذه القيادة بعبد مجدع الأطراف.. إذ لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فكيف وقد كانت قيادة هذه الدولة قيادة راشدة في عهود الإسلام التي عاشها أبو ذر عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعهد الخلفاء الراشدين المهديين الثلاثة من بعده؛ أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين!.

عندما اعتنق أبو ذر رضي الله عنه الإسلام تخلّل هذا الإسلام في كل ذرات كيانه.. وعاش من أجله وبقي مستعداً للموت - طوال كل لحظة عاشها - في سبيل هذا الدين. تشهد كل حركة وسكنة من حركاته وسكناته بالتصديق اليقيني بكل ما جاء به أو أعلنه أو تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.. حتى وفاة أبي ذر كان فيها تصديق نبوءتين خلال ساعة من الزمن. فقد «مات وحده» لا يشهده - سوى ملائكة الرحمن - أحد من البشر حتى ابنته التي كانت ملازمته إلى دقائق معدودة. ووصله مباشرة قوم صالحون تولوا غسله وتكفيه والصلاة عليه ودفنه.

لكن الحزب السبئي الباطني قام بإشاعة حديث مفترى وقصص مزورة، وذلك باختراع شخصية خرافية ليس لها ولا لصاحبها في التاريخ الإسلامي نصيب وأسموا هذه الشخصية الخرافية «أبو ذر الغفاري» ثم أسموا شخصيات أخرى - في خرافاتهم المفتراة هذه - أسماء «عثمان وعلي ومعاوية وفلان وفلان» أسماء لا تعلق بينها وبين ما نعرفه من شخصيات صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا التعلق من حيث مشابهة الاسم.

ونسج الحزب السبئي الباطني تواريخ لهذه الأسماء.. أسقطوا على كل منها كل سبّة ومنكر رأي، يريدون بهذا تنفير أجيال المسلمين اللاحقة من أبطال أجيال المسلمين السابقة. ذلك ليصلوا من ثم إلى قطع صلة اللاحقين بالسابقين، وقطع صلة المسلمين بالإسلام كله.. الإسلام المنقول علماً وقولاً وحالاً وعملاً عن طريق هؤلاء السابقين الميامين.

الفصل السادس والخمسون

هذا الجزء من البحث

كثر الكلام، وتعددت الحكايات عندما قدم تاريخ المسلمين للناس بالصورة الموجودة المتداولة بين أيدي الناس اليوم.

وعظم الخطب عندما أصبح «المؤلف» يعتنق الفكرة أولاً، ثم يختار القصة التي توافق فكرته من بين القصص العديدة للواقعة الواحدة، ويبحث من ثم عن «الدليل» الذي يُخضع إخضاعاً، ويلوى عنقه لياً، ليصبح شاهداً للمؤلف على صحة الرواية الخادمة لفكرة المؤلف ومذهبه وهواه.

وتفاقمت المصيبة عندما أصبح المؤلف يجتهد في «وضع» قصة جديدة ـ إن أعياه التنقيب عن قصة قديمة ـ يتصنع عند وضعها سمات المؤلفين العبقريين ويتزيى بزي «العلمية» والموضوعية، وربما يأخذ «المؤلف» في تلفيق حكاية، ينقل شيئاً منها عن بعض من سبقوه، ويزيد فيها من خياله، ويسقط عليها من هواه ما شاء، فيتحف الناس «بقصة تاريخية» يبني عليها الأحكام التاريخية و «التحليلات العلمية» أحكاماً وتحليلات لا تمت «للواقع» بصلة، ولا إلى «التاريخ» بسبب.

ولقد أصاب الصحابي الجليل «أبا ذر الغفاري» رضي الله عنه ما أصاب باقي إخوانه الصحابة الكرام كثير من الكلام في الآونة الأخيرة، فمُدح وسُب، وصُدِّق، وكُذِّب، وقُوِّل أقوالاً لم يسمع بها، وأُخرس عن أقوال كان أوقف حياته من أجلها.

ويقع هذا الجزء من الكتاب «أبو ذر والمزورون الجدد» في موقع توضيح التباين والتضارب والتناقض بين أقوال «المؤلفين» بل وكتابات المؤلف الواحد في الكتاب الواحد، وربما في الصفحة الواحدة. فيكشف للقارىء أناساً معاصرين يحترفون «تزوير التاريخ» ـ هكذا في وضح النهار ـ فيستطيع القارىء أن يلقي نظرة مقارنة على هذه الكتابات فإذا اطلع بنفسه على جريمة التزوير تقع تحت عينيه وبصره، أجال فكره فيما كتب السابقون. فيشك في مجملها شكاً نرجو أن يؤدي به إلى يقين عندما يتحرى صدق الرواية وصحة السند فيما يتلقى بعدها من «تاريخ» فليس التاريخ عند المسلم أقاصيص يتسلى المرء بسماعها وتردادها، ولا هو نوادر ولهو حديث «يقتل» بها الوقت كما يقتله بالألعاب والملاهي، إنما يؤخذ التاريخ من قبل المسلم على اعتباره «وقائع ثابتة» تأخذ منها الأجيال الحاضرة دروساً وعبراً مما وقع مع الأجيال الغابرة. فتتدارك الأجيال الحاضرة ما فات الغابرين إن كان الغابرون مقصرين، أو يجتهد الحاضرون في الاقتداء بالسابقين ليصلوا إلى الخير الذي حصله السابقون بجهدهم واجتهادهم.

﴿لقدْ كان في قَصَصِهم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾ «سورة يوسف: ١١١».

﴿واتلُ عليْهم نبأ الذي آتيناه آيتنا فانسلَخَ منها فأتبعَهُ الشيطانُ فكانَ منَ الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنَّهُ أخلدَ إلى الأرض واتَّبع هواهُ فمثله كمثلِ الكلبِ إن تحملْ عليهِ يلهثْ ويتركْهُ يلْهثْ ذلكَ مثلُ القومِ الذين كذَّبوا بآيتنا فاقْصُص القَصَصَ لعلَّهمْ يتفكَّرون * ساءَ مَثلاً القومُ الذين كذَّبوا بآيتنا وأنفُسَهم كانوا يَظلِمون﴾ «سورة الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧».

﴿أولَمْ يَسيروا في الأرض فينظروا كيفَ كانَ عقبةُ الذينَ مِنْ قبلهم كانوا أشدَّ منهُم قُوَّةً وأثاروا الأرضَ وعَمَروها أكثرَ مِمَّا عَمروها وجاءَتْهم رُسُلُهم بالبيِّنات فما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثُمَّ كانَ عقبةُ الذينَ أساؤوا

السُّوأى أنْ كذَّبوا بآياتِ اللهِ وكانوا بها يستهزئون * ﴾ «سورة الروم: ٩ ـ ١٠».

﴿ وعَدَ اللهُ المنٰفقين والمنٰفقٰتِ والكفّار نـارَ جهنَّم خٰلدين فيها هيَ حسْبُهم ولَعَنهم اللهُ ولهم عذابٌ مقيم * كالذين من قبلكُم كانوا أشدَّ منكم قوَّةً وأكثرَ أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقِهم فاستمتعتم بخلاقِكُم كما استمتَعَ الذينَ من قبلِكم بخَلاقِهمْ وخُضتُم كالذي خاضوا أولئكَ حبِطَتْ أعمٰلهم في الدنيا والآخرة وأولئكَ هُمُ الخاسِرُون * ألَم يَأْتِهِم نَبَأُالَّذين من قبلِهم قوم نوح وعاد وثمودَ وقومَ إبراهيمَ وأصحابِ مدْيَنَ والمؤتفكاتُ أتَتْهُم رُسُلهم بالبيِّناتِ فما كان اللهُ لِيَظلمهم ولكن كانوا أنفُسَهم يَظلمون * ﴾ «سورة التوبة: ٦٨ ـ ٧٠».

طريقة البحث

إذا كنت ناقلاً فالصحة أو مدَّعياً فالدليل.

قدمنا في الجزئين من كتاب «هذا أبو ذر» قصة حياة أبي ذر رضي الله عنه كاملة من خلال ما رواه الثقات من المسلمين الذين التزموا بالتحري عن صدق الرواية وصحة السند. وذلك لكي يتيسر لمن يريد وجه الحق ـ ولا شيء سوى الحق ـ أن يكتفي بهذه الترجمة الأمينة لحياة أبي ذر ومواقفه وآرائه.

أما في الجزء الثالث من الكتاب «أبو ذر والمزورون الجدد» فلقد أثبتنا واحداً وسبعين نصاً اقتطعناها من «كتب» المزورين. ووضعنا لها أرقاماً متسلسلة ليسهل على القارىء أمر الرجوع إليها من أجل المقارنة والتحليل.

ففي الباب الأول أثبتت عشرة نصوص، أولها نص من كتاب المسعودي ـ المتوفى عام ٣٤٦ هـ ـ في «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وبقية النصوص العشرة من كتاب العاملي «أعيان الشيعة» الذي نشر طبعته الأولى في الأربعينات من هذا القرن العشرين للميلاد. ذلك لأن هذين الكتابين هما أصل البلاء ومصدر فتنة المزورين الجدد.

وفي الباب الثاني أتبعنا نصوص المزورين الجدد وهي نصوص كتب ستة ظهرت بين عامي ١٩٤٠ ـ ١٩٨٠ م اشتركت جميعها بعنوان واحد «أبو ذر الغفاري».

ولقد مهدنا لأكثر النصوص بكلام يسبقها قبل إثباتها، كما أجَّلنا التعليق على بعضها إلى ما بعد إثبات النص.

ولم نعتبر هذه التعليقات الطفيفة ـ التي اضطررنا إليها اضطراراً ـ نقداً لهذه الكتب أو لمؤلفيها، بل تركنا هذه المهمة ـ قاصدين ـ على عاتق القارىء المنصف، ذلك لأن «النقد» مهمة كتاب غير هذا الكتاب.

ويستطيع القارىء أن يلمس ـ ببساطة ـ التناقض والتضارب ـ حتى في النص الواحد ـ كما يرى تولد كلام المتأخرين من كلام المتقدمين، وأهم من هذا وذاك يتوضح للقارىء وحدة هدف المؤلفين المزورين جميعاً[1] في الإصرار على تضليل القارئين وتكثير الأقاصيص لتضيع الشخصية الإسلامية الحقيقية لأبطال التاريخ الإسلامي، ويبقى الغموض والضلال ـ وقد يكفيهم هذا ـ إن هم لم يستطيعوا أن يتوصلوا بالقارىء إلى احتقار هذه الشخصيات.

قيود البحث

لكن هذا الجزء من الكتاب «أبو ذر والمزورون الجدد» لم يتعرض للمزورين القدامى «سوى ما جاء في الباب الرابع عشر عن المسعودي».

ولم يتعرض لما أصاب الشخصيات الصحابية الكريمة ـ غير شخصية أبي ذر ـ من تزوير إلا من حيث تعلقها بشخصية أبي ذر موضوع الكتاب.

ولم يتعرض لما شوه به تاريخنا أو زورت به شخصياته عن طريق الخرافات الشعبية والقصائد الشعرية والمقالات الأدبية والمسرحيات المأساوية الهزلية، والأفلام السينمائية!.

إنما اقتصر الكلام والمناقشة على ما طبع باللغة العربية على شكل «كتاب» مستقل سماه طابعوه «أبو ذر الغفاري» واقتصرت فترة ملاحقة الكتب المطبوعة ما ظهر منها بين عامي ١٩٤٠ ـ ١٩٨٠ م.

---

(١) بعض هؤلاء المؤلفين سيئو الكتابة، سيئو النية، سيئو الطوية، وبعضهم مغرر بهم لنقص في أدوات التمييز عندهم، ولا نزكي على الله أحداً فنحن البشر لنا الظاهر والله يتولى السرائر.

البَابُ الثالثُ عَشَرَ

صُورَة وتصَاويـر

سنقدم صورة حقيقية بشهادة مبدعها سبحانه وتعالى للصحابة الكرام. وتصويرات المزورين من خلال النصوص المنقولة بعدها لهؤلاء الصحابة الكرام ليسهل على القارىء مقارنة الحق بالباطل.

صُورة وتصَاويـر

أبدعت يد أحسن الخالقين صوراً لصحابة نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، جعلها ـ سبحانه ـ نماذج حية لمن باع لله نفسه وماله، فكان كما يريد الله أن يكون: مسلماً لله حقاً، منقاداً ممتثلاً لأمر الله ونهيه بدون اعتراض، فكان الصحابة الكرام أنواراً إسلامية تضيء الطريق للبشرية كافة وتؤكد لها أن تطبيق هذا الدين على البشر ميسور وسهل لمن هداه الله إليه.

لكن أعداء الإسلام من الباطنيين انتدبوا نوابغهم وسفلتهم لابتداع شخصيات مسرحية خرافية، أضفى عليها هؤلاء المزورون كل ما فاضت به قرائحهم من سوء ـ والإناء بما فيه ينضح ـ لتنشيء للناس «أبطالاً» و«شخصيات مسرحية» لم يغادر المزورون الباطنيون معرّةً أخلاقية، أو سوءة طبعية؛ إلا وصم المزورون «أبطالهم» بها، وسمى كل مزور من هؤلاء المزورين المبتدعين «أبطال» مسرحيته الباطنية بأسماء الصحابة نفسها، وحدد لمسرحيته الباطنية زماناً ومكاناً هو زمان التاريخ الإسلامي الأول ومكانه نفسه.

وجاءت تأليفات الباطنيين المزورين قصصاً وأساطير تنافس قصة الحقيقة في أذهان العامة من المسلمين، فجاءوا على التاريخ الإسلامي بدم كذب، وسولت لهم أنفسهم أمراً خبيثاً، فأصبح بصعب على راوي الحقيقة أن يصل إلى صفاء الذهن عند المسلمين ليعلمهم أن ما يتداوله «الناس» من «حكايا» إنما هي أقاصيص وأساطير مفتراة ابتدعها الباطنية ابتداعاً، وألّفتها قرائح نوابغهم تأليفاً لا يمتّ لتاريخ بصلة، ولا إلى حق بسبب؛ اللهم إلا الاختيار

الأثم من المؤلفين الباطنيين لأسماء أبطال المسرحية وزمانها ومكانها، وإلا فإن قصص المزورين لا أصل لأسماء أبطالها ولا لزمانهم ولا لمكانهم إلا في نفوس الباطنية الأمّارة بالسوء.

ورضي الله عن صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذين أبدعتهم يد العناية الربانية ليكونوا أول المستجيبين لدين الله ورسالته ودعوته، الذين وعوا الدين الحنيف وكانوا جنوده وبُناة دولته.

ولعنة الله على الكاذبين الذين ابتدعوا شخصيات مسرحياتهم ابتداعاً ليصدوا عن سبيل الله ودينه من آمن يبغونها عوجاً.

الفصل السابع والخمسون

خطورة التزوير

إنا نريد أن نطعن على الناقلة، فإذا بطلت الناقلة أوشك أن نبطل المنقول.

شاكر الزنديق

ولقد أدت عمليات التزوير دوراً خطيراً في ذهنية عامة المسلمين على مر التاريخ، فأصبح تاريخ المسلمين ـ بفضل المزورين ـ أحجية يصعب حلها في أذهان الأجيال المتعاقبة للمسلمين، فالصحابي جليل المكانة في ذهنية المسلم، أما الشائع في حكايا الناس وأدوات الإشاعة فغير هذا، فكيف يوفق المسلم بين هذه المكانة وتلكم الأعمال السيئة التي «يرويها لنا التاريخ»! لذلك سنقدم في الفصل التالي صورة حقيقية بشهادة مبدعها سبحانه وتعالى للصحابة الكرام، وتصاوير المزورين ـ من خلال النصوص المنقولة بعدها ـ لهؤلاء الصحابة الكرام ليسهل على القارىء مقارنة الحق بالباطل، وصدق الله العظيم ولعنة الله على الكاذبين.

تنبع كل روايات المزورين في تصويرهم لتاريخ الصحابة من مبدأ أساسي ذي هدف واحد تعبر عنه عبارة شاكر الزنديق الذي قُدم ليُقتل بين يدي أمير المؤمنين هرون الرشيد إذ سئل عن سبب قيامه وحزبه بالطعن بالصحابة فأجاب: «إنا نريد الطعن على الناقلة، فإذا بطلت الناقلة أوشك أن نبطل المنقول»[1].

---

(١) أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ٤، ص ٣٠٨.

فلقد وصل القرآن الكريم للأجيال الإسلامية من بعد عن طريق صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتابعين لهم بإحسان، وتقبلته الأجيال لثقتها بهؤلاء الأمجاد الأمناء، فإذا قطعت السبئية حبل الثقة بين أجيال المسلمين والصحابة والتابعين؛ فتح باب الشك بالقرآن نفسه، ولا يخفى أن قبول المسلمين للقرآن معتمد على صحة المتن والثقة بالسند، فإذا شكك السبئية بالسند فتح الباب أمامهم للتشكيك بالقرآن، والتشكيك إذا قام به كافر صريح صُد وَجُوبِهَ. من عامة المسلمين مباشرة، ولم يقبل ولم يناقش تحرجاً من ضياع الوقت مع عدو للدين معروف، همه التشكيك والكذب، أما إذا هو أتى ممن يعرف بين الناس بالإسلام فقد أصبح خطره عظيماً، لعدم تحرج الناس من مناقشته أو سماعه. فلذلك ترى الحزب السبئي قد ادعى أعضاؤه الإسلام ـ على مر التاريخ ـ وقام بما قام من الفتن والتزوير، فإذا ما كشف أمر بعضهم تظاهروا بالانتساب إلى فرقة من فرق المسلمين وطائفة منهم، وادعوا أنهم على خلاف مع حكام الأمة الحاليين على قضايا «إسلامية» يريدون تصفية الحساب معهم على أساسها.

ففي القول المنسوب للشعبي يعتبرهم من الملة الإسلامية ويعجب من موقفهم هذا الذي لم يقف مثله اليهود والنصارى فتراه يقول: «وفضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين:

سئلت اليهود: من خير أهل ملَّتكم؟.

قالوا: أصحاب موسى.

وسئلت النصارى: من خير أهل ملَّتكم؟.

قالوا: حواريي عيسى.

وسئلت الرافضة: من شر أهل ملَّتكم؟.

قالوا: أصحاب محمد.

أمروا بالاستغفار لهم فسبّوهم»[1].

---

(١) تقي الدين بن تيمية الحراني، منهاج السنّة (مكتبة خياط، بيروت، لبنان) ج ١، ص ١٧.

لكن العجب يزول من أذهاننا عندما نقرر أن هؤلاء الطاعنين السبابين ليسوا من المسلمين وليسوا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام[1]؛ فلا غرابة ولا عجب إذ يصف السبئية الصحابة بهذه الأوصاف ويسبونهم بهذا السباب، وليس غريباً على أعداء الإسلام هؤلاء أن يطعنوا بالصحابة هذا الطعن، فلقد تجرأ إخوانهم من الكفار بالطعن بمحمد النبي عليه وآله الصلاة والسلام. وسنستعرض فيما يلي صورة صادقة لكل من صحابة أربعة من الصحابة الكرام أبدعتها يد أحسن الخالقين وهم: عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، معاوية بن أبي سفيان، أبو ذر الغفاري رضي الله عنهم أجمعين.

سنستعرض الصورة الصادقة لكل منهم كما أبدعتها يد أحسن الخالقين، وشاهدُنا عليها كتاب الله عز وجل، مع شيء من التفصيل من شهادات الثقات من المسلمين، تلكم الشهادات التي تتفق مع قرآن ربهم ولا تضاربه ولا تناقضه.

ثم نأتي بالخطوط الأساسية للتصاوير السبئية المشوهة لصورة كل واحد من هؤلاء الأربعة، حيث يمكن للقارىء أن يطلع على تفاصيلها في متون ما رووا وألفوا عنهم؛ سواء في النصوص الواحدة والسبعين التي أثبتت في هذا الكتاب نقلاً عنهم، أو في أصول «كتبهم» التي «أبدعوها» طعناً في الصحابة وتزويراً للتاريخ.

---

(١) ذلك أن أول هذه الأمة هم الذين قاموا بالدين، تصنيفاً وعلماً وعملاً وتبليغاً، فالطعن فيهم طعن في الدين موجب للإعراض عما بعث الله به النبيين.

الفصل الثامن والخمسون

الصورة

﴿ مُحَمَّدٌ رسولُ الله والذينَ مَعهُ أشِدَّاءُ على الكُفّارِ رُحماءُ بينَهم. . . ﴾

سورة الفتح: ٢٩

لما كنا مسلمين مؤمنين برب العالمين فإن صورة الصحابة الكرام المأخوذة من كتاب الله سبحانه وتعالى أصدق القائلين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هي صورة الحقيقة، وما خالفها من تصاوير الناس مجانب للحقيقة والواقع بمقدار ما يجانب هذا التصوير الصورة الحقيقية الواقعية.

أما الصورة فإن الله سبحانه وتعالى يصف نبيه عليه الصلاة والسلام وصحابة نبيه رضوان الله عليهم أجمعين بما يلي:

﴿ محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشدَّاءُ على الكفّار رحماءُ بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ «سورة الفتح: ٢٩».

ويبين عز وجل ـ أيضاً ـ الرضوان المتبادل بين الخالق والمخلوقين من الصحابة فيقول فيهم ﴿ والسابقون الأولّون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ «التوبة: ١٠٠».

وجعلهم أيضاً قدوة الأمم، فهم في ذروة العلو والتفوق وهم المثل الأعلى للبشرية جميعاً كما أن الرسول مثلهم الأعلى، فهم شهداء على الناس ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شهيد عليهم فقال عز من قائل: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ «سورة البقرة: ١٤٣».

وصدق الله العظيم. وليس بعد قول الله قول، وليس بعد شهادة الله بهم شهادة؛ أما تصاوير السبئية للشخصيات الصحابية فستأتيك فيما يلي حيث نستعرض التصوير الكاذب المزعوم لكل من الصحابة الأربعة.

وسنقدم لكل تصوير كاذب مزعوم بتفصيل موجز للصورة المجملة التي وردت في كتاب الله. فإليك الصور الأصلية الأربع والتصاوير المشوهة الأربع.

الفصل التاسع والخمسون

عثمان بن عفان

كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين.

علي بن أبي طالب

عثمان المسلمين

أما تفصيل صورة ذي النورين في الآية الكريمة فلقد قيل لعلي رضي الله عنه: حدِّثنا عن عثمان، فقال: ذلك امرؤ يُدعى في الملأ الأعلى ذا النورين»[1].

ولقد ذكر عثمان في ملأ من الناس فقال الحسين بن علي:

الآن يجيء أمير المؤمنين.

(قال) فجاء علي، فقال علي:

«كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين»[2].

«ولد رضي الله عنه في السنة السادسة من الفيل، وأسلم قديماً وهو ممن دعاه الصدِّيق إلى الإسلام، وهاجر الهجرتين؛ الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة، وتزوج رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل

---

(١) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر) ص ١٤٩.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ج ١، ص ٥٦.

النبوة، وماتت عنده في ليالي غزوة بدر، فتأخر عن بدر لتمريضها بإذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وضرب له بسهمه وأجره، فهو معدود في البدريين بذلك، وجاء البشير بنصر المسلمين ببدر يوم دفنوها بالمدينة، فزوجه رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام بعدها أختها أم كلثوم، وتوفيت عنده سنة تسع من الهجرة. (قال العلماء: ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره، ولذلك سمي ذا النورين) فهو من السابقين الأولين وأول المهاجرين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين توفي رسول الله عليه الصلاة وآله الصلاة والسلام وهو عنهم راض»[1] كما ذكر عمر بن الخطاب عند ترشيحه إياهم للخلافة من بعده.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه: «مَرَّ بي عثمان وعندي ملك من الملائكة فقال: شهيد يقتله قومه، إنا نستحي منه»[2].

من أجل هذه الأوصاف التي يشهد لذي النورين بها عدول الشهداء بويع رضي الله عنه للخلافة على مشورة من المسلمين وإجماع ما شذ عنه واحد.

«فعن النزّال بن سبرة قال: شهدت عبد الله بن مسعود في هذا المسجد، ما خطب خطبة إلا قال: أمَّرنا خير من بقي ولم نألُ»[3].

قال الإمام أحمد بن حنبل: «لم يتفق الناس على بيعة كما اتفقوا على بيعة عثمان، ولّاه المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام وهم مؤتلفون متفقون متحابون متوادون معتصمون بحبل الله جميعاً»[4].

هذا الرجل الذي مضى على سنّة صاحبيه الراشدين يرنو ببصره إلى الجنة حيث مقعد لصدق عند مليك مقتدر مع الأحبة محمد وصحبه يبقى

---

(١) جلال الدين السيوطي، المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٥٤.

(٤) تقي الدين بن تيمية الحراني، منهاج السنّة (مكتبة خياط، بيروت، لبنان) ج ٣، ص ٢٣٤.

له ـ بعد تسلمه الخلافة ـ إيمانه ويقينه وحياؤه وسخاؤه وحلمه وتواضعه.. يجود من ماله جود المتوكلين، وقد أخرج حب الدنيا من قلبه فهو يوزع ما أعطاه الله منها في يده ذات الشمال وذات اليمين، لم يأكل من بيت مال المسلمين قليلاً ولا كثيراً.. إنما احتسب في عمله للمسلمين عند الله، وأنفق على نفسه وأقاربه من ماله الخاص، فبدد ثروته كلها في سبيل الله ـ وكان أغنى العرب ـ فلم يبق له يوم قتله أهل الفتن مظلوماً إلا ناقتان ربطهما لحجه رضي الله عنه.

أما سيرته في حياته الشخصية ـ وهو خليفة ـ «فلقد كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت»[1] ويقول عبد الملك بن شداد: «رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة على المنبر عليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة، وريطة كوفية ممشقة»[2].

هذه الصورة الناصعة التي أبدعها الله عز وجل لصحابة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.. وخلفتها لنا تواريخ الثقات من المسلمين متفقة مع قرآن ربنا سبحانه وتعالى[3]، تنتكس هذه الصورة رأساً على عقب فترى أن لا علاقة بين تصويرة عثمان المزورين، وبين عثمان المسلمين إلا الاعتساف عند اختيارهم لشخصيتهم المزيفة اسماً يماثل اسم عثمان المسلمين.

عثمان المزورين

تجد أوصاف عثمان المزورين كما يلي:

رجل فظ غليظ حقود بذيء اللسان سباب مقذع يتلظى على عليّهم وينهى الناس عن قراءة بعض آيات القرآن، قاسي القلب يتفنن في تعذيب المساكين ـ كأبي ذرِّهم ـ ولو كانوا شيوخاً فانين مع حالهم من الصحبة. «قد

---

(١) حلية الأولياء (لأبي نعيم) ج ١، ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٦، والرَّيْطة: كل ملاءة تكون قطعة واحدة ونسجاً واحداً ليس لها لفقان، أي شقتان. وممشقة: مصبوغة بالمشق وهو المغرة.

(٣) راجع وصف عثمان بن عفان رضي الله عنه في الفصل الثالث من الباب الأول.

خرفت وذهب عقلك أخرجوه من بين يدي حتى تركبوه قتب ناقة بغير وطاء ثم انجوا وتعتعوه حتى توصلوه إلى الربذة فتنزلوه بها من غير أنيس» ويبلغ من حقد عثمان المزورين أن يسأله عن أبغض البلاد إلى قلبه ثم يسيره إليها على أوعر مركب وأسوأ قادة حتى تتسلخ بواطن فخذية.

تجد عثمان المزورين يتطلع إلى أموال المسلمين، ويجود بها على بني أمية من أقاربه، ويمنع عن أبي ذرِّهم عطاءه، ويرسل إليه الأموال ليشتري بها ضميره، تجده قد غير مظاهر الحكم الراشد فساد في زمنه الطغيان والاستعلاء والبذخ والثراء وسيادة بني أمية. وانقلب الحكم في عهده ملكاً له مظاهر الملك.

ولقد «ارتكب وعشيرته من عظائم الأمور» ما جعل في رضا عثمان ـ المزورين ـ غضب الله، وفي غضب عثمانهم ـ رضوان الله!.

تجد عثمان المزورين يتصابر أمام أبي ذرِّهم وهو يضمر له الشر والسوء ويصانعه منتهزاً الفرصة المواتية ليثب عليه ويبطش به.

ثم يصوره المزورون مجرماً قاتلاً سفاكاً للدماء يبطش بالصحابة بطش الجبابرة، يأمر بنفي أبي ذرِّهم إلى أرض ـ يزعم المزورون ـ أنها لا ماء فيها ولا شجر ولا زرع ولا ضرع، ثم يصورون بقية شخصياتهم ـ وعلى رأسهم «عليِّهم» بصورة الجبناء المستخذين ذلة، فهم يسمعون الحكم الجائر بآذانهم، ويرون أنه حكم بالإعدام جوعاً حتى الموت لأبي ذرِّهم وعائلته، فيسكتون ويطئطئون رؤوسهم، وأشد ما يقوم به شجاعهم ومقدامهم أن يبكي حتى تتبلل لحيته. ثم يتجرأ على توديع المحكوم بالإعدام جوعاً.

تجد عثمان المزورين يضع كعب الأحبار ـ اليهودي الذي أسلم ـ مستشاراً له كالوزير لا يفارق مجلسه، فكلما دخل عليه أبو ذرِّهم وجده عنده، يستفتيه في كل مسألة، كبيرة كانت أو صغيرة، كما أن عثمانهم وهو بصورة خليفة يستشير جلساءه «في هذا الشيخ الكذاب هل يضربه أم يقتله أم

ينفيه من أرض الإسلام، وكأنما قد صار الحكم عند الخليفة الراشد رأياً يرتئيه الجلساء، وكأنما لم يبق من الإسلام حدود ولا قرآن ولا شريعة، ولهذا يصدر المزورون على لسان عثمانهم حكماً أو قراراً يقضي بأن يتجافى الناس ـ كل الناس ـ أبا ذرِّهم فلا يحدثونه ولا يجلسون معه. هكذا!.

أما بذاءة اللسان ورقاعة التعامل الاجتماعي فاقرأ للمزورين ما زعموا، كيف أن عثمانهم أجاب عليَّهم بجواب غليظ، وكيف أجابه عليُّهم بمثله، ثم يستنزه أحد هؤلاء المزورين بعد كل هذا التمادي في ذم الصحابة وأخلاقهم مما اختلق من بهتان الأحاديث عنهم وعن تحاورهم وأخلاقهم، يستنزه المزور السبئي من سرد بقية المحاورة تذمماً منهما، فالسبئي يدعي أن أخلاقه منعته من ترديد بذاءة حوار الراشدَيْن، ويحاول أن يترك لخيال القارىء العنان كي يتصور كلاماً أبذأ مما ألف المزورون، جرى بين صهري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. بينما ترفع السبئي عن ذكر هذا الكلام تذمماً منهما. فالسبئي يوهم أنه أكثر تهذيباً وأنظف لساناً من عثمان ذي النورين وعليٍّ أبي الحسنين.

فرضي الله عن عثمان المسلمين ولعنة الله على الكاذبين.

الفصل الستون

علي بن أبي طالب

الشجاعة والورع: خصلتان اشتهرتا عن أبي الحسنين اشتهار شروق الشمس في النهار، فلا يماري فيهما إلا كاذب.

علي المسلمين

أما أبو الحسنين علي رضي الله عنه فهو: «أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمؤاخاة، وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين رضي الله عنها، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العلماء الربانيين، والشجعان المشهورين، والزهاد المذكورين، والخطباء المعروفين»[1]، فما يهمنا من تفصيل صورته التي صوره الله إياها ومع صحابة نبيه عليه وآله الصلاة والسلام فيما يتعلق بموضوع هذا الجزء من الكتاب «أبو ذر والمزورون الجدد» هما خصلتان: الشجاعة والورع.

فهما خصلتان اشتهرتا عن أبي الحسنين اشتهار شروق الشمس في النهار، فلا يمار فيهما إلا كاذب.

بينما ترى صورة علي ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ في القرآن أبدعها الله عز وجل لصحابة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وأطبق عليها إجماع مؤرخي المسلمين من الثقات موافقين قرآن ربهم الخبير العليم؛ إذ بتصوير السبئية للبطل المقدام الورع تنتكس فتراهم يصورون عليّهم بما يلي:

---

(١) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر) ص ١٦٦.

إن تصوير السبئية لعليِّهم فيما يتعلق بكتابنا صورة الرجل الجريء المستضعف المتهاون في حقه والذي لا يرعوي عن بذل السباب المقذع الغليظ لصاحبه الخليفة جواباً على سباب مقذع غليظ.

يصورونه عصبي المزاج لا يرتدع عن ضرب حيوان يركبه رجل، لأنه غضب على الرجل! ويوزع الدعاء السيء على الناس فيدعو على مروانهم أن ينحيه الله إلى النار.

يصورونه يرى الظلم يحيف بأبي ذرِّهم - بل يُحكم عليه بالإعدام جوعاً في أرض قفر يخترعون وجودها لا ماء فيها ولا زرع ولا ضرع - فيكتفي حين يبلغه قرار الظلم والحيف بالبكاء حتى بلّ لحيته حزناً على فراقه وظلمه، وكل ما قام به - على زعمهم أن قام بضرب رأس حيوان بريء وشتم رجل يركبه.

يصورون عليِّهم وقد دخل على عثمانهم ليتباريا في السفاهة وسوء الخلق وبذاءة اللسان، فيؤلف السبئية محاورة بينهما في السب والشتم والقذاعة والتوعد يتورع عنها صغار المسلمين الذين نالوا قسطاً من التربية في بيوت إسلامية أيامنا هذه، ناهيك عن صهري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللذين تربيا على يديه «فوالله لئن شتمتني لأشتمنك بمثلها» وكان قساوسة النصارى أحق من الراشدين بآية ﴿ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ ذلك الموقف المؤدب الرائع الذي وقفته قساوسة النصارى أمام مشركي مكة ونزلت فيهم الآيات من سورة القصص «٥٥».

وتمضي السبئية تثير خيال القارىء فيتمادى المؤلف السبئي بوصف عليِّهم وعثمانهم بما وصف، ثم يقطع الطريق على القارىء فجأة متورعاً عن ذكر تتمة الكلام البذيء الغليظ الذي امتنع السبئي عن ذكره تحشماً وحياءً، إذ هو يحاول أن يقنع القارىء أنه أكثر تهذيباً وأنظف لساناً من ذكر تتمة الحوار - المزعوم بين الشخصيتين المزعومتين - اللتين يحملهما السبئية اسمي

الخليفتين الراشدين المهديين صهري رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام «تذمماً منهما».

ويزداد أسى المسلم عندما يرى تصوير السبئية لعليِّهم رضي الله عنه عليّ المسلمين ـ وقد تمادى في المهاترة مع «خصمه» إذ يقوّلونه «فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك، وهذه نبلي قد نثلتها وهلم فانثل نبلك».

يصور السبئيون هذه التصاوير، وكأن الإسلام لم يمح من نفوس الصفوة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء.

إن صورة الرجل المسمى بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ذلك البطل المقدام الذي لا تأخذه في الله لومة لائم قد انتكست في تأليفات السبئيين ليصوروا منه جباناً عن أَخْذِ الحق متهاوناً في تطبيق الحق، مقداماً في السب والشتم غزير الدمعة عند الألم.

لكن صورة علي رضي الله عنه فيما صوره بديع السموات والأرض مع إخوانه الصحابة الكرام وفيما أطبق عليها إجماع المؤرخين المسلمين من الثقات موافقين قرآن ربهم؛ تفقأ عيون السبئيين.

فرضي الله عن عليّ المسلمين وعثمان المسلمين، ولعنة الله على الكاذبين.

وقيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية؛ فإنه ما أوتر إلا بواحدة. فقال: إنه فقيه[1].

وذكـروا عمر بن عبد العزيز وعدلَه، فقال الأعمش: فكيف لو أدركتم معاوية!.
قالوا: في حلمه؟.
قال: لا والله في عدْله[2].
وعـن مجاهد قال: لو أدركتم معاوية لقلتم: هذا المهدي[3].
وأخرج ابن عساكر عـن قبيصة بن جابر قال:

صبحت عمر بن الخطاب فما رأيت رجلاً أقرأ لكتاب الله ولا أفقه في دين الله منه، وصحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت رجاً أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه، وصحبت معاوية فما رأيت رجلاً أثقل حلماً ولا أبطأ جهلاً ولا أبعد أناة منه، وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أنصع طرفاً ولا أحلم جليساً منه، وصحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر لخرج من أبوابها كلها[4].

معاوية الذي تنازل له الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة والحسن هو الحسن في رجاحة عقله وتقديـره لما فيـه صلاح المسلمين وخيرهم.

معاوية الذي يذكر الحلم عند ذكر معاوية، تجد أن السبئية قد صوروا معاويتهم تصاوير حدِّث فيها عن الطوفان ولا حرج.

معاوية المزورين

معاوية في تصاوير المزورين ـ خائن أو مسرف يبني القصور من أموال

---

(1) صحيح البخاري ج ٥، ص ٣٥.
(2) تقي الدين بن تيمية، منهاج السنة، ج ٣، ص ١٨٥.
(3) المصدر السابق. ج ٣، ص ١٨٥.
(4) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر، طـ ١٩٦٩) ص ٢٠٤.

الأمة، ويتخذ لنفسه مظاهر قيصرية يضارع بها قياصرة الروم. ثم هو يعيش في دار يقف له ببابها أبو ذرِّهم كل يوم يصيح فيسمعه معاويتهم! كما يزعم المزورون كاذبين أن المجتمع الشامي قد انقسم ـ بفضل معاويتهم ـ على عهد عثمانهم إلى فئتين: أغلبية ساحقة فقراء معدمين، وأقلية أغنياء مترفين؛ إذ استأثر معاويتهم وأصحابه بالفيء والغنائم لأنفسهم، وحرم المقاتلة منها بدعوى أن الفيء لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه!.

هو في تصاوير المزورين يكثر من ترداد كلمة «يا عدو الله» وكأنها كلمة شائعة على كل لسان يخاطب شخصياتهم بعضهم بعضاً بها آنذاك! وبخاصة من اشتهر سميّه ـ عند المسلمين ـ فيهم بالحلم كمعاوية! أو الزهد كأبي ذر! بل ترى المزورين يتواقحون في هذا المجال فيصورون معاويتهم بن أبي سفيانهم ملعوناً ابن ملعون، مفترين على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مثل هذا الخُلق وكأن صاحب القول المشهور «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» كان يوزع اللعنات على أصحابه رضي الله عنهم! بل يصور المزورون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو على معاويتهم مرات بأن لا يشبع! وكأن دعوة واحدة من نبي لا تكفي عندهم!.

هو في تصاوير المزورين يمنع عن أبي ذرِّهم عطاءه، ويرسل له الأموال رشوة على دينه! ثم هو يخشى أهل الشام أن تفتنهم دعوة أبي ذرِّهم! فيكيد معاويتهم ـ وهو أمير الشام ـ المكائد لأبي ذرِّهم وهو أحد رعاياه. ثم يقدح زناد الفكر فيرسل الرجل الذي يصورونه عجوزاً هرماً فانياً إلى الغزو في سبيل الله ليتخلص منه!.

هو في تصاوير المزورين مجرم بطاش سفاك للدماء، يسجن أبا ذرِّهم ـ هكذا ـ من غير ذنب جناه ويتمنى لو أنه يقتله، ولم يكن يتردد في قتله ـ على زعمهم ـ لولا أنه يخشى الخليفة إن هو قتل صحابياً من غير إذن الخليفة! ومع كل هذا تجد المزورين يسلطون على أبي ذرِّهم السوقة يستهزئون منه بأمر من معاويتهم!.

هو في تصاوير المزورين عصبي المزاج يزبئر وجهه ويخرج من المسجد باسراً يعض على نواجذه ـ لأنه سمع من رد على قول قاله ـ ويبقى على هذه الصورة القبيحة التي يصوره إياها المزورون حتى يدخل قصره وهو يرغي ويزبد فينكره أهله إذ دخلوا عليه.

يُصوره المزورون حقوداً أسود القلب يُركب الصحابي العجوز الهرم المسكين أبا ذرّهم ـ بأمر استبدادي ـ على بعير عليه قتب يابس من الشام إلى المدينة معه خمسة من الصقالبة يطيرون به فتتسلخ بواطن فخذيه ويكاد أن يتلف.

فأين صورة الصحابي الحليم معاوية بن أبي سفيان كاتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من تصوير المزورين للصحابة!.

رضي الله عن الصحابة أجمعين ولعنة الله على الكاذبين.

الفصل الثاني والستون

أبو ذر الغفاري

وأما عن خلق أبي ذر تلميذ المدرسة المحمدية فنستوضح تفاصيل الصورة من شاهدين سمعا محاورتين تنبئاننا أن صحابة رسول الله كانوا كما وصفهم ربهم سبحانه وتعالى: رحماء بينهم.

أبو ذر المسلمين

عندما نستوضح تفاصيل صورة أبي ذر من تاريخ المسلمين الذين يلتزمون بتصديق القرآن الكريم، ويلتزمون بالمنهج العلمي «إذا كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل» نجد أن الصحابي الشديد على الكفار الرحيم بإخوانه من المسلمين «كان رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل، قوالاً بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم على حدة فيه»[1].

وأما عن خلق أبي ذر تلميذ المدرسة المحمدية فنستوضح تفاصيل الصورة من شاهدين سمعا محاورتين تنبئاننا أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا كما وصفهم ربهم سبحانه وتعالى: رحماء بينهم.

«فعن زيد بن خالد الجهني قال: كنت عند عثمان إذ جاء أبو ذر، فلما رآه عثمان قال: مرحباً وأهلاً بأخي.

فقال أبو ذر: مرحباً وأهلاً بأخي، لقد أغلظت علينا في العزيمة، والله

---

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء (دار المعارف بمصر) ج ٢، ص ٣٢.

لو عزمت علي أن أحبو لحبوت ما استطعت، إني خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحو حائط بني فلان فقال لي: «ويحك بعدي» فبكيت فقلت: يا رسول الله؛ وإني باق بعدك؟ قال: «نعم. فإذا رأيت البناء على سَلَعْ فالحق بالمغرب أرض قضاعة».

قال عثمان: أحببت أن أجعلك مع أصحابك وخفت عليك جهال الناس[1].

وعـن عبد الله بن الصامت: دخلت مع أبي ذر على عثمان فلما دخل حسر عن رأسه وقال: والله ما أنا منهم يا أمير المؤمنين (يريد الخوارج).

فقال له عثمان: صدقت يا أبـا ذر، إنما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة.

قال: لا حاجة لي بذلك ائذن لي إلى الربذة.

قال: نعم، ونأمر لك بنعم من نعم الصدقة تغدو عليك وتروح.

قال: لا حاجة لي في ذلك، يكفي أبا ذر صريمته»[2].

هذا أبو ذر وبعض صفات الصورة التي صوره إياها الله عز وجل الذي قال فيه وفي إخوانه من الصحابة الكرام: (أشداء على الكفار رحماء بينهم) كما رواها شاهدان من ثقات المسلمين[3] فكيف صور المزورون أبا ذرِّهم؟.

أبو ذر والمزورين

أما المزورون فيحاولون أن يصوروا أبا ذرِّهم فقيراً مسكيناً مغلوباً على أمره يشكو الفقر والعوز، عصبي المزاج ثائراً جاف الطباع سيء الخلق والألفاظ، يعادي جميع الأمراء، يفسد العامة على الأمراء أينما حل لا يخشى الخليفة ولا يهاب أميراً، يدعو الناس إلى الزهد ويهاجم عثمانهم.

ويتكىء المزورون على حديث «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء

---

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٨.

(٣) تجد تفصيلاً طويلاً في الجزئين الأول والثاني من هذا الكتاب؛ فهو موضوعه.

من ذي لهجة أصدق من أبي ذر» فيؤلفون ما شاء لهم الهوى من الأكاذيب يسبون فيها الصحابة ويسيئون فيها إلى أخلاق أبي ذرِّهم وتربيته عندما يصورونه سباباً شتاماً دعياً، فلا نجده يخاطب أحداً ـ في تصويرهم له ـ إلا بلهجة قاسية عجفاء فـ «يابن اليهودية» أو «يابن اليهوديين»[1] لكعب الأحبار، و «بل أنت وأبوك عدوان لله ورسوله أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر» لمعاويتهم بن أبي سفيانهم.

ويزداد التصوير سوءاً وسواداً عندما يجعله المزورون يعود من «المنفى المزعوم» ويتحدث إلى عثمانهم والناس عنده كانوا «سماطين» بلهجة المستجدي إذ يقوّلونه «يا أمير المؤمنين؛ إنك أخرجتني من أرضي إلى أرض ليس بها زرع ولا ضرع إلا شويهات، وليس لي خادم إلا محررة ولا ظل يظلني إلا ظل شجرة، فأعطني خادماً وغنيمات أعيش فيها»! هكذا! فلو استسخفت أيها القارىء هذا اللقاء وهذا الموقف وهذه اللغة؛ فليس السخف عائداً لمواقف الصحابة ولا إلى ضعف أبي ذر المسلمين باللغة العربية ـ وهو صادق اللهجة ـ بل إلى رطانة المزورين وبعدهم عن فهم ما يجوز أن يصدر عن الصحابة من خُلق وما لا يجوز، وإلى تجافي ألسنتهم وتعبيراتهم عن لغة العرب.

ثم يعود المزورون لتصوير أبي ذرِّهم تصويراً يماثل ما صوروا به ـ كاذبين ـ عليَّهم، صورة الجبان في كل موقف عملي إلا في الشتم والسباب فهو حينذاك مقدام ـ عندهم ـ لا يهاب الإرهاب ولا يفتر عن السباب!.

وفي آخر ما يتعلق بأبي ذرِّهم تجد المزورين يرسمون لوحة مأساوية باهتة تختلف في شذوذها بين رسامٍ مدعٍ وآخر، إلا أنها تشترك بألوان البؤس والفقر والمرض فيما يسمونه «منفى الربذة».

---

(١) وحاشا لأبي ذر المسلمين أن يعير أحداً ـ من بعد ـ بامه او بأبويه إنما قدمنا شرحاً لقوله لكعب الأحبار يابن اليهودية أنه يقصد ديانة اليهودية.

فيعيش أبو ذرِّهم «شبه عار» عند أحدهم ويموت ابنه ذر! ثم يموت أبو ذرِّهم فوقه عند المزور الآخر، ويُنْبِتُ أحدهم كثيب الرمل أعشاباً! يعيش أبو ذرِّهم وزوجته على ثمارها! ثم ترى نفس الدجال المزور يصور الكثيب بلا أعشاب!.

ويصور المزورون أبا ذرِّهم رجلاً في الصحراء أشعث أغبر حطمه الحزن! وأضعفه العمر وهده الكفاح! ذا عينين غائرتين! تطلان من وجه جسم رجل! «نمَّ جلده عن عظام لم تكتس لحماً» إلى غيرها من التصاوير والخيالات يستدرون بها دموع القارئين في محاولات سمجة لفرض سور البؤس والفقر والمرض والعري والنفي و.. على أبي ذرِّهم. قاتلهم الله.

بينما نجد رواية الطبري عن قصة وفاة أبي ذر المسلمين من رواية الحلحال بن ذري قال: «خرجنا مع ابن مسعود سنة ٣١ ونحن أربعة عشر راكباً حتى أتينا على الربذة. فإذا امرأة قد تلقتنا فقالت: اشهدوا أبا ذر. (وما شعرنا بأمره ولا بلغنا).

فقلنا: وأين أبو ذر؟.

فأشارت إلى خباء، فقلنا: ما له؟.

قالت: فارق المدينة لأمر قد بلغه فيها ففارقها.

قال ابن مسعود: ما دعاه إلى الأعراب.

فقالت: أما إن أمير المؤمنين قد كره ذلك، ولكنه كان يقول:

هي بُعد وهي مدينة.

فمال ابن مسعود إليه وهو يبكي، فغسلناه، وكفناه، وإذا خباؤه منضوح بمسك فقلنا للمرأة: ما هذا؟.

فقالت: كانت مسكة، فلما حُضِر قال: «إن الميت يحضره شهود يجدون الريح ولا يأكلون، فدوفي تلك المسكة بماء ثم رشي بها الخباء فأقريهم ريحها، واطبخي هذا اللحم فإنه سيشهدني قوم صالحون، يلون دفني فأقريهم».

فلما دفناه، دعتنا إلى الطعام، فأكلنا وأردنا احتمالها،

فقال ابن مسعود: أمير المؤمنين قريب نستأمره.

فقدمنا مكة فأخبرناه الخبر فقال: يرحم الله أبا ذر ويغفر له نزوله الربذة.

ولما صدر خرج فأخذ طريق الربذة فضم عياله إلى عياله وتوجه نحو المدينة، وتوجهنا نحو العراق»[1].

وفي رواية الطبري أيضاً: لما حضرت أبا ذر الوفاة ـ وذلك في سنة ثمان من ذي الحجة من إمارة عثمان ـ نزل بأبي ذر فلما أشرف قال لابنته:

استشرفي يا بنية فانظري هل ترين أحداً؟.

قالت: لا.

قال: فما جاءت ساعتي بعد.

ثم أمرها فذبحت شاة، ثم طبختها، ثم قال:

إذا جاءك الذين يدفنوني فقولي لهم إن أبا ذر يقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا.

فلما نضجت قدرها قال لها:

انظري هل ترين أحداً؟.

قالت: نعم هؤلاء ركب مقبلون.

قال: استقبلي بي الكعبة.

ففعلت وقال:

«بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

ثم خرجت ابنته فتلقتهم وقالت:

رحمكم الله اشهدوا أبا ذر.

قالوا: وأين هو؟.

فأشارت لهم إليه «وقد مات» فادفنوه.

---

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (المكتبة التجارية الكبرى، بأول شارع محمد علي بمصر، ط ١٩٣٩) ج ٣، ص ٣٥٥.

قالوا: نعم ونعمة عين، لقد أكرمنا الله بذلك.

وإذا ركب من أهل الكوفة فيهم ابن مسعود، فمالوا إليه وابن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «يموت وحده ويبعث وحده».

فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه، فلما أرادوا أن يرتحلوا قالت لهم: إن أبا ذر يقرأ عليكم السلام، وأقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا. ففعلوا، وحملوه حتى أقدموهم مكة. ونعوه إلى عثمان، فضم ابنته إلى عياله وقال:

يرحم الله أبا ذر، ويغفر لرافع بن خديج سكونه[1].

فأين صورة الصحابي أبي ذر المسلمين صادق اللهجة وهو يقري الضيفان من الملائكة بالمسك ومن الناس بلحم الشاة الناضج.. أين صورة الصحابي الكريم في ميتته الكريمة يموت وحده وتشهده الملائكة ثم يتولى قوم صالحون غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه.

أين هذه الصورة الكريمة للميتة الكريمة للرجل الكريم، من التصوير المأساوي المهلهل البائس لموت أبي ذرّهم.

وأين صورة لقاءات الصحابي الكريم مع إخوانه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين من تصاوير خرافاتهم وأكاذيبهم لشخصياتهم الممسوخة.

أين صورة الرحمن مبدع صحابة نبيه من تصاوير المزورين.

وصدق الله العظيم ولعنة الله على الكاذبين.

(١) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٥٤.

الباب الرابع عشر

أصل البلاء

والمسعودي في كتاب العجائب والغرائب الذي سماه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» يلتزم جانب الإثارة في كل الروايات والأقاصيص التي يذكرها، وتجده يخلط صحيح القول بغلطه، وصادق الروايات بكاذبها.

الفَصْلُ الثَالِثُ وَالسِتُونَ

أنـواع التآليف

أثبتنا في النصوص القادمة التالية نصوصاً تمثل ثلاثة نماذج من التآليف:

١ ـ نموج كتاب قديم. . .

٢ ـ ونصوصاً من كتاب «أعيان الشيعة».

٣ ـ ونصوصاً من مؤلفات ستة لمزورين جدد.

أثبتنا في الفصول القادمة نصوصاً تمثل ثلاثة نماذج من التآليف:

١ ـ نموذج كتاب قديم هو قطعة من كتاب «مروج الذهب» للرحالة علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفي عام ٣٤٦ هـ، والذي كان مولعاً بكتابة الغرائب والعجائب مما رأى أو سمع، ينقل بعض قصصه عن سند يذكره أو يحكي أقصوصته هكذا بدون عزوٍ إلى أحد كعادة «الحكواتية»[1] مستثيراً عواطف السامعين شاداً أنظارهم وأسماعهم واهتمامهم لروعة حبكة القصة وعُقدِها التي توهم السامع ـ أو القارىء ـ العامي بمدى اتساع معرفة الرجل واطلاعه على أحوال الناس وتقلبات الزمان، ويتوجه اهتمام العامي ـ من السامعين أو القارئين ـ إلى لذة السماع وحبكة القصة، أكثر من توجه اهتمامه إلى صحة الواقعة وتحقيق القضية.

والمسعودي في كتاب العجائب والغرائب الذي سماه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» يلتزم جانب الإثارة في كل الروايات والأقاصيص التي

(١) وربما ألقى الحكواتية مسؤولية رواية القصة على الراوي، فتسمع أحدهم يقول وعمر السامعين يطول: قال الراوي يا سادة يا كرام.

يذكرها. وتجده يخلط صحيح القول بغلطه، وصادق الروايات بكاذبها، فيضيع القارىء العادي عن معرفة الحق إذا أراد التحقيق ويؤخذ القارىء السطحي بقوة شخصية قلم المسعودي فينساق مع جودة السبك وقوة العبارة وحبكة القصة.

٢"- كما أثبتنا نصوصاً من كتاب «أعيان الشيعة» الذي صدر عنه جميع المؤلفين المزورين الملفقين في هذا القرن من الزمان. و «أعيان الشيعة» كتاب ضخم ظهر في عام ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م، حشد فيه مؤلفه محسن الأمين الحسيني العاملي العجائب والغرائب أيضاً مما تناهى إلى سمعه آنذاك من قصص وروايات كثيرة لا تكاد تنتهي، جمعها من كتب التاريخ والأدب جمعاً وأثبتها في كتابه الواحد رغم ما فيها من تناقض وتضارب، وقد التزم عند حذفه لكثير من الأخبار نصرة مذهبه في ذمّ غالبية الصحابة ممن يخيل إليه - أو يدعي - أنهم كانوا أعداءً لعلي رضي الله عنه ورضي عن الصحابة أجمعين. ومع هذا يستطيع القارىء المدقق أن يرى التناقض والتضارب في الخبر الواحد الذي يرويه الرجل فيميل إلى نبذه كله، أو نبذ بعضه، أو الإعراض عن سماع مثل هذا الخبط لئلا يزيد عدد الروايات المتضاربة والمتناقضة في ذهن القارىء أعداداً فوق أعداد.

٣"- أما القسم الثالث من التآليف فلقد أثبتنا نصوصاً من مؤلفات ستة، خرجت على قارىء العربية بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٨٠ م واشتركت جميعها في التسمية «أبو ذر الغفاري».

ولقد يمكننا تقسيم نصوص كل مؤلف من هذه إلى نوعين من النصوص «نصوص إنشائية، ونصوص منقولة».

أ - النصوص الإنشائية: ويمكن تقسيمها إلى نوعين أيضاً:

١ - النصوص الإنشائية التي «دبّجتها قريحة المؤلف تدبيجاً» مختلقاً دون سابقة لغيره رجع إليها، فتجده كمتعلم الإنشاء من أولاد المدارس يصفف الكلمات ليحصل على إقناع للقارىء بأنه يحسن الإمساك بالقلم وإخضاعه لخيالاته وفكره.

٢ ـ النصوص الإنشائية التي دبجتها قريحة المؤلف العبقري توليداً من نصوص إنشائية سابقة دبجتها قريحة عبقري سبقه في الإنشاء والتدبيج.

ب ـ النصوص المنقولة: ويمكن تقسيمها إلى أنواع ثلاثة ـ كما سيلاحظ القارىء ـ:

١ ـ نصوص منقولة مع الأمانة في النقل.

٢ ـ نصوص منقولة مع التشويه بما تقتضيه عبقرية الإنشاء والابتداع وتوتر اللهجة الحماسية التي وصل إليها المؤلف.

٣ ـ نصوص منقولة مع التهذيب في الحالات التي يشعرك المؤلف أن «متن النص المنقول» لا يليق بالمؤلف الجديد إعادة كتابته ذلك لقذاعة قريحة مؤلفه الأول ورقاعتها. فتراه ينقل بعض النصوص ويعرض عن بعض.

الفصل الرابع والستون

المسعودي وأبو ذرّه

للمسعودي قلم سيال، وهو كاتب قصة ذات حبكة مثيرة جذابة، وهو رحالة طاف كثيراً من البلاد... ومروج الذهب... مسرحية تاريخية طويلة جداً... اختار لأبطالها أسماء متفقة مع أسماء الصحابة الكرام.

ألف الرحالة أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، المتوفى سنة ٣٤٦ للهجرة كتاباً أسماه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وهو كتاب ضخم أودع فيه المسعودي ما لذ وطاب وحسن، وما كره وقبح وساء، من عجائب ما رأى في رحلاته وسمع، ولقد طار ذكر هذا الكتاب بين طوائف كثيرة من الذين يهتمون بأخبار الزمان في أزماننا. وللمسعودي قلم سيال وأسلوب مشوق فاعتبر كتابه «مروج الذهب» كتاب أدب عند بعض المتأدبين وكتاب «أخبار وحكايا» عند من يحبون الحكايا والقصص، وكتاب «تاريخ» عند العديد من الجهلة.

ولا يعتبر «مروج الذهب» كتاباً علمياً في التاريخ لأسباب منها:

أ ـ التزام مؤلفه أسلوب العبارة الأدبية والحبكة القصصية على حساب صدق الرواية.

ب ـ أسند المسعودي كثيراً من رواياته إلى رواتها وأغفل من كثير من أقاصيصه ذكر الرواة.

ج ـ لم يتورع المسعودي ولم يمنعه حياؤه من قص الأقاصيص الشائعة في سباب الصحابة ووصفهم بما يناقض قول الله عز وجل فيهم في نصوص القرآن الكريم.

ولذلك تجد النص المنقول من كتابه «مروج الذهب» والمتعلق بأبي ذر رضي الله عنه فيه من المخالفات للحق الأبلج مما نذكره في الفقرة التالية ولا نعلق عليه؛ ما يتلخص بأربع وعشرين مخالفة وحَيْدةً عن الحق.

مخالفات المسعودي

للمسعودي قلم سيال، وهو كاتب قصة ذات حبكة مثيرة جذابة. وهو رحالة طاف كثيراً من البلاد والتقى بكثير من العباد، ولقد ألف هذا الرحالة في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» مسرحية تاريخية طويلة جداً.. ربما أمكننا تسميتها «موسوعة مسرحية» لكنه ـ عليه من الله ما يستحق ـ اختار لأبطال موسوعته المسرحية هذه أسماء متفقة مع أسماء الصحابة الكرام ـ بل هي نفسها ـ واختار لها أيضاً زماناً ومكاناً هو زمن حياة صحابتنا الكرام. ومن هنا كان تضليله للقراء مظلم، خاصة منهم من لا يقوى على التفريق بين الفن والخيال وبين الحقيقة والواقع.

والنص الأول الذي سننقله من موسوعة المسعودي المسرحية نقدم له بضبطه في أربعة وعشرين مخالفة وحَيْدَة عن الحق هي:

١ ـ لا يكاد يخلو مجلس عثمانه «أمير المؤمنين» من وجود كعب أحباره.

٢ ـ كثرة ما كان يستفتي عثمانه ـ وهو خليفة ـ كعب أحباره في قضايا فقهية.

٣ ـ جرأة كعب أحباره وتسرعه بالفتيا مع وجود صحابة للمسعودي سابقين كعثمانه وعليِّه.

٤ ـ قبول عثمانه فتاوى كعبه، وكأنه بحاجة إلى مبررات لا يعرفها من كتاب الله ولا من سنة نبيه.

٥ ـ عدم أمانة عثمانه وطلبه فتيا من كعبه كي يستدين من بيت المال ديناً ثم يرد المال.

٦ ـ ضرب أبي ذره لكعبه بالعصا وتكذيبه إياه.

٧ ـ سباب عثمانه لأبي ذر واعتبار أذى أبي ذره لكعبه وكأنه أذى لعثمانه نفسه.

٨ ـ طلب عثمانه من أبي ذره أن يغيب عن وجهه أكثر من مرة.

٩ ـ قيام معاويته بالإساءة إلى أبي ذره في حمله إلى المدينة على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من صقالبته يطيرون به حتى تنسلخ بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف.

١٠ ـ ذكر أبي ذره لأشياء ستحدث من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها طعن في ولد أبي العاص من بني أمية المسعودي إذا بلغوا ثلاثين.

١١ ـ ضرب أبي ذره لرأس كعبه بالعصا والتقول على عبد الرحمن بن عوف مخالفاً لمن يرجو لعبد الرحمن خيراً عند ربه.

١٢ ـ جلب تركة ابن عوفه لتوضع أمام الناس وأمام أمير المؤمنين، (ولم يذكر مثل ذلك في تركة تركها رجل غيره أن جيء بها لأمير المؤمنين أمام الناس وكأنها فيء).

١٣ ـ حوار حول طلبات أبي ذره واختياره بلاد يسير إليها وامتناع عثمانه عن تلبية جميع هذا الاختيارات.

١٤ ـ أمر تعسفي من عثمانه بتسيير أبي ذره إلى ربذته.

١٥ ـ أمر عثمانه للناس ـ كل الناس ـ بتجافي أبي ذره!.

١٦ ـ خروج عليّه وحسنه وعقيله وابن جعفره وعماره لتشييعه.

١٧ ـ تجرؤ مروانة ابن حكمه على عليّه.

١٨ ـ دعوة من عليّه على مروانه أن ينحيه الله إلى النار، واعتداء من عليّه على راحلة مروانه إذ يقوم بضربها بالسوط بين أذنيها!.

١٩ ـ غضب عثمانه على عليّه لتشييعه أبا ذره.

٢٠ ـ رد عليّه: غضب الخيل على اللجم.

٢١ ـ محاورة ومسابقة وتحد في الشتائم بين عثمانه وعليّه.

٢٢ ـ ادعاء من عثمانه بأن عليّه ليس أفضل من مروانه.

٢٣ ـ تفاخر جاهلي من عليّه بأنه أفضل من عثمانه، وأبوه أفضل من ابيه، وامه افضل من أمه.

٢٤ ـ دخول ناس المسعودي بين عثمانه وعليّه حتى يصطلحا.

النص رقم (١):

«وفي سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان رضي الله عنه وظهر عليه النكير لأشياء ذكروها من فعله...»(١).

«ومن ذلك ما فعل بأبي ذر، وهو أنه حضر مجلسه ذات يوم فقال عثمان: أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره؟.

فقال كعب: لا يا أمير المؤمنين.

فدفع أبو ذر في صدر كعب، وقال له:

كذبت يا ابن اليهودي.

ثم تلا: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب﴾.

فقال عثمان:

أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه؟.

فقال كعب: لا بأس بذلك.

فرفع أبو ذر العصا فدفع بها في صدر كعب وقال:

يا ابن اليهودي! ما أجرأك على القول في ديننا!.

فقال عثمان: ما أكثر أذاك لي! غيّب وجهك عني فقد آذيتنا.

فخرج أبو ذر إلى الشام.

---

(١) علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر (المكتبة التجارية الكبرى، مصر، طـ ١٩٤٨) ج ٢، ص ٣٤٧.

فكتب معاوية إلى عثمان:

«إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك».

فكتب إليه عثمان بحمله، فحمله على بعير عليه قتب يابس معه وخمسة من الصقالبة يطيرون به، حتى أتوا به المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف.

فقيل له: إنك تموت من ذلك.

فقال: هيهات: لن أموت حتى أنفى.

وذكر جوامع ما ينزل به بعد، ومن يتولى دفنه، فأحسن إليه «عثمان» في داره أياماً، ثم دخل إليه فجلس على ركبتيه وتكلم بأشياء، وذكر الخبر في ولد أبي العاص إذا بلغوا ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومر في الخبر بطوله. وتكلم بكلام كثير، وكان في ذلك اليوم قد أتي عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف [الزهري] من المال، فنثرت البِدَر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان:

إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً، لأنه كان يتصدق، ويقري الضيف، وترك ما ترون.

فقال كعب الأحبار: صدقت يا أمير المؤمنين.

فشال أبو ذر العصا فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم، وقال: يابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال: إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما يسرني أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً».

فقال له عثمان: وارِ عنّي وجهك.

فقال: أسير إلى مكة.

قال: لا والله.

قال: فتمنعني من بيت ربي أعبده فيه حتى أموت؟.

قال: إي والله.

قال: فإلى الشام.

قال: لا والله.

(قال: البصرة.

قال: لا والله) فاختر غير هذه البلدان.

قال: لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك، ولو تركتني في دار هجرتي ما أردت شيئاً من البلدان، فسيرني حيث شئت من البلاد.

قال: إني مسيرك إلى الربذة.

قال: الله أكبر صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبرني بكل ما أنا لاق.

قال عثمان: وما قال لك؟.

قال: أخبرني بأني أمنع من مكة والمدينة وأموت بالربذة. ويتولى مواراتي نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز.

وبعث أبو ذر إلى جمل له فحمل عليه امرأته ـ وقيل: ابنته ـ وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتى يسير إلى الربذة، فلما طلع عن المدينة ومروان يسيره عنها طلع عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعه ابناه «الحسن والحسين» وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر. فاعترض مروان فقال: يا علي إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيره ويشيعوه فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك.

فحمل عليه علي بن أبي طالب بالسوط «وضرب» بين أذني راحلته وقال:

تنح نحاك الله إلى النار.

ومضى مع أبي ذر فشيعه ثم ودعه وانصرف، فلما أراد الانصراف بكى أبو ذر وقال:

رحمكم الله أهل البيت! إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فشكا مروان إلى عثمان ما فعل به علي بن أبي طالب، فقال عثمان:

يا معشر المسلمين من يعذرني من علي؟ رد رسولي عما وجهته له، وفعل كذا، والله لنعطينه حقه.

فلما رجع علي استقبله الناس، فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر.

فقال علي: غضب الخيل من اللّجُم.

فلما كان بالعشي جاء إلى عثمان، فقال له: ما حملك على ما صنعت بمروان ولم اجترأت علي ورددت رسولي وأمري؟.

قال: أما مروان فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردي. وأما أمرك فلم أرده.

قال عثمان: ألم يبلغك أني قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه؟.

فقال علي: أوكل ما أمرتنا من شيء نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك؟. بالله لا نفعل.

قال عثمان: أقد مروان.

قال: ومم أقده؟.

قال: ضربت بين أذني راحلته وشتمته فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك.

قال علي: أما راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل، وأما أنا فوالله لو شتمني لأشتمنك مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقاً.

قال عثمان: ولم لا يشتمك إذ شتمته، فوالله ما أنت عندي بأفضل منه!.

فغضب علي بن أبي طالب وقال:

ألي تقول هذا القول، وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك، وهذه نبلي قد نثلتها، وهلم فانثل نبلك.

فغضب عثمان واحمر وجهه، فقام ودخل داره وانصرف علي، فاجتمع إليه أهل بيته ورجال من المهاجرين والأنصار.

فلما كان الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا إليهم علياً.

فقال: إنه يعيبني ويظاهر من يعيبني.

يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما، فدخل الناس بينهما [حتى اصطلحا] وقال له علي: والله ما أردت بتشييع أبي ذر إلا الله تعالى[1].

هذا هو النص الأول نقلناه عن كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي المتوفى عام ٣٤٦ للهجرة.

فرحم الله موتى المسلمين ولعنة الله على الكاذبين.

---

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٨ ـ ٣٥١.

الفصل الخامس والستون

العاملي وأبو ذره

ألف العاملي كتاباً سماه «أعيان الشيعة» وهو كتاب ضخم جداً وطويل جداً، وهو مجموع روايات.. زعم فيه العاملي أن أبا ذرّه من أعيان الشيعة..

ألف محسن الأمين الحسيني العاملي كتاباً طبعه عام ١٣٥٩ هـ، الموافق لعام ١٩٤٠ م، سمّاه «أعيان الشيعة» وهو كتاب ضخم جداً وطويل جداً يقع في ١٧ جزءاً اعتبر العاملي فيه أبا ذره من أعيان الشيعة.

فكتب في الجزء ١٦ من الكتاب تحت عنوان «جندب بن جنادة أبو ذر الغفاري» ترجمه له في صفحات ستين من القطع المتوسط حشد فيها كلاماً كثيراً جمعه من مختلف كتب التاريخ وكتب الأدب وأقاصيص الرواة. ولم يلتزم العاملي عند ذكر هذه الروايات والأخبار إلا ما ينصر مذهبه في ذم غالبية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، يظهر ذلك عندما تراه يقتضب ويحذف الكثير مما رواه الطبري خدمة للمذهب الذي يقضي بذم الصحابة.

والملاحظ أن كتّاب العصر من المزورين الجدد قد أكثروا النقل من كتاب العاملي بل يكاد يعتبر كتابه «أعيان الشيعة» هو المصدر الوحيد الذي صدر عنه جميع هؤلاء المزورين، رغم أن أكثرهم يزيِّن كتابه بأسماء مصادر أخرى يحاول إيهام القراء بذكرها أنه رجع إليها!.

مخالفات العاملي

لقد التقطنا من النصوص الأحد عشر المنقولة من كتاب العاملي مما يخالف الحق الأبلج في آيات القرآن الكريم، ويخالف روايات الثقات من

صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما يتعلق بسيرة أبي ذر رضي الله عنه ستاً وتسعين مخالفة وحَيْدةً عن الحق، نثبتها ملخصة فيما يلي على ترتيب ورودها في النصوص المنقولة. وليعذرنا القراء من تكرار ذكر بعض المخالفات فالتكرار ورد في كتابه ورأينا لزاماً علينا أن نكررها تتبعاً لمخالفات الحق عنده فجاءت مكرورة في هذا الاختصار اضطراراً. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما كان العاملي يدّعي النقل عن كثير من غيره سبقوه في التأليف، لم ننسب الشخصيات المزورة إليه مباشرة، بل نسبناها إليهم مضمنين العاملي بين هؤلاء المؤلفين المخترعين، ذلك لكونه هو الذي أخذ بهذه الروايات الكاذبة ـ وأعرض عن باقي الروايات ـ التي تصور أبا ذر صورة تهدم ما يريد إثباته.

والمخالفات والحَيْدات عن الحق التي وردت في النصوص الأحد عشر هي على الترتيب:

من النص (٢):

١ ـ لا يكاد يخلو مجلس عثمانهم الخليفة ـ على مر السنين ـ من وجود كعب أحبارهم، وكأنه مستشاره الخاص ووزيره الذي لا يفارقه.

٢ ـ ملاحقة صبيانية بين كعبهم وأبي ذرهم هذا يركض ويستغيث بعثمانهم، وذلك يحمل عظم بعير يقتص أثره ويسأل عنه الناس حتى يصل إليه وهو عند عثمانهم، فيختبىء كعبهم وراء عثمانهم وأبو ذرهم يسبّه!.

من النص (٣):

٣ ـ محاولة من عثمانهم لشراء ضمير أبي ذرهم! بصرة يرسلها إليه فيها نفقة.

من النص (٤):

٤ ـ وجود ولد لأبي ذرهم اسمه ذر! ولقد أماتوا ذرهم هذا مع أبي ذرهم بعد مسيره إلى ربذتهم.

من النص (٥):

٥ ـ عدم أمانة عثمانهم على «بيوت المال» وإعطاؤها لمروانهم بن حكمهم وغيره.

٦ ـ إدعاء منسوب لأبي ذرهم أن عثمانهم كان ينهاه عن قراءة كتاب الله تعالى.

٧ ـ إدعاء منسوب لأبي ذرهم أن إرضاء الله يسخط عثمانهم وإرضاء عثمانهم يسخط الله.

٨ ـ تطلع عثمانهم واستشراف نفسه لأموال وردت إلى بيت المال في حضور أبي ذرهم وكعبهم وكأنها أول مرة يرد فيها مال لبيت المال!.

٩ ـ استفتاء يطلبه عثمانهم من كعبهم في جواز أن يستقرض عثمانهم مال بيت المال فإذا أيسر قضى.

١٠ ـ جرأة كعبهم، وتسرعه بالفتيا بحضور كبار صحابتهم وسابقيهم.

١١ ـ سباب أبي ذرهم لكعبهم.

١٢ ـ اعتبار عثمانهم كعبهم من أصحابه واستياؤه من كثرة أذى أبي ذرهم لأصحاب عثمانهم (ككعبهم)!.

١٣ ـ أمر عثمانهم لأبي ذرهم باللحوق بالشام لهذا السبب (والسبب هو أذاه لأصحابه: كعب)!.

١٤ ـ إنكار أبي ذرهم على معاويتهم أشياء كان يفعلها!.

١٥ ـ محاولة معاويتهم لشراء ضمير أبي ذرهم بثلاثمائة دينار!.

١٦ ـ يحرم معاويتهم أبا ذرهم عطاءه.

١٧ ـ ادعاء أبي ذرهم أن معاويتهم خائن أو مسرف.

١٨ ـ تقويل أبي ذرهم: إني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا وصالحاً مستأثراً عليه!.

١٩ ـ ادعاء بأن حبيبهم بن مسلمتهم (وهو هنا صاحب لمعاويتهم) نصح معاويتهم بإقصاء أبي ذرهم وإلا أفسد الشام!.

٢٠ ـ صراخ أبي ذرهم يومياً على باب دار معاويتهم!.

٢١ ـ كان وجه معاويتهم يزئبر! ولونه يتغير لسماع صوت أبي ذرهم!.

٢٢ ـ لا يدخل أبو ذرهم على معاويتهم ـ أو عثمانهم ـ إلا إدخالاً يعني يقوده من يقوده!.

٢٣ ـ سهولة قتل الرجال عند معاويتهم ـ عامل الشام ـ بغير حد، واستثناء قتل واحد من الصحابة إلا بأمر من الخليفة! وهذا ـ فقط ـ هو ما منعه من قتل أبي ذرهم.

٢٤ ـ مناظرة يتبارى فيها أبو ذرهم ومعاويتهم بالتكفير: يا عدو الله! بل أنت وأبوك عدوان لله!.

٢٥ ـ تقويل أبا ذرهم أنه كان يدعي معرفة ما يبطن معاويتهم وأبوه من الكفر بعد أن أظهرا الإسلام! (وفي هذا ما فيه من تعريض برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والوحي إذ يتساهل مع كافرين يبطنان الكفر، وتكليف أحدهما بكتابة الوحي عنده!).

٢٦ ـ اتهام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان لعاناً لأصحابه.

٢٧ ـ اتهام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يتفنن في الدعاء السيء على أصحابه. منها أنه دعا على معاويتهم أن لا يشبع مرات!.

٢٨ ـ ادعاء بأن معاويتهم حبس أبا ذرهم بالشام.

من النص (٦):

٢٩ ـ زعم أن مواعظ أبي ذرهم في الشام كانت أحاديث في فضائل آل البيت والحض على التمسك بالعترة الشريفة.

٣٠ ـ زعم أن شكوى معاويتهم لعثمانهم من أبي ذرهم لقيامه بالدعاية للعترة الشريفة، وفي هذا إفساد للناس على عثمانهم!.

٣١ ـ جواب عثمانهم يطلب فيه من معاويتهم إشخاص أبي ذرهم للمدينة حين ينظر في كتابه!.

٣٢ ـ طلب معاويتهم من أبي ذرهم أن يسافر إليها مباشرة.

٣٣ ـ شد أبي ذر لراحلته بنفسه!.

٣٤ ـ ادعاء محاورة بينه وبين أهل الشام وغضبهم له.

٣٥ ـ ادعاء منسوب لأبي ذرهم أنه قال: أخرجوني إليكم غضباً علي، وأخرجوني منكم إليهم عبثاً بي!.

٣٦ ـ ادعاء منسوب إلى أبي ذرّهم أنه بر وغيره فاجر!.

٣٧ ـ مضى أبي ذرهم على ناقته إلى المدينة بنفسه!.

٣٨ ـ استقبال عثمانهم لأبي ذرهم بالدعاء عليه!.

٣٩ ـ وجود كعبهم بمجلس عثمانهم ـ كما هي العادة!.

٤٠ ـ تدخل كعبهم تطفلاً منه بين الخليفة وأبي ذرهم ناصراً الخليفة!.

٤١ ـ سب أبي ذرهم لكعبهم.

٤٢ ـ معرفة أبي ذرهم أن اليهودية لم تخرج من قلب كعبهم!.

٤٣ ـ أقسم عثمانهم أن لا يجمعه وأبا ذرهم دار!.

٤٤ ـ وصف عثمانهم أبا ذرهم بالخرف وذهاب العقل!.

٤٥ ـ أمر عثمانهم بأن يخرجوا أبا ذرهم حتى يركبوه ناقة بغير وطاء ثم النجاء به وتعتعته حتى إيصاله الربذة.

٤٦ ـ الحكم على أبي ذرهم بأن ينزل في ربذتهم من غير أنيس حتى يموت!.

٤٧ ـ إخراج أبي ذرهم من مجلس عثمانهم متعتعاً ملهوزاً بالعصا!.

٤٨ ـ أمر عثمانهم الناس ـ كل الناس ـ أن لا يشيع أبا ذرهم أحد!.

٤٩ ـ زعم أن كل ما قام به عليّهم أن بكى عليه حتى بلّ لحيته! وشيعه!.

٥٠ ـ خرج عليّهم وحسنهم وحسينهم وابن عباسهم وفضلهم وقثمهم وعبيدهم لتشييع أبي ذرهم.

٥١ ـ تقويل أبا ذرهم قولاً عن المفارقة يلمح فيه أنه إنما أخرج من المدينة لحبه لآل البيت!.

من النص (٧):

٥٢ ـ ادعاء أن تشيع أهل عامل كان على يد أبي ذرهم بدليل وجود مسجدين على اسمه أحدهما في ميس والآخر في الصرفند! (ولم يعش

العاملي ليرى أنه لا تكاد تخلو مدينة أو قرية عربية من وجود مدرسة أو جمعية تعاونية باسم أبي ذر، ولعله لو عاش ادعى أنه «تشيع» كل هذه المدارس والجمعيات كان على يد أبي ذر! أو كان تراجع عن دعوات في سبب تشيع أهل عامل)!.

٥٣ ـ اعتبار خروج أبي ذرهم من المدينة إلى الشام نفياً!.

من النص (٨):

٥٤ ـ كتب عثمانهم إلى معاويتهم بحمل أبي ذرهم على أغلظ مركب وأوعره.

٥٥ ـ حمل معاويتهم أبا ذرهم على شارف ليس عليها إلا قتب! (انظر الأرقام ٣١، ٣٣، ٣٧). وهي رواية أخرى.

٥٦ ـ ادعاء أن عثمانهم ساءل أبا ذرهم إن كان يزعم أن عثمانهم يقول «يد الله مغلولة» و «إن الله فقير ونحن أغنياء»!.

٥٧ ـ عدم رد التهمة بل تأكيد أبي ذرهم لها إذ استدل بعدم إنفاقهم للمال.

٥٨ ـ رواية حديث عن أبي ذرهم عن جعل بني أبي العاص مال الله دولاً وعباده خولاً ودينه دخلاً؛ إذا بلغوا ثلاثين رجلاً!.

٥٩ ـ مهاترة صبيانية جديدة زعموا أنها جرت بين عثمانهم وأبي ذرهم وعليّهم وباقي صحابتهم!.

٦٠ ـ ادعاء أن أبا ذرهم ـ في رواية أخرى ـ نصح عثمانهم فقابله بقوله: ما لك وذلك لا أم لك!.

٦١ ـ طلب عثمانهم من أصحابه المشورة في «هذا الشيخ الكذاب» وحدد لهم نوع العقوبة التي يقترحها ليختاروا له واحدة من «الضرب أو الحبس أو القتل، أو النفي من أرض الإسلام»! وهذا يعني عدم وجود حدود أو قوانين يحكم بها الخليفة الراشد إنما يعود الحكم ـ على زعمهم ـ إلى هواه وعصبيته، وآراء مستشاريه!.

٦٢ ـ رد عليّهم على عثمانهم بآية قرآنية.

٦٣ ـ إجابة عثمانهم بجواب غليظ!.

٦٤ ـ إجابة عليّهم بجواب غليظ مثله!.

٦٥ ـ يرتفع المؤلف بحسن خلقه! فيمتنع عن ذكر الجوابين تـذمماً منهما! وهذا يعني أن المؤلفين يحاولون تصوير الشخصيتين المسـرحيتين بصورة أبذأ لساناً من أن يذكر قولهما البذيء، ويتركون هذه المهمة القذرة إلى خيال القارىء.

من النص (٩):

٦٦ ـ ادعاء بأن خروج أبي ذرهم إلى ربذتهم كان نفياً.

٦٧ ـ زعم أمر غريب عجيب هـو حظر من الخليفـة الراشـد على الناس ـ كل الناس ـ أن يقاعدوا أبا ذر أو يكلموه.

٦٨ ـ محاورة ومهاترة فيها اتهـام من أبي ذرهم لعثمانهم «بـالبطش كالجبابرة» وإجابة «اخرج عن بلادنا»!.

٦٩ ـ جواب أبي ذرهم عن بغضه لجوار عثمانهم!.

٧٠ ـ محاورة صبيانية عن اختيارات أبي ذرهم لمكان النفي المزعوم وإجابات عثمانهم دوماً بلا!.

٧١ ـ دعوى من عثمانهم أن أبا ذرهم أفسد الشام.

٧٢ ـ تعيين مكان النفي! «البادية» من قبل عثمانهم!.

٧٣ ـ اعتراض أبي ذرهم وسؤاله استفهاماً استنكارياً: أصير بعد الهجرة أعرابياً؟.

٧٤ ـ جواب عثمانهم بالإيجاب.

٧٥ ـ اختيار أبي ذرهم لبادية نجد ورفض عثمانهم أيضاً!.

٧٦ ـ تقرير مزعوم من عثمانهم أن مكان النفي هو «الشرق الأبعد أقصى فأقصى.. فلا تعدون الربذة»!.

٧٧ ـ زعم قرار جديد يأمر به الخليفة حيث «نودي في الناس أن لا يكلم أحد أبا ذرهم ولا يشيعه»!.

٧٨ ـ جبن أهل المدينة جميعاً «تحاماه النـاس» إلا عليّهم وعقيلهم وحسنهم وحسينهم وعمارهم.

٧٩ ـ كل ما كان من جرأة عليّهم وشجاعته: أن خرج فشيعه، ثم سب مروانهم ودعا عليه وضرب بالسوط بين أذني راحلته!.

٨٠ ـ تلظى عثمانهم على عليّهم!.

٨١ ـ تعريض عليّهم بعثمانهم قائلاً «غضب الخيل على اللجم».

من النص (١٠):

٨٢ ـ التظاهر بالنزاهة العلمية واقتضاب بعض الأقوال التي تفيد أن خروج أبي ذرهم إلى ربذتهم كان باختياره ثم نفيها نفياً قاطعاً بقوله: معاذ الله أن تتكافأ! (النصوص!).

٨٣ ـ دليل النص الذي نقله العاملي على عدم صحة الأقوال المعارضة هو: أن المعروف والظاهر! أنه نفاه أولاً إلى الشام ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاويتهم، ثم نفاه من المدينة إلى الربذة!.

من النص (١١):

٨٤ ـ رواية جديدة عن المحاورة التي يختار أبو ذرهم فيها أرض المنفى فيرفض الخليفة الراشد ذلك!.

٨٥ ـ أمره بالمسير إلى الربذة (قارن مع ٤٥، ٤٦).

٨٦ ـ تردد أبي ذرهم من ربذتهم ماشياً إلى مجلس الخليفة (قارن مع ٧٦).

٨٧ ـ ادعاء أن ربذتهم أرض لا زرع فيها ولا ضرع ولا شويهات، ولا خادم لأبي ذر إلا محررة، ولا ظل إلا ظل شجرة!.

٨٨ ـ طلب أبي ذرهم من عثمانهم خادماً وغنيمات فوق ما هو عنده من شويهات ومحررة!.

٨٩ ـ تحويل عثمانهم وجهه عن أبي ذرهم من سماط إلى آخر!.

٩٠ ـ إلحاح أبي ذرهم في الطلب!.

٩١ ـ تبرع حبيبهم بن مسلمتهم بألف درهم وخمسمائة شاة ـ وهو هنا من جلساء عثمانهم! (قارن مع الرقم ١٩).

٩٢ ـ ادعاء منسوب إلى أبي ذرهم بأنه غير محتاج ويوجد من هو أحوج منه!.

٩٣ ـ يحرم عثمانهم أبا ذرهم حقه في كتاب الله!.

٩٤ ـ يصف عثمانهم أبا ذرهم بالسفه أمام عليّهم.

٩٥ ـ رد عليّهم بأنه ليس سفيهاً!.

من النص (١٢):

٩٦ ـ لم يستطع العاملي أن يجد اسم جلام أو حلام في كتب أسماء الصحابة! ويستغرب هذا!.

النص رقم (٢):

ينقل العاملي في أعيانه يقول:

«وفي الدرجات الرفيعة: روي أنه لما توفي عبد الرحمن بن عوف قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك! فقال كعب: وما تخافون عليه؟ كسب طيباً وأنفق طيباً. فبلغ ذلك أبا ذر رحمة الله عليه، فخرج مغضباً يريد كعباً فمر فلحق عظم بعير. فأخذ بيده ثم انطلق يطلب كعباً فقيل لكعب إن أبا ذر يطلبك فخرج هارباً حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر فأقبل أبو ذر يقتص الخبر في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذر رحمه الله فقال: أبو ذر ههنه يا ابن اليهودية تزعم أنه لا بأس بما ترك عبد الرحمن لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو أحد وأنا معه فقال: يا أبا ذر، فقلت لبيك يا رسول الله، فقال: الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وفوقه وخلفه وقدامه وقليل ما هم ثم قال يا أبا ذر قلت نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي قال ما سرني أن لي مثل أحد أنفقه في سبيل الله أموت ثم أموت ولا أترك منه قيراطين ثم قال يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل فرسول الله يريد هذا

وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف كذبت وكذب من قال فلم يرد عليه حرفاً حتى خرج»[1].

النص رقم (٣):

يقول العاملي:

«وفي لباب الآداب: أورد الإمام أبو الحسن يحيى بن نجاح في كتاب سبل الخيرات أن عثمان بن عفان أرسل إلى أبي ذر الغفاري بصرَّة فيها نفقة على يد عبد له وقال إن قَبِلها فأنت حر فأتاه بها فلم يقبلها فقال اقبلها يرحمك الله فإن فيها عتقي فقال إن كان فيها عتقك فإن فيها رقي وأبى أن يقبلها». اهـ[2].

ويصور العاملي أن لأبي ذر ولداً يسمى ذر كما يعنون له بما يلي:

النص رقم (٤):

كلامه لما مات ابنه

«روى الكليني في الكافي بسنده عن علي بن إبراهيم رفعه قال: لما مات ذر بن أبي ذر مسح أبو ذر القبر بيده ثم قال: رحمك الله يا ذر والله إن كنت بي باراً ولقد قبضت وإني عنك لراض، أما والله ما بي فقدك وما علي من غضاضة، وما لي إلى سوى الله من حاجة، ولولا هول المطلع لسرني أن أكون مكانك، ولقد شغلني الحذر لك عن الحذر عليك، والله ما بكيت لك ولكن بكيت عليك، فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك. ثم قال اللهم إني قد وهبت له ما افترضت عليه من حقي فهب له ما افترضت عليه من حقك، فأنت أحق بالحق مني. ورواه علي بن إبراهيم في تفسيره نحوه فقال لما سير أبو ذر إلى الربذة مات بها ابنه ذر، فوقف على قبره فقال: رحمك الله يا ذر

---

(١) محسن الأمين العاملي، أعيان الشيعة (مطبعة الإنصاف الطبعة الثانية ١٩٦٣) ج ١٦، ص ٣٣٣.

(٢) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٣٣.

لقد كنت كريم الخلق باراً بالوالدين وما علي من موتك من غضاضة، وما بي إلى غير الله من حاجة، وقد شغلني الاهتمام لك عن الاغتنام بك، ولولا هول المطلع لأحببت أن أكون مكانك. فليت شعري ما قالوا لك وما قلت لهم، ثم قال: اللهم إنك فرضت لك عليه حقوقاً وفرضت لي عليه حقوقاً، فإني قد وهبت له ما فرضت عليه من حقوقي، فهب له ما فرضت عليه من حقوقك فإنك أولى بالحق وأكرم (بالكرم) مني». اهـ[1].

النص رقم (٥)

سبب نفيه إلى الشام

«قال ابن ابي الحديد في شرح النهج: وأصل هذه الواقعة أن عثمان لما أعطى مروان بن الحكم وغيره بيوت الأموال، واختص زيد بن ثابت بشيء منها جعل أبو ذر يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع «بشر الكافرين بعذاب أليم» ويرفع بها صوته، ويتلو قوله تعالى ﴿..والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾. فرفع ذلك إلى عثمان مراراً وهو ساكت، ثم إنه أرسل إليه مولى من مواليه أن انته عما بلغني عنك! فقال أبو ذر: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله تعالى فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إلي وخير من أسخط الله برضى عثمان، فأغضب عثمان ذلك وأحفظه فتصابر وتماسك، إلى أن قال عثمان يوماً والناس من حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً فإذا أيسر قضى؟ فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال أبو ذر يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا! فقال عثمان قد كثر أذاك وتولعك بأصحابي الحق بالشام، فأخرجه إليه فكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث إليه معاوية يوماً ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذر لرسوله إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا أقبلها، وإن كانت

---

(١) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٥٣.

صلة فلا حاجة لي فيها، وردها عليه. ثم بنى معاوية الخضراء بدمشق، فقال أبو ذر: يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الإسراف، وكان أبو ذر يقول بالشام: والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا في سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والله إني لأعرف حقاً يطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكذباً وأثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه. فقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية: إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام فتدارك أهله إن كان لك فيه حاجة. قال وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ في كتاب السفيانية عن جلام بن جندل الغفاري قال: كنت عاملاً لمعاوية على قنسرين والعواصم في خلافة عثمان فجئت إليه يوماً أسأله عن حال عملي إذ سمعت صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار بحمل النار اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له، اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له. فازبأر معاوية وتغير لونه وقال: يا جلام أتعرف الصارخ من هو؟ فقلت اللهم لا! قال عذيري من جندب بن جنادة يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعت، ثم قال أدخلوه علي فجيء بأبي ذر بين قوم يقودونه حتى وقف بين يديه، فقال معاوية يا عدو الله وعدو رسوله أتأتينا في كل يوم فتصنع ما تصنع، أما إني لو كنت قاتل رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكني أستأذن فيك. قال جلام: وكنت أحب أن أرى أبا ذر لأنه رجل من قومي، فالتفت إليه فإذا رجل أسمر ضرب من الرجال خفيف العارضين في ظهره حناء. فأقبل على معاوية وقال ما أنا بعدو لله ولرسوله بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر ولقد لعنك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعا عليك مرات أن لا تشبع، فقال معاوية ما أنا ذاك الرجل، فقال أبو ذر بل أنت ذاك الرجل، خبرني بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسمعته يقول وقد مررت به اللهم ألعنه ولا تشبعه إلا بالتراب، فأمر معاوية بحبسه». اهـ [1].

(١) هذا ما يرويه العاملي عن ابن أبي الحديد، أما البخاري فقد روى عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا يرمى رجل رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا =

النص رقم (٦):

وذكر العاملي أنه نقل المفيد في المجالس عن أبي جهضم عن أبيه قال: «لما أخرج عثمان أبا ذر الغفاري من المدينة إلى الشام كان يقوم في كل يوم فيعظ الناس ويأمرهم بالتمسك بطاعة الله ويحذرهم من ارتكاب معاصيه، ويروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

وذكر العاملي أنه نقل المفيد في المجالس عن أبي جهضم عن أبيه قال: «لما أخرج عثمان أبا ذر الغفاري من المدينة إلى الشام كان يقوم في كل يوم فيعظ الناس ويأمرهم بالتمسك بطاعة الله ويحذرهم من ارتكاب معاصيه، ويروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما سمعه منه في فضائل أهل بيته عليه وعليهم السلام ويحضهم على التمسك بعترته، فيكتب معاوية إلى عثمان: أما بعد فإن أبا ذر يصبح إذا أصبح ويمسي إذا أمسى وجماعة من الناس كثيرة عنده فيقول كيت وكيت فإن كان لك حاجة في الناس قبلي فأقدم أبا ذر عليك فإني أخاف أن يفسد الناس عليك والسلام. فكتب إليه عثمان: أما بعد فأشخص إلي أبا ذر حين تنظر في كتابي هذا والسلام. فبعث معاوية إلى أبي ذر فدعاه وأقرأه كتاب عثمان وقال له: النجاء الساعة. فخرج أبو ذر إلى راحلته فشدها بكورها وانساعها، فاجتمع إليه الناس فقالوا: يا أبا ذر رحمك الله أين تريد؟ قال: أخرجوني إليكم غضباً علي، وأخرجوني منكم إليهم الآن عيثاً بي ولا يزال هذا الأمر فيما أرى شأنهم فيما بيني وبينهم حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر ومضى وسمع الناس بمخرجه. . . [وذكر

= ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك» عن كتاب محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان) ج ٨، ص ١٨. وأما مسلم في صحيحه فقد روى عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا وليتبوأ مقعده من النار، ومن دعا رجلاً بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه» فلعنة الله على الكاذبين. انظر كتاب يحيى النووي، رياض الصالحين (دار العربية، بيروت، لبنان) ص ٤٤٢.

العاملي هنا خطبة لأبي ذر في الناس ومحاورة بينهم ثم. . .][1].

فمضى حتى دخل على عثمان فلما دخل عليه قال له: لا قرب الله بعمرو عينا!، فقال أبو ذر: والله ما أسماني أبواي عمراً، ولكن لا قرب الله من عصاه وخالف أمره وارتكب هواه! فقام إليه كعب الأحبار فقال له: ألا تتقي الله يا شيخ تجبه أمير المؤمنين بهذا الكلام! فرفع أبو ذر عصا كانت في يده فضرب بها رأس كعب ثم قال له: يا ابن اليهوديين ما كلامك مع المسلمين فوالله ما خرجت اليهودية من قلبك بعد! فقال عثمان: والله لا جمعتني وإياك دار قد خرفت وذهب عقلك، أخرجوه من بين يدي حتى تركبوه ناقة بغير وطاء ثم انجو به وتعتعوه حتى توصلوا الربذة فتنزلوه بها من غير أنيس حتى يقضي الله فيه ما هو قاض. فأخرجوه متعتعاً ملهوزاً بالعصا، وتقدم أن لا يشيعه أحد من الناس، فبلغ ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فبكى حتى بل لحيته بدموعه ثم قال: أهكذا يصنع بصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم نهض ومعه الحسن والحسين عليهما السلام وعبد الله بن عباس والفضل وقثم وعبيد الله حتى لحقوا أبا ذر فشيعوه، فلما بصر بهم أبو ذر رحمه الله حن إليهم وبكى عليهم وقال: بأبي وجوه إذا رأيتها ذكرت بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشملتني البركة برؤيتها ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أحبهم ولو قطعت إرباً إرباً في محبتهم ما زلت عنها ابتغاء وجهك والدار الآخرة، فارجعوا رحمكم الله والله أسأل أن يخلفني فيكم فودعه القوم ورجعوا وهم يبكون على فراقه. اهـ.

النص رقم (٧):

«ومن المشهور أن تشيع أهل جبل عامل كان على يد أبي ذر وأنه لما نفي إلى الشام كان يقول في دمشق ما يقول أخرجه معاوية إلى قرى الشام فجعل ينشر فيها فضائل أهل البيت عليهم السلام، فتشيع أهل تلك الجبال على يده، فلما علم معاوية بذلك أعاده إلى دمشق ثم نفي إلى المدينة، وهذا

---

(١) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٥٧.

وإن لم يرد به خبر مسند لكنه قريب غير مستبعد. ويؤيده وجود مسجدين في جبل عامل يسمى كل منهما مسجد أبو ذر أحدهما في ميس والآخر في الصرفند، والله أعلم»[1].

النص رقم (٨):

ويقول العاملي تحت عنوان:

نفيه من الشام إلى المدينة

«قال ابن أبي الحديد في تتمة كلامه السابق المحكي عن الجاحظ: وأمر معاوية بحبسه، وكتب إلى عثمان فيه فكتب عثمان إلى معاوية أن احمل جندباً إلي على أغلظ مركب وأوعره فوجه به مع من سار به الليل والنهار وحمله على شارف ليس عليها إلا قتب حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد فلما قدم بعث إليه عثمان: الحق بأي أرض شئت قال: بمكة، قال: لا! قال: بيت المقدس! قال: لا! قال: بأحد المصرين قال: لا، ولكني مسيرك إلى الربذة. فسيره إليها فلم يزل بها حتى مات. قال: وفي رواية الواقدي أن أبا ذر لما دخل على عثمان قال له[2]:

لا أنعم الله بقين عينا   نعم ولا لقاه يوماً زينا

تحية السخط إذا التقينا

فقال أبو ذر: ما عرفت اسمي قيناً قط. قال في رواية أخرى: لا أنعم الله بك عيناً يا جنيدب! فقال أبو ذر: أنا جندب وسماني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله فاخترت اسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي سماني به على اسمي، فقال له عثمان: أنت الذي تزعم أنا نقول «يد الله مغلولة وأن الله فقير ونحن أغنياء» فقال أبو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده، ولكني أشهد

---

(١) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٥٨.

(٢) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٥٩.

أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً وعباده خولاً ودينه دخلاً، فقال عثمان لمن حضر أسمعتموه من رسول الله؟ قالوا: لا! قال عثمان: ويلك يا أبا ذر تكذب على رسول الله! فقال أبو ذر لمن حضر: أما تدرون أني صدقت؟ قالوا: لا والله ما ندري! فقال عثمان ادعوا علياً فلما جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فأعاده، فقال عثمان لعلي عليه السلام: أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: لا وقد صدق أبو ذر! فقال كيف عرفت صدقه؟ قال لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر! فقال من حضر: أما هذا فسمعناه كلنا من رسول الله، فقال أبو ذر: أحدثكم أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتتهموني ما كنت أظن أن أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال وروى الواقدي في خبر آخر باسناده عن صهبان مولى الأسلميين قال: رأيت أبا ذر يوم دخل به على عثمان، فقال له: أنت الذي فعلت وفعلت؟ فقال أبو ذر: نصحتك فاستغششتني، ونصحت صاحبك فاستغشني! قال عثمان: كذبت ولكنك تريد الفتنة وتحبها قد انفلت الشام علينا، فقال له أبو ذر: اتبع سنة صاحبيك لا يكن لأحد عليك كلام فقال عثمان: ما لك وذلك لا أم لك؟ فقال أبو ذر: والله ما وجدت لي عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فغضب عليه عثمان وقال: أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب إما أن أضربه أو أحبسه أو أقتله فإنه قد فرق جماعة المسلمين أو أنفيه من أرض الإسلام؟ فتكلم علي عليه السلام ـ وكان حاضراً ـ فقال: أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون ﴿فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ فأجابه عثمان بجواب غليظ وأجابه علي عليه السلام بمثله. ولم نذكر الجوابين تذمماً منهما». اهـ[1].

---

(١) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٦٠.

النص رقم (٩):

نفيه من المدينة إلى الربذة

قال ابن أبي الحديد: ثم إن عثمان حظر على الناس أن يقاعدوا أبا ذر ويكلموه، فمكث كذلك أياماً ثم أتى به فوقف بين يديه فقال أبو ذر: ويحك يا عثمان أما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأيت أبا بكر وعمر هل هديك كهديهم أما إنك لتبطش بي بطش جبار، فقال عثمان: أخرج عن بلادنا فقال أبو ذر: ما أبغض إلي جوارك فإلى أين أخرج؟ قال: حيث شئت، قال أخرج إلى الشام أرض الجهاد؟ قال: إنما جلبتك من الشام لما قد أفسدتها أفأردك إليها قال: أفأخرج إلى العراق؟ قال: لا إنك إن تخرج إليها تقدم على قوم أولي شقة وطعن على الأئمة والولاة، قال: أفأخرج إلى مصر؟ قال: لا، قال: فإلى أين أخرج؟ قال: إلى البادية، قال أبو ذر: أصير بعد الهجرة أعرابياً، قال: نعم قال أبو ذر فأخرج إلى بادية نجد؟ قال عثمان: بل إلى الشرق الأبعد أقصى فأقصى امض على وجهك هذا فلا تعدون الربذة فخرج إليها. قال ابن أبي الحديد: روى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في كتاب السقيفة عن عبد الرزاق عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما خرج أبو ذر إلى الربذة أمر عثمان فنودي في الناس أن لا يكلم أحد أبا ذر ولا يشيعه وأمر مروان بن الحكم أن يخرج به فتحاماه الناس إلا علي بن أبي طالب عليه السلام وعقيلاً أخاه وحسناً وحسيناً عليهما السلام وعماراً، فإنهم خرجوا معه يشيعونه، فجعل الحسن عليه السلام يكلم أبا ذر، فقال مروان بن الحكم: أيها يا حسن ألا تعلم أن أمير المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرجل فإن كنت لا تعلم فاعلم ذلك، فحمل عليه السلام على مروان فضرب بالسوط بين أذني راحلته وقال تنح لحاك الله إلى النار فرجع مروان مغضباً إلى عثمان فأخبره الخبر فتلظى على علي عليه السلام، ووقف أبو ذر فودعه القوم.. [ويروي العاملي هنا ثلاث وصايا طويلة ألقاها كل من علي رضي الله عنه والحسن والحسين رضي الله عنهما].. فبكى أبو ذر وكان شيخاً كبيراً وقال: رحمكم الله

يا أهل بيت الرحمة إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مالي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم إني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام وكره أن أجاور أخاه بالمصرين فأسد الناس عليهما فسيرني إلى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله والله ما أريد إلا الله صاحباً وما أخشى مع الله وحشة، ورجع القوم إلى المدينة «الخبر».

وقال المرتضى في كتاب «الفصول»: قال الشيخ رحمه الله قال أبو مخنف وأخبرني عبد الملك بن نوفل عن أبي سعيد المقبري قال: لما انصرف علي من تشييع أبي ذر استقبله الناس فقالوا: يا أبا الحسن غضب عليك عثمان لتشييعك أبا ذر! فقال علي عليه السلام: «غضب الخيل على صم اللجم» اهـ[1].

[ثم يتظاهر العاملي بعد كل هذا التحيز في ذكر الأخبار المتضاربة التي يظن أنها بكثرتها تدعم دعواه - يتظاهر - نقلاً عن ابن أبي الحديد بالنزاهة في ذكر الأخبار التي تعارض هذه الدعوى الكاذبة كما في النص التالي:].

النص رقم (١٠):

ثم تكلم ابن أبي الحديد على الأخبار المروية في أنه خرج إلى الربذة باختياره وقال إنها وإن كانت قد رويت لكنها ليست في الاشتهار بالكثرة كتلك الأخبار اهـ. وقال المرتضى في الشافي: قال قاضي القضاة عبد الجبار الباقلاني في الجواب عن الطعن على عثمان في نفيه أبا ذر إلى الربذة: إن شيخنا أبا علي - الجبائي - قال: إن الناس اختلفوا في أمر أبي ذر رحمه الله تعالى. وروى أنه قيل لأبي ذر أعثمان أنزلك الربذة فقال: لا بل اخترت لنفسي ذلك. روي أن معاوية كتب يشكوه وهو بالشام فكتب عثمان إليه أن صر إلى المدينة فلما صار إليها، قال: ما أخرجك إلى الشام قال: لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا بلغت العمارة المدينة

---

(١) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٦٢.

موضع كذا فاخرج عنها» فلذلك خرجت، فقال: فأي البلاد أحب إليك بعد الشام؟ قال: الربذة، فقال: سر إليهـا.. ثم ذكر العاملي قولين آخرين مقتضبين في أن أبا ذر رضي الله عنه خرج إلى الربذة باختياره. قال العاملي: «وروى قول القائل: وأقل ما في ذلك أن تختلف الأخبار فتطرح، ونرجع إلى الأمر الأول في صحة إمامة عثمان وسلامة أحواله. اعترض المرتضى رحمه الله تعالى على هذا الكلام فقال: أما قول أبي علي أن الأخبار في سبب خروج أبي ذر إلى الربذة متكافئة فمعاذ الله أن تتكافأ في ذلك، بل المعروف والظاهر أنه نفاه أولاً إلى الشام ثم استقدمه إلى المدينة لما شكا منه معاوية ثم نفاه من المدينة إلى الربذة..»[1].

النص رقم (١١):

ثم يروى عن «الشيخ في الأمـالي بسنده عن أسعـد بن زرارة عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري قال لما قدم أبو ذر على عثمان قال: أخبرني أي البلاد أحب إليك؟ قال مهاجري، قال: لست بمجاوري، قال: فألحق بحرم الله أكون فيه؟ قال: لا، قال: فالكوفة أرض بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: لا، قال فلسـت مختار غيرهن، فأمره بالمسير إلى الربذة. فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي: اسمع وأطع وانقد حيث قادوك ولو لعبد حبشي مجدع. فخرج إلى الربذة وأقام مدة، ثم أتى المدينة فدخل على عثمان والناس عنده سماطين، فقال: يا أمير المؤمنين إنك أخرجتني من أرضي إلى أرض ليس بها زرع ولا ضرع إلا شويهات وليس لي خادم إلا محررة ولا ظل يظلني إلا ظل شجرة، فأعطني خادماً وغنيمات أعيش فيها، فحول وجهه عنه، فتحول إلى السماط الآخر فقال مثل ذلك، فقال له حبيب بن مسلمة: لك عندي يا أبا ذر ألف درهم وخادم وخمسـمائة شاة، قال أبو ذر: أعط خادمك وألفك وشويهاتك من هو أحوج إلى ذلك مني فإني أسأل حقي في كتاب الله، فجاء علي عليه السـلام

---

(١) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٦٣.

فقال له عثمان: ألا تغني عنا سفيهك هذا؟ قال: أي سفيه؟ قال: أبو ذر، قال علي عليه السلام: ليس بسفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر، أنزله بمنزلة مؤمن آل فرعون﴿إن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم﴾ اهـ[أ].

ثم تقرأ أسفل الصفحة (٣٧١) حاشية طريفة كتبها مؤلف كتاب أعيان الشيعة حيث يقول تعليقاً عن خالد بن طفيل الغفاري عن أبيه عن حلام[١] بن ركين[٢].

النص رقم (١٢):

....

«(١) اختلفت النسخ في حلام ففي بعضها بالحاء المهملة وفي بعضها بالجيم، ومن الغريب أننا لم نجده في كتب أسماء الصحابة لا في باب الجيم ولا في باب الحاء».

«(٢) وهذا أيضاً اختلفت فيه النسخ ففي بعضها ركين، وفي بعضها دل، وفي بعضها جندل، وفي بعضها ذر، ولم يتيسر لنا معرفة الصواب منها ـ المؤلف.

أوَلا يعتبر هذا دليلاً على اختراع قصص وشخصيات كشخصية حلام أو جلام هذا؟[ب].

(أ) المصدر السابق، ج ١٦، ص ٣٦٥.

(ب) المصدر السابق، هامش ج ٣، ص ٣٧١.

البَابُ الخَامِسُ عَشَر

المزوّرون الجُدُد

أدى المزورون الجدد خلال أربعين سنة خلت مهمة تضليلية في أذهان مساحة واسعة من جماهير القراء المسلمين.



المزوّرون الجُدُد

نظمنا في مدخل هذا الباب «المزورون الجدد» قائمة بأسماء ستة من المزورين الجدد ممن أصدر كتاباً مفرداً بعنوان«أبو ذر الغفاري[1]» مع تعريف موجز بالمؤلف من حيث تعلّقه بالكتاب المؤلَّف؛ وذلك حسب ترتيب تواريخ صدور كتبهم، ثم أفردنا لكل مزور منهم فصلاً من فصول الباب نعرض فيه نصوصاً مختارة من كتابة بادئين بفصل عن عميد المزورين الذي خط لهم طريقة التزوير ودعاهم إلى أن ينشئوا أدباً إنشائياً خالصاً في التزوير ففعلوا. وهؤلاء المزورين هم:

١ ـ ١٩٤١ م. عبد الحميد جودة السحار، مقدم القافلة:

تقدم السحار تاريخياً على من تبعه واتبع خطاه من المزورين الجدد في الدس وقلب حقائق التاريخ مستنداً في تأليف كتابه إلى خياله وتصوراته، مع تطعيم الكتاب ببعض الروايات التاريخية؛ الكاذبة منها والصادقة، ومغيراً من عباراتها بما يمليه عليه «الأدب الإنشائي الخالص».

٢ ـ ١٩٤٧ م. قدري قلعجي، السبئي الصريح:

وهو أول من اعترف بصراحة بانتمائه إلى عبد الله بن سبأ اليهودي، وجعله بطلاً من أبطال التاريخ الإسلامي.. الذين يدعون إلى الحق والعدل!.

---

(١) تجاوزنا ذكر أسماء القصائد الشعرية والمقالات النثرية، والأفلام السينمائية، والمسرحيات التلفزيونية من المزورين. واكتفينا بما نشر على شكل كتاب من كتب المزورين.

٣ - ١٩٥٦ م. علي ناصر الدين الدرزي، صاحب قضية العرب:

أتى بإنشاء حماسي في الكذب والسب والشتم، وفضح بأسلوبه السمج سبئية القرن العشرين في تشويه التاريخ.

٤ - ١٩٦٤. م. صلاح عزام، صاحب الشباب المضنى:

غررت المدرسة السبئية بهذا المخلوق فأضنى شبابه بإخراج موضوع إنشائي سقيم يسيء إلى سمعته، ويؤدي إلى مآرب الباطنية.

٥ - ١٩٧٤ م. تشكيلة دار العودة (وهم: الفنان جمال كامل، الدكتور عز الدين إسماعيل، الشاعر صلاح عبد الصبور، الدكتور أحمد كمال زكي، فاروق خورشيد، الشاعر معين بسيسو، أحمد سعيد محمدية، عبد المنعم شميس، الفنان حسن جوني):

اشترك هؤلاء النوابغ جميعاً - على ما يظهر من الجهد المبذول - في «تحرير» ١١٢ صفحة من القطع الصغير، منها ٤٢ صفحة غير مسودة إلا من بعض رسوم للفنانين! وباقي الصفحات السوداء يرتاح الناظر إليها لأناقة طباعتها، واتساع ما بين أسطرها.. ونقاطها.. وفراغاتها! ويغتاظ من لا يحب الافتراء من أسلوبها السبئي في الكذب والدس على تاريخ المسلمين.

٦ - ١٩٨٠ م. الرفيق خالد محمد خالد، من العلماء!:

والرفيق خالد أشهر من أن يعرف ابتداء من مؤلفه «طبت حياً وميتاً يا رفيق» مستمراً - وهو صاحب المبدأ في «من هنا نبدأ» - في التبشير برسالته الدينية!

الفصل السادس والستون

المزورون وعميدهم

وأين هم من تأليفات «طاها حسين» «في الشعر الجاهلي» ومقدمة «على هامش السيرة» و «مستقبل الثقافة في مصر» و «الفتنة الكبرى» وفتنته الكبرى في «إسلامياته» أصبحت معروفة مشهورة.

أدى المزورون الستة خلال أربعين سنة خلت مهمة تضليلية وافتئاتية في أذهان مساحة واسعة من جماهير القراء من المسلمين. ولقد جاءت مؤلفات هؤلاء الخمسة تمثل الأسلوب السبئي في الدس على تاريخ الصحابة نقلة هذا الدين، بمستويات ونسب متفاوتة في قوة الدس والتشويه والتمويه والتزوير ولكل مؤلف صفاته ومميزاته ضمن المدرسة الواحدة.

أوضح هذه المؤلفات الستة تمثيلاً للمدرسة السبئية في تشويه التاريخ هما مؤلفان:

أبو ذر الغفاري لعلي ناصر الدين

أبو ذر الغفاري لتشكيلة دار العودة المبدعين التسعة.

كما أن أصدق معبر عن انتمائه الصريح لابن سبأ بين جملة هؤلاء المؤلفين والفنانين هو المؤلف قدري قلعجي مؤلف كتاب «أبو ذر الغفاري».

أما وجهة نظر السبئية على هذه المؤلفات الستة. فلها بعض المآخذ إلحاقاً بالمدح المنهال على تأدية هذه المؤلفات للغرض من الإعلام الباطني المشوه لتاريخ الإسلام والصحابة وأشهر هذه المآخذ اثنان:

المأخذ الأول: يتلخص في أن علي ناصر الدين وتشكيلة دار العودة كانوا سطحيين في عرض الكذب، بل ومتهافتين؛ فأين هم مما ألفه رائد القافلة السبئية الحديثة «جورجي زيدان» في رواياته المحبوكة الأطراف العميقة الغور في البهتان والتضليل والمطعمة في كثير من حواشيها بزينة أسماء الكتب الإسلامية التاريخية المعتمدة عند أهل هذا العلم!.

وأين هم من تأليفات «طاها حسين»[1] «في الشعر الجاهلي» ومقدمة على هامش السيرة، ومستقبل الثقافة في مصر، والفتنة الكبرى، وفتنته الكبرى في «إسلامياته» أصبحت معروفة مشهورة[2].

---

(١) إن كتابة الاسم بهذا الشكل «طاها» تدارك للخطأ الذي وقع فيه أبوه إذ لم يكن من الجائز شرعاً لذلك الأب أن يسمي ابنه بلفظ آية قرآنية نحو «طه، يس، حم» «وقد نص مالك على كراهية التسمية بيس، ذكره السهيلي، وأما ما يذكره العوام: أن يس وطه من أسماء النبي عليه الصلاة والسلام فغير صحيح. ليس في ذلك حديث صحيح ولا حسن ولا مرسل ولا أثر عن صحابي، وإنما هذه الحروف مثل: ألم وحم والر، ونحوها» ابن قيم الجوزية، تحفة المودود في أحكام المولود (المطبعة الهندية العربية، ٢٩ شارع محمد علي بمباي، م الهند، ط ١٩٦١) ص ٧٥.

أما وقد وقع الأب في هذا الخطأ تقليداً لباقي جهلة العوام فلا أقل من تصحيح هذا الجهل بكتابة مثل هذين الاسمين كما يلفظان هكذا «طاها وياسين» لا كما كتب في أوائل سور القرآن «طه» و «يس».

(٢) عندما ألف السبئي الكبير عميد الأدب العربي «إسلامياته» أراد إثارة فتن كانت نائمة لتضليل قرائه وعشاقه ودعا الشباب إلى تقليده في طريقته السبئية هذه فتراه عندما كتب «على هامش السيرة» يشكك بقصص السيرة جملة ويعتبرها ـ مع قصص الغزوات والفتوح الإسلامية وقصص الفتن والمحن قصصاً أسطورية اخترعتها قرائح الأدباء والفنانين اختراعاً ـ ولذلك تراه يثبت قصص الكذبة ويكذِّب قصص الثقات، ويعتبرها تقرأ «للترفيه عن النفس إذ لم يطمئن لها العقل ولم يرضها المنطق ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي» اقرأ ـ إذا شئت ـ مقدمة كتابه «على هامش السيرة» تر العجب، فبعد أن يشبه قصص السير والغزوات بأساطير الإلياذة يقول: «فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتَب مرة واحدة، ولم تحفظ في صورة بعينها، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف. وقل مثل ذلك في السيرة نفسها فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الإسلامية وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضاً، فصوروهم صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفني. وقل مثل هذا في الغزوات والفتوح وقل مثل هذا في الفتن والمحن التي أصابت العرب في العصور المختلفة. . .» «. . . وأنا أعلم أن قوماً سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم مُحدثون يُكبرون العقل، =

. . . .

= ولا يثقون إلا به، ولا يطمئنون إلا إليه. وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها. وهم يشكون ويلحّون في الشكوى حين يَرَوْنَ كَلَفَ الشعب بهذه الأخبار، وجدّه في طلبها، وحرصه على قراءتها والاستماع لها. وهم يجاهدون في صرف الشعب عن هذه الأخبار والأحاديث، واستنقاذه من سلطانها الخطر المفسد للعقول. هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء؛ لأنهم سيقرؤون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس. وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضا من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل، ولم يرضها المنطق، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها، ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها، ويدفعهم إلى أن يتلمسوا عندها الترفيه عن النفس حتى تشق عليهم الحياة. وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرّها العلم وتستقيم لها مناهج البحث. ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش.

وأحب أن يعلم الناس أيضاً أني وسّعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي، أو بنحو من أنحاء الدين، فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدمون من أصحاب السيرة والحديث، ورجال الرواية، وعلماء الدين» من كتاب طاها حسين على هامش السيرة (دار المعارف بمصر) ط ٢٠، ج ١، ص ك.

فكيف يلتزم طاها ما التزمه المتقدمون وهو الذي لا يتورع عن الاعتراف بأنه: وسع على نفسه في القصص ومنحها الحرية في رواية الأخبار واختراع الأحاديث. . . !.

ثم تراه فوق كل هذا الضلال والتضليل يقوم بدعوة «الشباب» إلى مذهبه في الاختراع وطريقته في الاختلاق فتأمل كلام نابغة العصر ويتيمة الدهر حين يقول في مقدمة الكتاب نفسه: «وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى، واتخاذها موضوعاً قيماً خصباً لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما، بل كذلك للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد. . .» المصدر السابق، ج ١، ص ي. فإذا عجب القارىء ودهش من كلام طاها المثبت في كل مقدمات طبعات على هامش السيرة؛ وهو يشكك بمجمل قصص السير والغزوات؛ يزول عجبه ودهشته عندما يعلم أن الرجل نفسه قد أخرج كتاباً أسماه «في الشعر الجاهلي» هاجم فيه عقيدة المسلمين (الذين يعدّون القرآن الكريم كلام الله، وهو حق يقيني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فتراه يعلن في صفحات كتابه ٢٦ ـ ٢٨ أن ورود قصة إبراهيم وإسماعيل في القرآن لا تكفي عنده لإثبات وجودهما التاريخي، وتراه يعدّها أسطورة جاء بها محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليحتال بها على الناس فصدقت قريش هذه الأسطورة وقبلت هذه الحيلة! =

والمأخذ الثاني: للسبئية على قدري قلعجي كان شديداً فلقد فضح السبئي القلعجي نفسه وحزبه بغباء وبلاهة إذ عبر ـ على غير عادة السبئية في الدس والتواري ـ عن انتمائه لهذه المدرسة بصراحة كشفت الستر وفضحت السوءة، عندما تحدث في أكثر من موضع في كتابه «أبو ذر الغفاري» عن عبد الله بن سبأ الذي كان «داعياً إلى ما يدعو إليه أبو ذر من الحق والعدل»[1] ومكبراً له ولدوره الرائد عندما «كان ينفى من بلد إلى آخر في الولايات العربية، استقر في مصر وبدأ ينشر فيها دعوته، ويتصل بالثائرين في البصرة والكوفة ويتبادل معهم الكتب والرسائل ويرسل إليهم الدعاة، حتى أصبحت الحالة في البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطر عثمان إلى ندب أربعة من رجاله لتهدئتها والتحقق من أمرها»[2].

أما الأسلوب الذكي الذي تهواه المدرسة السبئية والذي حقق لها في عصرنا هذا أشهى أمانيها في صرف الناشئة عن الإعجاب ببناة الإسلام الأول بل والاشمئزاز من أفعالهم ـ المفتراة عليهم ـ فإن أسلوب «طاها حسين» عميد

= يقول طاها: «... للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة... (قال): ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والتوراة والقرآن من جهة أخرى... فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية، ونهضة دينية وثنية، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة... (قال): وإذا كان هذا حقاً، ونحن نعتقد أنه حق، فمن المعقول أن نبحث هذه النهضة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تحدث عنها الأساطير، (قال): وإذن فليس ما يمنع قريشاً من أن تتقبل هذه «الأسطورة» التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم... كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة «أسطورة» أخرى صنعتها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس بن بريام صاحب طروادة» (اقرأ معركة «طاها» مع عقيدة المسلمين في كتاب: مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ص ١٥٢ ـ ١٥٣).

(١) قدري قلعجي، أبو ذر الغفاري (دار العلم للملايين ـ لبنان، ط ١٩٥٢) ص ٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٩.

الأدب العربي، ورئيس اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية، يعتبر من أذكى الأساليب المعروفة في تضليل طلاب الحق من المتأثرين بلقبه الطنان الأدبي والرسمي و «العلمي»!.

ففي الوقت الذي تجد فيه قدري قلعجي يكرس قلمه ليمتدح ـ ببلاهة وغفلة ـ عبد الله بن سبأ ويصفه ودعوته بما وصفه تجد الأذكى والأدهى والأشهر والأقوى يصرّ في «فتنته الكبرى» على أن عبد الله بن سبأ لم يوجد في التاريخ أصلاً لأنه يخيل «لطاها حسين» خيالات علمية نستعرضها في النص التالي المنقول من فتنته الكبرى «ويخيل إلي أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً...»[1].

وبعد أن عودنا «طاها» على أسلوبه العلمي! الذي يكثر فيه من مقدمته المشهورة «أظن» ونتيجتها المنطقية العلمية عنده ألا وهي «فمن المؤكد»! نجده في فتنته الكبرى يبني نتائجه العلمية «القطعية» على جهله الذي لا يتورع عن إعلانه في مقدمته بـ «لست أدري» يقول: «... ولست أدري أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن. ولكني أقطع بأن خطره، إن كان له خطر، ليس ذا شأن. وما كان المسلمون في عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارىء من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان...»[2] ثم يعود إلى نتائجه العلمية المبنية على الظن «العلمي أيضاً» حيث يقول: «وأكبر الظن أن عبد الله بن سبأ هذا ـ إن كان كل ما يروى عنه صحيحاً ـ إنما قال ما قال ودعا إلى ما دعا بعد أن كانت الفتنة وعظم الخلاف، فهو قد استغل الفتنة ولم يثرها...»[3] وأخيراً يتظاهر الشيخ طاها بالورع فيقول: «فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ولنكبر المسلمين في صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء، وكان أبوه

---

(١) طاها حسين، الفتنة الكبرى، عثمان. (دار المعارف بمصر، طـ ١٩٦٢) ص ١٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٤.

يهودياً وكانت أمه سوداء وكان هو يهودياً قد أسلم لا رغباً ولا رهباً ولكن مكراً وكيداً وخداعاً، ثم أتيح له من النجح ما كان ينبغي، فحرض المؤمنين على خليفتهم حتى قتلوه، وفرقهم بعد ذلك أو قبل ذلك شيعاً وأحزاباً.

هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل، ولا تثبت للنقد، ولا ينبغي أن تقام عليها أمور التاريخ، وإنما الشيء الواضح الذي ليس فيه شك هو أن ظروف الحياة الإسلامية في ذلك الوقت كانت بطبعها تدفع إلى اختلاف الرأي وافتراق الأهواء ونشأة المذاهب السياسية المتباينة»[١].

هكذا «يخيل» للشيخ طاها.. خيالاً علمياً منطقياً يستقيم لكل نقد، وهكذا يقف (الشيخ طاها ومن لف لفه) «موقف التحفظ والتحرج والاحتياط» يكبرون المسلمين في صدر الإسلام «أي الصحابة الكرام» عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل يهودي وعصابة منافقة. ليقرر «الدكتور طه حسين» زعماً وظناً علمياً «ليس فيه شك» أن ظروف الحياة بطبعها تدفع للاختلاف!.

ويتظاهر «الدكتور رئيس اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية» بالورع فيكبر المسلمين في صدر الإسلام «أي الصحابة الكرام» أن يعبث بدينهم يهودي! ثم يتزايد ورعه وتحفظه وتحرجه واحتياطه ليقرر «الخيال» الذي «يستقيم للعقل ويثبت للنقد وينبغي أن تقام عليه أمور التاريخ» ويصبح «خياله» من شدة الورع «شيئاً واضحاً ليس فيه شك» «أن ظروف الحياة الإسلامية» «كانت بطبعها تدفع إلى اختلاف الرأي وافتراق الأهواء».

ومعنى هذا يتجلى للقارىء بوضوح أن خيال «طاها حسين» يقضي وقضاء خياله «ليس فيه شك» أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أمثال عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن وابن مسعود وأبي موسى وابن عباس..» هم الذين اختلفت آراؤهم وافترقت أهواؤهم!

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٤.

وهم ـ وليس ابن سبأ وعصابته من الحزب الباطني ـ الذين عبثوا بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم.

لو ادعى هذه الدعوى أحد السبئيين الجدد ـ الذين لم يمروا على شيء من الثقافة الإسلامية ـ «أمثال علي ناصر الدين أو جورجي زيدان أو قدري قلعجي» وكذّب أحدهم رب العالمين في قوله تعالى واصفاً ـ سبحانه ـ شدة الصَحابة على الكفار، ورحمتهم بين بعضهم، ووحدة دينهم وتوجههم، وورعهم وتقاهم، وسيماهم حيث يقول سبحانه: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ «سورة الفتح: ٢٩».

نقول: لو أن واحداً من هؤلاء السبئية ممن لا يقرأ القرآن ولا يؤمن بأنه كلام الله؛ كذب آيات الله صراحة وعمداً، وكذب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما وصفهم؛ وكذب وصف المؤرخين الموثوقين لهم رضي الله عنهم، لوجدنا من كفره المعلن ذنباً ينسينا جريمته هذه، فليس بعد الكفر ذنب.

أما «طاها» الذي قرأ القرآن وألف عنه «في الشعر الجاهلي» ما ألف، وتحدث تقرير لجنة من العلماء في الأزهر انتدبها شيخ الأزهر آنذاك عما في الكتاب من عبارات، وما في العبارات من «كفر صريح وتركت ما ينطوي ثناياه من الإلحاد والزندقة مما لا يخفى على الناظر»[1] ثم ادعى «طاها» في رسالة وجهها إلى مدير الجامعة المصرية آنذاك ما يلي: «.. وأنا أؤكد لعزتكم أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه، وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أؤمن

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان) ص ١٧١.

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر...»[1] زعم هذا عندما أدركه الغرق، فلما شعر بشيء من الدعم من بقية السبئية الذين يناصرونه في الحكومة المصرية آنذاك صرح: «.. والفرق بيني وبين الشيوخ[2] أني مسلم حقاً أفهم الإسلام على وجهه»[3]..

هذا الذي يدعي تلكم الدعوى العريضة بأنه مسلم حقاً! يفهم الإسلام على وجهه! بينما يعرض بمشايخ الأزهر آنذاك بأنهم «غير مسلمين حقاً» فإذا فهموا الإسلام «فعلى غير وجهه» هذا الدعي المكابر لا يستقيم النقد بوصفه بالجهل إنما كان «طاها» معانداً للإسلام مجاهراً في صده عن سبيل الله مفتر على تاريخ الصحابة مكذب لنص آيات القرآن الكريم[4].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٢) يقصد جميع علماء الأزهر آنذاك.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٥١.

(٤) يراجع فصل «قديم وحديث» من فصول الجزء الثاني من كتاب د. محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للتعرف عن قرب على شخصية «طاها» الثقافية، وكذلك كتابه «حصوننا مهددة من داخلها، في أوكار الهدامين».

أما قضية تكذيب طاها للقرآن في كتابه «في الشعر الجاهلي» فلقد نوقشت في «برلمان مصر» آنذاك وأحيلت للنيابة العامة، وأعدم الكتاب «في الشعر الجاهلي» وحفظت قضية «طاها» لأن السبئية بمصر كانت من القوة بحيث تستطيع أن تمنع الاستمرار في مثل هذه القضية! بل إنها استطاعت إيصال «طاها» إلى وزارة المعارف فيما بعد. «يراجع كتاب مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن للتعرف على تفصيلات في قضية «طاها» التي طمست في غيره من الكتب».

الفَصْلُ السَّابعَ وَالسِّتون

مقدم القافلة
عبد الحميد جودة السحار

اقتطفنا بعض المقاطع من كتابه لنظهر للقارىء أسلوب «الخيانة العلمية» في نقل النصوص والتحريف فيها والتزوير في سبيل خدمة الفكرة التي سبقت في ذهن «المؤلف».

إن عبد الحميد جودة السحار (كاتب القصة المشهور والذي مات حين مات رئيساً لمجلس إدارة المؤسسة العامة للسينما في مصر بعد أن عاش مديراً عاماً لها سنوات من حياته) دبّج موضوعاً إنشائياً طويلاً طبعه عام ١٩٤١ م على شكل كتاب أسماه «أبو ذر الغفاري» استجابة لنداء أستاذه «طاها» على هامش سيرته حين ندب الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى واتخاذها موضوعاً خصباً.. للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص[1]. تكمن جريمة هذا السحار ـ مع تاريخ أبي ذر رضي الله عنه ـ أنه مقدم (القافلة) السبئية الحديثة وفاتح الباب للافتراء على سير الصحابي أبي ذر وباقي إخوانه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في الكتب المطبوعة في هذا القرن من الزمان، ذلك أن «السحار» «ألّف قصة» استقى بعض عناصرها مما قرأ من كتاب العاملي «أعيان الشيعة» وزاد عليها ما شاء له هواه واقترحته عليه قريحته في القص والرص فخرج «كتابه» نموذجاً نمطياً سار على منهاجه ـ في التأليف والرص ـ من أراد التأليف والقص، كما علّم من اقتص أثره كيف تكون الجرأة على تاريخ الصحابة بالتحوير والتحريف في النص ـ المنقول عن صادقين

(١) طاها حسين، على هامش السيرة (دار المعارف بمصر، الطبعة العشرون) ج ١، ص ي.

وكاذبين ـ بما تأمرهم به أنفسهم وتهوي بهم أهواؤهم. ولهذا اعتبر عمله هذا جريمة بتصدره وتقدمه على رأس القافلة السبئية وفتحه باب الفتنة لمن بعده من المؤلفين والقصاصين في هذا القرن من الزمان.

أما مجمل الكتاب فلا يشكل ما يستحق نقداً على اعتباره لا يقدم فكراً ـ جديداً أو قديماً ـ فهو لا يزيد على كونه «موضوع إنشاء» طويل استجاب فيه طالب متقدم في «الإنشاء» لطلب أستاذه! فارتفع السحار بأسلوبه في مواضع يحسده عليها زملاؤه من تلاميذ الأستاذ «طاها» ثم تراه ينحدر في كثير من المواضع إلى وهدة سحيقة من التكلف والسماجة تضحك زملاءه المنافسين، ثم تراه يهوي في مواضع كثيرة إلى مستنقع من التحريف والتزوير والاختلاق إذ يتخذ دور «رواية» التاريخ، لكنك تأسف إذ لا ترى لهذا «الراوية» عزواً ـ فيما يوهمك بأنه ينقل نقلاً من نصوص ـ إلى سابق له من المؤلفين.

ولقد اعتبرنا السحار مقدم القافلة السبئية الحديثة ولم نعتبر العاملي مقدمها مع أنه معاصر للسحار ولم يتأخر صدور كتاب السحار على كتاب العاملي عاماً واحداً ذلك لأن العاملي صاحب مذهب، جمع كتابه الضخم الطويل لخدمة مذهبه في الترجمة لرجال كثيرين ادعى بأنهم «أعيان الشيعة» عنده، فهو يريد بهذا الجمع نصر فكرة وخذلان أخرى، وأسلوب أمثاله في «رواية التاريخ» أسلوب مكرور ينتسب لمدرسة قديمة ليس شأن كتاب «هذا أبو ذر» التصدي لها أو مناقشتها.

أما مقدم القافلة الحديثة «السحار» فلقد اقتطفنا بعض المقاطع من كتابه لنظهر للقارىء أسلوب «الخيانة العلمية» في نقل النصوص والتحريف فيها والتغيير والتزوير في سبيل خدمة الفكرة التي سبقت في ذهن «المؤلف» فتراه يهوي إليها لاوياً عنق حوادث التاريخ بما يقتضيه هواه غير مبالٍ بالحق الذي طمس أو التاريخ الذي زور!.

يبدأ الأسلوب السبئي كما ستقرأ في النص رقم (١٣) من نصوص

السحار بالتسلل إلى فكر القارىء موهماً إياه بأنه يجل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه فهو يقدر صلاحه وتقواه وقربه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لكنه يبدأ التشكيك في قدرته وعزمه وحزمه! مقارناً إياه بعمر، «فعثمان لن يملأ الفراغ الذي تركه عمر»! رضي الله عنهما.

ويُسقط السحار ما في قلبه من ضلال عن الحق، وعن معرفة من هو عثمان ـ على رأس أبي ذر فيزعم أنه أطرق واكتأب وغمغم.. بعدما علم.. ويبدأ السحار همز الصحابة وغمزهم هنا ـ عن قصد أو غير قصد ـ فالذين اختاروا عثمان من الصحابة لا يعرفون أقدار الناس كما يعرفها السحار! حتى ولو عايشوهم وتخلف السحار عنهم ثلاثة عشر قرناً من الزمان!.

النص رقم (١٣):

«فعلم أبو ذر أن عثمان بن عفان اختير خليفة للمسلمين. فأطرق واكتأب وغمغم: «عثمان بن عفان، رجل صالح ما في ذلك شك، تقي مسلم ما في ذلك شك، محبوب من النبي مقرب ما في ذلك شك، ولكنه ليس من القدرة والعزم والحزم بحيث يخلف عمر، أو يملأ الفراغ الذي تركه عمر»[١].

ثم يمضي السحار مهاجماً مجمل الصحابة الذين اختاروا عثمان خليفة للمسلمين كما يصف علياً رضي الله عنه بالتهاون في حقوقه. وكأن الأمر كان حقوقاً فردية يحق لعلي أن يتهاون فيها أو يشدد في العزيمة. وكأن الأمر ليس أمر أمة! وعلي الذي يصفه السحار بالتهاون هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه!.

النص رقم (١٤):

«فعلم أبو ذر كيف اختير عثمان، وكيف كان علي متهاوناً في حقوقه»[٢].

---

(١) عبد الحميد جودة السحار، أبو ذر الغفاري (لجنة النشر للجامعيين، مكتبة مصر ومطبعتها، ٦٣ شارع الفجالة ط ١٩٤٣) ص ١٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٦.

ويجاهر السحار في النص التالي بصراحة تزيد عن صراحة طاها حسين ـ ولو أنه أخذ عنه ـ فتراه يقول: «ورأى كثيراً من الصحابة يتغيرون فالزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف. . .»[1].

أما الدكتور «طاها حسين» فقد كانت عبارته «ولنكبر المسلمين في صدر الإسلام أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء. . . وإنما الشيء الواضح الذي ليس فيه شك هو أن ظروف الحياة الإسلامية في ذلك الوقت كانت بطبعها تدفع إلى اختلاف الرأي وافتراق الأهواء. . .»[2].

النص رقم (١٥):

«وبقي أبو ذر بالمدينة، ورأى ميل عثمان إلى بني أمية، وتغلغل نفوذهم في الدولة الإسلامية، وانقلاب الحكم في عهده ملكاً له مظاهر الملك من عظمة مظاهر الملك من ترف وتهافت على الدنيا، ورأى كثيراً من الصحابة يتغيرون فالزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف. . .»[3].

إذن فلقد انقلب الحكم ـ في تمثيلية السحار ـ في عهد عثمانه ملكاً له مظاهر الملك، بعد ميل عثمانه إلى بني أميته وتغلغل نفوذهم. . ورأى أبو ذره كثيراً من صحابته يتغيرون، فزبير السحار وطلحته وابن عوفه تغيروا. . فالسحار هنا يدين جميع ممثليه وشخصياته المبتدعة ممن يسميهم بأسماء الصحابة الكرام وعلى رأسهم عثمانه وعليّه وزبيره وطلحته وابن عوفه، هذه الأسماء المماثلة لأسماء بقية العشرة أهل الشورى الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو عنهم راض.

يفتري «السحار» على هذه الأسماء كل هذه الافتراءات ويصور شخصياتهم بهذه الصورة المادية المتخلفة إرضاء لشهوات أستاذه «طاها» كي

---

(١) المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) طاها حسين، الفتنة الكبرى، عثمان (دار المعارف بمصر، ط ١٩٦٢) ص ١٣٢.

(٣) عبد الحميد جودة السحار، المصدر السابق، ص ١٢٧.

يسعد «الأستاذ» عندما يرى الشباب يتلاعبون بسيرة المصطفى وصحابته «في الأدب الإنشائي الخالص فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد»[1].

وهكذا يمضي «السحار» على خطى أستاذه ليمهد للموقف المسرحي التالي لشخصيته المبتدعة «أبي ذر» فيدعي أن أبا ذره كان يهاجم عثمانه أي أن أبا ذر السحار موضوع عنده في قائمة أهل الأهواء الذين أهاجوا الفتنة «على عثمان والدولة الإسلامية» فقتلوا الخليفة رغم تخلف أبي ذر السحار عن غمس يده في دم الخليفة لأنه كان قد مات.

النص رقم (١٦):

«فقام أبو ذر لا يخشى خليفة ولا يهاب أميراً يدعو الناس إلى الزهد ويهاجم عثمان»[2].

ثم ينقل السحار ـ مع تصرف في أسلوب الإنشاء وفي حبكة الرواية ـ من «أعيان» العاملي النص(٥)ويسمي غلام عثمانه «نائلاً» إمعاناً في إيهام القارىء أنه يعرف تفصيلاً لا يوجد عند غيره، فتراه ـ بعد كثير من اللت والعجن ـ يتهم أبا ذره وعليّه بالمؤامرة وكأن الاتفاق جرى على أن «يهاجم» أبو ذره عثمانه بأمر من عليّه! وتزداد المهاجمة بعد المقابلات الكثيرة!.

أما عثمان السحار فقد أحفظته كثرة «المهاجمة» وراح ينتهز الفرص!.. ويمضي السحار ليقرر القرب الشديد بين عثمانه وكعب أحباره الذي قال فيه السحار «وقال عثمان لصاحبه وهو يحاوره».

النص رقم (١٧):

«وتقابل أبو ذر وعلي كثيراً وازدادت مهاجمة أبي ذر لعثمان فأحفظ ذلك الخليفة وراح ينتهز الفرص ليبعد أبا ذر وواتته الفرصة المرتقبة ولم يدعها تفلت. ففي يوم من الأيام دخل أبو ذر على عثمان، وكان كعب الأحبار، وهو

---

(١) طاها حسين، على هامش السيرة (دار المعارف بمصر، الطبعة العشرون) ص ي.

(٢) عبد الحميد جودة السحار، المصدر السابق، ص ١٢٦.

يهودي أسلم، جالساً عنده فسلم عليهما وجلس ودار الحديث بينهم وقال عثمان لصاحبه وهو يحاوره أيجوز للإمام...»[1].

ويقرر السحار مع العاملي نفي أبي ذرهما إلى الشام فينفيانه في النص (١٧) وما بعده من كتاب السحار المنقول من النص (٥) مع التصرف بما يقتضيه توتر قريحة السحار.

ثم يدبِّج السحار إنشاء زائداً عن النص رقم (٥) حيث يؤلف على العبارة المزعومة في نص العاملي: «إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الإسراف» جميع النص رقم (١٨) التالي.

النص رقم (١٨):

«بلغ أبو ذر الشام، وكان معاوية يبني الخضراء، وآلاف العمال يحملون مواد البناء، يروحون ويغدون، ووقف معاوية يتطلع إلى الخضراء مزهواً فلمحه أبو ذر فاتجه إليه وقال: يا معاوية؛ إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الإسراف.

فأشاح معاوية بوجهه، ولم يرد عليه، فاستأنف أبو ذر سيره وبلغ المسجد فجلس، وأقبل بعض نفر من المسلمين يشكون معاوية لأبي ذر ويخبرونه أنه انقضى الحول ولم يعطهم عطاءهم فأطرق أبو ذر قليلاً، ثم نهض فتطلع إلى الناس فقال: لقد حدثت أعمال لا أعرفها...»[2].

فلم يتحمل السحار النص بلا صنعة فزاد عليه «آلاف العمال»[3] وزاد «الرواح» قبل الغدو وزاد عليه «مزهواً» «وأشاح بوجهه» وبقية النص.

ويستمر السحار في «التأليف الإبداعي» ناقلاً عن العاملي من النص رقم (٥) فيصحف اسم «حبيب» إلى «جندب» ويصور هذا «الجندب» يتمتم ـ وكأنه قرأ كتاب «طاها حسين» ـ: إنها الفتنة الكبرى.

(١) المصدر السابق، ص ١٢٨.
(٢) المصدر السابق، ص ١٢٩.
(٣) وهؤلاء الممثلون هم ما يعبر عنهم في لغة المؤسسة العامة للسينما في مصر «بالكومبارس».

والعجيب أن السحار وباقي إخوانه من المزورين الجدد يثبتون في «كتبهم» حديث نفس أبي ذرهم وتفاصيل المؤامرات السرية التي تحدث بين اثنين، وكذلك تقلبات حديث نفس معاويتهم وهو يفكر وأين يتجه تفكيره، بل إن هؤلاء السبئيين الجدد يلاحقون توارد الأفكار وتلاحقها فترى معاويتهم يفكر.. أيأخذه بالشدة؟ لا.. أيشكوه إلى عثمانهم؟ لا. لخير له أن يبعده في إحدى الغزوات! واطمأن معاويتهم إلى ذلك... إلخ.

وإليك أيها القارىء النص رقم (١٩) فاحكم بنفسك:

النص رقم (١٩):

«شاهد جندب بن مسلمة الفهري التفاف الناس حول أبي ذر، فتمتم: «إنها الفتنة الكبرى» وانطلق إلى معاوية حتى أتاه فأخبره وقال له:

ـ إن أبا ذر مفسد عليكم الشام، فتدارك أهله! إن كان لكم حاجة فيه.

فأطرق معاوية يفكر، أيأخذه بالشدة؟ لا إن ذلك مما يزيد النار لهيباً. أيشكوه إلى عثمان؟ ولكن ما يقول عثمان، عجز عن تقويم أحد رعاياه؟ لخير له أن يبعده عن الشام، وأن يبعثه في إحدى الغزوات، فما أحب الغزو في سبيل الله إلى نفسه. واطمأن معاوية إلى ذلك، فأرسل إليه[١].

وخلافاً للسبئي قدري قلعجي الذي يعتبر دعوة أبي ذر ودعوة ابن سبأ دعوة واحدة تقوم على الحق والعدل؛ ترى السحار يعترف بيهودية ابن سبأ، لكنه يقمصه شخصية داعية من الدعاة لأهل البيت! ما هذا الإبداع في الأدب الإنشائي الخالص.. يهودي في هيئة داعية لأهل البيت!.

النص رقم (٢٠):

«وكان يهودياً وأسلم. علم أن أبا ذر عاد إلى الشام فمشى إليه، وكان ابن سبأ يدعو لأهل البيت ويعمل على تحريض الناس على عثمان وعماله، فلما قابل أبا ذر عمل على إيغار صدره على معاوية، فقال له...»[٢].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٠.

ثم يكمل السحار النقل من النص رقم (٥) زائداً عليه ما يخيل إليه أنه يزيد في سحر الإنشاء كما في السطرين الأولين من النص التالي:

النص رقم (٢١):

«ثم ولاه ظهره وخرج، وأطرق معاوية قليلاً ثم راح يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً، ثم أمر بإحضار صرة بها ثلاثمائة دينار، ونادى أحد خدمه وأمره أن يلحق بأبي ذر وأن يعطيه الصرة، فأسرع الخادم خلفه، ولما لحق به في الطريق قال له:

- إن معاوية بعث إليك بهذه»[1].

أما النص (٢٢) التالي فيؤلفه السحار وكأنه ماض في تأليف سلسلة القصص الديني للأطفال فيخترع السحار «خواناً وما لذ وطاب من ألوان الطعام الشهية التي تتحلب لها الأفواه».

وإليك النص الذي يزيد في «الإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص» لكي يسعد أستاذ السحار ويوفق لبعض ما يريد:

النص رقم (٢٢):

«دخل أبو ذر على معاوية بقامته الطويلة النحيلة، وقد ارتسم على وجهه الأسمر آيات العزم، فقام معاوية لاستقباله وأجلسه بجواره، ثم نادى على الخدم، وأمرهم أن يحضروا الطعام، فمد الخوان ووضع عليه ما لذ وطاب من ألوان الطعام الشهية التي تتحلب لها الأفواه. وطلب معاوية من أبي ذر أن يأكل فأبى وقال: . . . .

فقال معاوية مهدداً:

- يا أبا ذر، هذا فراق بيني وبينك، فحاذر.

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٨.

ويعود السحار ـ في النص التالي ليتطفل على فكر معاوية ويسجل له توارد أفكاره وهواجس خواطره فينقل شيئاً ويزيد عليه أشياء.

النص رقم (٢٣):

«صعد معاوية المنبر يخطب الناس فقال:

... إنما المال مالنا والفيء فيئنا فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه.

فقام رجل إليه ممن حضر المسجد فقال:

ـ كلا إنما المال مالنا والفيء فيئنا، فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بسيوفنا.

فأطرق معاوية قليلاً، وخطر في نفسه أنه ما لقنه ذلك إلا أبو ذر، فهل يبطش معاوية به ليجعله عبرة للناقمين عليه؟ وهل لا يكون البطش به دافعاً إلى اندلاع لهيب الثورة؟ فكر معاوية الداهية، فعلم أن خير حل هو مصانعته، فأرسل إلى الرجل بعد أن قضيت الصلاة وقال للناس:

ـ إن هذا أحياني ـ أحياه الله ـ سمعت رسول الله يقول: «سيكون بعدي أمراء، يقولون ولا يرد عليهم، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة» [١].

ويمضي السحار في تتمة النص ليصور فيه معاوية بن أبي سفيان الذي اشتهر عنه بأنه من أحلم العرب بهيئة عصبية «بوجه باسر، يعض على نواجذه، يرغي ويزبد..» ثم يبتدع السحار قصة طريفة يختلق فيها شخصية «أحد مجرمي بني أمية» يسميه السحار «أحدهم» فيبدأ محاورة مع معاوية ثم محاورة مع أبي ذر وكأنه أحد أفراد العصابات في الأفلام «البوليسية»! فلنمض مع تتمة النص (٢٣) حيث يقول السحار:

«وانقضت صلاة الجمعة بسلام، وانصرف معاوية بوجه باسر، يعض على نواجذه، ودخل قصره وهو يرغي ويزبد، ودخل عليه أهله فأنكروه، وقال له أحدهم: ما بالك؟ ومالي أراك اليوم محنقاً؟.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٩.

ـ أعضل بي أبو ذر، والله ليفسدن القوم علينا إن تركناه.

ـ والله لأكفيكنه.

ـ لن تفلح الشدة معه.

ـ من يدري.

وانطلق الرجل إلى دار أبي ذر، وطرق الباب بشدة، وفتح الباب[1]، تطلع أبو ذر إلى الطارق فلم يعرفه، ولكن عرف الشر في وجهه فقال:

ـ خيراً؟.

ـ بل شراً يا أبا ذر إن لم تنته عن مهاجمة معاوية وتأليب الناس عليه فلن تمشي على الأرض بعد اليوم.

فقال أبو ذر بصوت كله هدوء، وكله اطمئنان:

ـ إني لا أهاب الموت ولا أخشاه.

ـ يا أبا ذر؛ دع ما أنت فيه ولا تغضب معاوية خير لك.

ـ إغضاب معاوية خير لي من إغضاب الله.

ـ ثب إلى رشدك ولا توغر صدور القوم علينا، وكف عن دعواك.

والله لا أكف حتى يوزع المال على جميع المسلمين.

ـ والله إنا نعلم لحساب من تعمل، والله إن لم تكف لنصبن عليك سوط العذاب.

ـ والله لا أكف حتى ترجعوا إلى كتاب الله.

فأطرق الرجل وفكر في استعمال الإغراء عسى أن يلين ذلك الرجل الذي لا يلين فقال:

ـ يا أبا ذر ثكلتك أمك، إن علياً لا يستطيع أن يجزيك أو يمنع عنك أذانا، أما معاوية فأمواله كالبحر الزاخر وهو طوع بنانك.

ـ لا حاجة لي إلى أموالكم، وإني لا أطمع إلا في رضى ربي وما عند الله.

---

(١) لاحظ كيف جعل السحار لأبي ذر بيتاً.. له باب.. يفتح!.

ـ لقد أعذر من أنذر، إنك لتسير إلى حتفك بظلفك.

ـ الموت أحب إلي من الحياة.

حاقت الخطوب بأبي ذر من كل جانب، وأصابه بلاء شديد على أيدي بني أمية، فالاضطهاد وقع به، والأموال منعت عنه»[1].

وبعد قراءة لهذه النصوص من «كتاب السحار» يمكننا التعليق على قريحته القصصية وأدبه الإنشائي الخالص أن السحار استطاع أن يضيف رتوشاً على مسرحية شخصياته تزيد على الأضاليل التاريخية في تصوير شخصيات المسعودي والعاملي ما يلي:

ـ آلاف العمال يحملون مواد البناء لقصر الخضراء.

ـ نظرة المزهو يظهر بها معاوية السحار.

ـ منع معاوية السحار العطاء عـن «الناس».

ـ يتقدم ناس السحار بالشكاية على معاويته لأبي ذره.

ـ مواقف تمثيلية تليق بالمرشح لمدير مؤسسة السينما ثم رئيس مجلس إدارتها إذ يصور معاويته يقلب وجهات النظر للانتقام من أبي ذره.

ـ خوف معاويته من عثمانه ومن شكايته له على أبي ذره.

ـ خوف معاويته من زيادة التهاب نار الثورة.

ـ تصوير معاويته «الأمير» بمصانعة أبي ذره «المأمور» ومداهنته.

ـ أمر «للخدم» بإحضار الطعام ومد الخوان ووضع ما لذ وطاب مما تتحلب له الأفواه.

ـ اختراع قول جديد على لسـان أبي ذره: هذا فـراق بيني وبينك فحاذر!.

ـ معاوية السحار رجل عصبي داهية بطاش مصانع!.

ـ معاوية السحار، وجه باسر، يعض على نواجذه، يرغي ويزبد وينكره أهله.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٨ ـ ١٤١.

ـ رجل ـ غير معروف من أهل معاوية السحار ـ يهدد أبا ذر السحار بأمر من معاوية.

ـ دعوة أبي ذر السحار لتوزيع بيت المال على جميع المسلمين!.

ـ اتهام رجل السحار في «لقطة» له مع أبي ذره أنه يعمل لحساب عليّ السحار، وعليّ السحار لا قدرة له على جزائه أو منع الأذى عنه، بينما أموال معاوية السحار كالبحر الزاخر وهي معروضة على أبي ذره وطوع بنانه!.

ـ تهديد من قبل رجل السحار لأبي ذره بالموت «إنك تسعى إلى حتفك بظلفك».

ـ بلاء شديد على أيدي بني أمية السحار ينزل بأبي ذره واضطهاد ومنع أموال!.

وهكذا يسهم عبد الحميد جودة السحار «كاتب القصة المشهور الذي مات رئيساً لمجلس إدارة المؤسسة العامة للسينما بمصر بعد أن عاش مديراً عاماً لها» في رسم تصوير مسرحي سبئي مزور للصحابي الكريم أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وإخوانه الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، ولقد أدى كتاب السحار «أبو ذر الغفاري» دوره في تضليل الجيل ليقوم باقي المزورين من بعده بالسير على الطريق نفسه في تشويه صور الصحابة الكرام.

فرضي الله عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولعنة الله على الكاذبين.

الفَصْلُ الثَامِنُ وَالسِتّون

السبئي الصريح
قدري قلعجي

أما القلعجي فتدرك مباشرة ومن أول صفحة تقرأها في كتابه أن الرجل بعيد عن الإسلام بعداً شاسعاً، وأن العربية وبيانها غريبان عنه غرابة منكرة.

في سلسلة من «الكتب» تحت اسم «أعلام الحريـة» يؤلف قدري قلعجي كتـاب «أبو ذر الغفاري» عام ١٩٤٧ بين ما ألف وقد كتب على غلاف كل «كتاب من كتب» هذه «السلسلة» ما يلي:

أعلام الحرية   سلسلة أدب ورواية وتاريخ

تأليف: قدري قلعجي.

كما كتب تعريفاً بالسلسلة هو التالي:

«مدرسة في القومية الصحيحة والكفاح الوطني تقرأ فيها سير أعلام الحرية وأبطالها في الشرق والغرب».

أما أبو ذر الغفاري فلقد حصل على الترتيب التاسع بين أعلام الحرية عند القلعجي وكتب بجوار اسمه وصف «أول ثائر في الإسلام» وكان هؤلاء «الأعلام» عند القلعجي هم من ورد في القائمة التالية ـ على الترتيب:

١ ـ سعد زغلول
٢ ـ أبراهام لنكولن   محرر العبيد وموحد الولايات المتحدة
٣ ـ مدحت باشا   أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين

عن الإسلام بعداً شاسعاً، وأن العربية وبيانها غريبان عنه غرابة منكرة.

والذي يلفت نظر قارىء كتاب «القلعجي» بعد الأسلوب السمج والبيان المتخلف، تقديره لدور عبد الله بن سبأ في التأليب على عثمان وإثارة الشقاق في بداية تاريخ الدولة الإسلامية مما أدى إلى فتنة صفق لها القلعجي ـ شماتة بالإسلام وأهله ـ واعتبرها دعوة حق وعدل دعا إليها عبد الله بن سبأ ـ قاتله الله ـ وأبو ذر القلعجي.

وكما قدمنا رأينا في كتاب السحار نقول في كتاب القلعجي فهو كتاب لا يستحق النقد، وكل ما قدمناه من الكتاب بعض نماذج تدل القارىء على سماجة التفكير، وركاكة الأسلوب، وجفوة البيان، وخطأ الفكرة، وتناقض الخيال، ثم محاولة إخضاع حقيقة التاريخ إلى تصور لا يمت إلى نص تاريخي في كتاب صحيح أو مكذوب! كما لا يمت إلى الثقافة العربية بأية صلة، ولا إلى العلوم الإسلامية هي الأخرى؛ اللهم إلا بالصّلة التي تكون بين العدو وعدوه وبين أداة الجريمة وجسم المقتول غدراً!.

وإليك نصوص القلعجي:

النص رقم (٢٤):

«واختلف إليه أياماً عديدة» [أي أبو ذر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم] «وأصغى إليه بكل جارحة فيه، وهو يتحدث عن الله الذي يسميه رب المستضعفين... ويعد الرقيق والمرأة والفقير المضطهد والعامل المظلوم بأن يقيم شرعة الحب والمساواة ويجعل لهم حقاً في أموال المترفين»[1].

وهذا الكلام كما يرى كل من له اتصال بشيء من الثقافة الإسلامية لا أصل له ألبتة، وفيه ما فيه من ادعاء أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يسمي الله رب المستضعفين. ثم الوعد.. وفي مكة كما يظهر من السياق ـ للرقيق والمرأة والفقير المضطهد والعامل بإقامة شرعة الحب والمساواة!.

---

(١) قدري قلعجي، أبو ذر الغفاري (دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ط ١٩٥٢) ص ١٥ ـ ١٦.

أما التشريع الجديد فهو عند القلعجي شرعة الحب والمساواة.

النص رقم (٢٥):

«واستمر أبو ذر يبيت في المسجد حتى تزوج، فاتخذ له حينذاك خيمة متواضعة على رابية صغيرة مجاورة للبادية، وفي نهاية طريق طويلة ضربت على جانبيها الخيام...

وما أكثر ما كان يطل من هذه الرابية على الصحراء، عند مشرق الشمس أو مغربها، وقد سجا السكون لا يرتفع إلا صوت مزمار بعيد من مزامير العرب، أو صوت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة»[١].

هذا النص أيضاً لا أصل له ألبتة بل ابتدعته قريحة القلعجي السقيمة، ولو أن القلعجي المنشىء قدم هذا النص لأحد معلمي المدارس الابتدائية على اعتباره تلميذاً في الصف الرابع الابتدائي لما قبله المعلم لما فيه من الركاكة والسماجة وبؤس الخيال.

يصور القلعجي سكان المدينة آنذاك يعيشون في الخيام.

أما أبو ذر القلعجي؛ فتصور أيها القارىء رابية صغيرة عليها خيمة متواضعة، ثم إن البادية تجاور الرأبية مباشرة، ولكن لا تنس أن بقية المنظر هو صفان من الخيام تنتهي عند الرابية التي عليها خيمة أبي ذر وبقية الصفين يدخل كل منهما في المدينة.

ثم إن الأصوات المسموعة في مجتمع المدينة نوعان من الأصوات مزمار من مزامير العرب! أو صوت مؤذن.

النص رقم (٢٦):

«وأن المرابين كان يحملون المستدين أو ابنته على البغاء لإيفاء ما على أبيها أو زوجها من دين.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٣.

وطابت نفس أبي ذر بعض الشيء... وكثيراً ما كان يتجه بفكره إلى المستقبل، فيرجو أن يقبل بخير أوفى، حين تنتظم الأمور ويزداد الإنتاج ويستطاع توفير الرزق لجميع الناس»[1].

يدّعي القلعجي في هذا النص أن الجاهليين العرب كانوا يحملون المستدين على البغاء، أو ابنة المستدين، ويقبل المستدين العربي الجاهلي بهذا البغاء لنفسه أو لابنته أو لزوجته (التي لم تذكر من قبل) وهو عن البغاء راض، مع أن الجاهليين العرب هم الذين ذمهم الله سبحانه وتعالى عندما قال: ﴿ وإذا بُشِّرَ أحَدُهم بالأنثى ظَلَّ وجهُهُ مُسْوَدّاً وهو كظيم * يتوارى عنَ القومِ مِنْ سوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أيُمسِكُهُ على هُونٍ أمْ يدسُّه في التُّرابِ ألا ساءَ ما يحكُمون ﴾ «سورة النحل: ٥٩».

فلقد أفرطوا وغالوا في النخوة حتى كان بعضهم يئد الأنثى صغيرة خوفاً من العار الذي قد تجلبه وهي كبيرة. لكن القلعجي الجاهل «أو المحرف عمداً» حرف معنى الآية التي ورد فيها ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ «سورة النور: ٣٣» التي تتكلم عن طبقة تكره إماءها على البغاء، كما هو الحال في دور البغاء المقامة في حلب وحمص دمشق وبيروت ـ على أيام القلعجي ـ ولم يكتب المؤلف في ذمها حرفاً على حرف، وربما كان يعتبرها مؤلف أعلام الحرية منارات للحرية، في بلاد يحب القلعجي أن تشيع فيها الحرية.

أما كيف عرف القلعجي أن نفس أبي ذره قد «طابت بعض الشيء» ولم تطب «الشيء كله» فيمكننا سماع جوابه حيث يقول: «وكثيراً ما كان يتجه بفكره إلى المستقبل»، «فكثيراً» تقابل «بعض» وأبو ذر القلعجي مهتم بازدياد الإنتاج. وهي نغمة بدأت أذن القلعجي التقاط أصدائها غير المفهومة بعد له ولا لغيره من أمثاله، فأدخلها نشازاً في تفكيرات أبي ذره! وتطلعاته للمستقبل!.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٤.

وتسمع تقليداً لأصداء هذه النغمة يصدرها القلعجي من حنجرة قلمه المبحوحة فتقرأ له عن «تفاوت الطبقات أيام أبي بكر» رضي الله عنه ما يلي:

النص رقم (٢٧):

«فنهج على سنة الرسول في الحدب على المستضعفين، والانتصاف للمضطهدين من ظالميهم، والتخفيف من تفاوت الطبقات»[1].

وعندما يكتب القلعجي.

النص رقم (٢٨):

«وأنشأ يفكر في تلك الأمبراطورية الكبيرة التي أسسها العرب وكان هو من بناتها الأولين»![2].

تنبو نشاز النغمة إلى أذنك حين تسمع «الأمبراطورية» و «هو من بناتها الأولين».

ثم يعود القلعجي يسمعك ما ينشز من النغمات المبتدعة عندما يتحدث في النص التالي عن «مقاومة الطبقات الشعبية» و «احتكار فريق من ولاته مرافق الحياة» و «في أمبراطوريته العربية» و «اتساع التفاوت بين طبقة الأرستقراطيين القلعجيين و«طبقة مقاتليه» و«عامة شعبه».

النص رقم (٢٩):

«إلا أن أقوى مقاومة قامت بوجه عثمان هي مقاومة الطبقات الشعبية التي شقيت في عهده وازداد فقرها نتيجة احتكار فريق من الولاة مرافق الحياة في الأمبراطورية العربية، واتساع التفاوت بين طبقة الأرستقراطيين أصحاب الثروات الضخمة وطبقة المقاتلين وعامة الشعب المتبرمين من فقرهم وحرمانهم.

وقد ساعد عثمان على تكوين تلك الطبقة الأرستقراطية»[3].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٨.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٤.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٧.

ثم ينقل القلعجي بعد هذا التأليف النشاز - في الصفحة ٤٢ - ٤٣ عن العاملي في أعيانه القصة المروية عن جلام أو حلام الغفاري - ذلك الرجل الذي لم يجده العاملي في أسماء الصحابة - من النص رقم (٥) السابق.

ثم يأتينا النص الذي يقرر فيه القلعجي أن أبا ذره كان يتآمر مع اليهودي ابن سبأ ويمتدح القلعجي ابن سبئه بأنه كان «داعياً إلى ما يدعو إليه أبو ذره من الحق والعدل».

النص رقم (٣٠):

«وكان أبو ذر قد تعرف في دمشق برجل من صنعاء يدعى عبد الله بن سبأ كان يتنقل في الولايات الإسلامية داعياً إلى ما يدعو إليه أبو ذر من الحق والعدل، فأنبأه أن السخط عام في تلك الولايات على سياسة الجور واحتكار الثروات، فقوى ذلك من عزيمته وتشدد في دعوته»[1].

تصور معي أيها القارىء أن أخبار اليهودي ابن سبأ بأن السخط عام في تلك الولايات يقوي من عزيمة أبي ذر القلعجي وتجعله يشدد في دعوته!.

ولا ينسى القلعجي شخصية معاويته حيث يروي قصة: إنما المال مالنا والفيء فيئنا، ينقلها عن المقدم السحار من النص (١٨) ثم يروي أن معاويته هو الذي أرسله إلى المدينة - بعد أن تنفس الصعداء - ناقلاً الفكرة من العاملي في النص (٨) ثم يناقض نفسه حين ينقل من نص العاملي رقم (٦) «تجمهر نفر من الناس حوله» يقول القلعجي:

النص رقم (٣١):

«فتنفس معاوية الصعداء، ونهض لفوره فوجه أبا ذر إلى المدينة مع خمسة من الصقالبة على قتب بلا وطاء، فتجمهر نفر من الناس حوله..»[2].

«طالت الطريق بأبي ذر وألح عليه الحر والظمأ، وتسلخت فخذاه من

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦.

طول تعوده على القتب اليابس، قتب البعير الهزيل الذي كان يحمله من دمشق إلى المدينة، طاوياً منعطفات الصحراء المقفرة ورمالها المستعرة كأنه مركب يمخر اليم، وقد انتهكت قواه كما انتهكت قوى راكبه، لأن الحرس الشداد الغلاظ الذين يرافقونه، لا يسمحون له براحة ولا يعرجون به إلى ظل، بل يحثونه على أن يغذ السير في الليل والنهار، كي يبلغ الشيخ المتمرد المدينة قبل أن تتسامع الجماهير التي أحبته بإبعاده، وقبل أن يتصل هذا النبأ بالقبائل العربية الصابرة على ضيم.

وكان هذا الشيخ التي امتزجت على جبينه سمات البطل المقدام والقديس الورع. . .»[1].

لن نقف عند أسلوب الركاكة «وليس ركاكة الأسلوب» في الإنشاء، ولا عند الرطانة واستعمال الكلمات في غير أماكنها مثل «فتجمهر نفر من الناس حوله، وألحّ عليه الحر والظمأ، وقد انتهكت قواه كما انتهكت قوى راكبه، قبل أن يتصل هذا النبأ بالقبائل العربية الصابرة على ضيم» فلقد تسرع القلعجي بكتابة هذا «الكتاب» قبل أن يستوعب دروس المدرسة الابتدائية في الإنشاء، وهذا ظاهر. إلا أن الذي نشير إليه ولا نطيل ولا نعتبره نقداً هو سماجة التصور، وسخف الفكرة، والبعد عن الحق، وإرادة الفتنة، والانتماء إلى مدرسة الدس والبهتان. فعلى سماجة التصور بعد «أن سجى السكون لا يرتفع فيه إلا صوت مزمار من مزامير العرب» في النص (٢٥) من نصوص القلعجي يعود على قرائه «طاوياً منعطفات الصحراء المقفرة ورمالها المستعرة كأنه مركب يمخر عباب اليم». أما سخف الفكرة فتراها تطل وهم «يحثونه على أن يغذ السير في الليل والنهار، كي يبلغ الشيخ المتمرد المدينة قبل أن تتسامع الجماهير التي أحبته بإبعاده وقبل أن يتصل هذا النبأ بالقبائل العربية الصابرة على ضيم».

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٧.

أما وصفه «بالبطل المقدام والقديس الورع» فلقد أحجم القلم عن وصف القلعجي بوصف يسيء إلى سمعة كتاب «هذا أبو ذر».

ثم يفضح المؤلف نفسه و «ثقافته» إذ يصف الله سبحانه وتعالى بالصفاء كما هو حال السماء فيقول ـ عليه من الله ما يستحق ـ:

النص رقم (٣٢):

«وتسري إلى نفس الشيخ نشوة الاطمئنان الذي يشيع من حوله في الأرض الممتدة امتداد الطرف، وفي السماء الصافية صفاء الله»[١].

ويبدأ القلعجي في تلفيق النصوص ليصور لقاء بين أبي ذره وعثمانه ولكن بصورة تقبّح من أخلاق كل منها ـ فتراه ينقل من نص العاملي رقم (٦) «لا قر الله لعمرو عيناً. . .» ونص المسعودي رقم (١) «أيجوز للإمام أن يأخذ. .» ونص العاملي رقم (٢) عن تقسيم تركة عبد الرحمن بن عوف في مجلس عثمان رضي الله عنهما بشيء من التصرف، ثم ينقل محاورة اللاءات حيث يعلن أبو ذر القلعجي اختياراته المتسلسلة في أراضي النفي وصاحبه يرفض كل الاختيارات بقوله لا، لا. . .

ثم يعود للنقل من نص العاملي رقم (٦) حيث يخرج المزورون أبا ذرهم «متعتعاً ملهوزاً بالعصا».

ويخترع القلعجي ـ أو ينقل عن مزور سبقه ـ لقطة يظهر فيها عثمانه وابن مسعوده فيقول:

النص رقم (٣٣):

«فلما دخل مسجد النبي أمر عثمان غلاماً له أسود فدفع ابن مسعود وأخرجه من المسجد، ورمى به إلى الأرض، وجعل منزله سجنه، وحبس عنه عطاءه إلى أن مات»[٢].

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١.

ثم يعود القلعجي للكشف عن قلب أبي ذره وفكره وتطلعاته المستقبلية التي يتنبأ بها ـ على زعم القلعجي ـ أن تنتصر آراؤه بعد ألف عام. . . وكأنه كان لأبي ذره دين غير دين الإسلام لم يكن قد انتصر بعد على حياة أبي ذر المسلمين عندما انتصر دين الإسلام وقامت دولته على يد محمد النبي عليه وآله الصلاة والسلام، فما تُراه هذا الدين الجديد الذي سينتصر بعد انتظار هذه السنوات الألف! هل يتطلع أبو ذر القلعجي ويتنبأ بانتصار لينين على قيصر روسيا بعد ألف سنة من زمان المسرحية البائسة الذي حدده القلعجي، أم تراه يهرف بما لا يقصد إنما هي صفصفة كلام وكفى!.

النص رقم (٣٤):

«فإن عربي الرمال كان أحب إلى قلبه من التنعم بالقصور التي بنيت من كد المتعبين وحرمان المدقعين. . .».

«ويطمئن إلى أن آراءه ستعيش من بعده وتظل تبعث باستمرار حتى يتاح لها أن تنتصر وإن تأخر انتصارها ألف عام»[1].

ثم يرسم القلعجي لأبي ذره بطل المسرحية السمجة.

النص رقم (٣٥):

«ودخل على عثمان في مجلسه وهو شبه عار»[2].

ثم ينقل محاورة نص العاملي رقم (١١) حيث يقول: «سفيه» ويروي قصة موته ودفنه، لتنتهي القصة المأساوية ويبكي القارىء على التأليف و «الأدب الإنشائي الخالص» الذي وصل ليد القلعجي عام ١٩٤٧ فأخرج قلمه هذا «الكتاب» من سلسلة «كتب» «أعلام الحرية».

يقول القلعجي في قصته المأساوية البائسة:

النص رقم (٣٦):

«وبقي ورفيقته التي أخلصت له، أياماً لا يأكلان شيئاً ثم قال لها: قومي

(١) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٣.

بنا إلى الكثيب نطلب العبب، فصار إلى الكثيب والريح تئن وتصفر، فلم يجد شيئاً فأصاب أبا ذر ذهول وطفق يمسح العرق الذي ينضح، رغم البرد الشديد، على جبينه الأسمر المتغضن وعارضيه الخفيفين الأبيضين وعاد إلى خيمته التي تعبث بها الريح، ثقيل الخطا، منكسر الرأس، مظلم الوجه، كنسر هيض جناحاه... ونظرت إليه زوجه فإذا بعينيه قد انقلبتا، فبكت..»[1].

لاحظ معي أيها القارىء «أياماً لا يأكلون شيئاً»، «فأصاب أبا ذر ذهول» «يمسح العرق الذي ينضح» «على جبينه الأسمر المتغضن وعارضيه الخفيفين الأبيضين» «ثقيل الخطا، منكسر الرأس، مظلم الوجه» فهل كان القلعجي يمدح بطل مأساته البائسة بهذا الإنشاء السمج أو هو يذمه؟.

ثم يعلن السبئي القلعجي شماتته بالإسلام وأهله ويصفق لقيام الثورة ضد الخليفة الراشد وانتصار ابن سبأ بطل «الحق والعدل» وحزبه الباطني في تسعير نار الفتنة بين أبناء الأمة الإسلامية فيقول:

النص رقم (٣٧):

«فواصل الثائرون الاجتماعات في منازلهم، ولعن عثمان جهاراً، وخاض الناس فيما ارتكب وعشيرته من عظائم الأمور..»، «..وكان ابن سبأ ما يزال ينفى من بلد إلى آخر في الولايات العربية، ثم استقر في مصر وبدأ ينشر فيها دعوته، ويتصل بالثائرين في البصرة والكوفة ويتبادل معهم الكتب والرسائل ويرسل إليهم الدعاة، حتى أصبحت الحالة في البصرة والكوفة ومصر من الحرج بحيث اضطر عثمان إلى ندب أربعة من رجاله لتهدئتها والتحقق من أمرها»[2].

ويكفينا من النصوص المنقولة من «كتاب» القلعجي ما أظهر للقارىء النموذج الثاني من نماذج المزورين الجدد من المشوهين للتاريخ الإسلامي

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٨ ـ ٦٩.

السبابين للصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين ولعنة الله على الكاذبين[1] .

(1) هذا عن ما أخرجه قدري القلعجي للناس عام ١٩٤٧م مفترياً على تاريخ أبي ذر. أما ـ بعد ـ فذكر الصحفي محمد الفرحاني، في كتابه: الحرب الصليبية الأوروبية التاسعة، (بيروت، ١٩٧٣) ص ٧١، أن الكاتب الكبير! قدري قلعجي، أخرج كتاباً اسمه: تجربة عربي في الحزب الشيوعي، لكن لم يصل إلى علمنا بعد ـ أن القلعجي أعلن توبته عما جناه فكره! وامتدت إليه أنامله! عندما قصد إلى تضليل القراء في تزويره التاريخ، وافترائه على أمناء ديننا في كتابه «أبو ذر الغفاري» حتى يبرِّىء ساحته أمام الله رب العالمين وأمام البشر الذين يأخذون بالظاهر، وحبذا لو فعل.

الفَصْل التاسِع وَالستون

صاحب قضية العرب
علي ناصر الدين

ثم يؤلف «صاحب قضية العرب» توليداً من قريحة سلفه «القلمجي» مشهداً مسرحياً سيئاً لمجموعة من غلاظ الأكباد. يجتهد أن يصورهم ممثلين له، لا خلق في أحدهم ولا دين. يضاهئون ـ في تعامل بعضهم مع بعض ـ قسوة اليهود والمجوس. . .

أما علي ناصر الدين فلقد ألف بعد عام ١٩٥٦ م كتاباً أسماه «أبو ذر الغفاري» لكنه كتب على غلافه تأليف دار الحكمة ـ بإشراف ـ علي ناصر الدين. ولم يجسر عامذاك أن يعلن بأنه «هو شخصياً» «مؤلف» الكتب الأربعة «السلسلة» التي سبقته بل رأيناه اتكأ على «دار الحكمة» وكأنها مؤلفة هذه الكتب! ولكن بإشراف! علي ناصر الدين! .

لكنه عاد عام ١٩٧٦ م وقد تجرأ على كتابة اسمه على «الكتاب» نفسه الذي أسماه «أبو ذر الغفاري» بطبعته الثانية، وزادت جرأته هذه فعرف نفسه بأنه صاحب قضية العرب، وزاد كلمة «العرب» على اسم السلسلة كما نسب بقية «كتب» السلسلة إلى اسمه. فلقد كان المطبوع على غلاف الطبعة الأولى في أواخر الخمسينات ما يلي:

الثائرون في التاريخ
تأليف: دار الحكمة
ـ بإشراف ـ
علي ناصر الدين
ـ الحلقة الرابعة ـ
أبو ذر الغفاري
دار الحكمة

أما في السبعينات فلقد أصبح المطبوع على غلاف الطبعة الثانية من الكتاب ما يلي:

سلسلة «الثائرون» العرب في التاريخ
تأليف
علي ناصر الدين
الحلقة الرابعة
أبو ذر الغفاري
الطبعة الثانية
منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت

ونلاحظ أن «الرجل» ـ وخلال السنوات العشرين بين طبعتي الكتاب ـ يحاول أن يتقدم بأسلوب الإنشاء فيقع في وهدة من «التعبد للصدق والحق والحرية والكرامة والعزة»[1] فلم يخيب «علي ناصر الدين» رأينا فيه عندما علقنا على «فكره» في طبعته الأولى بأنه «لم يمر على شيء من الثقافة الإسلامية» فجاء «فكره» في طبعته الثانية وبعد عشرين عاماً من التقدم ليتعبد للصدق والحق والحرية والكرامة والعزة. مع أن المسلمين لا يعبدون إلا الله! ففي الصفحة الخامسة من طبعته الأولى نقرأ ما يلي:

---

(١) علي ناصر الدين، أبو ذر الغفاري (دار الحكمة، بيروت، ط الأولى) ص ٥.

النص رقم (٣٨):

إهداء

إلـى الذين ـ من بين رؤوساء الدول في الوطن العربي الكبير؛ من ملوك وغير ملوك ـ تصطرع في صدورهم شهوة السلطان المطلق الغاشم، وشهوة الثراء؛ يحققون بهما شهوات حقيرة أخرى، فينحرفون عن الصراط، ويمعنون في ارتكاب المنكر؛ من تجهيل للشعب وإفقار وتجويع وتمزيق واحتكار؛ وإلى الذين ـ من بين أهل المعرفة والرأي في هذا الوطن ـ تمور نفوسهم بالإيمان والرجولة، وكبرياء الشرف؛ وتضطرب في رؤوسهم فكر ضخمة في الحرية والحق، وفي عز القومية وعز الإنسانية أيضاً، ويقوون على حمل هذا الفكر؛ أهدي هذه الحلقة من سلسلة «الثائرون في التاريخ»[1].

وفي الصفحة الخامسة من طبعته الثانية تقرأ ما يلي:

النص رقم (٣٩):

الإهداء

«إلى أهل الحل والربط في العواصم العربية من ملوك ورؤوساء وأمراء صالحين مؤمنين ومن إليهم، وإلى الذين ـ من بين أهل العقل والعلم والوعي في لبنان وغيره من أقطار الوطن العربي ـ يترفعون عن الغوغائية وعن المغريات، ولا يبالون بالتهديدات «والمخوفات. . .»، ويعرضون إباء وعزة وأنفة، وباحتقار، عن الجنيهات والدنانير والدولارات وما إليها من أعطيات. . . حينما يراد بها أن تكون بدلاً من التخلي عن المثل العليا والقيم الروحية، وعن الإيمان بالله وبالقومية والتعبُّد للصدق والحق والحرية والكرامة والعزة، وإلى الذين تمور نفوسهم بالرجولة الصحيحة وكبرياء الشرف والعظمة

(١) المصدر السابق، ص ٥.

الوادعة ينصتون لصوت الله الخافت «المدوي» في ضمائرهم، سواء أكانوا في شدة أو رخاء وفي نعيم أو بلاء وفي سعة أو ضيق وشقاء، أهدي :

أبا ذر الغفاري في طبعته الثانية

أحد الثائرين العرب الحقيقيين عن الدنايا الثائر المؤمن الصالح الواعي العظيم

علي ناصر الدين[1]

ثم ترى صاحب قضية العرب «يتطور» خلال السنوات العشرين بين طبعتي «كتابه» فيضع مقدمتين للكتاب! يعنون للأولى بـ «مقدمة الطبعة الثانية لسلسة [الثائرون العرب في التاريخ]» ويعنون للمقدمة الثانية بـ «مقدمة هذه الحلقة» بعد أن رأيناه يعنون الصفحة السابعة من طبعته الأولى بكلمة مقدمة. أما مضمون المقدمتين فواحد، اللهم إلا التطور الذي طرأ على «الخديعة» في طبعته الأولى لتصبح «التهريج» في طبعته الثانية. وستحكم أيها القارىء الكريم على نماذج من «الأدب الإنشائي الخالص» حين يبدأ صاحب قضية العرب مقدمة كتابه في الطبعتين بما يلي :

النص رقم (٤٠) :

«إذا صح ما أشعر به، وأعتقده، من أن العظمة ـ عظمة الإنسان، بالمفهوم المفروض أن يكون للعظمة في أذهان الصفوة الذين يفهمون الإنسانية موكباً يسير في نطاق القيم صُعُداً في سلم الكمال الإنساني ـ إلى القمّة ـ ليست مالاً . . .

وإنما هي ماهية في الذات متبلورة، كامنة، تسيب في القلب، وفي الدماغ، وفي الدم والعظم والأعصاب . . .

(١)) المصدر السابق، الطبعة الثانية، ص ٥.

وإذا صح أن القيم الروحية... هي مقياس العظمة، إذا صح هذا ـ وإنه في نظري لصحيح ـ فإن أخا غفار، المغمور حتى الآن، جندب بن جنادة، ذلك الإنسان العربي الصالح الفذ، الصلب الوديع، العنيد الهادىء، الثائر الخير المطمئن، المترفع المتواضع، المعروف بكنيته «أبو ذر» الغفاري، الذي أطلعته أمة يعرب منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، يجيء على الذروة من العظمة، لا جدال»[١].

أما عن التطور في أسلوب صاحب قضية العرب فإليك بعض مقتطفات مقدمة الطبعة الثانية لا أراك الله مكروهاً مثلها:

النص رقم (٤١):

بعد أن يهاجم «صاحب قضية العرب [الثورات المسماة: ماركسية أو اشتراكية ووحدوية وتقدمية]»[٢] يسترسل فيقول:

«.. في هذه الأيام القاسية الممضة الهازلة المستهترة الكافرة بالقيم الروحية وبالله، يهيب بنا في عنف وإحساس عارم عميق أن نتلمس من جديد في مطاوي التاريخ ولا سيما تاريخنا الضخم...

... تاريخ الإنسان بنوعه المصفى، في أنوار القيم، فليس تاريخاً ما يصنع في ظلمة المستنقعات،...»[٣].

ويطالب «صاحب قضية العرب» بـ «ثورة الذين يستوون على القمة إيماناً بالقومية والإنسانية. وبالقيم يرضى عنها الله العلي العظيم»[٤].

ثم تغيب الكلمات المصففة ـ غير المفهومة ـ لتصف «هؤلاء الثائرين الذين.. يجلوهم لنا التاريخ في مختلف العصور والأدوار ـ قلوا أم كثروا ـ في هالات من سناء النور وجلال الإيمان يرتفعان بهم...

---

(١) المصدر السابق، الطبعة الثانية، ص ١٧ ـ ١٨.

(٢) المصدر السابق، الطبعة الثانية، ص ٨ ـ ٩.

(٣) المصدر السابق، الطبعة الثانية، ص ٩.

(٤) المصدر السابق، الطبعة الثانية، ص ٩.

إلى القمة، حيث تتلاقى مجتمعات هذا الكون لتحقيق مشيئة الكائن الأعظم الوجود الكلي العام»[1].

«.. ومن هنا كسف الحيرة تساقط على الثائرين - كما وصفناهم - وقارعات الكوارث تحاول أن تسد عليهم المنافذ إلى الصراط، وأن تحكم في وجوههم إغلاق المعارج إلى فوق، فتمور نفوسهم الواعية الحكيمة الطاهرة الأبية باللوعة الكامنة في أعماقهم، ويفجر الإيمان بالحق وبالخير في هذه النفوس المتألمة ينبوع القدرة الكامن على العروج. وتنفتح لهم أبواب السماء، يتلقاهم منها وجه القدرة للطلعة الخالقة: وجه الله، فتتضاءل أمام عيونهم وتحقر عندئذٍ قوى البشر كلها، كلها على الإطلاق في مختلف صورها وأشكالها وألوانها. ويحققون في تلك اللحظة ذاتهم ويؤكدونها جزءاً من ذات الله»[2].

وما كان لهذا النص لصاحب قضية العرب من تعليق إلا ترداد عباراته ليبتسم القراء. خاصة بعد كلمات «مطاوي التاريخ» و«تاريخ الإنسان بنوعه المصفى في أنوار القمم» و«كسف الحيرة تساقط على الثائرين» و«قارعات الكوارث تحاول أن تسد عليهم المنافذ إلى الصراط»؛ لولا ما صرح به من عقيدة تزعم أن الثوار «يحققون في تلك اللحظة ذاتهم ويؤكدونها جزءاً من ذات الله».

قاتل الله من يزعم أن ذات الله تتجزأ وقاتل الله من يزعم أن هناك اتحاداً بين المخلوق والخالق.

ولقد أشرنا بهذا التعليق المختصر على قول الرجل ليتبين للقارىء طبيعة إيمان مثل هؤلاء السبئية «بالله العلي العظيم» الذي يحاول الرجل أن يحلي بها كتابه وبخاصة عندما يتكلم عن القومية والإنسانية والقيم التي يرضى عنها «الله العلي العظيم» في مقدمته.

ويمضي صاحب القضية في مقدمته الثانية ليقول:

---

(١) المصدر السابق، الطبعة الثانية، ص ١١.

(٢) المصدر السابق، الطبعة الثانية، ص ١٤.

النص رقم (٤٢):

«وبعد فقد أثبت لنا البحث والتنقيب ما قد يبدو للكثيرين غريباً، وهو أن مركز الصدارة - زمنياً - بين الثائرين العرب هو «أذينة الأول»[1] ملك المملكة العربية التدمرية، فهو أول ثائر في التاريخ عندنا على الغاصب المستعمر ثورة النار والحديد بعد التوسل بثورة العقل والنفس والفكر، وتليه زوجه الملكة الزباء، فسيف بن زي يزن، ثم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو، فجندب بن جنادة أي أبو ذر الغفاري في ثورتهم البيضاء التي غيرت سير التاريخ إلى آخر السلسلة. إن عدد الثائرين بالمفهوم الذي حددناه - مع تفاوت في المرتبة - في التاريخ العربي ليس كثيراً ولكن ليس بقليل»[2].

بينما يكتفي أذكياء السبئيين بدس شبهة أو بضع أكاذيب في ثنايا كتاب كامل نجد أن «صاحب قضية العرَب قضية العرب» يجتهد - وفي الصفحة

---

(١) «أذينة» ملك تدمر. وتدمر مملكة رومانية شرقي حمص من بلاد الشام كان الرومان يحكمونها بواسطة أسرة «أذينة» هذا، ثم اختلف «أذينة» مع الرومان فثار عليهم وما لبث أن هلك فاستمرت زوجته «زنوبيا» تقود هذا التمرد، لكن الرومان استطاعوا إخضاع تدمر واقتادوا زنوبيا أسيرة مكبلة بالسلاسل إلى روما.

أما «الزّباء» فهي «نائلة بنت عمرو» ملكت «الجزيرة» شمال الفرات بعد أن قتل أبوها «عمرو بن أذينة» على يد «جذيمة الأبرش» ملك الحيرة. ثم استدرجت «الزباء» قاتل أبيها بدعوى رغبتها في الزواج منه، وقتلته بقطع شريان على طست في قصرها فنزف دمه حتى مات. وهرب وزيره «قصير بن سعد» قبل القبض على «جذيمة» حين أحس بغدرها قائلاً: «لو كان يطاع لقصير أمر» وعاد إلى الحيرة التي ملكها بعد «جذيمة» ابن أخته «عمرو بن عدي» وتشاورا في خطة الانتقام لجذيمة، وطلب «قصير من عمرو» أن يجدع له أنفه ويجلده بالسوط حتى يترك أثراً في ظهره فأبى عمرو، فجدع «قصير» أنف نفسه، ومثل بوجهه، وخرج إليها. فقال من رآه: «لأمر ما جدع قصير أنفه» وادعى «قصير» «للزباء» أن «عمرواً» غضب عليه وجدع أنفه ومثل به فأمنت له حتى تعرف على مدخل النفق الذي يصل بين قصرها وحصنها الذي هيأته تحسباً لانتقام «عمرو بن عدي» لخاله منها ثم أدخل «قصير» إبلاً إلى مدينة «الزباء» مدعياً أنها تحمل بضاعة في الغرائر. وإنما كان يحمل عليها «عمرواً» وفرساناً له.. فلما ثار إليها «عمرو» يريد قتلها تحست سماً كان في فص خاتمها أعدته لمثل الساعة وهي تصيح «بيدي لا بيد عمرو» وذهب مثلاً. فأين السهى من سهيل! وأين الثرى من الثريا! وأين زنوبيا من «الزباء»!.

(٢) علي ناصر الدين، المصدر السابق، ط ٢، ص ١٥.

الأولى من «كتابه» ـ أن يسترجع كل ما تعلمه من دروس الدس على التاريخ الإسلامي، والتجهيل والإساءة للإسلام ومفاهيمه ومعتقدات المسلمين. فتراه كالمتعجل اللهفان تتدافع الشبهات سائلة من «قلمه» وكأنه يكتب رؤوس أقلام لاستحفاظ درس يهود فيقرر أن:

١ ـ «الجاهلية» مصطلح للعهد الإسلامي منذ بدايته.

٢ ـ الجاهلية ـ في مصطلح العهد الإسلامي ـ هي تسمية تنطبق على «ما سبق الرسالة من عصور جزيرة العرب».

٣ ـ الرسالة العربية الإسلامية.

٤ ـ كان السائد على الأفهام... خلاف ما جاء به العلم.

٥ ـ جاء العلم يثبت بواسطة الآثار المتعددة.

٦ ـ أثبت العلم: فساد المفهوم «الذي اصطلح عليه العهد الإسلامي منذ بدايته» وفساد هذا المعتقد.

٧ ـ لا لأنه ليس مفهوماً إسلامياً ـ إذ أن الإسلاميين لا يقرون «صاحب قضية العرب» على هذه الدعوى ـ بل إن جهل الجاهلية ـ عنده ـ ليس الجهل الذي هو ضد العلم؛ بل الجهل الذي هو ضد الحلم.

فاستمع إليه يقول:

النص رقم (٤٣):

أبو ذر في الجاهلية

لقد اصطلح العهد الإسلامي منذ بدايته أن يسمي كل ما سبق الرسالة العربية الإسلامية من عصور «في جزيرة العرب» باسم «الجاهلية» وكان السائد على الأفهام عندنا، أن الجاهلية ينبغي أن يكون لها مفهوم واحد، يدل على البدائية الساذجة، والجهل المطلق، وكان المعتقد أن العرب في ذلك العهد، كانوا منعزلين عن العالم، منطوين على نفوسهم، يغمرهم جهل مطبق، وتستبد بهم ظلمة ظلماء؛ إلى أن جاء العلم يثبت بواسطة الآثار المتعددة، تكشف

عنها الحفريات، في مواضع كثيرة من أرض الجزيرة في الجنوب وفي الشمال، فساد هذا المفهوم؛ وهذا المعتقد»[1].

ثم يخترع «صاحب قضية العرب» في النص (٤٣) جفافاً مخيفاً يحدد وقته بسنة ٦١٥ م «تقريباً»، يؤدي هذا «الجفاف المخيف» إلى نزوح العرب الإسلاميين في البلاد، وكل هذا الاختراع وذلك التكلف من صاحب قضية العرب كي يقوم بترقيع النظرية المادية في تفسير المد الإسلامي ليطابق التفسير المادي للتاريخ، ولا يبالي «صاحب قضية العرب» أن يولي ظهره لوجه الحقيقة التاريخية، تلك الحقيقة التي تصفع وجوه الكاذبين وتقطع ألسنتهم، ذلك أن العرب الإسلاميين انطلقوا من جزيرتهم على بركة الله سبحانه وابتغاء رضوانه، ولم تكن الأحوال الاقتصادية ـ بحال من الأحوال ـ داعية لهم لهذا الانطلاق ولم يكن للاقتصاد مكان بين العوامل التي أدت إلى تلكم الموجة الإسلامية التي أكرم الله بها العالم آنذاك، وكانت فتوحهم على حساب جوع المجاهدين وزهدهم وتقشفهم رضي الله عنهم ولعنة الله على الكاذبين.

النص رقم (٤٤):

«وحوالي سنة ٦١٥م تقريباً، أصيبت «جزيرة العرب» في شمالها بجفاف مخيف»[2].

وينشىء «صاحب قضية العرب» إنشاءً كسابقه القلعجي يحاول أن يحشد في نص واحد أكثر الكلمات ـ التي يحفظها في ذاكرته ـ قذاعة من ألفاظ السباب والشتم، كما تراه يحشد ما استطاع من أفكار وخيالات سبئية في النص نفسه متعجلاً قذف الكلمات المقذعة والاتهامات الرذيلة فترى «هذه الأشياء» تتدافع من فمه ـ أو تسيل من قلمه ـ نختار للقارىء نموذجاً من «أشيائه هذه» وليحكم على النص الذي يأتي بعدها إن شاء «نفي، نفاه، يخفرونه، القسوة، والحقد، والحقارة، يتذمرون منك، إنشاء طبقة أرستقراطية تجور

---

(١) المصدر السابق، الطبعة الأولى، ص ١١.

(٢) المصدر السابق، الطبعة الأولى، ص ١٣.

على سواد الشعب، وصرخ فيه كذاب، ليس لغير بيت المال أن يكنز المال وذلك لإنفاقه في سبيل الخير العام ومحاربة الفقر والاستثمار ولتوطيد أركان الدولة، وتوفير منعتها لتقوى على حمل الرسالة».

وترى «صاحب قضية العرب» قد أمعن في تفننه إمعاناً، فقد مر على نصوص السحار والقلعجي مرور أمثاله، وطرح «الكتب» جانباً واستعاد ـ من ذاكرته ـ بعض ما علق وأنشأ عليه إنشاءه وزاد عليه من قريحته ما اقترح فالإناء بما فيه ينضح، كأمثال القسوة والحقد والحقارة. . . إلخ وإليك هذا النص:

النص رقم (٤٥):

«ما أن بلغ كتاب الخليفة عثمان إلى معاوية حتى أسرع في الحال إلى «نفي» أبا ذر إلى المدينة؛ بعد أن «نفاه» عثمان من المدينة إلى الشام. وقد عامل الذين رافقوا أبا ذر «يخفرونه» إلى المدينة؛ معاملة ملؤها القسوة والحقد والحقارة؛ مع أنهم داخلون في الفئات التي يدافع أبو ذر عن حقوقها، ويشقى في سبيل إسعادها. وقد يخفف من وقع هذه المعاملة على الأنفس ـ إن يكن هناك ما يخفف من وقع هذا الواقع ـ أن الخمسة الذين رافقوا أبا ذر «يخفرونه» لم يكونوا عرباً. وكانوا من الصقالبة»[1].

ثم يؤلف صاحب قضية العرب توليداً من قريحة سلفه القلعجي مشهداً مسرحياً سبئياً لمجموعة من غلاظ الأكباد يجتهد أن يصورهم ممثلين له، لا خلق في أحدهم ولا دين يضاهئون ـ في تعاملهم مع بعضهم ـ قسوة اليهود والمجوس، ويسمي أصحاب هذه الأدوار القذرة أبا ذره وعثمانه وعليّه ونفر من خيار مسلميه.

وإليك عزيزي القارىء ما كتب دار الحكمة بدون تعليق فإن في إثبات النص تعليق:

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٥.

النص رقم (٤٦):

«... وبلغ الركب المدينة، وأدخل أبو ذر على عثمان، وكان في مجلسه علي ومعه نفر من خيار المسلمين، فأساء عثمان استقباله؛ وقال له: ما لأهل الشام يتذمرون منك ويشكون تدخلك فيما لا يعنيك من شؤونهم! قال أبو ذر: ليس في الشام من يتذمر مني ويشكوني، إلا أن يكون عاملك وابن عمك معاوية وصحبه، الذين يكنزون الذهب والفضة ويحتكرون أرزاق الناس؛ ويعيدون طبقة «أرستقراطية» تجور على سواد الشعب وتعبث بحقوق الفقراء والضعفاء، وقد أنكرت هذا على معاوية وصحبه، ومن إليهم من أعوان من الأغنياء، وأصحاب الحظوة؛ فإن هؤلاء جميعهم يتعاونون على الباطل، ويتنكبون سبيل الحق. فقاطعه عثمان، وصرخ فيه: كذاب. فقال أبو ذر في هدوء الصادق الجريء المطمئن: لقد علمت أنني لا أكذب. وإنني ما كذبت قط.

وتحول عثمان إلى شهود مجلسه، وقال: أشيروا عليَّ في هذا الشيخ الكذاب، أقتله أو أنفيه من أرض الإسلام! فقال علي: أشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون ﴿فإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم. إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾ على أنني سمعت رسول الله يقول: ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، من ذي لهجة أصدق من أبي ذر. فغضب عثمان وقامت بينه وبين علي مشادة عنيفة. ولكن علياً ما كان ليبالي بأمر مهما يكن، فسكت عثمان على مضض، ولكنه حظر بعدها على الناس أن يكلموا أبا ذر ويجالسوه، وهدد بالعقاب من يستفتيه، ولكن الناس ازدادوا التفافاً حول أبي ذر وإقبالاً على استفتائه، والعمل بفتاويه...».

إلى أن تقول «صاحب قضية العرب» على لسان أبي ذره ما يلي:

«... ليس لغير بيت المال أن يكنز المال، وذلك لإنفاقه في سبيل الخير العام، ومحاربة الفقر والاستثمار، ولتوطيد أركان الدولة، وتوفير منعتها، لتقوى على حمل الرسالة التي وضعها الرسول بين يديها؛ والتي حمل أعباءها في حياته وحملها الخليفتان الراشدان من بعده.

وكبر الأمر على عثمان فلم يقو على احتماله، وأعلن إرادته بإبعاد أبي ذر؛ فقال أبو ذر وإلى أين. قال إلى حيث تشاء. قال أبو ذر سأخرج إلى مكة. قال: لا. قال: فإلى الشام. فقال عثمان إنما جئت بك من الشام لأنقذها منك، أفأردك إليها! قال أبو ذر: إلى العراق، قال: لا. قال إذن فإلى مصر، قال عثمان: ولا إلى مصر؛ فاختر غير هذه البلدان. فقال أبو ذر، وكاد أن يفقد صبره: والله إني لأعلم أن في نفسك مني لأمراً، ولست بتارك لي أن أختار؛ فأبعدني إلى حيث تشاء. فقال عثمان: إني مبعدك إلى البادية. قال أبو ذر ـ ولعله قالها في شيء من الدعابة والمرارة ـ فأصير بعد الهجرة أعرابياً!!»[1].

وهكذا يمضي «صاحب قضية العرب» يخبط في «كتابه» على غير هدى ولا كتاب منير، اللهم إلا الكتب التي ينطبق عليها قول الله تعالى: ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ «سورة الصافات: ٢٣». فعلى مثل هذه «الهداية» نقل «صاحب قضية العرب» نصوص من هداه إلى صراط الجحيم، إلا أنه حاول أن يزيد عليها من «القسوة والحقد والحقارة» ما شاء له «فكره» أن يكتب كتابه في طبعتيه خلال عشرين عاماً بما خرج فيه متحاملاً ـ في سوء أدب ـ على عثمان وعليّ وباقي من عاصرهم من الصحابة أجمعين مزوراً تاريخ أبي ذر رضي الله عنه مشوهاً صورته.

فرضي الله عن الصحابة أجمعين، ولعنة الله على الكاذبين.

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٧ ـ ١٢٠.

الفصل السبعون

صاحب الشباب المضنى
صلاح عزام

ويلقي صلاح عزام قنبلته الجديدة حيث مرت الأيام، وأصبح أبو ذرّه في دنيا التاريخ شهيد الكلمة! وشهيد الربذة! ورجل السلام في الإسلام. . كيف لا وقد مضى على مؤلف السحار ٢٦ عاماً!.

وفي عام ١٩٦٦ م يطلع على الناس «كتاب» جديد اسمه «أبو ذر الغفاري» ويصفه مؤلف «الكتاب» بأنه «شهيد الكلمة» ويقع «الكتاب» في ٥٤ صفحة من القطع المتوسط، ويبدأ مؤلف «الكتاب» «كتابه» في الصفحة ٣ بالإهداء فبينما ترى «صاحب قضية العرب» يهدي «إلى الذين» تصطرع في صدورهم شهوة السلطان المطلق تجد أن صلاح عزام يكتب:

«الإهداء

إلى زوجتي. . .

شريكة العمر. . .

رفيقة الحياة. . .

ص، ع»[1]

«سنرى من النص ٤٧ التالي أن قصة أبي ذر رضي الله عنه قد بدأت تتابع صلاح عزام في حدود السنة السابعة من عمره ـ أو ربما قبلها ـ منذ أن بدأ

(١) صلاح عزام، أبو ذر الغفاري (الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، ١٩٦٦) ص ٣.

يمسك القلم ويتصفح الكتب. ثم إنه «كتب الكتاب» قبل نشره بعشر سنوات ثم طوى الزمن صفحاته الخمسين ليضرب صلاح عزام في الأرض وراء الحياة ثم عاد إليها ـ بعد أن فارقها ـ عام ١٩٦٤ ولم يستطع أن يضيف عليها أو يمزق منها شيئاً ذلك أن قطعة فنية مثل هذه القطعة أو تأليفاً فذاً مثل هذا التأليف لا يجعل بإمكان مؤلفه أن يزيد عليه ـ بعد عشر سنوات ـ شيئاً أو ينقص، فلقد بلغ الغاية في الإتقان، وأي زيادة أو إنقاص يسيء إلى جمال هذه القصيدة الشعرية الرائعة!.

ويلقي صلاح عزام قنبلته الجديدة حيث «مرت الأيام وأصبح أبو ذر في دنيا التاريخ شهيد الكلمة وشهيد الربذة ورجل السلام في الإسلام» كيف لا وقد مضى على مؤلف السحار ٢٦ عاماً، فبعد ستة عشر عاماً أصبح أبو ذر على قلم القلعجي أول ثائر في الإسلام، ثم بعد عشر سنوات آخر أصبح على قلم صلاح عزام شهيد الكلمة وشهيد الربذة ورجل السلام في الإسلام.. ومن عاش يرى تقلب «مؤلفي التاريخ» ليشكلوا من الرجل الواحد والقصة الواحدة ما شاء لهم الهوى أن يشكلوا، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم تجد صلاح عزام يشكو ويبدي انزعاجه وتأثره على ما عانى أبو ذره من «طبقة المنتفعين بدين الله ومن أرستقراطية العرب ورأسمالها» فمن تراه يقصد؟.

ثم تجده يهاجم «بعض المتعربين الذين ظلموا دعوته.. وأرادوا أن ينسبوا إليه سبباً من أسباب مقتل عثمان رضي الله عنه ثالث الخلفاء! فكأنه ـ بل إنه ـ يهاجم القلعجي كما يلاحظ القارىء من نصوص القلعجي ولكنه لا يصرح.

وفي آخر تمهيده تجد صلاح عزام يستدر عطف القراء على شبابه المبكر الذي أضناه هذا الكتاب ذو الصفحات الخمسين فيقول: «وبعد فإني

هنا أستميح القراء في أن أقول لهم: إن هذا الكتاب أضنى شبابي المبكر»[1].

النص رقم (٤٧):

«تمهيد

قصة «أبو ذر الغفاري» رضي الله عنه الصحابي الذي عاش مع النبي صلوات الله عليه، وتتلمذ في المدرسة المحمدية ـ عاشت في دمي خلال العشرين عاماً الماضية.

ومنذ بدأت أمسك القلم وأتصفح الكتب وقصة هذا الرجل تتابعني، وأحس به في أيام آلامي، ومع عذابي، ومع الجوع، ومع الأمل في المستقبل المشرق الذي ينبع من بلدي، من تاريخها من ديني.

ومنذ عشر سنوات كاملة انتهيت من هذا الكتاب وطوى الزمن صفحاته لأضرب في الأرض وراء الحياة، وعدت إليها سنة ١٩٦٤ أحاول أن أضيف إليها شيئاً أو أمزق منها شيئاً، فلم أستطع، لأني أريد لهذه النبضات من قلب التاريخ، التي سطرتها وأنا في مفرق العمر بين الفتوة والشباب، أن أقدمها إلى شباب أمتي وديني الذين يلهثون...

.. ومرت الأيام وأصبح أبو ذر في دنيا التاريخ شهيد الكلمة وشهيد الربذة ورجل السلام في الإسلام...

.. ولقد عانى أبو ذر في حياته من طبقة المتنفعين بدين الله ومن أرستقراطية العرب ورأسمالها، وعانى أيضاً بعد مماته من بعض المتعربين الذين ظلموا دعوته لينفروا من تاريخه شباب المسلمين المتفتحين نحو الحق، وأرادوا أن ينسبوا إليه سبباً من أسباب مقتل عثمان رضي الله عنه ثالث الخلفاء!.

---

(١) المصدر السابق، ص ٧.

وبعد فإني هنا أستميح القراء في أن أقول لهم:

إن هذا الكتاب أضنى شبابي المبكر فقد حملت معي لمدة طويلة كل كتاب ذكر اسم أبو ذر بالخير حتى خرجت بهذا الكتاب. . .»[1].

ويكثر «صاحب الشباب المضنى» من ترديد كلمات مثل «بعض الثقات»[2] مع أن الراوي غير ثقة و «يجمع المؤرخون»[3] لما لم يكتبه مؤرخ اللهم إلا إن كان «خيال السحار» يعتبر مؤرخاً! و«يحدثنا التاريخ»[4] كما يصور خلافاً بين المؤرخين.

فتراه في النص (٤٨) التالي يخترع تنافساً بين أبي بكره وعليّه، ويتصور أن أبا ذره كان في حزب عليّه، أو هو في حزب أبي بكره على خلاف بين «المؤرخين» ذلك أن عليّه هو أول من دل أبا ذره على مكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أول قدوم له إلى مكة، وأن أبا بكره كان أول من أطعمه طعاماً في مكة، فأي الحادثتين العظيمتين تجعل أبا ذره يمحض الولاء والتحزب لواحد دون الآخر ـ أو ضده ـ !.

ثم تجد «صاحب الشباب المضنى» يكثر من استعمال الألفاظ التي اخترعها القلعجي وزاد عليها «صاحب قضية العرب» فيدلي بدلوه بين الدلاء فيؤلف «مصلحة الجماهير الإسلامية الكادحة» و «وفد الأرستقراطية العربية» و «الرأسمالية» و «الإقطاع» و «الطغيان والاستعلاء والبذخ والثراء ثم سيادة بني أمية» كما في النص التالي وما بعده:

النص رقم (٤٨):

وأبو ذر كان في جانب عليّ دون أبي بكر، وهو متأثر في ذلك بما رآه من حدب النبي على عليّ وصلته به وقرابته منه حتى قال بعض في ذلك كلاماً

---

(١) المصدر السابق، ص ٥ ـ ٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٧.

كثيراً منه: «إن أبا ذر قد جانبه الصواب، ويرون أن سبب هذا الموقف هو أن علياً أول من دله على الرسول، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يقولون: إن أبا بكر هو أول من أطعم أبا ذر في مكة، والعربي لا ينسى كرم الضيافة، ولا يجحد حق الطعام، وإنما الأمر كله هو تأثر أبي ذر بصلة القرابة بين الرسول وعليّ»..

«.. وقد صاحب الخلافة وهي تنتقل من أبي بكر إلى عمر، ورضيت نفسه حينما كان يجد اتجاه الخليفتين العظيمين نحو عامة الشعب وفي مصلحة جماهير الإسلام الكادحة وعلى السنة التي خطاها نبي الرحمة محمد عليه السلام، ولم يغبن أحد منهما حقاً لصاحبه ولا جحد فضل مكافح مهما صغر سنه...

.. ثم استراح عندما سمعه يخطب وفد الأرستقراطية العربية»[1].

ثم ينقل «صاحب الشباب المضنى» «الغمغمة» التي سمعها ـ أو ألفها ـ السحار من النص (١٣). ويضيف عليها ما لم يكتب السحار عن «الأرستقراطية وعن ثورة أبي ذره وجمعه لشتات الثائرين والمتذمرين... إلخ» وادعى «صاحب الشباب المضنى» أن أبرز دعامات دعوة أبي ذره أربع منها «ضرورة توفير العمل لكل إنسان» ويعتمد في فقهه على «كتاب الله، وسنة رسوله، وصحبته الطويلة، ومتابعته لعهد الصاحبين الأولين» بينما مصادر التشريع المعروفة عند المسلمين هي: القرآن، السنَّة، الإجماع، القياس.. ولم يذكر علماء المسلمين ما ذكره «صاحب الشباب المضنى».

النص رقم (٤٩):

«ويقيم أبو ذر في يثرب بلد الهجرة، يعلم الناس ويتدارس معهم الدين ويشهد ظهور الأرستقراطية من جحورها، والرأسمالية وهي تقفز إلى الوجود وتبدأ نشاطها في مجال السياسة الإسلامية.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٩.

وبدأت ثورة أبي ذر التي خلدها التاريخ له، ولم يذكرها خصوم الإسلام إلا على أنها سبب من أسباب مقتل عثمان رضي الله عنه.

وكانت كل الظروف والرؤى التي يشاهدها أبو ذر تدفعه إلى الثورة وليجمع شتات الثائرين والمتذمرين على حكم عثمان، لا لذات عثمان وإنما إلى تغيير هذه المظاهر التي سادت وقتذاك كالطغيان والاستعلاء والبذخ والثراء ثم سيادة بني أمية.

ولم يدع أبو ذر إلى سفك الدماء أو محاربة المسلمين بالسيف، وإنما دعا إلى ما «تنبأ» به النبي عليه السلام له: للزهد.

كان الزهد هو الشعاع الذي ينير خطوط كفاح أبي ذر ويبين دعوته التي بدأت أول شيء من عدة جوانب بعدها من حولها تؤكدها وتوسع منها، وكانت أبرز هذه الدعامات دعوة أبي ذر إلى:

- عدم الكنز.
- ضرورة توفير العمل لكل إنسان.
- وأن لا احتكار.
- وأن المال مال المسلمين جميعاً.

وهو في هذا كله يعتمد على كتاب الله وسنة رسوله وصحبته الطويلة للنبي عليه الصلاة والسلام ومتابعته لعهد الصاحبين الأولين»[1].

ثم يمضي «صاحب الشباب المضنى» في نقل روايات المزورين السابقين ويصورها معركة ينقل أحداثها من النص رقم (٥) والنص (١١) والنص (١٨) ويلفق بين الأحداث والكلمات ويزيد وينقص ويبتدع، فتراه يقص قصة «سخط الله ورضا عثمان أو سخط عثمان ورضا الله» ويخترع عبارات لم يقلها «العاملي» ولم يذكرها «السحار» إنما استوحى فكرتها منهما استيحاءً، واستلهمها منهما استلهاماً. فبعد سؤال يفرضه «صاحب الشباب

(١) المصدر السابق، ص ٣٤.

المضنى» على لسان أبي ذره يجيب عثمانه «مائة ألف درهم حملت إلي من بعض الخواص أريد أن أضم إليها مثلها وأرى فيها رأيي» «المجتمع الشامي قد انقسم إلى فئتين أغلبية ساحقة فقراء معدمين» «وليس للمحارب إلا أجر قليل»[1].

يقول في النص رقم (٥٠):

«. . . وبذلك تبدأ المعركة

أبو ذر في جانب يدعو إلى الزهد والتمسك بالإيمان وأن المال مال المسلمين وفي الجانب الآخر بطانة عثمان وجماعة المنتفعين بصلة القربى وحياء وإيمان عثمان!.

واشتدت المعركة، وطالت.

وكثر أنصار أبي ذر حتى أصبح حديثه في كل مكان وكل بيت، وكان على خصومه أن يعملوا على تنحيته من الميدان وفي سرعة وساعدتهم الظروف. . .

«وعاد أبو ذر مرة أخرى إلى الشام ليواصل رسالته وكفاحه، ووجد أن السلطات كلها قد تركت في يد معاوية، فبنى القصور، واتخذ لنفسه مظاهر قيصرية يضارع بها قياصرة الروم، ووجد أن المجتمع الشامي قد انقسم إلى فئتين أغلبية ساحقة فقراء معدمين وأقلية أغنياء مترفين إذ استأثر معاوية وأصحابه بالفيء والغنائم لأنفسهم وحرم المقاتلة منها بدعوى أن الفيء لله وليس للمحارب إلا أجر قليل يدفع إليه!.

وانضم أبو ذر إلى عامة الشعب.

ووجدت العامة فيه القائد الذي يحمي إيمانها الذي غرس في قلوبهم من نور الإسلام وتعاليم محمد عليه الصلاة والسلام.

وتسلم أبو ذر اللواء ولم ينخفض من يده قط. .».

ثم ينقل «صاحب الشباب المضنى» بعد نقله عن قدري قلعجي في

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٤ ـ ٤٥.

الصفحة ٣٩ حديث «الفتنة الكبرى» الذي تخيله عبد الحميد جودة السحار في النص (١٩) إرضاء لعميدهم.

ويمضي «صاحب الشباب المضنى» في خيالاته ليبدأ حرباً سافرة بين أبي ذره ومعاويته «فيمنع عنه حقوقه في بيت المال ويسلط عليه السوقة يستهزئون به. . .».

كما يجعل الرجل الذي تحدث عنه السحار في النص (٢٣) رجلاً من جماعة أبي ذره الكبيرة:

النص رقم (٥١):

«. . وانتهى أبو ذر من كلامه، وانفض الجمع وبلغ معاوية كل ما قاله أبو ذر، فبدأ حرباً سافرة معه، فمنع عنه حقوقه في بيت المال، وأمر الناس بعدم حضوره مجلسه، وسلط عليه السوقة يستهزئون به. . . إلخ».

«وأصبح لأبي ذر جماعة كبيرة تؤمن بقوله وتؤمن بآرائه حتى أن معاوية دخل ذات يوم المسجد لصلاة الجمعة ووقف على المنبر مستهزئاً بدعوة أبي ذر في خطابه وقال: «إن المال مالنا والفيء فيئنا فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعناه».

ولم يكد ينتهي من هذه العبارة حتى هتف به رجل من أقصى المسجد ومن عامة الشعب. .

. . عندئذٍ استحضر معاوية خمسة من الصقالبة الأشداء وكلفهم السير مع أبي ذر، وحمله على قتب بلا وطاء ـ حمار ـ حتى يصل إلى المدينة»[1].

ويمضي «صاحب الشباب المضنى» ينقل ويؤلف ويلفق ويخترع وينشىء أدباً إنشائياً خالصاً كما ترى في النص التالي:

النص رقم (٥٢):

«. . ويحتدم النقاش بين علي وعثمان يفضه الحاضرون ويصدر عثمان

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٤ ـ ٤٥.

أمره بأنه محظور على الناس مجالسة أبي ذر أو التحدث معه.

ويخرج أبو ذر من مجلس عثمان وقد عزم على مواصلة كفاحه وعدم سماع كلام عثمان...

.. وتعلم جماهير المسلمين بكل شيء ويجتمعون حول أبي ذر ويتزايدون يوماً بعد يوم حتى تصير جلسة أبي ذر هي مقصد كل الجماهير الإسلامية في المدينة.

ويصل الخبر عثمان فيغضب، ويفكر فيما يفعله مع أبي ذر، فيشار عليه بأن يستميل أبا ذر بالمال لعله ينجح حيث فشل معاوية، وخاصة أن أبا ذر لم يعد عنده مال وبدأت الشيخوخة تهده!.

وهنا يحدثنا السيد محسن أمين في كتابه «أعيان الشيعة» عن هذه المحاولة..[1].

وينقل «صاحب الشباب المضنى» عن النص (١٢) ويزيد عليه:

«ألا أخبرني من أين أتى بهذا المال؟ هل أنزله الله عليه من السماء أو أخذه من حقوق وأتعاب الناس؟...»[2] يتهم الصحابي عبد الرحمن بن عوف بأكله لحقوق الناس.

ثم ينقل عن العاملي من النص (٨) والنص (٩) قصة المحاورة المزعومة بين أبي ذرهم وعثمانهم، ويقطع النص ويزيد عليه ويؤلف وينشىء، فيزيد على ما قرأ القارىء من النصين العامليين المقتطفات المثبتة في النص التالي من تدخلات «صاحب الشباب المضنى» حيث يهيء ممثلين لصحابة عزامية فيهم عليّ عزامي يشهدون إعدام أبي ذره بغير حق ولا ذنب جناه، فيجبنون كلهم أجمعون إلا دموع بللت لحية عليّه ونصيحة قدمها حسنه وتمتمات لا تبين من باقي جبناء صحابته.

ويحشد «صاحب الشباب المضنى» في نهاية صفحات كتابه الخمسين

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٦ - ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨.

أكثر عباراته مأساوية، ويتصور أن التاريخ حدثه عن إرسال معاويته لزوجة أبي ذر وابنه وابنته إلى ربذته، ثم ينقل من النص رقم (١١) مع بعض التصرف في سبيل الوصول إلى النهاية المأساوية المطلوبة، ويحكي قصة لموت أبي ذرهم بين عصابة من المؤمنين يحادثهم ويحادثونه ويطلب منهم كفناً ويشترط عليهم.. ولعل صلاح عزام على غفلته لم ينتبه إلى ما في رواية هذه الأكذوبة والزيادة عليها من تكذيب لنبوءة رسول الله ﷺ في تبوك «ويموت وحده».

النص رقم (٥٣):

«وبلغ الخبر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقدرين لأبي ذر عمله فاستنكروا ما حدث لأبي ذر مع عثمان وكيفية خروجه من المدينة ومشابهته لما حدث له مع معاوية وخروجه من الشام...

.. وإذا بالصحابة يطأطئون الرأس حزناً وكأنهم يشهدون إعدام أبي ذر ويتصورون أن في نفي أبي ذر الفراق، والموت!.

وبكى علي بن أبي طالب حتى ابتلت لحيته من الدموع... ونهض مصطحباً أخاه عقيلاً وولديه الحسن والحسين وبعض الصحابة ليودعوا أبا ذر...

أما ابن مسعود فقد خطب في أهل الكوفة طويلاً، وصرخ في التاريخ بالعبارة الخالدة متمماً بها خطابه الذي ندد فيه بنفي أبي ذر، وكان ثمن هذه الخطبة أن ألزم داره كسجين بها حتى الموت.

.. ويحدثنا التاريخ عن أبي ذر في منفاه: وكان أول حديثه أن معاوية بن أبي سفيان عندما بلغه خبر نفي أبي ذر أرسل إليه زوجته وولده وابنته وكانوا يقيمون بالشام.

والتقت العائلة بالفلاة الضيقة الصغيرة، وعاشوا معاً، وكل الذي يحز في نفس أبي ذر قلقه على دعوته ومدى انطباعها في نفوس المسلمين وتعمقها في أعماقهم، فكان يدعو الله بهداية القادة وخير الشعوب.

وذات يوم رأت الصحراء صاحب رسول الله أشعث أغبر، حطمه الحزن، وأضعفه العمر، هده الكفاح يقتحم الطريق من منفاه إلى مجلس عثمان حتى دخل عليه ووقف صامتاً ونظر بعينين غائرتين تطلان من وجه جسم رجل «نمّ جلده عن عظام كأنما لم تكتس يوماً لحماً» فيها بريق غير معهود ثم بعد فترة قال. . .»[1] .

ثم يتمتم «صاحب الشباب المضنى» على لسان شابه الأنصاري الذي كفن أبا ذره يوم موته «اللهم فانتقم ممن حرمه ونفاه من مهاجره وحرم رسوله، ورفع الجميع أيديهم إلى السماء في قوة وعزم يرددون: آمين»[2] .

إننا نرى أن صلاح عزام «صاحب الشباب المضنى» أكثر المؤلفين السبئيين بساطة وغفلة ولعله كتب موضوع الإنشاء هذا ـ وهو مغرر به من كثرة ما قرأ وأعاد وحمل من الكتب التي تحدثت عن أبي ذر ـ «بخير» ـ في أول شبابه المضنى المبكر، فنشر بعد عشر سنوات من كتابته إعجاباً بإنشاء نفسه، وإصراراً على أن يقدم هذه النبضات من قلب التاريخ إلى شباب أمته ليصرفهم بهذا الإنشاء عن اللهاث، وراء رواد الفكر الغربي»[3] فأساء مرات من حيث إنه أراد الخير بزعمه. ووقع في كثير من التناقض وبخاصة في وصف عثمان رضي الله عنه، حيث يصفه بالتقوى والصلاح والحياء والقسوة والإجرام إذ يحكم بنفي «هو الإعدام بغير حق». ولعل صاحب الشباب المضنى يعود ـ بعد أن ولى عنه الشباب ـ إلى دينه ومقتضيات التعقل ليعيد النظر بما كتب ويعتذر أمام الله رب العالمين ويطلب غفرانه.

أما صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاقرأ وصف ﴿محمد رسول الله والذين معه﴾ في آخر سورة الفتح وردد مع المسلمين المؤمنين.

صدق الله العظيم، ولعنة الله على الكاذبين.

---

(١) المصدر السابق، ص ٥١ ـ ٥٢.
(٢) المصدر السابق، آخر سطرين من ص ٥٤.
(٣) المصدر السابق، ص ٥.

الفصل الحادي والسبعون

تشكيلة دار العودة

تشترك «تشكيلة» من تسعة أشخاص «مبدعين» في «تأليف كتاب» أسموه «أبو ذر الغفاري».

تشترك «تشكيلة» من تسعة أشخاص «مبدعين» في «تأليف» كتاب أسموه «أبو ذر الغفاري» وقد أفردوا الصفحة السابعة بكاملها لذكر أسماء هؤلاء النوابغ المبدعين، كما أن الصفحة الأخيرة من غلاف الكتاب قد ذكرت أسماء هؤلاء النوابغ المبدعين مرة ثانية في الإعلان الذي تعتز فيه دار العودة بهم فتقول: «وتعتز دار العودة أن تعلن أن الذين أعدوا هذه السلسلة مجموعة من خيرة الأساتذة والباحثين والمبدعين العرب هم:

(١) الدكتور عز الدين إسماعيل.
(٢) الدكتور أحمد كمال زكي.
(٣) الشاعر صلاح عبد الصبور.
(٤) الشاعر معين بسيسو.
(٥) عبد المنعم شميس.
(٦) فاروق خورشيد.
(٧) أحمد سعيد محمدية.
(٨) الفنان جمال كامل.
(٩) الفنان حسن جوني[١].

---

(١) تشكيلة دار العودة، **أبو ذر الغفاري** (دار العودة، بيروت، ط ١٩٧٤) ص ١١٢. وتجدهم أفردوا الصفحة السابعة لكتابة أسماء هؤلاء النوابغ التسعة، ولكن ترتيبهم كما يلي: ٨، ١، ٣، ٢، ٦، ٤، ٧، ٥، ٩.

أما «الكتاب» فيقع في ١١٢ صفحة (من القطع الصغير) بما فيها صفحتا الغلاف المقوى جيد الصنع منها ٤٢ صفحة غير مسودة ـ بما فيها صفحتا الغلاف وصفحة الفهرس ـ إلا من رسوم الفنانين وتعليقات عليها.

وعدد الصفحات المسودة ٧٠ صفحة لا يزيد عدد أسطر الصفحة منها عن ١٧ سطراً كما لا يزيد عدد الكلمات في السطر الواحد عن ٩ كلمات. ولما كانت «دار العودة» قد اعتنت عناية عظيمة من حيث الشكل في إخراج «الكتاب» فلم نجد بأساً من وصفه من حيث الشكل ـ أيضاً ـ ولذلك قدمنا هذه البيانات الإحصائية وسنقدم بقية وصف الشكل فيما يلي:

١ ـ الصفحة الأولى من الغلاف تتألف من ورق مقوى جداً عليها رسم ملون لرأس رجل له لحية سوداء وعمامة خضراء وعينان تدمعان وقد كتب عليها:

أبطال العرب

أبو ذر الغفاري دار العودة ـ بيروت

٢ ـ الصفحة الثانية: فراغ.

٣ ـ الصفحة الثالثة: كتب فيها: أبو ذر الغفار.

٤ ـ الصفحة الرابعة: فراغ.

٥ ـ الصفحة الخامسة: نوابغ العرب.

أبو ذر الغفاري

دار العودة ـ بيروت

٦ ـ الصفحة السادسة:

حقوق الطبع محفوظة

لدار العودة

الطبعة الأولى ١٩٧٤/٧/١

بيروت لبنان

٧ ـ الصفحة السابعة: أفرغت هذه لكتابة أسماء نوابغ العرب المبدعين التسعة، مؤلفي الكتاب!.

٨ ـ الصفحة الثامنة: فراغ.

٩ ـ الصفحة التاسعة: رسم يمثل الكعبة ورجل عربي جالس وقد كتب تحت الرسم: أبو ذر الغفاري من الخمسة الأوائل الذين آمنوا بالإسلام، وكان أول الطائفين حول الكعبة، وقد جند قبيلة بأكملها، وقبض على عقيدته بإيمان الرجال العظام.

١٠ ـ الصفحة العاشرة: فراغ.

١١ ـ الصفحة الحادية عشرة: كتبوا ما يلي: كان أول الطائفين حول الكعبة ينادي بسقوط الصنمية والأصنام، وكان أول من جند قبيلة، وهو القائل: «القابض على عقيدته كالقابض على الجمر».

١٢ ـ الصفحة الثانية عشرة: فراغ.

١٣ ـ الصفحة الثالثة عشرة: وتعتبر هذه الصفحة أولى الصفحات التي سودت بكلام، فبعد أن جعل «نوابغ العرب المبدعون» أبا ذرهم أول من طاف حول الكعبة وأول من جند قبيلة، يجعلونه قد انطلق لمواجهة القمع والقهر وكل صور وأشكال اضطهاد الإنسان «فهم يتهمون العهد الإسلامي حتى عام ٣٢ للهجرة بما واجهه في هذا النص أبو ذرهم الذي أبدعوه».

النص رقم (٥٤):

«لماذا أبو ذر الغفاري...؟

يقف أبو ذر كمنارة هادية، للإنسانية جمعاء، ولكل من رفع قضية كالآية فوق رأسه، وانطلق لمواجهة القمع والقهر وكل صور وأشكال اضطهاد الإنسان...

ومن أجل هذا، أصبحت الكتابة عن أبي ذر مسؤولية تاريخية وعقائدية»[١].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٥. مع ملاحظة أننا التزمنا الأمانة في النقل وبخاصة الفواصل وإشارات =

١٤ ـ الصفحة الرابعة عشرة: فراغ.

ويبدأ «الكلام» من الصفحة ١٥ بكلام يشبه النثر المشعور من تأليف هؤلاء النوابغ المبدعين فيمر القارىء على كثير من أمثال هذه النماذج.

النص رقم (٥٥):

«انقطع المطر، وتحول وجه الأرض إلى حطبة، وجف الدم في شرايين التراب، فتحولت الشرايين إلى جذور هشة، تحت سطح الأرض...»[١].

إلى مناة... لقد تشققت الأرض، سقط لحم الأرض، وتحولت إلى كتلة من العظم الذي يوشك أن يحترق هو الآخر...

وكان انضمام أبو ذر لهم، إلى حلقة المسحوقين قد قدح في نفوسهم شرارة، أن يتكلموا...»[٢].

وليس يهمنا كثيراً نقد النثر المشعور وإنما قدمنا نماذج مما ملأ الكتاب الذي قد يظنه بعض صغار الطلبة ـ ولو لانبهار الفتى بمنظر الكتاب الأنيق جداً ـ ترجمة تاريخية أو شيئاً قريباً منها، ذلك ليطلع القراء على الأساليب المختلفة في التهويش على التاريخ الإسلامي وشخصيات رجاله وعلى أفكار الناشئين والقارئين في بلاد المسلمين. أما نقد النثر المشعور فله رجال النقد الأدبي في كتب الأدب، وليتهم نقدوا! مثل هذا الكلام.

وفي النص التالي يحاول «نوابغ العرب المبدعون» التهويش على ظاهرة الوحي بالنسبة للأنبياء فيبتدعون حادثة كاذبة لم يدعها أبو ذر ولا ادعاها أحد من السبئية قبل نوابغ العرب المبدعين هؤلاء:

النص رقم (٥٦):

«... وراح يتطلع للسماء... وأحس بأنه يكاد يسمع صوتاً... يأتي من مكانٍ عالٍ، وكان الصوت يقول:

= الاستفهام والتعجب وأعداد النقاط، فلا بد أن لها معان مهمة عند «نوابغ العرب المبدعين».

(١) المصدر السابق، ص ١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨.

- يا أبا ذر... يا أبا ذر... يا أبا ذر.

قالها الصوت ثلاث مرات... ثم سكت ونهض أبو ذر وفتح ذراعيه للسماء... وهو يصيح:

- لبيك أيها الصوت... لبيك... لبيك... لبيك...

ولقد لبى أبو ذر نداء ربه...»[1].

ولكن أبا ذرهم لم يمت، فليس معنى لبى نداء ربه أنه مات كما هو معروف متداول بين عامة الناس هذه الأيام، بل يقصد «نوابغ العرب المبدعون» أن الصوت الذي ناداه يا أبا ذر ثلاث مرات هو صوت ربه! كما يفهم القارىء من مثل هذا النص من نصوص النثر المشعور. فالكتابة عند هؤلاء النوابغ العرب ـ قد أصبحت «عن أبي ذر مسؤولية تاريخية وعقائدية» كما أسلفوا للقراء في الصفحة ١٣ من «كتابهم» هذا!.

وانطلاقاً من هذه المسؤولية التاريخية العقائدية، واستعداداً لقبض الثمن من وكالات استخبارات اللجنة المركزية لاتحاد المسحوقين، يجعل «نوابغ العرب المبدعون» هؤلاء من أبي ذرهم صاحب قضية كبرى هي قضية حرية المسحوقين وسعادتهم وسلامتهم. بل إن «النوابغ المبدعون» يجعلون العقيدة الإسلامية، قد جاءت من أجل إنصافهم، وهذا ما يؤدي ـ كما ترى ـ إلى إلغاء العقيدة في مجتمع أنصف فيه المسحوقون طالما أن غاية العقيدة إنصافهم، إذ لا حاجة لهذه الأداة إذا وصل المجتمع إلى هذه الغاية، ويذكرنا مثل هذا العداء لعقيدة المسلمين ـ الذي ظهر في السبعينات بكتاب ظهر في الخمسينات باسم «الدين في خدمة الشعب» ثم ما لبث مؤلفه أن غيره في طبعات لاحقة فسماه «الدين للشعب» ذلك أنه وجد مصدر رزق أوسع إن هو لم يصدم عقيدة الأمة ـ آنذاك ـ بمثل هذا الكلام المباشر!.

النص رقم (٥٧):

«كان أبو ذر يتذكر دائماً، أن المسحوقين والمعذبين في غفار، هم أول

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤.

من قدحوا الشرارة في صدره[1]... حينما انطلقت القبيلة إلى «مناة» من أجل أن تذبح له القرابين، وتبتهل إليه أن يسقط المطر... ومن أجل هذا، كان حبه للمسحوقين وللمعذبين في الأرض... وذلك الحب الأكبر... كانت قضية حريتهم وسعادتهم وسلامهم، هي قضيته الكبرى... فلقد جاءت العقيدة من أجل إنصافهم... من أجل تحريرهم وعتقهم.

كان العدل قضيته، والمساواة بين البشر، رايته، وكان على يقين، أن الفقراء والكادحين والمعذبين، هم جيش العقيدة وخط الدفاع الأول عنها... ومن أجل هذا ألقى أبو ذر بكل ثقله في اتجاههم»[2].

ثم يفتري «نوابغ العرب المبدعون» على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثاً لا أصل للفظه ولا لمعناه بل هو يخالف النظرة الإسلامية للضعفاء في المجتمع الإسلامي والجيش الإسلامي: «.. وهل تنصرون إلا بضعفائكم» فعندما يؤلف «نوابغ العرب المبدعون» كتابهم يشككون بصحة الواقعة التي وقعت في تخلفه والسؤال عنه في تبوك ثم ينشئون حديثاً مكذوباً في تأكيد ما يخترعون فتقرأ النص التالي:

النص رقم (٥٨):

«ولعل أحدهم قد نظر حوله، فلم ير أبا ذر في الجيش فصاح:

ـ قد تخلف أبو ذر يا رسول الله...

وأجابه الرسول:

ـ «إن تخلف فهو ضعيف ولستم بحاجة إلى ضعفاء، على أن أبا ذر لا يتخلف»[3].

---

(١) مع أن النوابغ المبدعين كانوا قد زعموا في النص «٥٤» المنقول من الصفحه «٢٨» أن انضمام أبي ذر إلى حلقة المسحوقين قد قدح في نفوسهم شرارة أن يتكلموا.. فعلى من استقرت شرارة النوابغ المبدعين المقدوحة! ومن هو القادح، وما هو المقدوح!.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٤.

وبينما تسمع صاحب الشباب المضنى في النص (٤٧) يخترع تنافساً بين عليّه وأبي بكره، ويجعل أبا ذره يؤيد عليه في هذا التنافس السياسي، نجد «نوابغ العرب المبدعون» يجعلون أبا ذر يعطي صوته ـ الانتخابي ـ لأبي بكر ولكنه يراقب سلوكه عن كثب! وكأنما هو أعطى صوته لعمر أيضاً وراقب سلوكه كما ستقرأ نص النوابغ العرب إلا أن «النوابغ المبدعون» لم يذكروا لنا هل أعطى صوته لعثمانهم ثم نقض البيعة أم أنه بدأ بالتحزب ـ عصبية ضد بني أميتهم ـ منذ أول الأمر، إلا أن هؤلاء النوابغ الأبطال والباحثين المبدعين جعلوا من عثمان ذي النورين ثالث الخلفاء الراشدين قد انحرف عن العقيدة التي جعلوا «أشرف وأشجع مبادئها... الحق... والعدل... والمساواة» بل جعل «الباحثون المبدعون» عثمان ذا النورين محرفاً للإسلام ومنحرفاً عنه ثم يأخذ المبدعون المبتدعون في رسم حوار جديد زيادة على الحواريات التي ألفها من قبلهم سابقوهم من المزورين فما كان عند المقدم السحار من تخيل أبي ذره يتمتم أو يفكر أصبح عند هؤلاء النوابغ المبدعين حواراً على ملأ من الناس تثور فيه قرائح النثر المشعور عند الشعراء من النوابغ و «الدكاترة» من الباحثين وإليك النص (٥٩) من نصوص النوابغ المبدعين:

النص رقم (٥٩):

«هكذا يمتحن المعدن النبيل، وهكذا تجرب السيوف المؤمنة... وبايع أبو ذر، أبا بكر الصديق... رغم محبته لعليّ بن أبي طالب، المؤمن الأول الذي قاده؛ إلى بيت النبي، في مكة...

ونهض أبو بكر، كأول خليفة للمسلمين، بمسؤولية دحر المرتدين عن العقيدة وكان أبو ذر أول من وقف إلى جانبه بالكلمة والسيف...

ولم يعط أبو ذر صوته عبثاً لأبي بكر، فلقد كان يراقب سلوكه عن كثب»

«ولم يختلف الحال، حينما خلف عمر بن الخطاب،»

«وظلت الأمطار تسقط... والمؤمنون يرتوون... والذين كانوا عبيداً،

قد تحرروا ورفعوا رؤوسهم، إلى أن مات عمر بن الخطاب،[1] فخلفه عثمان بن عفان. . .

عندها، بدأت السحب السوداء ترتفع في سماء العقيدة. . . وبدأ أبو ذر يتحسس الأرض. . . وكان يراها. . . تقطع إلى هذا وإلى ذاك. . .».

«وكان على أبي ذر، وعلى الذين يؤمنوا مثل إيمانه، أن ينهضوا للدفاع عن العقيدة وعن أرضها. . . وعن المعذبين من أجل العقيدة، وعن أجمل وأشرف وأشجع مبادئها. . . !.

الحق. . . والعدل. . . والمساواة. . .[2].

وهكذا وجد أبو ذر نفسه، في مواجهة الحكم والسلطة. .

كان هناك ذلك الانحراف عن العقيدة، وكان على أبي ذر أن يصحح ذلك الانحراف، وكان عليه أن يرفع صوته منادياً، ضد الانحراف، وهو الذي رفع صوته، منادياً ضد أصنام قريش، حينما كانت تملك كل شيء. . .

وكان أبو ذر ينظر حوله ويفزع: كان يرى طبقة جديدة، تكاد تسيطر على كل شيء، على العقيدة وعلى الأرض، وعلى كل ما جاء النبي من أجله. . .[3].

وبعد الكذبة المفترين على تاريخ الصحابة من الذين ابتدعوا «أول شهادة زور في الإسلام» وألصقوها بطلحة والزبير رضي الله عنهما بعد ثلاثين سنة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! وأول ثائر في الإسلام وألصقوها بأبي ذر رضي الله عنه! ـ وسلسلة الأوائل تحتاج إلى حصر

---

(١) لم يذكر النوابغ المبدعون أن عمر قد «قتل» لئلا يستعيد القارىء ذكرى أن الذي «قتله» كان «عبداً مملوكاً» للمغيرة بن شعبة وأن خلافاً شديداً كان بين «العبد وسيده» ومن ثم بين «العبد وأمير المؤمنين» على «ثمن العبد» الذي يجب أن يدفعه لسيده كي «يتحرر العبد» أراد النوابغ المبدعون أن يغطوا كل هذا بكلمة «مات عمر»!.

(٢) لقد نسي النوابغ المبدعون عند الكلام عن «أجمل وأشرف وأشجع مبادئها» لقد نسوا كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»! التي يتحول الكافر بها مؤمناً، ويتحول المسلم بنكرانها كافراً. أو لعلهم تناسوها.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٧ ـ ٩٠.

وإحصاء ـ نجد النوابغ المبدعين يخترعون «أول نفي سياسي في الإسلام»! .

فبعد تأليف حوار شديد ناب، يتبارى فيه أبطال الحلبة في سلاطة اللسان وقذاعة السباب ـ يترفع عن مثله الذين تربوا في مدرسة الإسلام دون صحبة ـ يلصق النوابغ المبدعون هذه الأخلاق الذميمة بأبي ذر وعثمان رضي الله عن أبي ذر وعثمان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولا نتهم هؤلاء النوابغ المبدعين بابتداع الحوار فلقد استلهموا أصله عن مزورين سابقين اتهموا الصحابة بمثله إلا أن دور النوابغ المبدعين هو في تطوير قذاعة السباب في الحوار والتعليق عليه بما يلي:

النص رقم (٦٠):

«وبعد هذا الحوار. . . صاح عثمان بن عفان:

ـ اخرج. . . اخرج إلى الشام. . .

وخرج أبو ذر، وكان هذا أول نفي سياسي في الإسلام»[١] .

ثم تثور القريحة شديدة عاصفة عند الشعراء والدكاترة والرسامين والباحثين المبدعين وهم يريدون أن يصلوا بالتأليف الإبداعي في نهاية اللوحة الفنية إلى قمة المأساوية فيصورون الحياة العامة أيام الخليفة الراشد الثالث وقد ذبل الإسلام ومبادئه، وأصبح معاويتهم يتصرف تصرف المالك في الأرض والمال والناس فيؤلف أبو ذرهم حزباً من المحرومين والمقموعين والفقراء والمستلبين والمسحوقين ويقوم أبو ذرهم وحزبه ـ المزعوم ـ بمواصلة الدعوة ضد «الحرمان، والعذاب، والقمع، وضد الانحراف، والقهر، والظلم. . .» إلخ.

ويتقدم «نوابغ العرب المبدعون» على جميع الكذابين السابقين من الذين «سجّلوا» تمتمات شفتي أبا ذر! أو همسات قلب معاوية! فترى النوابغ المبدعين يتجرؤون على التقول على قلب محمد عليه الصلاة والسلام،

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٢.

فيقررون أن أبا ذرهم «أقرب الأصحاب إلى قلب النبي»! هكذا أما دليلهم على هذا الزعم ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ فهم ليسوا بحاجة إلى ذكر دليل إن وجد في القراء من يقرأ ويصدق بدون هدى ولا دليل مبين!.

ويقوم «النوابغ المبدعون» كما ستقرأ في النص (٦١) بمحاولة رشوة أبي ذرهم بيد معاويتهم «بأن يعطيه أرضاً ومالاً...» فيرفض «بطل القصة المبتدعة» هذه الرشوة! حتى يصل في نهاية القصة المأساة إلى محاورة جديدة ـ تتبارى فيها قرائح الشعراء النوابغ وأقلام «الدكاترة» الباحثين وريش الفنانين و «الأدباء» في تصوير حوار يثبت فيه الأدباء «سوء الأدب» بين المتحاورين من الممثلين الهزليين في قصة مأساوية!.

ثم يتحدث نوابغ العرب المبدعين عن «أمر النفي» بعد «قرار النبذ» ومنفى الربذة، والخيمة الممزقة المرقعة والعذاب الأكبر لأبي ذر ـ المبتدع ـ وهو يرى زوجه وولديه والجوع يطحنهم طحناً، «ثم انتزاع الرحمة من شخصية ـ عثمانهم المزعوم ـ فيموت ابن أبي ذرهم جوعاً ليموت هو أيضاً جوعاً.

وفي قمة المأساة يكاد نوابغ العرب المبدعين أن تأخذهم الرحمة فيعينوا زوجة أبي ذرهم على «تكفينه بالرمال» لولا أن تداركهم أكثر من نص تاريخي بأنه كفن بكفن حقيقي!.

وهكذا يفضح «نوابغ العرب المبدعون» جبن صحابتهم الذين سكتوا على الحكم بالإعدام جوعاً على أبي ذرهم وأسرته دون أن يحركوا ساكناً اللهم إلا ما زعمه بعض المزورين من سباب وقذاعة كلام نسبوه إلى علي رضي الله عنه ولسانه وبعض الصحابة الآخرين. والصحابة جميعهم رضي الله عنهم من مزاعم السبئية براء. وذلك بنص كتاب الله عز وجل. فصدق الله العظيم ولعنة الله على الكاذبين. وإليك النص الأخير من النقول من نصوص تشكيلة دار العودة من المزورين:

النص رقم (٦١):

«كل ما أحبه أبو ذر وقاتل من أجله تحت راية النبي، رآه يذبل ومعاوية بن أبي سفيان، قد ولاه الحكم بلاد الشام...

كان معاوية يتصرف كأنه يملك الأرض والمال والناس. . . والمسحوقون والمعذبون، أولئك الذين نصروا الدعوة من بداية خيط نورها الأول، كانوا أول من أنزل بهم معاوية الحرمان والعذاب، بعد أن رفضوا رشوته، ورفضوا السكوت على الذي يفعله. . .

وكأنهم كانوا في انتظار أبي ذر، كما تنتظر الأرض العطشى، زخة من المطر. . . فهو أقرب الأصحاب إلى قلب النبي وهو الذي قال فيه أعذب الكلمات. . . وهو أيضاً من الخمسة الأوائل الذين آمنوا بالله والنبي.

وبدأ الفقراء يتحلقون حوله، وتحول مجلسه في المسجد، إلى تظاهرة تضم كل المحرومين والمقموعين، إلى تظاهرة ضد الانحراف والقهر. . .

واشتد ساعد الفقراء والمستلبين بأبي ذر. . . وقويت شكيمتهم. . . وبدأ ابو ذر يدعوهم إلى رفض الاستكانة للظلم، وإلى مواجهة معاوية.

وبلغ معاوية خبر أبي ذر، فحاول أن يستدرجه بأن يقطعه أرضاً ومالاً. . . من أجل أن يفلت من يده. . . ولكن صاحب النبي، لم يكن بالمؤمن الذي يشترى. . . ولا بالرجل الذي يمكن أن يلوى عوده. . . فواجه معاوية بأعماله وانحرافاته، كما لم يواجهه أحد من قبل، حتى بلغ معاوية الأمر، أن صاح في وجه أبي ذر:

ـ يا عدو الله وعدو رسوله، تأتينا كل يوم فتقول ما تقول، أما إني لو كنت قاتل رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان، لقتلتك. .

وما كان من أبي ذر، إلا أن صاح في وجه معاوية:

ـ ما أنا بعدو لله ولا رسوله، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام نفاقاً وأبطنتما الكفر.

وثارت ثائرة معاوية وجاهليته»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٧ ـ ٩٩.

«في الطريق إلى المدينة، لاقى أبو ذر كل صور التنكيل والزجر من البطانة التي أرسله معاوية مخفوراً في حراستها. . . ولكن الذي عزّاه، أن تلك البطانة كانت من مرتزقة الصقالبة، الذين أخذ معاوية يستأجرهم كمخالب بطش له. ضد أولئك الذين آمنوا قبله»[1].

«ـ ليس هناك من يشكو مني غير ابن عمك معاوية وصحبه، الذين يكنزون الذهب والفضة ويحتكرون أرزاق الناس، ويرفعون راية القهر والقمع والطغيان، بدل راية الحق والعدل والمساواة. . .

وما كان من عثمان، إلا أن صاح في وجهه: كذاب. . . كذاب. . .»[2].

«ولم يرض عثمان بتدخل علي لصالح أبي ذر، فسكت على مضض. . . ولكنه أمر بأن لا يخالط أحد أبا ذر ولا يجالسه، وهكذا أراد أن يصدر ضده قرار النبذ. . . والحرمان من مجالسة الناس، وذلك دفعاً، للخطر الذي أصبح يشكله أبو ذر على السلطة، وعلى ولاية ابن أبي سفيان في الشام.

في الوقت نفسه حاول عثمان، استرضاء أبي ذر، وكان في كل مرة يرسل بدنانيره إلى أبي ذر، كان يعيد أبو ذر الدنانير إلى عثمان، حتى كان ذلك الحادث الحدث[3]، حينما أرسل عثمان أحد عبيده ومعه مائة دينار وقال عثمان للعبد:

ـ إذا قبلها أبو ذر، فأنت حر. . .

وانطلق العبد بالدنانير المائة، وحاول بكل الطرق أن يقنع أبا ذر بقبولها ولكنه كان يرفض، إلى أن صاح العبد:

ـ اقبلها. . . ففي قبولها عتقي. . .

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠١.

(٣) لا يظهر أنهم يقصدون أنه صغير السن؛ ولكن خانهم التعبير!.

وسكت أبو ذر بعض الوقت قبل أن يقول:

- يا بني إن يك فيها عتقك، فإن فيها رقي...

وعاد العبد بالدنانير إلى عثمان...

عندها كان على عثمان أن يتخذ قراره الحاسم ضد أبي ذر، فقرر إبعاده، واقتادوا أبا ذر إلى عثمان فبادره[1] قائلاً:

- اختر المكان الذي تذهب إليه...

واختار أبو ذر الخروج إلى مكة، فرفض عثمان، فاختار أبو ذر الشام، فرفض، واختار العراق، فرفض عثمان أيضاً، ولم يبق غير مصر[2]، يختارها أبو ذر ولكن عثمان رفض، فقال أبو ذر وقد عرف ما يضمر عثمان.

- أبعدني إلى حيث تشاء.

* * *

وأمر عثمان، مروان بن الحكم وبعض حرسه الخاص[3]، أن يقودوا أبا ذر إلى «الربذة»، وهي أرض قاحلة تحيط بها الكثبان... وأصدر أمره بأن لا يودعه أحد[4]...».

وغضب عليّ، ورفع صوته[5]، وضرب به جبهة راحلة مروان وانتهره: تنح أخزاك الله. إلى النار.

---

(١) يقصدون: بلا سلام ولا كلام وكأنما نسيا عهود الإسلام بالسلام!.

(٢) لماذا؟ وأين اليمن؟ مثلاً أو البحرين؟ أو تستر؟ أو نهاوند؟ أو برقة؟ أو طرابلس الغرب؟ أو الري؟ أو كرمان؟ أو سجستان، أو أصبهان؟ وكلها مفتوحة من عهد عمر! وأين أرطان أو الأندلس أو اصطخر؟ التي فتحت في أول عهد عثمان! ولماذا يقصر النوابغ المبدعون البلاد الإسلامية على «مكة والشام والعراق ومصر»! أهو ضعف في التاريخ؟ أم في الجغرافيا؟.

(٣) يرجى الانتباه إلى عثمان... وبعض حرسه الخاص!.

(٤) مصدر النوابغ المبدعين - كما يظهر من السياق والسباق واللحاق هو كتاب «صاحب قضية العرب» و «الأمر» الذي أصدره «عثمانهم هنا» يشبه «قرار النبذ» الذي أصدره «عثمانهم هناك» نبوغاً وإبداعاً في الصفحة ١٠٢ من «كتابهم» هذا.

(٥) هكذا وردت في السطر العاشر من الصفحة ١٠٤ «وغضب علي، ورفع صوته».

وتنحى مروان... وقام علي بوداع أبي ذر... صاحب النبي، الذي سار إلى منفاه...

* * *

في منفى الربذة وتحت خيمة ممزقة[1] مرقعة... عاش أبو ذر أيامه الأخيرة هو وزوجه وابنه وابنته.

لم يكن معه في هذا القفر، غير غنيمات قليلة، كان لبنها هو كل زاد عائلة أبي ذر. بالإضافة إلى ما ينبت فوق الكثبان من أعشاب..»[2].

«وبدأ عذابه الأكبر وهو يرى زوجه وولديه والجوع يطحنهم طحناً، وهو لا يملك ما يدفع أنياب الجوع عنهم.

هل هكذا يعذب أبناء الذين آمنوا، من قبل الذين استولوا على راية العقيدة وفردوا فوق رؤوسهم... لهب الشمس للمؤمنين، وظلال القصور المنيفة للذين انقضوا على راية العقيدة، بعد أن رفرفت، وكانوا قبل أن ترفرف من ألد أعدائها...»[3].

---

(١) تحت الخيمة: السبق الإبداعي كان لقدري قلعجي فهو الذي ابتدع الخيمة، بينما هم مزقوها ـ هنا ـ ورقعوها، ولم ينتبه النوابغ المبدعون إلى أن بناء بيت صغير من طين ـ على عهد أبي ذر ـ أسهل وأبسط وأقل كلفة وأحصن. لكن «الخيمة الممزقة المرقعة» أكثر انسجاماً وتوافقاً مع أفكار النوابغ المبدعين. ثم إن استجداءها هذه الأيام أقل كلفة!.

(٢) خيال مجدب وأفكار تنبع من قفر.. ويحاول «النوابغ المبدعون» أن يتوافق خيالهم وأفكارهم مع «أعشاب الكثبان»! فيا عجباً! هل لا يعرف «النوابغ المبدعون والأساتذة الباحثون» معنى كلمة «كثيب» أم أنها الأمانة العلمية! في النقل عن الثقات! قدري قلعجي وعلي ناصر الدين!.

وما هذا الكلام عن «منفى الربذة» و «القفر» و«الكثبان المحيطة بالخيمة الممزقة المرقعة»! وكيف تعيش «غنيمات قليلة» في هذا القفر! ثم كيف تعيش عائلة أبي ذر على لبن هذه الغنيمات القليلة! بل كيف تحلب هذه الغنيمات! ولماذا لا تموت قبل أبي ذر وولديه وزوجه!.

أهي المسؤولية التاريخية جعلت من النوابغ المبدعين يبتدعون هذه الصورة «لمنفى الربذة» أم هو الضعف في الجغرافيا والأحياء!.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٥.

«واشتد المرض بولديه وزوجه من فرط الجوع... فحفزه هذا إلى الانطلاق إلى عثمان، ليطالب بحقه، في بيت مال المسلمين...

ولكن عثمان رفض أن يعطيه شيئاً من حقه من بيت المال... ورفض أبو ذر كل العروض التي قدمها له، من كانوا في مجلس عثمان... وآثر العودة إلى خيمته سيراً على قدميه[1]... وهو الجائع العطشان شبه العريان...

ما أن واجه أبو ذر خيمته، والريح تكاد تقتلعها، حتى تناهى إليه نحيب زوجته... وما أن دخل عليها الخيمة، حتى رآها تنتحب فوق جثة ولدهما...

وسقط أبو ذر إلى جانب زوجته وهو يبكي... ثم نهض وشق قميصه الوحيد[2]، وكفن به ولده... ودفنه، وعاد إلى الخيمة... والحمى ترعشه إرعاشاً...

ونظرت زوجه إليه وتملكها الخوف، لقد عرفت أن ساعة النهاية قد دنت... ولم يخفها هذا، ولكن الذي أخافها[3]، أن أبا ذر لا يملك ثوباً، تكفنه به.. فقميصه الوحيد، مزقه ليكفن به ولده...

وأحس أبو ذر بعينيها تدوران فوق جسده الناحل... فرفع صوته وقال...: ـ دونك الكثيب فانظري، لعل في ما يقع عليه بصرك من الفلاة ركباً، تقولين لهم أن أبا ذر صاحب رسول الله قد قضى نحبه، تأخذهم

---

(١) سيراً على قدميه إلى منفاه البعيد! «منفى الربذة»!.

(٢) كان شبه عريان من عدة أسطر، ثم عاد إلى «خيمته» يلبس قميصاً وثم يشق قميصه الوحيد! لاحظ روعة الابتداع: شق قميصه الوحيد، فلم شق أبو ذر قميصه! ألا يمكنه أن يكفن ميتهم المزعوم بقميص غير مشقوق! أم أن «النوابغ المبدعين» أرادوا أن يشبهوه بالنساء الجاهليات اللواتي يشققن جيوب دروعهن عند المصائب! ومن أين أتوا له بهذا القميص وشققوه إياه ومنذ قليل قالوا في وصفه «شبه عريان» فهل أصبح «عرياناً تماماً» بعد أن شققه النوابغ قميصه!.

(٣) انتبه ـ أخي القارىء ـ إلى روعة الإخلاص في القنبلة التي وضعها النوابغ المبدعون في السطر التالي.

الرحمة بك وبي، فيعينوك على تكفيني بهذه الرمال...»[1].

يا لله لقد أخذ الخيال المأساوي بالنوابغ المبدعين كل مأخذ، حتى توصلوا بقصتهم المأساة إلى شعور فاض منهم عليهم حتى كادت أن تأخذهم الرحمة والشفقة ليعينوا زوجة أبي ذرهم على تكفينه بتلكم الرمال! لكن ركباً أطل من كل روايات التاريخ عن موت أبي ذر أنقذ النوابغ المبدعين من ورطة كانوا سيتعبون بها عضلاتهم ويغبرون بها ألبستهم المكوية لو أن شعور الرحمة والشفقة أضر بهم فعاونوا المرأة على تكفين زوجها بالرمال! عندما أطل هذا الركب فر النوابغ المبدعون هاربين وقد سرقوا معهم كلمات قالها أبو ذر رضي الله عنه قبل موته يريدون إخفاءها في سراديب التجهيل والإضلال، خوفاً من أن يقرأها قارىء من الشباب فيعود مرة أخرى للإيمان بنبوءات النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال في أبي ذر «ويموت وحده» وكذلك نبوءة مجيء القوم الصالحين إثر موته وحيداً ليغسلوه ويكفنوه ويصلوا عليه ويدفنوه.

لكن هؤلاء المزورين يحاولون أن يثبتوا لأبي ذرهم وحياً (كما في النص ٥٥) وأن يطمسوا الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والنبوءات الصادقة كما يلاحظ القارىء من اجتثاثهم لهذا المقطع من قصة موته رضي الله عنه.

وتنقضي في الصفحة ١٠٨ القصة المأساة التي ابتدعتها تشكيلة دار العودة، من نوابغ الكتاب والرسامين والشعراء الذين يتبعهم الغاوون. فإن تأثر القارىء بما كتبه النوابغ المبدعون فقد أصبح تاريخ الصحابة عنده مخالفاً ومصادماً لوصف الله عز وجل لصحابة رسوله عليه وآله الصلاة والسلام.

ولو أن هؤلاء النوابغ المبدعين ابتدعوا قصة مأساوية واعتزت «دار العودة» في إعلانها عن هؤلاء «المبدعين العرب» دون أن تذكر شيئاً عن تحفتهم «الأدبية» هذه، وتصف خيالهم «وشاعريتهم» بما شاءت لها أساليب

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٠.

الإعلان لهان الخطب نوع هون، ولأحجمنا عن التعليق على كلام مبدعين عرب يتخيلون ويؤلفون، تماماً كما أحجمنا عن قصائد ودواوين الشاعر السبئي المعروف سليمان العيسى في نفس الموضوع وغيره من المواضيع.

أما وأن هؤلاء «النوابغ والباحثين المبدعين» قد أعلنوا في الصفحة ١٣ ـ وهي أول صفحة في كتابهم ـ أعلنوا مسؤوليتهم عن أقوالهم مدعين أن كتابتهم هذه تاريخية عقائدية فهذا يعني أنهم يوهمون القارئين بأنهم أصحاب عقيدة أو تاريخ، فلئلا يقع قارىء في أحابيل مثل هؤلاء الأدعياء تقدمنا بالتعليق على بعض نصوص كتابهم العتيد «أبو ذر الغفاري» فرضي الله عن أبي ذر وعن الصحابة أجمعين ولعنة الله على الكاذبين.

الفَصل الثاني وَالسبعون

خالد محمد خالد(١)
من العلماء

هذا النموذج من المزورين ذو مواهب خاصة. ولقد حصل على لقبه بعد حصوله على شهادة العالمية من الجامع الأزهر؛ ويوم تأبينه «الرفيق جوزيف ستالين» بقوله: طبت حياً وميتاً يا رفيق!

أصدر خالد محمد خالد كتابه رجال حول الرسول صلى الله وسلم على رسول الله، ونشره بين الناس، ثم أخرجت دار ثابت في عام ١٣٩٩ هـ سلسلة

---

(١) خالد محمد خالد: كاتب مصري، حصل على شهادة العالمية من الجامع الأزهر في نهاية الأربعينيات بعد أن عاش سني دراسته في هيئة أزهرية كاملة (لحية، وجبة، وقفطان، وعمامة) لم يلبث أن استبدل بها ـ بعد الحصول على الشهادة ـ الهيئة الافرنجية الحديثة وسمح بنشر مقابلة صحفية أجرتها معه مجلة «الكواكب» زينت بصورته وهو يراقص امرأة.

ظهر على الساحة الأدبية عام ١٩٤٩ كأحد الكتاب اليساريين بكتابه من هنا نبدأ، وأباح أن يكتب على غلافه بعد كتابة اسمه: خالد محمد خالد من العلماء، وأحدث الكتاب ضجة في الأوساط الدينية، والأدبية، لجرأة الكاتب على القيم السائدة وعلى الأزهر وعلى علمائه فصودر الكتاب متهماً بالكفر، ثم استصدر المؤلف حكم محكمة مصرية بالإفراج عن الكتاب وبراءته من الكفر بدعوى حرية الفكر.

ثم أكثر من الكتابة وإصدار الكتب فأخرج: مواطنون لا رعايا، الديمقراطية أولاً، الدين في خدمة الشعب!، هذا.. أو الطوفان، لكي لا تحرثوا في البحر.

ونشر مقالاً في جريدة قاهرية كبرى عام ١٩٥٠ أبّن فيه طاغية روسيا ومستعمراتها الرفيق جوزيف ستالين بعنوان عريض قائلاً «طبت حياً وميتاً يا رفيق».

وعلى أثر نكسة ١٩٦٧ م، والهزيمة المنكرة أمام دولة اليهود، وانحسار المد الاشتراكي في مصر والمنطقة العربية لاحظ قراء ما يكتبه خالد محمد خالد بأنه اعتدل.. وأكد بعض المحللين بأن الاعتدال لا يعدو تعديل الأسلوب الذي يهاجم بصراحة.

وسواء اعتدل في فكره أو عدل في أسلوب الهجوم فإنه عدل أسماء وبعض كتبه القديمة عند دعايته لها.

بعنون «خالد محمد خالد، رجال حول الرسول[1]، طبعة معدة للناشئة وسجلت دار ثابت على الوجه الأخير من الغلاف.. مما سجلت «.. وقد اهتمت هذه المجموعة بأن تقدم للنشىء تصويراً حياً وصادقاً لحياة هؤلاء الرجال.. دون مبالغة أو شطط..» إلخ.

يتألف الكتاب من ٥٢ صفحة من القطع الصغير مع ورقتي غلاف مقوى وكتب في الثلث الأعلى من صفحة الغلاف ما يلي:

خالد محمد خالد

رجال حول الرسول

طبعة معدة للناشئة

٣ ـ أبو ذر الغفاري

إعداد: محمد خالد ثابت رسوم: صلاح مامون

= فالديمقراطية أولاً.. صار عنوانه.. الديمقراطية أبداً!.

والدين في خدمة الشعب!.. صار عنوانه.. الدين للشعب!.

ومواطنون لا رعايا! بقي على ما كان عليه، ويدل هذا كما هو ظاهر ـ والله يتولى السرائر ـ أن الرجل لا زال لا يستسيغ تسمية أفراد الأمة بالرعية، تلكم التسمية التي وردت في الحديث الشريف الذي رواه البخاري «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته...».

على كل حال وسواء اعتدل خالد محمد خالد أم لا يزال على عوجه فإن ما كتبه في «رجال حول الرسول» وما كتب عنه في الطبعة المعدة للناشئة بعنوان أبو ذر الغفاري لا يوافق الحق الذي يمكن للقارىء معرفته بعد كل هذا.. وللقارىء أن يحكم.

(١) دأب كتاب المسلمين منذ عصر الرسالة على أن يتبعوا ذكر رسول الله بـ «صلى الله عليه وسلم». واختصرها بعضهم بكتابة حرف (ص) تذكيراً للقارىء بالصلاة عليه عليه الصلاة والسلام.

لكن خالد محمد خالد خالف هذا الدأب في عناوين كتبه فجاءت جميعها مجردة من الصلاة ومن التذكير بالصلاة وإليك هذه العناوين «معاً على الطريق محمد والمسيح، إنسانيات محمد، كما تحدث الرسول، رجال حول الرسول، أبناء الرسول في كربلاء، عشرة أيام في حياة الرسول، خلفاء الرسول» ونذكر القارىء بعد هذا الذكر بضرورة الصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم. ونشير بيد الظاهر إلى اختيار خالد محمد خالد لهذه العناوين المجردة.. والله يتولى السرائر!.

أما المربع الأسفل الذي يشكل ثلثي صفحة وجه الغلاف فقد رسم فيها رأس حمار بقرنين، مربوط بيد جرّة (أو قُلّة) غير منتظمة الصناعة، ومسبحة من ذوات الثلاث والثلاثين حبة، وذيل مرط ذو ثلاثة أطراف، أو هما مرطان ظهر طرف أحدهما واختبأ طرف الثاني!.

وقد لا يكون الحمار حماراً، بل تيساً أو عنزاً، فلو كان حماراً فهو يشبه التيس، أو عنزاً فهي تشبه الحمار، ويلح سؤال في ذهن الناظر: ما دخل ذكر أبي ذر رضي الله عنه ورسم الحمار ذي القرنين أو التيس! وما دخل المسبحة الثلاثينية مع المروط الثلاثة والخابية!.

كما قد يثار تساؤل عن معنى عبارة «إعداد خالد محمد ثابت، هل إعداد بمعنى إعادة الكتابة؟ أم هو إعداد من نوع آخر، وللخشية من أن نظلم أحد المؤلفين فسنعبر في حديثنا بكلمة الأصل لما طبع في كتاب «رجال...» المنسوب إلى الرفيق خالد محمد خالد، وبعبارة طبعة الناشئة، للكتاب المفرد الذي كتب عليه «إعداد محمد خالد ثابت».

أما الأصل فإن الرفيق خالد كتب عنواناً للموضوع كما يلي:

«٣

أبو ذر الغفاري

زعيم المعارضة، وعدو الثروات»[1]

وأما طبعة الناشئة فتستهل قصتها مصورة معركة بين قافلة، وقطاع طريق من غفار، يذبحون أفراد القافلة ثم يحيون ليلة حمراء على نحو النص ٦٢ التالي:

---

(١) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول (دار الكتاب العربي، بيروت ط ١٩٧٣) ص ٥٧.

النص رقم (٦٢):

وأُحضِرَتْ دِنانُ الْخمرِ، وَشَرِبَ الجميعُ وهم يُشاهِدُون الرَّاقِصاتِ.. ودارت الرُّءوسُ، وانْتَشى الجميعُ، فهذه ليلةٌ مِنْ لَيالِي العُمرِ، لا تتكرَّرُ كثيراً[1].

هذا هو أسلوب طبعة الناشئة، لتدريب النشء على الإنشاء!.

أما أبو ذر الناشئة! فلقد اقتبستها الطبعة من مجتمع عباد البقر وقديسهم المزعوم المهاتما غاندي! فوصفته في النص (٦٣) كما يلي:

النص رقم (٦٣):

رُبَّما كانَ أفقرَهُمْ وأضعفَهُمْ بُنيةً، ولكنَّهُ لا يَعْبَأُ بذلك، فلدَيْهِ ناقَةٌ وَعنزتانِ، يشرَبُ لبنهُما، ويَلْبَسُ ما يصنَعُهُ من ثيابٍ مِنْ صُوفِهما»[2].

فهل هذا المهاتما يشبه أبا ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ الذي كان في الجاهلية ـ كما يصفه الذهبي ـ طوالاً آدم، وكان يصيب الطريق، فيطـرق الحي وحده في عماية الصبح، كأنه السبع، راكباً أو على رجليه، فيأخذ ما يأخذ، ويدع ما يدع[3] لكنه الخيال الفقير المنساق مع دعايات الهندوس والذي ينكر أو هو لا يعرف أن أبا ذر السبع الجاهلي بقي ثلاثين ما بين ليلة ويوم ليس له طعام إلا ماء زمزم.. واتفق «الأصل» و «طبعة الناشئة» على أن يوصلا أبا ذر فور وصوله مكة إلى «هناك جالساً وحده» في الأصل! وإلى «دار

---

(١) خالد محمد خالد، **أبو ذر الغفاري** (دار ثابت، القاهرة، باب اللوق، ط ١٩٧٩ م ـ ١٣٩٩ هـ) ص ١٠.

(٢) طبعة الناشئة ص ١١.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي.

الأرقم بن أبي الأرقم.. يتوسط أصحابه» في طبعة الناشئة، واتفقا على أن يقوِّلا أبا ذر ما لم يقله «نعمت صباحاً يا أخا العرب» وأنشأ الأصل قوله: «فأجاب الرسول: وعليك السلام يا أخاه»[1] أما إنشاء طبعة الناشئة فكان «فرد الرسول قائلاً، وعليك السلام»[2].

أما الإمام مسلم فلقد ذكر في الجامع الصحيح: «قال أبو ذر: فكنت أنا أول من حياه بتحية الإسلام (قال) فقلت: السلام عليك يا رسول الله، فقال: وعليك ورحمة الله»[3].

لكن الأصل! وطبعة الناشئة! أصرتا على خلاف ما صححه مسلم، كما أصرتا على إغفال ذكر أمه وأخيه أنيساً وإسلامهما إثر إسلامه، واخترعت طبعة الناشئة مجيئه للحج أيام الحج! ثم قص الأصل، وطبعة الناشئة! قصة مقابلته مع المرأتين اللتين تدعوان إسافاً ونائلة، واتفق الأصل وطبعة الناشئة على مخالفة روايتي البخاري ومسلم في توقيت المقابلة، فأما صاحبا الصحيحين فاتفقا على توقيت المقابلة قبل إسلام أبي ذر الغفاري، وأما صاحبا الكذب فاتفقا على توقيت مقابلة أبي ذرهما بعد إسلامه! ولمّح الأصل إلى ما قال أبو ذر لهما، في حين اخترعت طبعة الناشئة لقاء سبب له ضرباً من قريش حتى سقط مغشياً عليه، في حين ذكر البخاري ومسلم أن المرأتين هربتا تولولان!.

وفي الهجوم على معاوية رضي الله عنه، وعلى كل من تولّى عملاً لعثمان رضي الله عنه؛ أنشأت طبعة الناشئة ما ستقرؤه في النص (٦٤) التالي:

---

(١) الأصل ص ٧٦.

(٢) طبعة الناشئة ص ٢٠.

(٣) مختصر صحيح مسلم للمنذري (المكتب الإسلامي، ط ٣) ص ٤٥٣.

النص رقم (٦٤):

«ما إنْ قُتِلَ عُمَر حتّى انْطَلَقت الشَّهواتُ مِنْ عِقَالِهَا، وابتذَلَ الرِّجالُ أنْفُسَهم سعياً وراءَ السُّلطةِ ومظاهرِ الثَّراء، والخليفةُ لا يقْوَى على رَدْعِهِمْ، وكلُّ من تولَّى إمارةً أطلَقَ يَديْهِ في أموالِ المُسلمينَ بلا حَسِيبٍ ولا رقيبٍ»[1].

يلاحظ أن السباب هنا قد عمّ كلَّ من تولى إمارة! ولم توفّر طبعة الناشئة واحداً من الصالحين، ثم خص السباب بعد التعميم بمعاوية إذ أنشأت طبعة الناشئة:

«غير أنَّ معاوية أساءَ اسْتِغلالَ مركزِهِ لمصْلحَتِهِ الشَّخْصية، فأستأثَرَ بالثَّرْوَةِ يَغْدِقُ بها على أقاربه وأتْباعِهِ بدونِ حساب، مكوِّناً طبقةً من الأثرياء المُتْخَمين، مِمَّنْ يملكونَ القصورَ والضِّياعَ الواسعة، وعشراتِ الجواري والعبيد، وازدادَ الفقراءُ فقراً، وأنَّ النَّاسُ مِنَ الظُّلم؛ ولهذا قدِمَ أبو ذرٍّ إلى الشَّام»[2].

إذن.. فكل من تولى الإمارة اختلس وأساء على ذمة طبعة الناشئة ـ وأشد الأمراء سوءاً كان معاوية! حيث بدا التفاوت الطبقي! أشد ظهوراً في الشام.. ولهذا قدم أبو ذر!.

وعند ظهور تفاوت الطبقات لا بد «للبروليتاريا» وزعاماتها من الظهور حتى تكتمل النظرية ويبرر ظهور المونيفوستو[3] كما يلاحظ من النص (٦٥) التالي:

النص رقم (٦٥):

ظَلَّ أبو ذرٍّ يجوبُ أرجاءَ الشَّام، بينَ القُرَى والنُّجوع، ومَضَارِبِ الخيامِ

---

(١) طبعة الناشئة ص ٣٨.

(٢) طبعة الناشئة ص ٣٩.

(٣) المونيفوستو: هو البيان الشيوعي الذي أصدره كارل ماركس عام ١٨٤٨ م.

البَعِيدةِ، يحدِّثُ النَّاسَ ويعلِّمُهُم مُقاومةَ الظُّلْم، وأيْنمَا مضى لا يَنْزِلُ إلا ببيوتِ الفقراء، ولا يَطْعَمُ إلا مِنْ طَعَامِهم، ولا يَسيرُ إلا وَسَطَهُم.[1]

. . كـانتْ أخبارُ خُـطَبِـهِ في المسـاجـدِ واجتمـاعـاتـهُ بـالنَّـاسِ في الطُّرقـاتِ وحولَ نيرانِ الفُقراءِ باللَّيلِ تطيرُ إلى معاوية أوَّلا بأوَّل. عن طريقِ جواسِيسهِ المنتشرينَ في كلِّ مكان[2].

لقد جنح الأدب الإنشائي الخالص إلى اختراع إطلاق يدي كل من تولى إمارة في أموال المسلمين! وبخاصة معاوية! وازدياد الفقراء فقراً! وتكوين طبقة الأثرياء المتخمين، وجوبان أبي ذر الناشئة بين القرى والنجوع ومضارب الخيام، واختراع انتقاء أبي ذر الناشئة وسط الفقراء في أثناء السير. . لا أمام ولا خلف ولا عن يمين ولا عن شمال! ثم اخترع الأدب الإنشائي الخالص خطب المساجد، والاجتماعات الليلية، وجواسيس معاوية الذين نشرتهم طبعة الناشئة في كل مكان!.

أما الأدب الإنشائي الخالص عند «الأصل» فقد اخترع «حق الناس جميعاً في خيرات الأرض متكافئاً»، كما في النص (٦٦) فهل يفهم من «حق الناس المتكافىء في خيرات الأرض» أنها الشيوعية مع إظهار غير الباطن:

النص رقم (٦٦):

«إن خيرات الأرض التي ذرأها الله للناس جميعاً. . وجعل حقهم فيها متكافئاً توشك أن تصيـر حكراً ومزية[3]».

وهنا لا بد لنا من تذكير القارىء المسلم بقول الله تعالى: ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا

---

(١) طبعة الناشئة، ص ٤٠.

(٢) طبعة الناشئة، ص ٤١.

(٣) الأصل، ص ٨٦.

بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ (سورة الزخرف: ٣٢) وليس لنا أن نطالب الرفيق «خالد محمد خالد من العلماء» بالتعرف على الآية إذ هو بها عارف.

وتابع الرفيق خالد كتابته يدعو إلى رفع «الراية الثورية الحمراء» بل وحدد لها شعاراً ـ سوى المنجل والمطرقة ـ هو المكواة الحمراء!.

النص رقم (٦٧):

«وخرج أبو ذر إلى معاقل السلطة والثروة، يغزوها بمعارضته معَقِلاً معقلا.. وأصبح في أيام معدودات الراية التي التفت حولها الجماهير والكادحون..

ولو أراد هذا الثائر الجليل أن يتخذ لنفسه ولحركته علَماً خاصاً لما كان الشعار المنقوش على هذا العلم سوى مِكْواة تتوهج حمرة ولهباً.

ولم يعد الناس يبصرونه قادماً عليهم إلا استقبلوه بهذه الكلمات: «بشر الكانزين بمكاو من نار»..

ولقد بدأ بأكثر تلك المعاقل سيطرة ورهبة.. هناك في الشام حيث... وإنه ليعطي الأموال ويوزعها بغير حساب، يتألف بها الناس الذين لهم حظ ومكانة، ويؤمّنُ بها مستقبله الذي كان يرنو إليه طموحه البعيد»[1]. «وقف يسائل معاوية في غير خوف ولا مداراة عن ثرواته قبل أن يصبح حاكماً، وعن ثروته اليوم..!!»[2].

هكذا بدا للرفيق خالد الأصل، أن ينشىء أدباً إنشائياً خالصاً يسائل فيه معاوية!.

أما «طبعة الناشئة» فأنشأت منظراً مسرحياً آخر تراه في النص (٦٨) كما يلي:

---

(١) الأصل، ص ٨٨.

(٢) الأصل، ص ٩٠.

النص رقم (٦٨):

«وَصَل معاويةُ مُحاطاً بأعْوانِهِ ومستشاريه، وسلكُوا طريقَهُمْ بسرعةٍ إلى داخل المسجد. جَعَلَ معاويةُ يوزِّعُ التحيَّات على النَّاسِ عن يمينِهِ وعن يسارِهِ، ثُمَّ مَالَ على أحدِ أتباعِهِ وهَمَسَ:

ـ ما عرفْتُ قبلَ اليومِ أنَّ بدمشق هذا القدْرَ مِنَ الرِّعَاعِ والغَوْغاء».

[هكذا يصف معاوية الناشئة! رواد المسجد في دمشق!.] «فبادَرهُ أبو ذر:

ـ وماذا تقول في أموالِ بيتِ المالِ التي استبَحْتَهَا لنفْسِك؟..

لقـدِ اسْتَبَحْتمْ أموالَ المسلمِينَ، تبْنُونَ مِنْها القصور، وتصرفُونَ الرواتِبَ لحَرسِكُمْ ومَوَاليكُمْ.

هنَا حاولَ معاويةُ أنْ يقاطِعَ كلماتِ أبي ذرٍّ فصاحَ فيهِ:

ـ أنْصِتْ يا مُعَاوِيَةَ، وانتبهْ لِمَا أقول..

وَصِرْتُمْ تَرْشُونَ ضِعَافَ النفوسِ بهذِه الأموال، وتَغْدِقونَ منها على الشُعراءِ ليمدحوكم بالباطِلِ.

ازدادَ حرجُ موقفِ معاويةَ وأعوانِهِ، وما زَالَ يفكر في مَخْرَجٍ من هذا المأْزَقِ حتَى قال:

أوَلَمْ يُولِني عُمرُ بنُ الخطَّابِ أمْرَ الشَّام؟ والله لَوْ أنهُ رأى فيَّ ما تقولُ ما ولأنِي»[1].

ثم اختلف نص العبارة الإنشائية الخالصة التي صنعت كرسالة أرسلت إلى أمير المؤمنين بين الأصل وطبعة الناشئة. إذ أنشأ الأصل «إن أبا ذر قد أفسد الشام»[2] وأنشأت طبعة الناشئة «إن أبا ذر قد أفسد أهل الشام علينا»[3].

ولأي صاحب أدب إنشائي خالص أن ينشىء رسالة باسم أمير المؤمنين برسلها إلى أمير الشام إن كان المنشىء لا يتقي الله ربه، ولقد ألف الرفيق خالد في الأصل ما يلي:

---

(١) طبعة الناشئة، ص ٤٤.

(٢) طبعة الأصل، ص ٩١.

(٣) طبعة الناشئة، ص ٤٥.

النص رقم (٦٩):

«لقد خرج عثمان من حواره مع صاحبه، ومن الأنباء التي توافدت عليه من كل الأقطار عن مشايعة الجماهير لآراء أبي ذر، بإدراك صحيح لحظر دعوته وموتها ـ وقرر أن يحتفظ به إلى جـواره في المدينـة، محدداً بهـا إقامته..»[١] «.. إنه من أولئك القديسين الذين يبحثون عن ثراء الروح.. لقد طلب من الخليفة عثمان رضي الله عنه أن يأذن له بالخروج إلى الربذة فـأذن له»[٢].

بهذه السهولة يقوم قلم خالد محمد خالد يجعل الخليفة يتراجع عن قرار تحديد الإقامة الجبرية، ثم يخترع إمارة بالعراق يعرضها على أبي ذره، ويتناسى أن الخليفة يعرف أن أباذر منهي عن تسلم إمرة على اثنين، فألف الرفيق «عرضت عليه إمارة بالعراق فقال [لا والله.. لن تميلوا علي بدنياكم أبداً]»[٣].

أما طبعة الناشئة فقد اخترعت إنشاء آخر في عرض العبارة، كمـا اخترعت داراً متواضعة لأبي ذرها في المدينة! واخترعت حياً فقيراً، واخترعت ناقة، واخترعت ابناً، وبقعة موحشة جرداء، وخيمة واحدة، واخترعت نعجة تأكل العشب الشائك! كل هذه الاختراعات تجدها في النص (٧٠) التالي:

النص رقم (٧٠):

«فقال أحد الجالسين:

ـ لقد حدثنا الخليفة في أمرك، وأشرنا عليه أن يعرض إمارة العراق عليك مرة أخرى فما رأيك؟.

ـ لا والله، لن تميلوا علي بدنياكم أبداً.

---

(١) الأصل، ص ٩١.
(٢) الأصل، ص ٩٢.
(٣) الأصل، ص ٩٥.

هنا صاح أحد أقارب الخليفة. . .»[1].

«خرجَ من دارِ الخليفةِ إلى دارِهِ المتواضعةِ في أحدِ الأحياءِ الفقيرةِ بالمدينة. .»[2] «حثَّ أبو ذرٍّ ناقتَهُ، وقدِ استقرَّ فوقَهَا زوجتُهُ وابنُه الصَّغير. .

ها هِيَ الرَّبَذَة، بقعة مُوحِشَةٌ جرداءُ في قلبِ الصَّحراء، قليلةُ الماءِ والزرع، لا يُرى في فضائِها الممتدِّ إلا خيمةٌ واحدةٌ، أمامَها نَعْجةٌ وناقَةٌ تأكلانِ من العُشْبِ الشائِك النَّابتِ حولَها. .

أشارَ الغُلامُ إلى الفَضاءِ الفسيح وصَاح:
ـ أُمَّاهُ. . هذه قافلةٌ تقتربُ مِنَّا. . .»[3].

هكذا أرادت طبعة الناشئة لأبي ذرها أن يموت، أما صاحب الأصل فلقد أمات أبا ذره كما في النص (٧١) التالي:

النص رقم (٧١):

«عاش يناهض استغلال الحكم، واحتكار الثروة. .
يمنعونه من الفتوى، فيزداد صوته بها ارتفاعاً. . .
والآن يعالج «أبو ذر» سكرات الموت في الربذة. . المكان الذي اختار الإقامة فيه إثر خلافه مع «عثمان» رضي الله عنه. . .»[4].

ويثور سؤال في نهاية الحديث عن الأصل وطبعة الناشئة مرة أخرى. . هل كتب الرفيق خالد محمد خالد طبعة الناشئة؟ أم هو أوحى بأفكارها لمن كتبها؟ أو هو رضيها بعد أن كتبت معبرة عما يريد؟ ورضي وصفها بأنها «تقدم للنشء تصويراً حياً وصادقاً لحياة هؤلاء الرجال. . دون مبالغة أو شطط»[5].

ونعيد قولنا المكرور صدق الله العظيم، ولعنة الله على الكاذبين.

---

(١) طبعة الناشئة، ص ٤٧.
(٢) طبعة الناشئة، ص ٤٨.
(٣) طبعة الناشئة ٤٨ ـ ٥١.
(٤) الأصل، ص ٩٦ ـ ٩٧.
(٥) طبعة الناشئة، الغلاف الأخير.

خاتمة

وأقام الله عز وجل من هذا الجيل حجة على البشرية يبين لها أن اعتناق عقيدة الحق والالتزام بمتطلباتها ممكن. فكان هؤلاء الصحب الكرام رضوان الله عنهم أجمعين ناقلة عدولاً بتعديل الله لهم وكانوا الحلقة الصادقة الأولى بين نبيهم وقرآن ربهم وبين أجيال المسلمين اللاحقين.

خُلَاصَة

وهكذا يمضي صحابي جليل على خطى إخوانه الكرام. . نسخاً قرآنية تمشي على الأرض. . لا انحراف ولا شذوذ ولا غرابة ولا نكارة. . ركب كريم أصحاب رسول كريم.

أهدى الله عز وجل هذا الدين وبعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين.

واستجاب جيل من البشرية لهذا النبي الأمين، فأقام الله بهم دولة الإسلام معلنة تحرير الإنسان في الأرض، وأقام الله عز وجل من هذا الجيل حجة على البشرية يبين لها أن اعتناق عقيدة الحق والالتزام بمتطلباتها ممكن. فكان هؤلاء الصحب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ناقلة عدولاً بتعديل الله لهم، وكانوا الحلقة الصادقة الأولى بين نبيهم وقرآن ربهم وبين أجيال المسلمين اللاحقين.

لكن طائفة من أعداء هذا الدين بدأت حرباً باطنية ضد الإسلام تريد أن تغتال وجوده في أنفس المسلمين ـ بعد أن تأكدت أنهم لا يغلبون وهم مستمسكون به عقيدة، ملتزمون به وبأوامره شريعة ـ وقامت بترويج أضاليل وأكاذيب عن سيرة هؤلاء الصحابة العدول بتعديل الله إياهم، ولم يدع الباطنية شخصية من مشاهير الصحابة إلا وأصابوا سمعتها بسوء يريدون أن يفصلوا بين أجيال المسلمين وبين نبيهم وقرآن ربهم بحلقة يتهمونها بالسوء والفحشاء، وينخرون في سمعتها حتى تنكسر فيزغردون طرباً إذا ترك المسلمون إسلامهم لتبرئهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين نقلوا الدين

وكانوا أمناء عليه. فإذا بطلت الناقلة أوشك أن يبطلوا المنقول وهو القرآن والإسلام.

وأصاب سمعة أبي ذر رضي الله عنه ما أصاب سمعة إخوانه الصحابة من هذا النخر الباطني في القديم... وقامت أجهزة إعلام الحزب الباطني هذا في العصر الحديث بترويج جديد مبتكر لتزوير تاريخ أبي ذر وإفساد علاقة المسلمين اللاحقين به وبإخوانه من الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

وفي مقام التصدي لهذه الحملة المعادية للإسلام وفي مقام إظهار الحق الأبلج لا مرية فيه؛ جاء كتاب «هذا أبو ذر» في جزئه الأول يتابع حياة الصحابي الجليل مذ كان جاهلياً يعيش قاطع طريق من الجاهليين في الجاهلية، ثم يسلم في مكة، ويتربى في المدينة تحت أنظار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصفة مع أهل الصفة الذين أوقفوا حيواتهم على العلم والجهاد وكان حريصاً على العلم يكثر السؤال.

وقدّم الجزء الثاني عرضاً تحليلياً لفصول مؤامرة الحزب الباطني على عهود الخلفاء الراشدين الثلاثة، ثم بعض الإسهاب في نجوم قرن السبئية الذي غطى الإعلام الشعبي بين عامة المسلمين خلال قرون التاريخ الإسلامي وبخاصة منهم بناة دولة الإسلام الأولى صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

واستمرت مرافقتنا لأبي ذر رضي الله عنه ما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مصر والشام، ثم رجوعه إلى المدينة ولقائه مع ذي النورين عثمان رضي الله عنه، ثم نسير معه إلى الربذة ليقيم فيها معتزلاً الناس على بعد ثلاثة أيام من المدينة قريباً من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيد تريد مكة، يتردد رضي الله عنه على المدينة منها لئلا يرتد أعرابياً ويتردد الناس على مقامه فيها لوقوعه على طريق الحج ولكونها من أحسن منزل في طريق مكة.

وتوصلنا بعد هذا البسط والرفقة الطويلة للصحابي الجليل - إلى تحليل خصائص شخصيته الظاهرة، فنطلع على تميزه رضي الله عنه بانعزالية بدوية

وتحدٍ للمدنية لا تفارقه ولا يفارقها، وصدق لهجة تسرع بالفكرة التي تعتلج في صدره لينطلق بها لسانه، على حدّة فيه، وضعف يكتشفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيمنعه من أي تأمر على اثنين أو ولاية مال يتيم أو قبض أمانة أو قضاء. أما زهده الذي اشتهر به رضي الله عنه فهو زاهد من قافلة الزهاد المسلمين ضمن مفهوم المصطلح الإسلامي للزهد.

وتوصلنا بعد هذا البسط أيضاً إلى أن نفهم مواقف أبي ذر من اقتصاد الدولة وأموال الأفراد وعطاء الدولة، ثم نتعرف على مذهب أبي ذر فيما وافق به المنطلقات الإسلامية وأحكام الإسلام.

فنجد أنه ـ رضي الله عنه ـ كان يرى وجوباً على الصحابة أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ويعلموا الناس السنن، ووجوب الوحدة الجماعة الإسلامية وطاعة أمير المؤمنين. وكان يرى أن الإمرة لا تجوز لضعيف مثله، كما لا يجوز توليه القضاء أو قبض الأمانة أو الوصية على مال يتيم، ويرى ـ رضي الله عنه ـ أن ادخار أي من الذهب والفضة عند الأفراد هو الكنز المحرم ولا بأس عنده بادخار أي شيء من الأموال سواهما، ولا حدود للملكية الخاصة إذا سمت النية الصالحة الشرعية. ولا يجوز لمن يمثل الدولة أن يعلن بعض الاصطلاحات الشرعية إذا ظن أنها تكأة لمصادرة أموال المسلمين. وهو يدعو ـ رضي الله عنه ـ أن لا تكتفي الدولة من أفراد المسلمين بالحد الأدنى من تطبيق الإسلام، فلا يكتفي من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وينبغي ألا يعتبر من أدى زكاة ماله قد أنهى ما عليه ـ ولو أسقط الفرض ـ بل ينبغي أن يندب إلى الإحسان إلى الجيران والإخوان وصلة القرابات بشتى أنواع الإحسان.

وكذلك يرى رضي الله عنه أن يعتزل المدينة والمدنية إذا بلغ البناء سلعاً ووصلت مدنية القوم إلى حد معين لكن لا يجوز لمن هاجر إلى المدينة من البدو أن يرتد أعرابياً، فإن اعتزل فقريباً إلى مثل الربذة على ثلاثة أيام فهي بعد وهي مدينة.

وفي النهاية اطلعنا على مشهد كريم لوفاة أبي ذر تتحقق فيه نبوءتان كما شهدنا وليمتين أعدَّهما ـ رضي الله عنه ـ لضيفانه ممن يشهدون وفاته، فمسك طيب يرش به الخباء قرى للملائكة الكرام! وشاة مطبوخة للقوم الصالحين الذين تولوا تجهيزه ودفنه.

وهكذا يمضي صحابي جليل على خطى إخوانه الكرام نسخاً قرآنية تمشي على الأرض، لا انحراف ولا شذوذ ولا غرابة ولا نكارة. ركب كريم أصحاب رسول كريم.

لكن طائفة من الناس أرادوا أن يبهتوا تاريخ الصحابي الجليل، ضمن ما افتأتوا وزوروا من تاريخ بقية الصحابة، مكذبين قول الله عز وجل في وصفه صحابة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فاخترعوا تصاوير شوهاء لشخصيات أسموها زوراً وبهتاناً وإفكاً على أسماء الصحابة الكرام. فجاء الجزء الثالث من الكتاب يفضح تزوير هؤلاء المزورين ويثبت للقارىء نصوصاً مما كتب هؤلاء تاركاً للقارىء أن يحكم على هؤلاء ويقارن نصوصهم مع بعضها ليرى كيف يجري التزوير هكذا جهاراً في رابعة النهار بلا حياء ولا خجل. حيث يستجهل هؤلاء المزورون عامة القراء فيعيثون في تاريخ الأمة فساداً قاصدين إلى قطع صلات الحب والتقدير بين أجيال الأمة اللاحقين وبين بناة أمجاد الأمة من السابقين.

نتيجة

أما المزورون فقد كذبوا في كل ما أشاعوا وألّفوا وزوّروا بهتاناً وإفكاً. يكذّبون الله ورسوله وثقات المسلمين..

كان أبو ذر رضي الله عنه نسخة من نسخ الصحابة حنيفاً مسلماً آمن بالله رباً واحداً وأن محمداً رسول من عند الله، دعا إلى عقيدة الحق لا إله إلا الله، ورضي - رضي الله عنه - بما ينبثق عن هذه العقيدة من شريعة وأحكام، وأوقف على هذا الإيمان والالتزام بما يقتضيه حياته كلها، فانطلق بعد شهادة الحق مباشرة للقيام بأعباء الدعوة إلى الله، فآمنت أمه وأخوه ونصف قبيلة غفار، ثم هاجر إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتعلم العلم ويستنفر للجهاد. واستمر على هذا الإيمان والالتزام فمضى إلى أرض الجهاد في الشام بعد خروجه من مصر لعلامة رآها فيها، وغزا قبرس مع من غزاها واستمر بصدق لهجته يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعلم الناس السنن، لا يخشى في الله لومة لائم، ولم يختلف في فكره عن باقي إخوانه من الصحابة الكرام تلاميذ محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولا في أسلوب حياته عن بيئتهم التي التزم كل واحد منهم فيها بحياة زهدٍ يرغب فيه عن الدنيا ويرنو ببصره إلى ما عند الله في الآخرة.

ولم يكن رضي الله عنه فقيراً ولا محتاجاً ولا ثائراً ولا شاذاً ولا منحرفاً، إنما ألزم نفسه بما لم يلزم غيره به، وندب بقية المسلمين إلى الارتفاع إليه.

وعاش رضي الله عنه حريصاً على وحدة الأمة وطاعة ولي الأمر من المسلمين، متعصباً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، متشدداً في الالتزام بأحكام الإسلام وتعاليمه.

وعاش رضي الله عنه حبيباً لإخوانه الصحابة الكرام أثيراً عندهم يحبهم ويحبونه ويحترمهم ويحترمونه، وكانوا جميعاً ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ لا تأخذهم في الحق لومة لائم، كما وصفهم ربهم سبحانه.. ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (سورة الفتح: ٢٩) وكان رأساً في العلم والزهد، على حدّة فيه.

عاش غنياً بغنى الله، وكان عطاؤه أربعة آلاف لكنه كان ينفقه يميناً ويساراً في سبيل الله لا يدخر ذهباً ولا فضة فهو عنده كنز محرم مهما قل. وزهد في المطعم والملبس والمسكن وأثاثه وفي المال والجاه كلها جميعاً.

واعتزل الناس ائتماراً بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ رأى البناء في أصل سلع، وعاش في الربذة عزيزاً كريماً إلى أن توفته رسل الله من الملائكة وحيداً تحقيقاً لنبوءة النبي «يموت وحده» عندما خرجت بنته لاستقبال ركب القوم الصالحين الذين تولوا تجهيزه ودفنه لتحقيق النبوءة الثانية، فأقرى أبو ذر ملائكة الرحمن الذين شهدوا موته ريح مسك ادخره من أجل هذا اليوم، وأقرى مجهزيه من البشر بعد موته شاة مطبوخة مجهزة أمر بإعدادها قبل موته بلحظات.

أما المزورون فقد كذبوا في كل ما أشاعوا وألفوا زوراً وبهتاناً وإفكاً. يكذِّبون الله ورسولَه وثقات المسلمين.

وصدق الله العظيم، وصدق رسول الكريم، ونحن على ذلك من الشاهدين، ولعنة الله على الكاذبين.

وَصِيَّة

إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمّن تأخذون دينكم.

تُدوي أصداء الكلمة التي أطلقها التابعي محمد بن سيرين في جنبات التاريخ محددة منهاج التلقي لأحكام الإسلام وقصص التاريخ الإسلامي، وتكون قاعدة ذهبية لو سار عليها المسلمون لنجوا من أحابيل السبئية وتشبيهاتها؛ إذ يقول رحمه الله: «إن هذا العلم دين فانظروا عَمّن تأخذون دينكم» فلا يجوز قبول قصص التاريخ ورواياته إلا ممن يجتاز قنطرة التوثيق تعديلاً بعد جروح. فيجب أن يكون سند القصة التاريخية سند ثقات يتصل أوله بآخره، فكما لا تقبل شهادة الفاسق والكذاب في المحاكم الإسلامية، فكذلك لا يجوز رواية الفاسق والكذاب والوضاع، فضلاً عن رواية كافر بهذا الدين مبين!.

ولله در القاعدة الأصولية التي التزم بها علماؤنا من ثقات هذه الأمة حيث قالوا: «إذا كنت ناقلاً فالصحة أو مدعياً فالدليل».

لقد التزم أوائلنا بهاتين القاعدتين فخرج على البشرية علم من علوم المسلمين، لم تتطاول إليه أنظار أمة من أمم الأرض إلا بالتبجيل والاحترام والتقدير، ألا وهو علم مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل حيث قدم ميزاناً دقيقاً غربل فيه أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وسلم الأمة ـ من بعد ـ مادة الحديث مصنفة مبوبة، يستقي أهل العلم من معينها الذي لا ينضب.

لكن التاريخ ورواياته. . تدخل فيه الحزب الباطني عدو هـذه الأمة الربانية بالدس والافتراء والتزوير، واستطاع تعميم ما شاء من الكذب والتزوير عن أمناء ديننا من الصحابة الكرام، وعن مجمل تاريخ الأمة الإسلامية فضلل الكثير الكثير من العامة ـ كلما شاع الجهل ـ كما أوقع بعض العلماء ـ ممن لم يهتموا بتمحيص قصص التاريخ ـ في أحابيل تزوير الحزب الباطني لتاريخ المسلمين.

فحبذا لو انتدب من عنده العلم والإمكانية لتأليف بحث عن «الإعلام الباطني في التاريخ الإسلامي» فهو أمر ذو فائدة وخير وثواب عند الله إن شاء الله.

وحبذا لو يؤلف بحث عن «منهاج تلقي الخبر عند المسلم» تعرض فيه مبادىء المنهج ـ مع الدليل ـ بأسلوب يجعل المسلم العادي يفرق بين من يجوز الأخذ عنه وبين من ترد روايته ونقله، كما تعرض فيه مبادىء جرح الرواية التاريخية وتعديلها متناً أيضاً فما خالف مبادىء الحق هذه جُرح وَرُدَّ، وما وافقها نُظر في سنده.

وهذا المؤلَّف المطلوب موضوع علم أو بحث لما تزل الأمة بحاجة إلى من يقدمه لعامتها وخاصتها بأسلوب يشيع ويشبع أيضاً «فمنهاج تلقي الخبر عند المسلم» ثغر من ثغور عقيدة المسلم والتزامه بالشريعة المنقولة عن طرق أمناء الدين من الصحابة والتابعين والعلماء الربانيين. . . ولقد أُتي من هذه الثغرة الكثير الكثير من عامة المسلمين وخاصتهم فرحم الله عالماً همَّ بسد هذه الثغرة وأعانه على السعي لها سعيها، وجزى الله عالماً استطاع سدها وأشاع بين العامة والخاصة وعلّمهم «منهاج تلقي الخبر عند المسلم».

فهما بحثان في التاريخ يؤديان إلى تخلية وتحلية.

فالحديث عن «الإعلام الباطني في التاريخ الإسلامي» يؤدي إن قدر الله

خروجه إلى تفتح أذهان من يتعلم المسألة رفض نتائج هذا الإعلام الباطني، أو على الأقل إلى الحذر والتوجس والشك فيه بعد معرفة أسبابه وغاياته وشخصيات مشيعيه.

والحديث عن «منهاج تلقي الخبر عند المسلم» يؤدي بعون الله إلى تحلية أذهان المسلمين بمنهج عقلي إسلامي يتلقون بواسطته قصص الحق من تاريخهم فيقْوَوْن على الاعتبار منه واستلهام ما يريده الله منهم عند دس التاريخ.

كما أن هناك ضرورة لإشاعة كتاب ثالث يفصل «ما هو معروف من الدين بالضرورة» حيث يعرف العامة والخاصة - في أيام الجهل والتجهيل التي تسود شعوبنا هذه الأيام - ما هي الفواصل بين المؤمن والكافر، وما هي منافذ الخروج من الإسلام في إنكار ما يعتبر إنكاره خروجاً من هذا الدين. فلقد عظم الخطب بعد أن فشا الجهل بين عامة المسلمين، ووصل الكثير منهم إلى درجة لا يفرق فيها بين الإسلام والكفر، ولا بين أمر الله وأهواء البشر، وأفشى الباطنية بينهم أوبئة شتى جعلت الكثير من المسلمين يحاول تفسير آيات الله وأحكام الإسلام بهوى نفسه - مع ادعائه وإصراره على الادعاء بالالتزام بالإسلام ديناً - غير عابىء بما ينجم عن مثل هذه الفوضى الفكرية من خطر وضرر على عقيدته بادىء ذي بدء، وعلى وحدة الأمة والتزامها بأصول واحدة ثابتة لا تتزعزع ولا تشتت ثانياً.

لقد أدى غياب بحث «الإعلام الباطني في التاريخ الإسلامي» إلى اضطراب مفهوم المسلم عن حقيقة ما حدث، وما قام به أمناء الأمة مما أدى بالتالي إلى زعزعة صلة اللاحقين بالسابقين.

وأدى غياب «منهاج تلقي الخبر عند المسلم» إلى قبول المسلم العصري أي خبر من أي أحد.. طالما أن أسلوب العرض شيِّق، أو أن اسم العارض مشهور ذو بريق.

وأدى غياب «ما هو معروف من الدين بالضرورة» إلى قبول المسلم العصري أية فكرة أو رأي وتسميته اجتهاداً في الدين بمجرد إعلان «المجتهدين الأدعياء» شهادة تخولهم الحصول على مركز اجتماعي عال بين العامة. كشهادة طبيب مثلاً أو أية «دكتوراه في أي مجال من مجالات العلوم الأخرى الزراعية منها أو الصناعية، أو العسكرية، أو الاقتصادية أو حتى في فنون الرسم والنحت والرياضة البدنية»!.

إن تخصص كل هؤلاء يؤدي بهم إلى فهم مجال تخصصهم وتعمقهم فيه، ولكل واحد منهم أن يكون مسلماً أيضاً، ولكل منهم أن يفهم أو يرى رأياً في أية مسألة إسلامية شريطة ألا تخالف بحال من الأحوال ما هو معلوم من الدين بالضرورة وإلا أخرج الفهمُ أو الرأيُ المخالفَ عن الإسلام مباشرة. وكفى!.

والوصية الأخيرة نطلقها ورحم الله من جعل الحكمة ضالته أنى وجدها التقطها.

ففي العصر الذي وصلت فيه البشرية - بعلومها التجريبية - إلى القمر والزهرة والمريخ.. وأُسقطت كلمة «العلم» و «العلمية» على كل نتاج خرج عن قوم وصل روادهم إلى القمر والزهرة والمريخ.. حتى وصل الأمر أيضاً إلى إسقاط كلمة «العلم» و «العلمية» على قصص هؤلاء القوم، وأساطيرهم وخرافاتهم فأصبحت «تاريخياً علمياً» بل لقد أصبح «كلُّ» ما يكتبه هؤلاء عن «النفس» و «الاجتماع» و «الاقتصاد» أصبح «علمياً» إن هو جاء من الغرب، حتى ولو ظهر فيه الخطأ البين أو الكذب الصراح، أو البهتان المفضوح.

مع كل هذا الانبهار أمام معطيات القوم الذين وصل بعض روادهم إلى القمر والزهرة والمريخ، أخذ كثير من أبناء أمتنا يقبلون نتائج هؤلاء القوم دون نقاش ولا تمحيص، سواء جاء هذا النتاج من علماء القوم أو من سفلتهم وشواذهم ومهووسيهم - فلا يفرق المنبهرين بين عالم القوم وجاهلهم، ولا بين العاقل منهم ومجنونهم.

ومع الانبهار أمام أسماء مؤلفي كتب قديمة - أو جديدة - استقرت في مكتبات من مكتبات بلادنا وأخذت ركناً ركيناً منها، وحصلت على تقدير من ضمير القارىء لهذه الأسماء التي تردد على إيقاع وموسيقى وطنين آسر، كالمسعودي، والمقريزي، واليعقوبي، والأصفهاني... من الأقدمين.

وكذلك الأستاذ الإمام، والإمام الأكبر، وحكيم الشرق، وأستاذ الجيل، وعميد الأدب، من المحدثين.

وكذلك سوريال، وجورجي، وسلامة، ومارجليوث، وماسينسيون، وبندلي جوزي، وحِتّي، وزويمر، وجولدزهير، وروبنسون. من النصارى واليهود.

ومع كل هذه الانبهارات وضغوطها.. كان - لا بد - لنا أن نطلق هذه الصيحة.. في هذا الكتاب.. نصيحة.

فنضّر الله وجه امرىء سمع نصيحة مشفق فوعاها
والحمد لله رب العالمين

* * *

ثبت المصادر

المصادر المعتمدة:

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، **أسد الغابة** (المطبعة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ).
- ابن الأثير، المبارك بن محمد بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر** (المطبعة العثمانية بسوق الزلط، مصر، ط ١٣١١ هـ).
- الأسدأبادي، أبو الحسن عبد الجبار، **المغني في أبواب التوحيد والعدل** (الدار المصرية للتأليف والنشر).
- الإسفرييني، أبو المظفر عماد الدين شاهفور بن طاهر بن محمد، **التبصير في الدين** (مطبعة الأنوار، مصر، ط ١٩٤٠).
- الأصبهاني، أبو نعيم، **حلية الأولياء** (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان).
- البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح** (دار إحياء التراث العربي، بيروت، النسخة المصورة عن النسخة السلطانية).
- البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب، **تاريخ بغداد** (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان).
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر التميمي، **أصول الدين** (مطبعة الدولة، استانبول، ط ١، ١٩٢٨ م).
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر التميمي، **الفرق بين الفرق** (مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، ميدان الأزهر بمصر).
- البلاذري، أحمد بن يحيى، **أنساب الأشراف** (دار المعارف بمصر).
- البنا أحمد عبد الرحمن، **الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**. (الطبعة الأولى).

- البيانوني، أحمد عز الدين، **شؤم المعصية وبركة التقوى** (مكتبة الهدى، حول القلعة، حلب، سورية).
- ابن تيمية، تقي الدين، **منهاج السنّة** (روائع التراث العربي، مكتبة خياط، شارع بلس، بيروت، لبنان).
- ابن الجوزي، عبد الرحمن، **القرامطة** (المكتب الإسلامي، ط ١٩٧٠).
- الحربي، أبو إسحق، **المناسك وطرق الحج** (تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩).
- حسين، محمد محمد، **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر** (مكتبة الأداب ومطبعتها بالجماميز، مصر، ط ٢، ١٣٨٢ هـ).
- الحلبي، علي بن عبد الوهاب، **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر).
- الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**. (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان).
- ابن حنبل، أحمد، **كتاب الزهد** (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان).
- ابن حنبل، أحمد **المسند** (المطبعة الميمنية، مصر، طه ١٣١٣ هـ).
- الخطيب، محب الدين، **الخطوط العريضة** (مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط ١٤٠٠ هـ).
- الخطيب، محب الدين، **مع الرعيل الأول** (مكتبة أسامة بن زيد، بيروت).
- الدميري، كمال الدين، **حياة الحيوان الكبرى** (دار القاموس الحديث للطباعة والنشر، بيروت).
- الديلمي، محمد بن الحسن، **بيان بطلان عقائد الباطنية** (إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان).
- الذهبي، شمس الدين، **سير أعلام النبلاء** (دار المعارف بمصر).
- الزعبي، محمد عفيف، **مختصر سيرة ابن هشام** (مكتبة المعرفة، حمص، سورية، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ط ٢).
- ابن سعد، محمد، **الطبقات الكبرى** (دار صادر، بيروت، لبنان، ط ١٣٧٦ هـ، ١٩٥٧ م).

- ابن سيد الناس، فتح الدين محمد بن محمد بن محمد، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** (دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١٩٧٧ م).
- السيوطي، جلال الدين، **تاريخ الخلفاء** (المكتبة التجارية الكبرى، شارع محمد علي بمصر، ط ٤، ١٩٦٤).
- السيوطي، جلال الدين، **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي** (دار الكتب الحديثة، ١١ شارع الجمهورية بعابدين،مصر ط ١٩٦٦).
- شديد، محمد، **منهج القرآن في التربية** (مكتبة وهبة، ١٤ شارع الجمهورية بعابدين، مصر).
- الشهرستاني، أبو الفتح عبد الكريم، **الملل والنحل** (مكتبة المثنى، بغداد).
- صبري، مصطفى، **موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين** (دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١٩٥٠).
- الطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير** (الطبعة الثانية، تصوير مصر).
- الطبري، أبو جعفر أحمد المحب. **الرياض النضرة في مناقب العشرة** (المكتبة الإسلامية، بطنطا، مصر ط ٢).
- الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الأمم والملوك** (المكتبة التجارية الكبرى، أول شارع محمد علي بمصر، ط ١٩٣٩).
- الظاهري، علي بن حزم، **الفصل في الملل والأهواء والنحل** (مكتبة المثنى، بغداد).
- ظهير، إحسان إلهي، **الشيعة والسنّة** (إدارة ترجمان السنة، ٧ أيبك رود، لاهور، باكستان، ط ٣).
- الحسيني، عبد الله، **الجذور التاريخية للنصيرية العلوية** (دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١٩٨٠ م).
- عرجون، محمد الصادق، **التصوف في الإسلام** (الطبعة الأولى).
- عرجون، محمد الصادق، **الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفان** (الدار القومية للطباعة والنشر، ١٥٧ شارع عبيد، روضة فرب، مصر).

- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة** (مطبعة السعادة بجوار).
- أبو العلا، علي، **دراسات في علوم الحديث** (دار الطباعة المحمدية، ٣ درب الأتراك بالأزهر، ط ١٩٧٩ م).
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد، **فضائح الباطنية** (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة).
- الفيروزأبادي، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب، **المغانم المطابة في معالم طابة** (تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط ١٣٨٩ هـ).
- القرطبي، ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، (مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ١٣٢٨ هـ).
- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن** (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ط ١٩٦٧ م، عن طبعة دار الكتب المصرية).
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين، **تحفة المودود في أحكام المولود** (المطبعة الهندية العربية، ٢٩ شارع محمد علي بمباي، الهند ط ١٩٦١).
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين، **زاد المعاد في هدي خير العباد** (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ١٩٧٠).
- ابن كثير، أبو الفداء، **البداية والنهاية** (مكتبة المعارض، شارع الأمير أمين، بيروت، لبنان، ط ١٩٧٤ م).
- ابن كثير، إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم** (دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، وشركاه).
- كحالة، عمر رضا، **معجم قبائل العرب** (دار مكتبة الأندلس، بنغازي ليبيا، ط ١٩٦٨).
- محمود، عبد الحليم، **أبو ذر الغفاري والشيوعية** (دار المعارف بمصر).
- المروزي، عبدالله بن المبارك، **كتاب الزهد والرقائق** (مؤسسة الرسالة، بيروت).

- الندوي الظاهري، تقي الدين، **علم رجال الحديث** (المكتبة الإمدادية، باب العمرة، مكة).
- النيسابوري، مسلم القشيري، **صحيح مسلم** (دار إحياء التراث العربي، بيروت).
- الهيثمي، علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** (مؤسسة المعارف، بيروت).
- اليماني، محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي، **كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة** (مطبعة الأنوار، ط ١، ١٩٣٩ م).

مصادر أخرى:

- حسين، طاها، **الفتنة الكبرى**، عثمان (دار المعارف بمصر، ١٩٦٢).
- حسين، طاها، **على هامش السيرة** (دار المعارف بمصر، الطبعة العشرون).
- خالد، خالد محمد، **أبو ذر الغفاري** (طبعة الناشئة، دار ثابت، مصر).
- خالد، خالد محمد، **رجال حول الرسول**. (دار الكتاب العربي، بيروت).
- السحار، عبد الحميد جودة، **أبو ذر الغفاري** (مكتبة مصر ومطبعتها، ٦٣ شارع الفجالة، مصر، ط ١٩٤٣).
- الشكعة، مصطفى، إسلام بلا مذاهب.
- العاملي، محسن الأمين، **أعيان الشيعة** (مطبعة الإنصاف و ط ١٩٦٣، ج ١٦).
- العرب، نوابغ، **أبو ذر الغفاري** (دار العودة، بيروت).
- عزام، صلاح، **أبو ذر الغفاري** (الدار القومية للطباعة والنشر مصر، ط ١٩٦٦).
- قلعجي، قدري، **أبو ذر الغفاري** (دار العلم للملايين، لبنان، ط ١٩٥٢).
- المسعودي، علي بن الحسين، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١٩٢٨).
- ناصر الدين، علي، **أبو ذر الغفاري** (دار الحكمة، بيروت الطبعة الأولى).
- ناصر الدين، علي، أبو ذر الغفاري (دار مكتبة الحياة، بيروت الطبعة الثانية).


النادي الشبابي



المحتويات


شباب
النادي الشبابي